طبع بأمر من صاحب الجلالة أمير المؤمنين الحسن الثاني نصره الله

المملكة المغربية
وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية

الماء

في الفكر الإسلامي والأدب العربي

تأليف
الأستاذ محمد بن عبد العزيز بنعبد الله

الجزء الأول

1417هـ - 1996م

طبع بأمر من صاحب الجلالة أمير المؤمنين الحسن الثاني نصره الله

المملكة المغربية
وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية

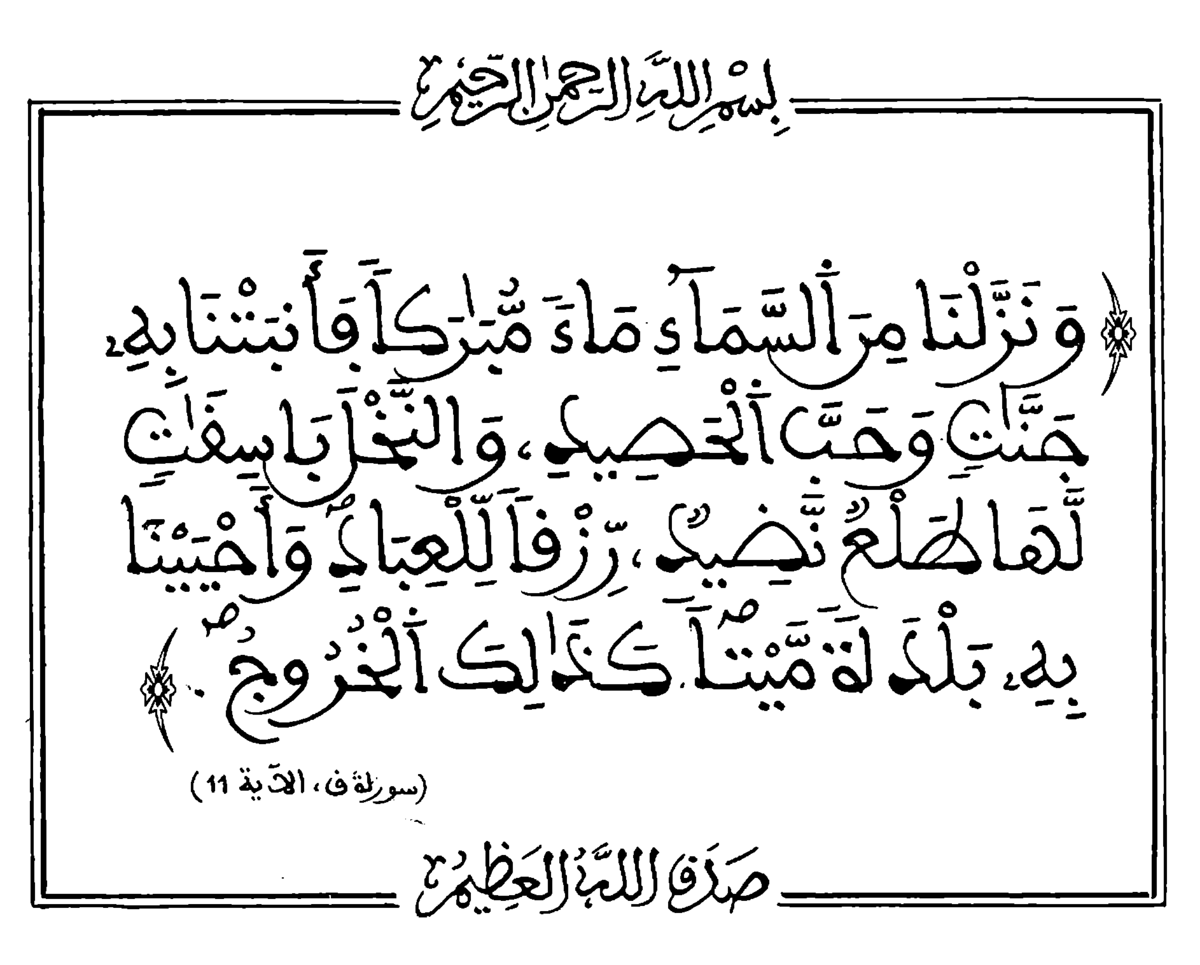
الماء

في الفكر الإسلامي والأدب العربي

تأليف
الأستاذ محمد بن عبد العزيز بنعبد الله

الجزء الأول

1417هـ ـ 1996م


بسم الله الرحمن الرحيم
﴿ونزلنا من السماء ماء مباركا فأنبتنا به
جنات وحب الحصيد، والنخل باسقات
لها طلع نضيد، رزقا للعباد وأحيينا
به بلدة ميتا كذلك الخروج﴾
(سورة ق، الآية 11)
صدق الله العظيم

تقديم

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد النبي المصطفى الأمين.

وبعد، فإن موضوع الماء يعتبر من أجل وأهم الموضوعات الجديرة بالبحث والعناية والإحاطة والتناول والدراسة، باعتباره مورداً طبيعياً أساسياً للحياة، ومادة ضرورية ترتكز عليها الحياة الإنسانية، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿**وجعلنا من الماء كل شيء حي**﴾، كما أنه مورد هام يتميز توفره بعدم الانتظام في الزمان والمكان، وهو بالإضافة إلى ذلك شديد التأثر بالتقلبات المناخية وبالانعكاسات السلبية للأنشطة البشرية.

وعلى غرار مختلف الثقافات والأدبيات الإنسانية اهتم علماء الإسلام بهذا الموضوع، فبحثوا فيه واعتنوا به غاية الاعتناء، وأوردوا في تآليفهم وتصانيفهم كل ما جاء فيه من آيات قرآنية وأحاديث نبوية شريفة، ونصوص قانونية شرعية وعرفية، واجتهادات علمية شخصية. فتشكلت من هذه الحصيلة المعرفية المتنوعة ثقافة مائية متميزة قائمة الذات.

ومنذ شاءت العناية الربانية أن يصير أمر الأمة المغربية إلى الأسرة العلوية الشريفة والأرومة الهاشمية المنيفة، وملوك الدولة العلوية الأماجد العظام يولون فائق العناية والاهتمام على مر الحقب والأزمان بتنظيم توزيع الموارد المائية، ومراقبة استعمالها، وضمان حمايتها، والحفاظ عليها، لإقرار سياسة مائية وطنية، مبنية على نظرة مستقبلية، تأخذ بعين الاعتبار تطور الموارد المائية، وتراعي الاحتياجات الوطنية وترشيد استعمال المياه، وتعميم الاستفادة منها في إطار برنامج وطني يهدف إلى تحقيق الأمن المائي على مستوى التراب الوطني، وتلكم من معالم السياسة الحسنية الرشيدة الرامية إلى نشر ألوية الأمن المائي، وتحقيق الاستقرار الاجتماعي والرخاء الاقتصادي، تثبيتاً لدعائم الدولة، وتشييداً لصرح المغرب الشامخ.

وإبرازاً لأهمية الموضوع، ولحاجته الملحة إلى الجمع والتقصي، والتخطيط والبناء والتوثيق، والدراسة والتحليل، والكشف عن جوانبه العلمية المتعددة اهتدى الأستاذ الباحث محمد بن عبد العزيز بنعبد الله إلى إعداد هذه الدراسة الجديدة في بابها القيمة في موضوعها، ووسمها بعنوان : «**الماء في الفكر الإسلامي والأدب العربي**».

وانطلاقاً من الرسالة الدينية والعلمية لوزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية وحرصها الأكيد على تنويع منشوراتها.

يسعد هذه الوزارة أن تقوم بطبع هذا العمل العلمي الهام لتيسير تداوله، والانتفاع بما احتواه في أبوابه وفصوله ومباحثه من حقائق علمية جديرة بالعناية والدراسة حول مادة الماء، ومكانتها في الثقافة

والفكـــر الإســـلاميين، إلى غير ذلك مــن الإفــادات العلميـــة التي سيجدها القارئ الكريم في ثنايا هذا المؤلف المفيد.

ونسأل الله عز وجــل أن يجعله في سجل الأعمال الصالحة والمبرات الكريمــة لمولانا أمير المؤمنين جــلالة الملك الحســن الثاني دام لــه العز والتمكين، وأن يقــر عين جــلالتــه بــولي عهــده الأمير الجليل سيــدي محمد، وصنــوه صاحب السمــو الملكي الأمير السعيد مــولاي رشيد، ويحفظه في سائر أسرته الملكية الشريفة.

إنه نعم المولى ونعم النصير.

وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية
الدكتور عبد الكبير العلوي المدغري

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الكتاب

هل للماء ثقافة ذات خصوصيات، وَسِمَاتٍ وشِيّات، توفّر له دراساتٍ وأبحاثا ومصنفات، تمتاز بفضاء مَعْرِفي له موضوعات حية متجددة في علاقة الإنسان والأرض، بالماء؟..

ولماذا لا يكون «للماء ثقافة» متميزة، قائمة الذات، وهو سرُّ الوجود، ومَنَآد الحياة، ومعجزة الطبيعة، وميدانُها الرحيب الذي زخرت سُوحُه، قديما، بعلماء نابهين، اهتموا بدراسَةِ هذه المادة، وكانت لهم، بها، قَدَمٌ فَارِعَةٌ في «ثقافة الماء»، فخلفوا لنا ثروة رَائدة، تمثلت فيما تركوه من آثار، وألفوا من كتب، وصنفوا من دراسات، ونشروا من أبحاث، ومازال ذلك الأثر حيا باقيا إلى يوم الناس هذا، وإلى يوم التِناد، يشهد لهم بالفلج والتفوق.

وليس الأدب العربي في هذا الميدان، فقيراً أو أقلّ صلاحاً للبقاء، واستحقاقاً للعناية الخِصبة، والدرس المنتج، من الآداب الأجنبية مهما تكن، في دراسة الماء.

وعلى الرغم من تلك الثروة، الفكرية والعلمية الممثلة في «الثقافة المائية» – إن صح هذا التعبير – التي تحدث عنها القرآن في إسهاب، وأشاد بها الأدب العربي في استفاضَة وإطناب، وترك تراثَها الآباءُ والأجداد في كتبهم الطبيعية والشرعية، فإننا، اليوم، نتهيبُ، تناولَ هذا الموضوع، والإقدامَ على ممارسة دراستِه، وهو الذي تعتبر مادته أعزَّ مفقود، وأَهْوَنَ مَوْجُود، مما جعل الطبقةَ المثقفة تُحجم عن الحديث عنه، والإقبال عليه، فلا يخلقون له ثقافة واعدة، موضوعها: الماء...

ولعل السبب، أيضا، في هذا الإعراض، اليوم، لإحداث وتجديدِ «ثقافة مائية»، يعود إلى أَن الماء بطبيعته يتميز بتناقض خَلَّاب، من حيثُ إنه أَقربُ المواد إلى المألوف، وأبعدها عن المألوف، فهو أقرب إلى المألوف، لأنه موفورٌ وشائع،

وهو أبعدُ عن المألوف، لأن صفاتِه وخواصَّه ومميزاتِه غريبة ونادرة وفريدة في بعض الأحيان...

إن هناك قلةً من العلماء والأدباء، تحدثوا عن الماء باعتباره عنصراً ضروريا للحياة، إذ لا يَكَادُون يتحدثون عنه، ويُقبلون عليه، حتى يشعروا بفقده وغيابه، ونُضُوبه وانعدامه، وهم بالتالي لم يضعوا له إطاراً علميا ضمن أنْسَاق الثقافة العامة، تخلد تراثاً حضاريا لهذه المادة التي هي عنصر الحياة...

* * *

فإلى أي حد تحدثوا عن هذا البحر المائي الذي يشغل حيزا كبيراً من «كرتنا المائية»؟ كم تحدث عنه العلماء والأدباء، فأشادوا بنعمه وآلائه، وثرواته ومخزونه، وألفوا فيه الكتب والمصنفات استمداداً من كتابهم المقدس الذي تناوله في غير ما مناسبة، وبلغتهم العربية الراقية، مع أنه ما كان للغة في دنيانا هذه، أن احتفلت بنعمة الماء، احتفال لغة التنزيل بها..؟

وما كان لأدب مما يضطرب فيه الناس، في عالمنا، أن تُشرِقَ فيه صفحاتٌ مباركة، على ما أشرقت الصُّوَر الوضيئة في الآيات الكريمة، في إكبارها للرحمة مُصَوَّرةً... في الماء...

ويقرر دارسوا اللغاتِ السامية، أن اللغة العربية، من أرقى لغات العالم، وأهلها يملكون «ثقافة مائية» تتجلى في وفرة المادة اللغوية في هذا الباب ولهذه الثقافة.

* * *

إن حضارتنا حضارة ماء... وهل هناك حضارة بلا ماء، إذ لا تتصور حضارة، بالتالي بدون ماء...

إن توفر الماء العذب الشروب شرط أساسي لأي تجمع بشري عمراني، والحاجة إليه تصبح أشدّ، مع زيادة حجم التجمعات الممثلة في كثافة السكان، واستبحار العمران، وتطور الحياة، ونُمُوِّ الحضارة والبنيان...

وليس ثمت شك في أن الحضارات التي بقيت في ذاكرة التاريخ، وخلّدها في أنصع صفحاته، هِيَّ الحضارات التي اهتمت بالإنسان، فكراً وصحةً ومعاشاً، ولعل الأوابد الأثرية الباقية إلى يومنا هذا من حضارات، هي تلك التي تشير إلى

أن الاهتمام الكبيـر لَدَى مَن بنوا تلك الحضـارات، كان منصَبّـا على تأمين حياة رغدة للإنسان من خلال توفير المرافق العامة...

إن الحضارة البشرية انحصرت في الأماكن التي توجد فيها الجعافر والحمى والعيون والآبار، ولهذا السبب انحصرت الزراعة في الأماكن التي توجد فيها هذه الموارد المائية...

* * *

إن نقصـان الماء يُضعفُ الـرابطة مـا بين الإنسان والأَرض، وبين الإنسـان والإنسان، وبـالتالي، فهو يُضْعِفُ الاستقرار والتمـاسك الاجتماعي، وفي الأصل، فإن المجتمعات الإنسانية الأولى نشأت على ضفاف الأنهار والبحيرات، ولم تكن حضارتها سوى حضارة الزراعة... أي حضارة الأرض والماء...

* * *

لقد كان الشاعر العربي الجاهلي في شدة لهفته على الماء، وتأمله له ولآثاره في بـلاده، يعكس نفسيـة العربي فـي صحراء شبـه الجـزيرة العـربيـة... ذلك الإنسان الذي كان في شوق مقيم، وهُيَـام دائم إلى الماء، فنجده يكافح وينافح، وينـاضل ويجـالـد من أجل قطـرة المـاء ينقع بهـا الغلـة، ويَشْفي الأُوَام، وَيَبَلُّ الصدى... يلاحقها أينما وُجدت، ويتبعها أينما حَلَّت، فهو في تَرْحَالٍ دائم، وَتَنَقُّلٍ مستمِـر، عينُه معلقـةٌ في السماء، يتتبع مـواقع القَطْـر، ويَتَسَقَّطُ مواطن المـاء، ويراقِبِ حركـة السحاب، وهو لا يتبعُه بعينه وجسمِـه فحسب، وإنما يخفُقُ له قلبُـه خفْق المحِبّ الوَلْهـان، فكان يشعـر بـالغبطة والـرضى، والسعادة تغمـره عندما يتأمل المطـر نازلا، بغزارة من السماء، أو متدافعـاً على وجه الأرض، مما يعقبه الربيـع الريّان، الذي جعله اللـه نشوراً للحياة، ومتعةً للحـيّ، وانتعاشاً للطبيعـة، وَمَعَـاداً للشبـاب، ومَبْعَثـاً للحب، يهـز الأرض هـزّا، فتـربـوا وتهتـز وتختلج، وتنبت من كل زوج بهيج...

فكم من غارة شنَّت، ونار حـرب شَبّتْ، من أجـل غـديـر، أو اغتصاب بئر، إذ كانت الآبار ثروة ورأس مال كبير في المجتمعات الإنسانية الأولى، تحي الأرض

وتميتهـا، وتفني الناس وتُنعشهم، فمن يملِكُ المـاء، يملك مَـالاً بِقَدْر سَعَـة تلك البير، ومقدار ناتجها من الماء...

وقد أنتـج الشاعر الجـاهلي أجمل النماذج الشعـرية في وصف المـاء، وفي أحواله المختلفة، وكان أدق ملاحظة، وأكثر تنبها، إلى أسرار الجمال والجلال في الطبيعة الأنيقة، ومن أهم ظواهرها، الماء...

فالشـاعر الجاهلي كـان ملتحما مع طبيعة بلاده، دائم المـلاحظة لدقـائقها، ومن هُنَا كـان العربي البسيط يبدو تعلقُـه الواضحُ بـالماء في لغته وأسـاليبه وأمثاله وقصصه الشعبية...

* * *

والمـاء كـان علـى الـدوام، واحـداً من أعظم مصـادر الإلهـام لشتى العلـوم والمعارف والفنون ولا سيمـا للهندسة العملية، كمـا أن جميع أنواع المهندسين، تقريبا، لا بُدَّ لهم أن يتناولوا جانبا أو آخر من جوانِب الماء...

فالمهندسون المدنيون، يقومون ببناء الجسور والقنوات.

والمهنـدسـون الميكـانِيكيـون يختصون أسـاسـاً، بعمليـات ضبط البخـار واستغلاله له لإنتاج الطاقة...

أمـا مهنـدســوا الكهـربـاء والـري، فيبـاشـــرون عمليـات ضبط الفيضـان والمشروعات الكهربائية المائية...

فتأمين موارد المياه، اليوم، من أهم القضـايا التي تشغل الحكومات وأوساط الأعمال والمُستهلكين، وهيآت حمـاية البِيئة في كافة أنحاء العـالم، وخاصة في المنطقة العربية التي تتصف بالجفاف وندرة المياه، وبظروف سياسية قاسية، قـد تـؤدي إلى نشوب صـراع حـولهـا، فتفادي الأزمـة في المجتمعـات، يتطلب تحسين إدارة الموارد المـائية، والمحافظـة على مصادرهـا، والمشكلة ليست في كمية المطر، وغزارة المياه، وإنما في ترشيد استعماله واستهلاكه، وبرمجة هذه الكمية والغـزارة... وعلى سبيل المثال، فإن السـاحل الإفريقي، وكما هـو معلوم، شَهِد فيما مضى جفافاً رهيبا، وفي أحيـان أخرى أمطاراً غزيرة، لا تَقِلُّ أضرارُها، وَضَرَاوَتُهَا بأية حال، عن ذلك الجفاف!.

* * *

وفي هـذا القرن، ظهـرت مشكلات عـديدة وخطيـرة، وأزمات مبـاغتة حـادَّة تمثلت في نـدرة الميـاه، ومشكلة الغـذاء، والإنفجـار السكانـي، وتلوث البيئـة، وتضخم المدن، وكلها مشـاكل باتت تهدد الإنسان، وتقلقـه في كل مكان، وتقض مضجعه، وتؤرقـه بعدما غفل، حينا من الـدهر، عن تأمين هذه المـادة الحيوية، فلم يشعر بمـا يخبئه المستقبل المفجع، مما يحتم عليـه أن يتخذ للأمر عُـدَّته، وأن يتمسـك ويلوذ «بالعواصم من القواصم».

فالامتـلاء النفسي والفكري والإرادي بقضيـة الماء يتطلـب وَعْياً متناهيـا في الحِذْق والفطنة. وحِسِّ التوَقُّع والتدبيـر...

* * *

إن الماء العذب الشروب سيصبح في القرن الـواحد والعشرين ثروة عالمية، وليست ثـروة وطنيـة، تتحكم فيهـا دولـة أو دول المنبع، وسـوف تفـرض دبلوماسية الكبار المائية، سياستهـا المائية والاجتماعية والاقتصادية على دول العالم، وسوف تستـوجب على دول أخرى انتهاج سياسات زراعيـة أو صناعية محددة على ضوء حصتها من الماء... وتلك هي الصورة التي تقدمها استراتيجية دبلومـاسية المـاء التي تخطط لها الـولايات المتحـدة منذ أواخـر الخمسينيات، والتي يدعمهـا النمو المتصاعد لتكنـولوجيات الأقمـار الصناعيـة، والاستشعار عن بُعْد...

* * *

لقد كان «حِسُّ التوقع» يخامر جلالة الملك الحسن الثاني، منذ أن تبوأ عرش أسلافه، فكان حفظه الله، دائم التيقظ، كامل الوعي، مُلْهَماً بِالصواب، وهو يوجه، في إيمان وحماس، وفي كل مناسبة، مهندسي المياه إلى الاهتمام بمصادر الماء، لأنه، حفظه الله، يعي بأن على هذا العنصر الحيـوي، وغزارتِه وجودتِه تتوقفُ صِحةُ الأجسام، وَرَفَاغَةُ العيش، وطيبُ الإقامة. وسبوغُ النعمة، ويُدرك بأن بلده تتوفر على مخزون هام من هذه المـادة، لو استغلت بترشيد وعقلانية في حسن استعمالـه لو فـر علينـا الكثيـر... فلئـن جـاز التَّبَلُّد تُجاه لقمة العيـش، فإنه

لا يحتمل، قَطُّ، تجاه الماء، إذ الحاجةُ إليه أَشَدّ، والصبرُ عنه أشَقّ، والعطش أخطرُ وأدهى من الجوع، بكل تاكيد. وكثيراً ما يموت الإنسان عطشاً، وقلما يموت جوعا!..

فمنذ عقدين ونيِّف قال حفظه الله :

«وكما قلت، فإن المغرب والولايات المتحدة، هما البلدان الوحيدان اللذان يتوفران على المعطيات العلمية حول الماء، فإذا لم نتخذ، من الآن، التدابير اللازمة، لاكتشاف الماء الذي لم نكتشِفْهُ بعد، ونقوم بتخزين الماء المتوفر لدينا، سواء كان جوفيا، أو سطحيا، ونبحث عن أحسن طريقة لاستعماله، فإن لم نفعل، فسنكون مجرمين إلى أقصى ما يمكن الإجرام، لأننا، ندرك أن أمامنا عشرين سنة للعثور على هذا الماء، وحتى نحافظ عليه، ونخزنه، ونستعمله أحسن استعمال، علماً منا، أن أمامنا عشرين سنة، يَجب أن نبدأً اليوم، إن لم نكن قد بدأنا أمس، مع العلم، أيضا، أننا سنصبح أربعين أو أزيد من أربعين مليون نسمة».

وبعد ذلك، أليس هو القائل، حفظه الله، في مناسبة أخرى: «لقد أعلنا تَحَدِّياً على الزمن، وعلى أنفسنا، وقرَّرنا أن نحقق سقي المليون هكتار».

* * *

إن نَشاط المسلم يرتبط حول الماء بالدين الإسلامي بمبادئه وقيمه ومثله، سواء من حيث اتخاذُ هذا المصدر الحيوي، سبيلاً إلى التقرب إلى الله بإغاثة اللَّهَافَى، وتيسير سُبُله لهم، أو اتخاذ الماء مصدراً من مصادر التفكر العقلي في قدرة الباري، واتصال ذلك بالإيمان بإلاهٍ عظيم، يُدَبِّرُ الأمر، ويُسَيِّر الكون، ويسخر مصادر الطبيعة، أو في النظم والقواعد الشرعية التي سنَّتْها الشريعة الإسلامية من أجل المحافظة على الماء، وجعل ملكيته عامة مُشَاعة يشترك فيها الجميع.

* * *

وللأهمية العظمى التي لعنصر الماء، في مادة الحياة، وتكوين الكائنات الحية، ولِلَفْتِ نظر المومنين لأهمية هذا العنصر في سنن الكون، فقد ورد في

القرآن الكريم في نحو ثلاث وستين آية، وردت في صِيَغٍ مختلفة، وصور رائعة، وكلها تندرج في إطار مَا امْتَنَّ به الحق، سبحـانه وتعالى على عباده وخلقه من نعم وآلاء...

وترتبط معظمُ هذه الآيات بين تنزيل الماء من السماء، واستمرار الحياة على الأرض، وازدهارها، مما يجعل منه نعمة كبرى للحضارة البشرية، يمتن الله بها على عباده، ويدعوهم إلى تأملها...

فالقـرآن يستلفت أنظار المومنين إلى مظاهـر الكون في العالم البيـولوجي، فيذكر أن كل شيء خلق من ماء...

وعلماء الإسـلام، اهتموا «بالثقـافة المائيـة» وَعُنْوَابِهَا وعبـروا عن اهتمامهم بالتأليف فيها، وبرعوا في علوم المياه، ونقلوا ما وجدوه من تراث الأمم السابقة، كما أضافـوا إضافات إلى المحصول القديم، لعلمهـم بأهمية هذا العلم، وإدراكهم غاياتِـه ومقاصدَه وأَبعاده، ولا سيمـا في إثراء الحياة الإنسانيـة، وإنْمَاء الثروة البشرية والحيوانية والنباتية...

* * *

وممن احتفلـوا بـالثقافـة المـائية، وأَضـافـوا إلى مـا وجدوه مـن نظريـات هدروليكيـة قديمة، وابتكـروا نظريات علمية مـازال لها مقام معلـوم إلى العصر الحـاضر، أولئك العلمـاء الـذين درسوا مـادة الماء، لغـةً، وحضـارةً، وإنباطـا، وظـواهـرَ جـويـة، وسطحيـة وجـوفيـة وفقهيـة ودينيـة أمثـال ابن الأكفـاني السنجـاري، وأبي بكـر محمـد بن الحسن الكَـرَجي، وأبي بكـر أحمـد علي قيس الكسداني ابن وحشية النبطي الكلداني العراقي، وأبي الـوفاء محمد البوزجاني، وأبي بكـر محمـد بن العَـوَّام الاشبيلي، وأبي عثمان سعـد بن أحمـد ابن ليـون التجيبي، وابن بصّـال، وأبي الخيـر الاشبيلي، وأحمد الـدمنهـوري أحد شيـوخ الأزهر، ومحمد بن حسين العطار، وأبي عبد الله محمد بن إبراهيم اللخمي شهر بابن الـرامي التونسي، وأبي عبد اللـه الشطيبي، وابن الأعرابي محمـد بن زياد، وأبي الـريحـان البيـروني، وابن سينـا، وابن الهيثم، وأبي إسحـاق النقـاش المعروف بالـزرقالي الأندلسي، وأبي زيد اللجائي الفـاسي، وأحمد بن محمد بن

الجليل السَّجْزِي، وغُرَّام بن الأصبغ السلمي، وأحمد بن محمد بن الطيب السرخسي، وابنِ الأجدابي، وعبد الغني النابلسي النقشبندي القادري، وابن الرَّزَّاز الجَزَري، وقطب الدين محمد بن مسعود الشيرازي، ومحمد بن جابر البتاني، ونصير الدين الطوسي، وسهل بن بشر البغدادي الهروي، وثابت بن قرة الحراني، وأبي طالب المفضل الضبي، وابن الأعرابي، وابن عماد الثقفي البغدادي، والأخفش الأصغر البغدادي النحوي، وابن قتيبة، وابن خالويه، وابن السكيت، وابن سِيدَه صاحبِ المُخصِّص، وأبي زيد الأنصاري، وأبي حنيفة الدينوري، وعبد الرحمن الصوفي، والنضر بن شميل، وابن السراج، وغالب بن أحمد بن سليم الرازي، وسيدي صالح بن المعطي، وعبد الرحمن الفاسي في الأقنوم وغيرهم مِمَّن ستقرأ لهم في هذا الكتاب، وقد تركوا، كلهم آثارا باقية إلى اليوم تزخر بها ثقافَتُهُم المائية، على مر العصور...

* * *

موضوع الكتاب أجملناه في عنوانه : «الماء في الفكر الإسلامي، والأدب العربي» وقسمناه إلى سبعة عشر بابا، جَلَوتُ فيها طوائف من الحقائق العلمية والفكرية والأدبية، لم يهبها أحد، فيما أعلم، ما تستحقه من العناية والرعاية قبل اليوم... وكل باب تندرج تحته عدة فصول تسير في أنساق مترابطة منسجمة، فالباب الأول تحدثنا فيه عن «الماء صِنْو الحياة»، ثم أردفناه بالموضوعات التالية: «الماء... واللغة» و«الكوكب المائي»، و«تقديس الماء عند الشعوب والأمم» و«الشركة في الماء» و«الماء والمدينة والحضارة» و«هل الماء غذاء؟»، «السحاب»، «استسقاء المطر» «الظواهر الجوية»، «إنباط المياه»، «المياه الجوفية» ثم عقدنا باباً واسعا حول «وقوف المياه حضارة راقية»، وختمنا هذه الأبواب بموضوع طريف يتحدث عن «خوارق كونية وكرامات مائية».

* * *

وإنني لم أَشَأْ أن أثقل على القارئ الكريم، إراحةً لذهنه، وتعففا لتطلعاته، بالتحدث عن عنصر الماء وطبيعته وتركيباته وتحليلاته وتقسيماته العلمية، والنسب التي يهتم بها علماؤه المختصون الذين يقومون بتحليله، والإتيان بالأرقام المزعجة المضنية، أو الحاجة الكيماوية من الأوكسجين، أو الاستهلاك

الصافي، أو المواد القابلة لِلتَّأَكْسُـد، أو محطة التطهير، أو تَخَاصُب مياه بحيرات السـدود، أو المعالجـة القَبْلِيَّـة التي تتكون مـن عدد من العمليـات الفيـزيائيـة والميكانيكية، فليس ذلك من بابنـا، إذ من الخطأ أن يتحدث المَرْءُ في مسألةٍ من المسـائل التي لا تـدخل في اختصاصـه، وَانـدُبْ لِكُلِّ أَمْـرٍ أَهلَ بَلْـوَاه، وإنما أنـا مستهلك، كغيري من المواطنين، للطاقة المائية، ومن حقي أن أهتم بدراستها من زاوية خاصـة للمحافظة عليها، وتقـديم ما أعرفه عنهـا من رائع التراث، وجميل المعلومـات التي سجلتها أثنـاء قراءتي والتي شهـدت لعلمائنـا المسلمين بعلوٍّ الكَعْب، وقَدَمِ الصِّدْق في هذا المضمار...

تلك هي الصورة، باختصار شديد، التي انتهى إليها بحثنا، وقد بَذَلْتُ فيه من الجَهْـد اللَّذِّ، والتعب المُـرِيح، وما استطعت فيـه من دقه، ومـا تحريت فيـه من إنصاف وصواب.

* * *

وقد كتبت، في غيـر هذا المكان، بأنـنـي أقع دائماً تحت طائلـة الاستطراد في مسار البحث قد يُخـرج الكتاب عن سياقه، ويُبعده عن خَطِّه، ويَنـأَى به جانبا، وعُذري في ذلك أني أميـل إلى هذا النحو المـوروث في التأليف، ولأن مؤلفـاتنا القديمة كـان أكثرها كذلك، وقـد تحدث الإمام تَاج الـدين تقي الدين السُّبْكي في مستهل كتـابه: طبقـات الشافعيـة، فقال: «...ولا ينبغي أن يَمَلَّ النـاظر في هـذا الكتاب طُـولَ الأسانيد، وكثـرة الأناشيد، والاستطراد المـزيد، فإنـه لذلك وُضع، ولهذا المقصـد جُمِع، وعلى أعواد هـذه القواعد رُفع»... كمـا كان الجـاحظ الذي يمتاز بـأسلوب سَمْحٍ فضْفـاض، وتغلب عليه النـزعة الأدبية، «إذا تَخَـوّف مَلَلَ القارىء، وسـآمةَ السامع، خرج من جِـدٍّ إلى هزْل، ومن حكمةٍ بليغـة إلى نادرة طريفـة... فهو تحـرَّر من طريقة العلمـاء في قَصْر نفسـه على الموضـوع الذي يتكلم فيه، لأَنَّهُ لاَ يومن بِذلك، وأنت عرضةٌ، لأن تجد من كُتُبه أدَقَّ الموضوعات وأجلَّها، في أتْفـه العَناوين، وأسخفها في كل مـا كتب، فهو يتخير خيـر الألفاظ وأحسن التعبيـرات... وَيَفِرُّ سـريعـاً من التحقيق العلمي، إلى منـاحي الأدب من حكمة أو شعر أو نادرة...

والقـارىء هـو الغانم على أيّ حـال ...

ولستُ أزعُم بـأنني أصبتُ فيمـا أتيتُ من أبحـاث، ومـاجَلَبْتُ من نُقُـولٍ ودراسات، فذلك مطلب عسيـر، وإنما كتبت ما أعرف، وجلبت مـا يسره الله، فلم أكتم علما، وَلَـمْ أدَّخِـرْ فقها، وكنت كمـا قـال أوس بـن حجـر:

ولست بِخَـابـىء، أبـداً طعـامـا
حَـذَار غـدٍ، لكـل غـدٍ طعـامُ

وعسى أن يهديني ربي لأَقْـربَ من هذا رشدا، وَيمنحَ هذا الكتـاب من الرِّضَى والقَبول مـا يكافىء ما أضعت في جمعـه وتأليفه من العمر والعـافية، ويثيبُني على ما بذلتُ من جهد، وأنفقت من أتعاب...

والله عنده حسن الثواب ....

المؤلف

الباب الأول :

الماء... صِنْوُ الحياة

نتحدث في البـاب الأول من هذه الدراســة المائية وثقافتهـا، عن أهمية المــاء في الحيــاة... فالحيــاة والمــاء فــي هــذا الكــون شيئــان متلازمــان، لا ينفصل أحدهما عن الآخـر... فالماء صِنْوُ الحياة التي نعرِفُهـا، فلا حياة بلا ماء، بل إنَّ بعض العلماء، يُعرِّفون الحياة، بأنها ظاهرة مائية...

وأدرجنا تحت هذا الباب الأول عن «الماء صِنْو الحياة» ثلاثة فصول.

الفصل الأول : يتحدث عن أهمية الماء الـذي هو عنصر الحياة، وحجر الزاوية لكل تنمية اجتماعية واقتصادية للبلاد... فالحياة إرادةٌ كونية، والماء ضرورة للحياة، والحياة ظاهرة مائية...

والفصل الثاني : يتحدث عن العلاقة الحميمة بين «الماء والأرض»، هذه الأرض التي تستجيب لداعي الحيــاة، بقدرة الله ومشيئته، وتهتـز وتتحرك بالنبــات، فمفهوم الماء في القـرآن، لا ينفصل عن القيم التي يجب أن يومن بها الإنســان، ويتخذها فكـراً له، واعتقاداً في حياتـه، وطريقاً في سلـوكه، ومنهجا له مدى الحياة.

والفصل الثــالث : يتحدث عـن القرآن الذي يَعُـدُّ أَعْظَمَ عطاء يتنعَّـم به المومنون يوم القيامة، هو عطاءُ الماء، فهو حينما يذكر الجنات، فالغالب أن يذكر الماء معها، سواءٌ عبَّر عنها بالكوثر أو بالأنـهار أو بالعيون... فالأنـهار والعيون ترتبط غالباً بالنعيم سَواء في الدنيا، أو الآخرة...

الفصل الأول :

الماء عنصر الحياة وسر الوجود

الماء ينبوع الحياة، وسرُّ الوجود، وروح الحضارة، وسيدُ الشراب، ومعجزة الطبيعة، وعنصر أساسي لتكوين الكائنات الحية، وعامل جوهري لكل نشاط اقتصادي، يشكل حجر الزاوية لكل تنمية اجتماعية واقتصادية للبلاد... فهو الذي يُحي البلد الميْت، ويُفيد بشاشةَ المُصطاف، ويَبعثُ الربيعَ الذي تتشقق عنه الأرض الخاشعة الجَرُوز... فيسري في العود، ويشيع في الجو، ويدِبّ في الأجسام، وينشأ عنه بعث ونشور... حيث سِرُّ الحياة يستعلن في الأحياء، فتنتشي وتمرح، وطيُوف الهوى تَمَسُّ القلوب، فتهفو وتختلج، وحيثُ العالَمُ كلّه يسبَح في فيضٍ سماوي من النشوة والغبطة، والجمال والجلال، فيشعر الإنسان - وحوله الماءُ سرُّ الحياة - بتدفق الحياة في جسمه، وإشراقِ الصفاء في نفسه، وأنبثاقِ الحبّ في قلبه، إذ تطيب له الحياة، وترِقُّ حواشي الأُفق، ويُحس أنه هو، وفي وقت واحد، زهرةٌ تفوح، وخُضرة تَرُوق، وطائرٌ يشدو، وطلاقةٌ تفيض على ما حولها، البِشرَ والبهجة والحبور...

* * *

ينظر الإنسان، إلى صفحة البحر، فإذا ماؤه الساكن الساجي، أو ذاك المتحرك العنيف، والذي يعُبّ عُبابُه. وَتَصْطَخِبُ أمواجُه، يُذيب الأحزان والأشجان، ويمتص الهموم والغموم، ويهدّىء الأعصاب من الأوصاب... كما تسقي مياه، من جهة أخرى، وفي فضاء رحْبِ الحدود، تلك التربة الهامدة الخاشعة، فإذَا هي مروج ممرعة، ورواب خُضر، وزَرْعٌ أخرج شَطْأَه، ونخلٌ وأكمام، وحقول أنبتت من كل زوج بهيج، وسُهُوبٌ تحولت إلى جنات معروشات وغير معروشات...

والماء سِرّ الـوجود، يخلق الحياة من العدم، وهو الـذي قال فيه الأديب الحالم، أنطوان دي ســانت اكزوبيري(1) Antoine de Saint - Exupery «أيُّها المـاء، ليس لك طعمٌ، ولا رائحـة، وليـس بـالإمكـان وصفُك، كم يتلـذذون باحتسائك، وهم لا يعلمـون من أنت؟. من المستحيل القول بأنك ضروري للحياة... لأنك الحياة ذاتها...».

* * *

لقد ورد في الملحمة الصـوفية الشهيرة التي نظمها فريـد الدين العطار أواخر القرن السادس الهجري بعنوان: «منطق الطير»(2) حيث وجدنا البطة، وهي تعيش دائما كما نعلم، بين الغصون والميـاه، تعتذر عن دعوة الهدهد للبحث عن السعادة في حضرة العنقاء، وتعتذر بهذه الكلمات:

إني لا أجد طعما للحياة بدون ماء...

فإن مولدي ووجودي إنما كان في الماء...

ولو أنـه حدث أن نال نصيب من الغَـمِّ قلبي، لغسلته بالمـاء مادام لي رفيقا...

إن الماء في ساقيتي هنا في متناولي دائما...

---

1) كاتب وطيار فرنسي، ولد بمدينة «ليون» عام 1900 وتوفي عام 1944، إثر بعثة حربية، بصحراء المملكة المغـربية، قرب طنطـان، له عـدة مؤلفات منهـا «طيران الليل» 1931، و«أرض الرجال» 1939، كما أن له كتـابات رمزية، ودراســات علمية تقنية... وقد أصدر المكتـب الوطني المغربي للبريد والمواصـلات السلكية واللاسلكيـة طابعا بريـديا خاصـاً من فئة 4،08 درهما يحمل اسم الـذكرى الخمسينية لوفاة انطوان سانت أكزوبيري...

2) «منطق الطير»، فـارسي منظوم للشيخ فـريد الديـن العطار الهمذاني، وهـو في مُزاحفَـات الرمل المسدس، شرحـه المولى شمعي، ألفه لاستدعـاء «حسن أغا» المعروف بطرنقجي أغـا المتوفى عام 1005، وكان متقـاعداً عن المدرسـة بثمانين... واختيارات «منطق الطيـر» للشيخ السيد علي الهمـداني مختصر انتخـب منـه... ولشهـاب الدين أحمد بن يحـيى ابن أبي حَجَلة التلمساني (تـ 777هـ) «منطق الطيـر»، [نَفْح الطيب: ج : 5/200، كما أن هناك كتابـا آخر، بعنوان «منطق الطير»، بإرادة الخير» لزين الدين عمر بن مظفر ابن الوردي (تـ: 849هـ).

فكيف أفكر في أن أنشد السعادة بمنأى عن المـاء، الذي هو مصدر كل السعادات...

* * *

ومنذ عقـود، صدر عددٌ جـديد من مجلةٌ «الرسـالة» للمرحـوم الأستاذ أحمد حسن الزيات يقول فيه عباس محمود الغقاد في حديث له مع عباس عبد البَهـاء، زعيم الطائفـة البهائيـة: «إنه حيث يكـون الماء يكـون الشجر، ولكن الأستاذ، قال له: بل حيث يكون الشجر يجب أن يكون الماء...

والفرق بين الرأيين : أن عباس عبد البهاء يرى أنه مادام هناك ماء، فمن الطبيعي أن تكون حيـاة: أشجار، وحيوان، وإنسان، ولكن الأستـاذ محمود العقاد يرى أنه ما دام الله قد قـدَّر أَنْ يكون إنسان وحيوان وشجر، فلابد أن يأتي لها بِالماء... فالحياة إرادة كونية، والماء ضرورة للحياة(3)...

* * *

لقد بدأت الحياة بالماء، وكان الماء من أوائل ما خلق الله...

وهذه حقيقـة تعزز وتؤكد مصـداقية المنهج وانتظام حججه واتسـاقها مضموناً وتـرتيبا. فالْقرآن يقرّر: أن كل حَيٍّ خلق من مـاء... فاقتضت هذه الحقيقـة – بالتـرتيب الضروري – وجـود حقيقة أسبق، ومن هنـا، سبق وجود الماء، وجودَ الأحياء الـذين من بينهم الإنسـان أو الناس، فالشـيء لا يسبق مصدره، فالحياة – من ثَمّ – لا تسبق الماء.

* * *

وهذا نهـر «بَرَدَى» الـذي طالما تغنى بـه الشعراء، مع أنـه نُهَيْر، ولكن صِيته يملأ الأرض بفضل حسان بن ثـابت، الذي لم يسبِق له أن رأى نهراً في بلد كسوريا، فعمل قصيدته فيـه، وقد قال المجاهد الأستاذ محمد علي الطاهر لما زار دمشق إنه حدَّثه رفيق حضري خفيف الروح: «أَهذا هو نهر

---

3) في «صالون العقاد»، كانت لنا أيام ص: 87 للأستاذ أنيس منصور.

بَرَدَى الـذي «دَوَّشَنَا» به الشـوام، منذ قال حسـان: إنه «يصفِّقُ بـالرحِيق السَّلسَلِ»، واللـهِ يا أخي، إنـه لا يسـاوي عندنـا في مصر «سلسـولا»، أو «بزبوزا» بـالنسبة إلى النيل... إيه الكلام ده!! فقال لـه: إن حسَّان جاء من الصحراء، ولم يَرَ الأنهُـر قبل ذلك، فلما رآه، وارتوى من مـائه المثلوج بعد العطش، هتف بما هتف به في شعره عن الرحيق السلسل(4)...

* * *

إن الماء في صحـراء العرب لا يحتمل، وإن عـذابه أفظع صُـوَر العذاب وأقسـاها، وإنهم يستهينون بكل عذاب حين يقرن به...

وقد ذكـروا أن أعرابياً أتى عينَ مـاء صافٍ في شهر رمضـان، فشرِب حتى روى، ثم أومأ بيده إلى السَّماء، فقال :

إن كنـتَ قـــدّرتَ الصِّيَـــا
مَ، فأعْفِنَـــا فـي شَهْـــرِ آبِ
أولا، فـإنـا مفطـرون وصـابـرو
ن علـى العــــــذاب(5)

ويشبهه ما قال ابن المعتز :

شهـــرُ الصيـــام مبـــاركٌ
لـــو لم يكـن في شهـــرِآبْ
خِفـتُ العـــذابَ، فصمتُـــه
فـــوقعـت في عيـنِ العـــذابْ

---

4) «ظلام السجن»، للمجاهد محمد علي الطاهر ص : 734.
5) العقد الفريد ص 198/ 3.

وقد أجابَهُما العلامة الحسن اليوسي معارضاً هذا الأسلوب غير المهذب فقال:

شهـــر الصيــــام مبـــارك
يشفي صـــدَى يـــوم الحســـاب
وينيـــــل وِردَ السلسبيــــل
ورَشْف معســـول الـــرُّضـــاب(6)

* * *

إن حوادث العرب الضخمة، وأيامَهم المعـروفة، ارتبطت بظهور الماء... ذلك العنصـر الهـام وسط الصحـراء العطشى، «فَسدُّ مـأرب» هو عـلامـة العمران القديم الذي كان يمتد ثلاثـة أشـهر، وانهيار السدّ هو بداية الهجرة والشتات، والبحث عن مسقر جديد... وتفجـر ماء زمزم هو الاستقرار حول الكعبة، وبـداية الملحمـة العربيـة وسط الصحراء... ومـاءُ كُلاب هـو الذي أشعل أكثر من حـرب بين القبائل، وناقة البَسُـوسِ أشعلت الحربَ أربعين عاماً حين شربت من ماء غيـرِ مائها... ورسول الله ﷺ سعى للنصر حين وضع جيشه أمام بِئر بَدْر...

فالمـاء هو المعلم الحقيقي للزمـن العربي وسط الصحراء، وهـو الذي يخرج هذا اليوم من عِداد الأيام العادية ليصبح يوما من أيام العرب...

* * *

تحدث الأمير شكيب أرسلان عن الماء وأهميته في كتابه: «**الارتسامات اللطاف، في خاطر الحاج إلى أَقدَسِ مطاف**» حيث قال، وهو يتحدث عن الجزيـرة العربية التي عـرفت بالقُحُولـة واليُبُوسة، والتي كـان الحاج يظمأ فيهـا، قبل اليوم، إلى المـوت: «إن شأن الحجاز في هـذا المعنى، هو غيـر شـؤون سائر البـلاد، فالمـاء فيـه يجـوز أن يـوزن بالمثقـال، والماء فيه

6) «زهر الأكم، في الأمثال والحكم» للحسن اليوسي ص : 1/306.

هو الذهب، والمـاء فيه هو الماس، ونقط الغيث فيه هي الـلآلي، وبالجملة، فالمـاء فيه هو الحيـاة نفسها، وهي أغلى من كل هذه، ولـو ألف حجازي، قاموس لغته، وعند تعريف الحياة قـال: «إنها الماء... أو عند تعريف الماء، قال: إنه الحياه، لكان جديرا...

فمن أجل هذا، كـان الماء يجري في الحجاز أثمن وأغلى منـه في سائر الأقطار، وكـان ألذ وأبهج، وأعلق بالقلـب، وأشرح للصدر، وكـان الماء في الحجاز يساوي الماء خمسين مرة في الشام، ومائة مرة في سويسرة مثلا، وكان الغصن الأخضـر في الحجاز أحلى مائة مرة في أروبـا، وكم عين لو كنتُ في سوريـة، ومررت على مثلهـا، لم أقف دقيقة، ولا نظـرت إليها، إلا كما انظر إلى التـراب، فأما في الحجاز، فقد كنت أقيل إلى جـانبها، وأحدق في قطرات مائها، ولا أبرح أتحدث إلـى الإخوان عن قَسْطَلَةِ جريها، وصفاء لونها... وكم من مرة جلسنا في الحجاز، إلى ثماد وأوشال، لا تمر في غير الحجاز على بال، فكنا نستعذبها، ونتلذذ بالمقيل عندها كما لو كنا على نبع الباروك(7)، أو نبع الصفا في جبل لبنان...

لذلك أراني، أتلذذ بالماء والظـل والخضرة في الحجاز، وفي الشرق كله، أكثر ممـا أتلذذ بهـا في أروبة، ولا سيمـا في القسم الشمالي منهـا... ففي أروبـا، ميـاه تتدفق، وأنهـار تهـدر، وشـلالات تنحـدر، ولكن كل ذلك في جوبارد، وكل ذلك في جو مطير متلبـد بالسحب أكثر السنة، فأي لذة لماء الجداول والأنهار الجارِية على الأرض حينما تكون المياه نازلة من السماء؟ وأيـة لذة يجـدها الإنســان في الظل الظليل، والحرجـات الملتفة إذا كـانت الشمس في الغالب محجوبة بالغمام...

* * *

7) الباروك : قرية في لبنان (الشوف) بالقرب منها نبع الباروك، وغابة الأرز.

ومن روائع وبدائع الأديب الفرنسي بـول فاليري(8) Valéry Paul Ambroise الذي كان له عظيم الاهتمام بالفيزياء الحـديثة والرياضيات، والذي يعد من صدور ومشـاهير الأدباء الفرنسيين المعـاصرين (1871 - 1945) مناجاته المتناغمة مع الماء، وهو يقف مسبوها ومشـدوها أمام معجزاته وقُدُساته، فيصفه وصفاً شاعرياً بلغ حدّ الرّوعَة والجمال، إذ يقول:

«ما أكثـر من تغنوا بـالخمر وأشـادوا... ما أكثـر الشعراء الـذين رفعوا عقيـرتهم بتمجيد العُقـار، وسقَـوا أربابهم من كـؤوس المعتقـة ما كـانت نفوسهم تتوق إليه، حقا، إن حُرّ المُدام يستحق كل هذا التمجيد... ولكن ما أكبر عقوق الذين كفروا بالماء، وأعظم ذنبهم!

أيها الصفـاء الإلاهي، أيتها الصخـرة الشفافة، أيـا رسول الحيـاة، أيها الماء المطلق، يطيب لي أن أقيم لك على الـدوام صلواتي المشفوعة بـالحمد والتهليل.

سأمجد المـاء المطمئن في سكونـه، سأشيد بهذا التَّـرَف الأعظم الذي يقطن مرابـع الأرض وساحاتهـا، فينشر بهـا أبسِطَةً من السكـون الشامل تبـرز، على مـرآتها الصـافيـة الأديم، كل الأشيـاء المنعكسة عليهـا مكَلّلـة بالجمال، هناك تتحول الطبيعة بأكملها إلى «نرجس»(8م) لتعشق نفسها.

---

8) بـول فاليـري، اشتهـر بقصـائده ومقالاتـه وأبحـاثـه في الأدب الفـرنسي، وعُنِي في كتـاباتـه بالمكتشفات العلمية، والمشاكل السياسية، كمـا أحدث بقصائده ضَجة كبيرة في الأوساط الأدبية في فرنسا... اتجه إلى تمجيد العقل، وتخلـص من معظم كتبه، وصار منذ عام 1894 ينهض كل يوم فجـراً، ويقضـي عدة سـاعات في التأمل والتفكير العلمي في مسـائل الوعي، وطبيعـة اللغة، ويسجل خواطره وأفكاره ومـا يستنتجه من حكم وحقائق في «دفاتر» نشـرت فيما بعدُ بعنوان: «الدفاتر» les cahiers في تسعـة وعشرين جـزءاً... والترجمـة للأستاذ القـدير السيـد مصطفى القصري..

8) مكرر - نرجس هـذا، وقع أسيرا في غرام صورته المنعكسة على حافـة الماء، وَقَادَهُ عشق الذات إلى حتفه، فلـم يبق من ذكره، إلا زهـرة بيضاء على حواف التُّـرَع، وعقدة نفسيـة في كتب علم النفس.

والماء المتحرك الجاري في لطف وعُنف، ينضح رشحُه ويعمل عمله، ببطء خارق، فهو بفضل وزنه وتياراته، وإعصاراته الجامحة، وضبابه وأمطاره، وبفضل جداوله وشلالاته وسيوله، يكسو الصخر هيأته، ويصقل حجر الصَّوَّان، ويفعل فعله في المرمر، ويعطي للخصب شكله، ويهدهد الرمال التي أحدثها، ويرتبها في صور شبكات مسترخية، وضفاف ملساء...

الماء يعمل عمله، فينوع... وينحت، ويزين الوجه الصلب القاتم القاسي الذي يكونه الأديم...

الماء المتعدد الصور والأشكال يسكن السحب، ويملأ الأغوار ويقع ثلجا على القمم التي لوّحتها الشموس، حيث ينحدر في صفاء، ليتتبّع سبلا يعرف وحده مسالكها، ليتتبعها أعمى، ولكنه واثق من يقينه الغريب، ثم ينزل نحو البحر الذي يمثل أكبر حجمه...

* * *

أحيانا يفر من نفسه واضحا ظاهرا للعيان، يجري بسرعة أو بأناة، وفي خرير مجهول الأسرار، خرير يتحول فجأة إلى هدير شلال ذي قفزات متوالية، شلال ينزل ليذوب في الرعد المستمر، شلالات محطمة، تبهر العقول، وتحمل في بخارها أقواس قُزَح...

وأحيانا أخرى يتملص مختفيا لينساب تحت الأرض، غامضا متعمقا في انسيابه، فينقب على الكُتَل المعدنية التي يتخللها، ويرسم لنفسه أغرب المسالك وأدهشها، يبحث عن نفسه في الليل البهيم، ليلتحق بها، ويتحد معها، إنه يخرق وينضح ويُذَوِّب، ويفتت، ويتحرك عمله في الدهليز الذي أحدثه دون أن يبلغ إليه، ثم يهدأ روعه عند البحيرات المدفونة في الأعماق التي يغذيها بدموع مديدة تتجمد في صور أعمدة من الرخام لكاثيدرائيات

مظلمة تنحـدر منها أنهُـر شتى إلى درك من الأرض، ملؤه أسمـاك عمياء، وحلزونات أكبر سنا من الطوفان...

ما أكثـر ما اطلع عليـه الماء في مغامـراته الغريبـة هذه! ولكن طـريقة معرفته للأشياء خاصة به وحده...

* * *

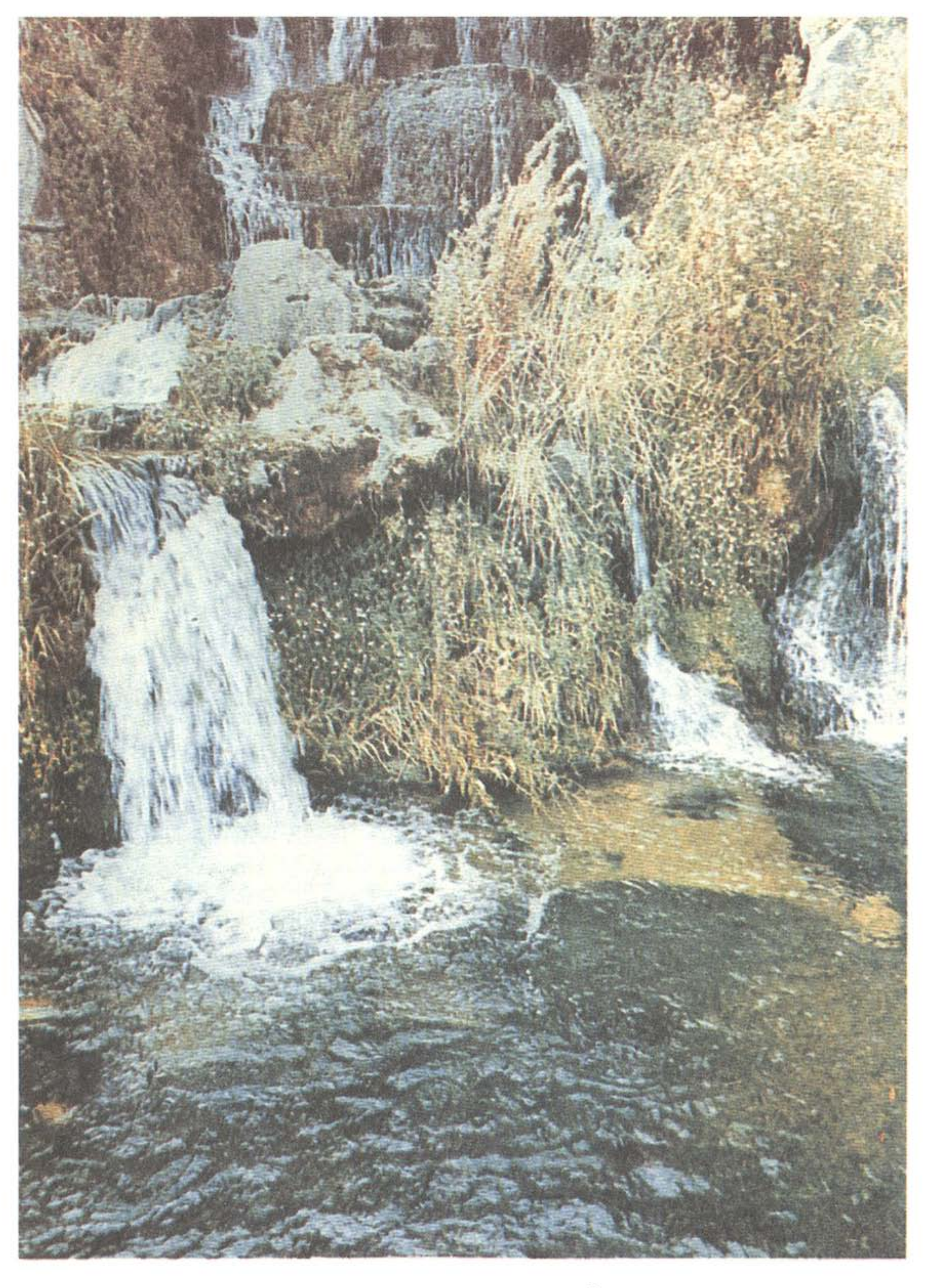
إن جوهر الماء يتحول إلى ذكرى، إنه ياخذ – مدمجاً في الذكرى – أثرا من كل مـا لمسـه، أو عـام عليه أو كوّره، مـن الكلس الذي حفـره، والمآوي التي غسلها، والـرمال الثرية التـي أدت مهمة تصفيته، فإذا هـو نبع للعيان حمل معه كل القوات القديمة الكـامنة في الصـخور التي مر منها، ونقل مع هذه القوات فضلات من الذرات، وعناصر من الطاقة الصـافية، وفقاقيع من الغازات الجوفية، وأحيانا حرارة الأرض الدفينة، وأخيرا ينهمر، وكله مطبوع بكنوز رحلته المقدمة لأغراض الحياة وحاجاتها.

كيف لا نقدس هذا العنصر الأساس الـذي تقوم عليه الحياة، كلها؟.. إن قلـة من البشـــر، فقط، هي التي تعتـرف أن الحيـاة ليسـت سـوى المـاء المنظم...

تصوروا نباتا، شاهدوا شجرة سامقة، وتخيلوا أنها ليست أكثر من نهرٍ انتصب ليـرتفع ممتدا في جـو السمـاء... الماء يتقـدم عن طريق الشجـرة لملاقاة النور...

الماء يشيـد لنفسه من بعض أمـلاح الأرض هيأة متيمة وامقـة، تعشق النهار... هيأة تمـد نحو الكـون – لتعانقـهُ – أذرعاً سائلـة قويـة ذات أيد رشيقة...

الإنسان يستقر حيث يتوفر المـاء، أهناك شـيء أحوج للإنسان من عين جارية؟ النبع وروح النبع، هما اللذان يرسمان البقيع المقدس الذي تنزل به الحياة لتشاهد الدنيا من حولها...



تكسَّرَ فوقَ الصَّخْرِ بالجَرْيِ جسمُه
فَدلَّ على آلاَمِهِ بخَرِيرِهِ

هنـا يعترف الإنســان بـوجود النشـوة الكـامنـة في الماء... الشــرب؟ الشــرب؟ الإنســان يعلم بأن العطـش الحقيقي لا يطفىء غلتـه إلا المـــاء الصــافي، فهناك شـيء لا مـريــة فيه يكمن في الـوفـاق بين رغبة الجهـاز العُضْوي، والسائل الأول.

إنك لتصبح إنسانــا آخر عنــد ما يُغيّرك الظمأ: أي إن الفســاد يتهددك، فلابد لك إذن من أن تطفىء صداك، لتصبح مــن جديد ما كنت قبل ظمئك، وان تلتجىء إلى ما هو جزء من الحياة...

الكَلِم نفسه طافح بحمــد آلاء الماء... نقول إننا «**نتعطش**» إلى الحقيقة، ونتحدث عن «**السلاسة**» التي تطبع القول، «**ونتدفق**» أحيانا «**بسيل**» من الكلام...

* * *

الحياة : ظاهرة مائية :

لقد جــاءت الحياة من المـــاء، ومازالت مــرتبطة به، يــؤكد البــروفيسور «هولدغيت» بأن كثيــراً من النباتات والحيوانات لا يمكنهــا أن تتكاثر إلا إذا بقي حامــل الجنيه(9) Gène، في حـــالــة السيولـــة، وأن كثيــراً من فصـــائل

---

9) الجينات : les Gènes حبيبات متنــاهية في الصغــر، لا ترى إلاّ بالمجهـر، توجـد على هيئة أزواج داخل الكُرُومُوسُومَـات، ويبدو أنها المسؤولة عن نقل إمكانيــات وراثية معينة... وتنتقل الجينات انتقالاً اعتياديــاً بدون ما تغيير من جيل إلــى الجيل الذي يليه، ويقدر بعض العلمــاء أن للإنسان بين عشرة آلاف وثمانين ألف «جين»، ولكن بعضاً آخــر منهم يقدرها بين عشرين ألف وأربعين ألف «جين».

وللجينات قدرة على التكاثر والتبدل... كما يقدر العلماء أن كل فرد من أفراد النوع البشري يملك قرابة 90٪ من الجينات الخاصة بفصيلة الإنسان، وهــذه متشابهة في كل أفراد الجنس البشري. أما الــ10٪ الباقية من «الجينات» فإنها تختلف من فرد لآخر، بالنسبة لجنسه. ذكراً، كان أم أنثى، وبالنسبة لصفاته الطبيعية الظاهرة كلــون البشرة، وشكل الجمجمة، ولون الشعر، وكثافته ولون العيون، وما إلى ذلك من الصفات والشِّيات.

ولقد اذاع 187 رجل دين يمثلون مختلف الطوائف والعقائد في الولايــات المتحدة الأمريكية بيانا يدين استخذام الجينات الوراثية الإنسانية في الاستخدامات العلمية والصناعية والتجارية...=

الحيوانات الدنيا تعود أدراجها إلى الماء من أجل النموّ والتناسل، كما كان الشأن في مراحل الحياة المبكرة على الأرض...

فالماء صنو الحياة التي نعرفها، فلا حياة بلا ماء، حتى إن بعض العلماء يعرف الحياة بأنها ظاهرة مائية...

إن الحياة والماء في هذا الكون شيآن متلازمان، لا ينفصل أحدهما عن الآخر...

والماء أعظم المذيبات، «فالْبُروتوبلازم»، وهو مادة الحياة، ما هو إلا محلول ذائب أو معلق في الماء، ويتكون أكثر من ثلاثة أرباع أجسامنا من الماء، أما عالمنا فهو ما صنعه الماء... والواقع أن حياة الإنسان ورفاهيته مرتبطتان بالماء ارتباطا وثيقا لا يَنْفَصم...

ويتميز الماء بتناقض خلاب، من حيث إنه أقرب المواد إلى المألوف، وأبعدها عن المألوف في نفس الوقت...

فهو أقرب إلى المألوف لأنه موفور وشائع...

وهو أبعد عن المألوف لأن صفاتِه وخواصَه ومميزاته غريبة ونادرة وفريدة في بعض الأحيان.

إن مسلم بن قتيبة قال للشعبي، لما مديده، وهو على مائدته يلتمس الشراب، ما تشتهي؟ قال: أعزّ مفقود، وأهون موجود.. قال: يا غلام: اسْقِه ماء(10)...

= وقع على البيان ممثلون لكل الأديان في سطر يقول فيه: «إننا نُومِنُ أن البشر والحيوانات هي مخلوقات الله، وليس الإنسان، ولا ينبغي استخدامها في الاختراعات الإنسانية».

الأمريكيون بروحهم العملية، لديهم سوق ضخمة لهذه التجارة، كما أن المحكمة العليا، أصدرت حكما في عام 1980 بالسماح باستخدام «الجينات» في اختراع مادة لتنظيف بِقَع الزيت... أما الحدود الأخلاقية في استخدام الجينات صناعيا، ومن الذي يضع هذه الحدود، فهي أسئلة لا إجابة عليها في القوانين الحالية، وهي المشكلة.

10) الحيوان للجاحظ ج : 5 ص 137 – عيون الأخبار 2/200 – والخبر، أيضا في كنايات الجرجاني ص : 96.

الماء جوهر الكائنات جميعا :

لقد كان الاغـريق القدماء ينظرون إلى الماء والنار بـوصفهما عنصرين أسـاسيين لهما طبيعـة متنافـرة، ففـوائدُهما لا تقف عنـد حد، إذا خضعـا للإنسان... وضررهما لا يقدر، إذا سيطرا عليه..

على أن الماء في نظـر شاعـرهم «بيندار»(11) PINDARE جوهر الخير، فكتب يقـول: «المـاء أفضل الأشيـاء جميعـا»، أمـا طـاليس الفيلسـوف والسياسي وعالم الرياضيات، وأحد حكماء اليونان السبعة، فكان يعتقد أن الماء جوهر الكائنات جميعا(12)...

والماء سواء كان صلبا، أو سائلا، أو غازاً. قد يكون صديقا للإنسان أو عدواً له...

فالجليد يمكن أن يبرد المشروبـات، ويحفظ الطعام، ويسد الموانىء أو يغـرق عابـرات المحيط؟.. والثلوج يمكن أن تجعل الحقـول مثمرة، وتسـد الطرق؟ وأن الأمطار تجعل الأرض صالحة للحياة، وتنتج كل ثمارها الطيبة، ولكنها تتلف الحقول، أيضا، وتجفف الخراب والدمار بمساحات شاسعة في حالـة الفيضانـات! والبُخارُ حين يخضع لإرادتنا يـدفىء منازلنـا، ويحرك أجهزتنا الخاصـة بتوليد القوى؛ وحين ينفجر يمزق ويـدمر! ومع أن بخار الماء على هيئة رطوبة عالية جدا، يؤدي إلى الضيق والوهَن، فلولاه ما كان العالم مكانا صالحا للسكنى...

* * *

---

11) شاعر إفريقي، ولـد في «سينوسفال» Cynoscephales عام 518 ق.م، وتوفي عام 438. ق.م من عائلة ارستقراطية، قصائدُهُ تَجمعُ جميع أنواع الشعر الغنـائي، أنَاشيد وطنية، حربية، انتخابية، وهذه القصـائد تفصل عبر روايات خرافيـة حقيقية دينية وأخـلاقية، والمجموعة الـوحيدة التي بقيت سليمة هي: Les epinicies.

12) طومسون ص : 153، وص : 33.

الماء والحياة شريكان في تغيير وجه الأرض :

إن الماء ظل يعمل طوال مآت الملايين من السنين لإعداد الأرض لمجيء الحياة، فكان يقوم على الدوام بِنَحْتِ الصخور وتفتيتها لتكوين التربة، وحمل المواد لزيادة ما يحتويه من مَوَادّ ذَائبة في المحيطات، كما قام بدور المُلَطِّف الذي خفف من هذه الحرارة والبرودة المتطرفة، وهيأ الطقس، والظروف الملائمة لِبِدَايَاتِ الحياة، ثم تولدت بذرة الحياة في الماء، وظهرت منه إلى عالم الوجود، ومنذ ذلك الحدث الغامض السحيق في القِدَم، أخذت الحياة والماء، بوصفهما شريكين، في تغيير وجه الأرض، ومنحها ضروبا لا حصر لها من التنوع والجمال... وقاما معا، بخلق كثير من السوائل الأخرى، وجميع الكائنات العضوية، كما قاما بكساء الأرض العارية بالحشائش والغابات والأزهار، ولولا هذه المشاركة (بين الماء والحياة) لظلت الأرض دائما قاحلة مجذبة، كالقمر سواء بسواء(13)...

* * *

كلنا يعرف كمية الغذاء الهائلة التي نحصل عليها من الماء... ولكن هل فكرنا فقط، في بعض المنتجات الأقل وضوحا التي ندين لها بالفضل فيها للحياة البحرية؟..

لقد استخدم أجدادنا القدماء زيت الحوت لإضاءة منازلهم... ولكن من أين جاء زيت النفط والغاز الطبيعي اللذان نستخدمهما في تدفئة منازلنا، والبنزين الذي يحرك سيارتنا؟...

من الواضح أن كل ذلك جاء من الأرض... ولكن كيف وصل إلى هناك؟ الواقع أنه كانت هناك، منذ عصور خلت، بحار ضحلة كانت تحتوي على أعداد لا يمكن تصورها من الكائنات النباتية أو الحيوانية، أو كليهما، وقد

---

13) الماء معجزة الحياة – رقم : 10. «أساس الحياة : هواء وماء» إيلزورت توماس، منشورات دار الآفاق الجديدة بيروت. [الخزانة العامة حرف C، رقم 26185] – «الحياة والماء»: مارجيري، د. لورانس ميلي، ترجمة ثابت قصبجي [C :24043]، الخزانة العامة.

مـاتت هذه الأشكـال البـدائية، ثم دفنت فـي رواسب غطيت عندمـا هبطت المنطقة تحت الثقل المتزايد، بطبقة فوق طبقة من الرواسب الأخرى... وهذا ما نجده في بعض مناطقنا في المغرب، كمنطقة اخريبكة ومنطقة الغرب...

وقـد وجـد النفط على عمق يتجـاوز اثنـي عشـر ألف قـدم من سطح الأرض الحالي، ذلك لأن الضغط، والحـرارة، والزمن، كل هؤلاء غيروا بقـايا الحياة التي كـانت موجودة في البحـار القديمـة إلى نفط، وغاز، وإسفلت، ونحن نستخدم هذه المنتجات في أغراض كثيرة، وبكميات هائلة لدرجة أننا بدأنـا نفكر بقلق فيما سـوف نفعله عند مـا تستنفذ هذه المنتجـات، وهذه مشكلـة مـن أهم وأصعب المشـاكـل التي سيتعين على الأجيـال المقبلـة حلها(14).

إن زيت النفط، ورواسب الفوسفاط، وخام الحـديد، فضلا عن كثير من المواد الأخرى، إنما هي هبات أو إرث بالأحـرى، خلفتها لنا البحار القديمة، وأشكال الحياة الدنيئة التي عاشت فيها...

* * *

المحيطات المائية مخزن هائل للطعام :

لقد أصبحت المحيطات المائية مخزنـا هائلا للطعام، ولم تعد، كما زعم الاغريق القدماء، بحراً لا يمكن جني محصـوله، ويمكن للإنسان عن طريق هذه البحار استخلاص كميات لا تستنفد من الأملاح والبروم والمغنسيوم.

أما ظهـور الآلات، والأجهزة البحرية الـذي بدأ بالاسطرلاب والبـوصلة، وانتهى بالراديـو، والرادار، والأقمار الاصطناعية، فقد جـرّد البحر من أسوأ أهواله... وهكذا أصبح بـوسع السفن التجارية في أوقات السلم على الأقل، أن تغذو وتروح آمنة مطمئنة من شرِّ القـراصنة أو أخطار البحار المجهولة

14) «الماء معجزة الطبيعة» ص : 133.

أو أذى الأمـراض(15) التي كـانت تشيع بصفـة خـاصــة من الخضــراوات والفاكهة الحمضية الغنية بفيتامين ج.(16)

ولما كـانت قدرة الياسبة على إنتـاج الطعام محددة بالبـرد في الشمال والجنوب، وبالمســاحات الشاسعة من الصحـاري أو المناخ الجاف، فليس أمامنــا إلا الماء نلجأ إليـه للحصول على هــذا الطعام، إذ أن سبعـة أعشار سطح الأرض مغطى بالماء كما يقال إنَّ تسعة أعشار الأحياء الموجودة بها تعيش في البحر(17)...

وهذا الطعــام الذي نــاكله، إنــه من الماء، ولــذلك كانت مشكلــة الطعام ستظل دائماً مرتبطة بالماء ارتباطا لا ينفصم.

إن تزايد عــدد السكان بسرعة سيضطـرنا إلى إيجاد مزيـد من الطعام لهم... وإنســان المستقبل لابد لــه أن يتطلع إلى المــاء من أجل المزيـد من الطعام الذي سيكون في أمس الحاجة إليه...

وقد دلت التجارب الحديثة على أن بعض أنـواع الكائنات العضوية التي تعيش في الماء، تتكـون أجسامها حين تنمو في ظـروف خاصة من 70 ٪ من المواد الدهنية، فتكـون بذلك أغنى، كثيرا بهذه العناصر الغـذائية الهامة من كثير من الأطعمة المعروفة...

* * *

المحيطات المائية هي صانعة الطقس :

فــالماء وضـــوء الشمس من أكثـر الموارد الطبيعيــة غزارة ووفـرة على كوكبنا الأرضـي، وبِدمج هذين الموردـين يامل العلماء في استنباط الوقود

---

15) المصدر السابق ص 185.

16) كالاسقربوط، وهــو مرض ينشأ عن نقص فيتامين ج (حمص الاسكوربيك) في الغذاء أعراضه المميزة: نزيف في اللثة، والانيميا، والهزال، وكان هــذا المرض يشيع بصفة خاصة بين البحارة بسبب نقص ما يتناولونه من الخضراوات والفاكهة الحمضية الغنية بفيتامين: ج.

17) ص : 186.

لتشغيل الآلات والمصـانع ووسـائل النقل في المستقبل، والسـر يكمن في جزيء الماء الذي يتألف من ذرتين من الهيدروجين، وذرة من الأوكسجين، وباستخراج الهيـدروجين من الماء يمكن الحصول على الـوقود المنشود... ولكن المشكلـة، التي تعتـرض الآن تحقيق هـذه الفكـرة على نطـاق واسع تتمثل في صعـوبة استخـراج ذرتي الهيـدروجين من جزيء المـاء، إلا أن العلماء في جامعتين أمـريكيتين، وهما جامعة «كاليفـورنيا» في «باركلي»، وجامعة «تاكسـاس» الزراعية والميكانيكية، قد قطعـوا الآن شوطا كبيرا في بحثين منفصلين لاستخراج وقـود الهيدروجين من المـاء بتسخير الطـاقة الشمسية، ومع أن البحثين مختلفـان من النواحي التقنية إلا أنهما يقـومان على أساسٍ واحد، إذ يغمس في الماء قطبـان كهربائيان، وفي كلا البحثين يشحن الماء كهـربائيا بواسطـة تيار كهربـائي، أو مواد كيميائية خـاصة، ويؤدي الشَّحنُ الكهربائي إلى بدء عملية انفصال جُزَيْئات الماء، ثم يعرض الماء لضوء الشمس كـي يمتص المزيد من الطاقة، وينتـج من هذه العملية تَحَلُّل الماء إلى غازين منفصلين: الهيدروجين، والأوكسجين...

وقـد أسفرت التجـارب التي أجريت على الطـريقتين، عن نتائج تبشـر بخير كبيـر، ولكن البروفيسور «جـون بوكريس» أستـاذ الكيمياء، ورئيس قسم أبحات الهيـدروجين في جامعة تكسـاس الزراعية والميكانكيـة يقول: «كي يمكننـا أن نصنع جهازا تجـاريـا لاستخـراج وقود الهيـدروجين من البحر، قد نحتاج إلى بضع سنوات أخرى لإكمال التجارب والأبحاث، وحتى بعـد ذلك، لن يكون الهيـدروجين المستخـرج بطـريقتنا أرخص كلفـة من البترول بأسعاره الحالية، ولذا فإننـا لا نتوقع أن يعتمد إنتاج الهيدروجين بالطاقـة الشمسية على نطاق واسع قبل نهاية هذا القـرن، ولكن نرى لهذا المصدر البديل للطاقة مستقبلا كبيراً بعد اضمحلال موارد الطاقة التقليدية في الأرض...

والمحيطات المائية هي صانعة الطقس على الأرض، وواهبة الغذاء للإنسان، وهي عمق أبدي ممتد، يظل مستغلقا، ولزمن طويل على مفاهيمنا مهما تقدمت تقنياته...

فالمحيط المائي آلة جبارة متحركة باستمرار، قدرتها تصل إلى أكثر من مليار ميكاوات يوميا، يتحرك مستخدمة 1400 مليون كيلومتر مكعب من المياه لإدارة عمليات المحافظة على الأرض وحياتها، وهو يغطي، كما هو معلوم 71 في المائة من سطح الأرض باللون الأزرق الذي شاهده رواد الفضاء في المدارات الفضائية... وكتلته لا تصل إلا إلى 02.0 في المائة من كتلة الأرض، ويصل معدل عمقه إلى 4 كيلومترات في المتوسط.

وتعمل المحيطات المائية بوصفها حافظة للحرارة التي تمتص نهارا لكي تبعث ليلا، مخفضة التباين الشديد في درجات الحرارة... ففي حين تختلف درجات الحرارة على سطح الأرض من منطقة إلى أخرى بمدى يصل إلى 80 درجة، فإن التباين بين درجة حرارة المحيطات الواقعة على نفس الارتفاع لا يزيد عن 10 درجات مائوية، وتتدفق المياه البحرية بكميات كبيرة، وتتدفق معها الحرارة مساعدة على تلطيف الطقس....

الفصل الثاني :

الماء... والأرض

ينزل الماء، بأمر ربه، على الأرض الميتــة الهامدة المُقحِلة التي لا ينبت فيها شيء، فإذا بهــا تستجيب لداعي الحيــاة، بقدرة الله ومشيئتــه، وتهتز وتتحرك بالنبات، وتحــي بعد موتها، وتربو وترتفع لمــا سكن فيها الثرى، ثم تُنبِت ما فيها من الألوان والفنــون، من ثمار وزروع وأشتات النبات في اختلاف ألوانها وطعومها وروائحها وأشكالها ومنافعها...

وتعجبني صورة حيــة تدل على مــا وراءها من القــدرة المتحركــة لذلك كله، قدمهــا الدكتور العراقي كاصــد ياسر الزيدى عن العــلاقة بين الماء... والأرض، فالماء والأرض بينهمــا علاقة حميمة، ويكونان منظــراً من مناظر الحياة المتجــددة، وسنة من سنن اللــه في الكون في إخــراج شيء بسبب شيء... الماء كالرجل في علاقتــه بالأرض، والأرض كالمرأة في استجابتها له... ومــا ينبت منها أشبه بــالنسل الذي يتــولد من تزاوج الــرجل والمرأة الإحياء بالماء، أيضا ليس بعيدا عن تكوين الإنسان الأول من التراب الذي لا حيــاة فيــه، ولكن القدرة الإلاهيــة هي التي بثــت فيه الحيــاة، وخلقت فيــه الروح، فــإذا هو بشــر... هذه الصورة فــي إنبات النبــات بالمــاء، وظهوره متدرجاً من طور إلى طور، ليست بعيدة، أيضــا، عن نشوء الإنســان وتدرجه من نطفة إلى علقة إلى مضغة، بقدرة الله ومشيئــته...

اخذ المسيح عليه الســلام في يده اليمنى ماءً، وفي يــده اليسرى خبزاً، فقال: «هذا أبي، وهذا أمي» فجعل الماء أباً، لأن الماء من الأرض يقوم مقام النطفة من المرأة كما أشار إلى ذلك الجاحظ.

ولعل هذا المعنى الذي أتى بـه الدكتور العراقي وغَيـرُه، يشير إلى قول الشريف أبي الحسن الرضى الموسوي في قوله:

أرْسَى النسيمُ بِـــوادِيكُم، وَلاَ بَـــرِحَتْ
«حَـوَامِلُ» المـزن، في أجـداثكم «تَضَعُ»
ولا يـــزال «جنين» النبت «تـــرضِعُـــه»
على قبـــوركُم العَـــرَّاصَـــةُ الهَمَعُ

فاستعارة «الحوامل»، و«الـوَضْـع»، و«الإرضاع»، للمزن، والجَنِين للنبْتِ، مع نُمُوّه عن «الماء» الذي يشرب من المزن، كما يُنَمَّى الطفل عن الرضاع... غاية في البراعة...

وهذا المعنى متـداول عندنـا في الأدب العربي فهـذا حازم القـرطاجني يصف سحابة حُرّه، كثيرة المطر، ترضع النبات، وتربيه حتى ينمو، بعد أن كـانت الرُّبَـى صُلْعاً من النبـات، خـالية من العشب، فـاعتمت بهـذا النبْت، وسترها كما تستر العمامة الرأس، فصارت به فُرعاً، تامة النبات، فقال:

ومُـــــرضعٍ بِثَـــدْيِ كـل حُــــرَّة
حَنَتْ عَلَـى تَـــرْبِيبِـــه، حتى نمـــا
أضحَتْ بـــه صُلْـع الـــرُّبى مُعْتَمَّـــةً
وأصبحت فُـــرعـــاً بـــه، بعـــد الجَلَى

وسحابة حُرّة : كثيرة المطر، والمرضع : النّبت.

لقد ربط القـرآن، وبالتالي أحاديث الـرسول بين هذه الصورة المـاثلة، وصورة أخرى في عالم الغيب، هي صورة البعث والنشور، وإحياء الإنسان لملاقاة ربه، وما أعدَّ له من ثواب أو عقاب...

يقول الحق سبحانه وتعالى : **﴿يا أيهـا الناس إن كنتم في ريب من البعث، فإنـا خلقنـاكم من تـراب، ثم مـن نطفـة، ثم من علقـة، ثم من مضغة مُخَلَّقَةٍ وغير مُخَلَّقه، لنبين لكم، ونُقِرُّ في الأرحام ما نشاء إلى**

أجل مسمى، ثم نخرجكم طفلا، ثم لتبلغوا أشدكم، ومنكم من يُتَوَفّى، ومنكم من يُـرَدُّ إلى أرذل العُمُر لكيلا يَعْلَـمَ من بعد عِلمٍ شيئـاً، وترى الأرض هامدة(18)، **فإذا أنزلنا عليها الماءَ، اهتزت**(19)، **وَرَبَتْ**(20)، **وأنبتت من كل زوج بهيج... ذلك بأن الله هو الحق، وأنـه يحي الموتى، وأنه على كل شيء قديرٌ، وأن الساعـة آتية لا ريب فيها، وأن الله يبعث مَن في القبور﴾**(21).

* * *

وبذلك نجد أن مفهوم الماء يمتد إلى آفاق بعيدة، ويدل على معان هامة خطيـرة في الفكر القـرآني، هذا المفهـوم لا ينفصل عن القيم التي يجب أن يومـن بها الإنسـان، ويتخذها فكـراً له، واعتقـاداً في حياتـه، وطريقـا في سلوكه، ومنهجاً له مَدَى الحياة.

وهذا المعنى القرآني، أيضا، ورد في تمثيل الرسول عليه السلام لإمكان البعث والحشـر والنشـور، فعن أبي رزين العقيلي(22)، أنه قال: يـا رسول الله، كيف يحي الله الموتى، وما آية ذلك في خلقه؟: قال: «أما مررت بوادي أهلك مُمْحِلاً؟» قال: «بلـى». قال: «ثم مررتَ به يهتز خضـرا؟» قال: «بلى». قال: «فكذلك يحي الله الموتى، وذلك آيته في خلقه»(23).

* * *

لقد اختلفت الألفاظ التـي وصفت بها الأرض، قبل إحيائها بـإنزال الماء من السماء عليهـا، فوصفت مرات بـأنها ميتة، ومـرة بأنها خاشعـة، ومرة بأنها هامدة...

---

18) الهامدة : اليابسة لا تنبت شيئا، وقيل دارسة، فالهمود : الدروس قال الأعشى :
قالت قُتَيلةُ : ما لِجسمِك شاحِباً   وأرى ثيابَك بالياتٍ هُمَّدَا
19) اهتزت : تحركت بالنبات، وحييت بعد موتها.
20) ربت ارتفعت وزادت، أو انتفخت.
21) سورة «الحج» رقم الآية : 5.
22) واسمه لقيط ابن عامر.
23) ابن كثير – تفسير – ج : 4/ص : 618.

ففي المرات التي وصفت الأرض بأنها ميتة، وهو ما يجليه قوله تعالى: ﴿**وأحيينا به بلدة ميتا**﴾(24)، ﴿**والله أنزل من السماء ماء، فأحيا به الأرض بعد موتها، إن في ذلك لآية لقوم يسمعون**﴾(25) وقوله: ﴿**فانظر إلى أَثَرِ رحمة الله، كيف يحي الأرض بعد موتها، إن ذلك لمحيي الموتى، وهو على كل شيء قدير**﴾(26)، ﴿**وهو الذي يرسل الرياح نُشُراً بين يدي رحمته، حتى إذا أقَلَّت سحاباً، ثقالا سقناه لبلد ميت، فأنزلنا به الماء، فأخرجنا به من كُلِّ الثمرات كذلك نخرج المَوْتَى لعلكم تذكرون**﴾(27).

ووصفت الأرض مرة بأنها خاشعة، وهو ما يجليه قوله تعالى: ﴿**ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة، فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت، إن الذي أحياها، لمحيي الموتى، إنه على كل شيء قدير**﴾(28).

ووصفت مرة، وكما قدمنا، بأنها «هامدة». ويجليه قوله تعالى: ﴿**وترى الأرض هامدة، فإذا أنزلنا عليها الماء، اهتزت وربت، وأنبتت من كل زوج بهيج، ذلك بأن الله هو الحق، وأنه يحي الموتى...**﴾.

فصورة إخراج النبات من الأرض الهامدة الخاشعة والميتة التي لا حياة فيها، شبيهة بصورة إخراج الناس يوم القيامة من قبورهم التي لا حياة فيها من قبل البعث والنشور.

---

24) سورة : «ق» آية : 11.
25) سورة النحل. آية : 65.
26) سورة الروم، آية : 50.
27) سورة الأعراف، آية : 57.
28) سورة فصلت : آية 39.

الفصل الثالث :

العيون والأنهار ترتبط بالنعيم

إذا كان القرآن يعُدُّ أعظم عطاء يتنعم به المومنون يوم القيامة، هو عطاء الماء، فإنه يشير إلى أن أعظم حرمان يقاسيه الكافرون بصورة معبرة مؤثرة في قوله تعالى: **﴿وَنَادَى أصحابُ النارِ أصحاب الجنة، أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله، قالوا: إن الله حَرَّمهما على الكافرين...﴾**(29).

فإذا كان الماء أهم شيء بالنسبة للإنسان في حياته الدنيا، فهو أفضل نعيم يتنعم به في حياته الآخرة... ولأمر ما شاء الله تعالى أن تكون مساحة الماء في الأرض أكبر من مساحة اليابسة، ولأمر ما، أيضا، أراد الإسلام أن يكون الماء آخر نعم الدنيا التي ينعم بها المسلم، وأول نعم الآخرة عندما أمر بغسل الميت...

* * *

وقضية الماء، في الفقه الإسلامي، تأتي بعد قضية التوحيد والإيمان: ترتيبا في الواجبات والأولويات، وتنظيما فنيا للمنهج... فالواجب الأول – بعد الإيمان – هو : إقامة الصلاة... والصلاة لا تصح إلا بالطهارة.

نتوضأ بالماء، فإذا أعضاء الوضوء وضيئة تقطر منها حَبَّاتٌ نِطَاف في نصاعة البِلُّور.

والطهارة الأصلية إنما تكون بالماء. **﴿يا أيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة، فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق وامسحوا برؤوسكم، وأرجلكم إلى الكعبين، وإن كنتم جنبا فاطهروا﴾**.

---

29) سورة الأعراف، رقم 50.

ومن حيث التنظيم الفني في التأليف، كـان «الماء» هـو الباب الأول في كتب الفقه، نقرأ مثـلا، في كتب فقهائنا «المرشد المعين»، لعبـد الواحد ابن عاشر، «والرسالة» لأبي محمـد عبد الله بن أبي زيد القيرواني، وهي تبتدي في أبوابها الأولى بالطهارة المائية، ثم نتناول مجموع فتاوي شيخ الإسلام أحمـد بن تيميـة، فقد خصص «المجلـد الـواحـد والعشرون» الجـزء الأول بموضوع الطهارة المائية، ونقرأ في «المغنى»، لابن قدامة، بابُ ما تكون به الطهارة مـن الماء، وهو أول بـاب في الكتاب، ونقـرأ كتب الفقه والحـديث فنجدها تتحدث عـن الطهارة المائية، وتخصص لها كتابـا مستقلا كما نجد ذلك في «مختصر خليل»، ومـا كتبه الونشريسي والوزانـي في معياريهما، وهذا ما فعله الإمام مالك في الموطأ، والبخاري، كما تقرأ في «بلوغ المرام» لابن حجـر العسقـلاني، كتاب الطهـارة، «بـاب المياه» وهـو أول بـاب في الكتاب كذلك... وهذه أمثال فحسب...

* * *

والملاحظ أن القرآن حينما يذكر الجنات، فالغالب أن يذكر «الماء» معها سـواء أعبّر عن ذلك: بـالأنهار أم بـالعيـون، وهو مـا تجلى في عدة آيـات قرآنيـة، ولعله لا يغيب عـن ذهننا، ونحن نتحـدث عن نعمة المـاء، أن الله يجعل المـاء من نعيم الجنة، بل مـن أطيب نعيمها، سـواء كان للشـرب، أم لإمتـاع المنظر، وعنـدما أراد القـرآن أن يبين لنـا عظمة الجنـات وجلالهـا وجمالها، وصفها لنا بأنها: ﴿**جنات تجري من تحتها الأنهار**﴾ أنهار الماء طبعا، وليست تلـك الأنهار تجري من تحـت هذه الجنات فحسب، بـل إنها توجـد داخل الجنات: ﴿**فيها أنهـار من ماء غيـر آسن**﴾(30)، ليس ذلـك فحسب، بـل: ﴿**ويطـوف (على أهل الجنـة) ولـدان مخلـدون بأكـواب وأبـاريق وكأس من معين**﴾ كل ذلك ليبين الحق سبحـانه لنـا جليل قدر

30) سورة محمد رقم الآية 15.

نعمة الماء في الدنيا وفي الآخرة، حتى قال بعض المفسرين: إن قوله تعالى: ﴿**ثم لتسألن يومئذ عن النعيم**﴾(31)، أن المقصود بالنعيم: هنا الماء البارد... وقد قال رسول الله ﷺ: إن أول ما يُسأل عنه يوم القيامة – يعني العبد – أن يُقال له: الم نُصِحَّ لك جسمك، ونُرويك من الماء البارد... وقال الترمذي في حديث: «هذا، والذي نفسي بيده من النعيم الذي تسألون عنه يوم القيامة: ظل بارد، ورُطَبٌ طيب، وماء بارد...

* * *

حسبُ الفتى مِن عيشِه
زادٌ يبلِّغه المحلا
خُبْزٌ، وماءٌ بارد،
والظلُّ، حين يُريدُ ظِلا

وما أحلى ما قاله الآخر :

دَعِ الدنيا مذممةً، فليست
لطالبها، سوى ندمٍ وَحَسْرَه
وخُذْ منها القليلَ، يكن كَفَافاً
فَحَسْبُكَ من غِنى ماءٌ وكِسْرَهْ

* * *

إن خُبْزَ الشعِيرِ بالماء، والملـ
ـحِ، لمن يطلب النجاةَ كثيرُ

31) سورة التكاثر رقم الآية 7. انظر القرطبي في تفسيره ص : 175 – 177/2.

ولشاعر آخر :

خُبْــزٌ، ومـــاءٌ، وظلٌّ
ذاكَ النعيــمُ الأَجَـــلُّ
كَفَــرْتُ بـــاللـــهِ رَبِّي
إن قلـتُ : إنـــي مُقِـلُّ

ولأبي العتاهية :

رَغِيفُ خُبْـــــزٍ يـــــابِسٍ
تَـــــاكُلُـــــهُ فِي زَاوِيـــــةْ
وَكُـــــوزُ مَـــــاء بَـــــارِدٍ
تَشْـــرَبُـــهُ مِن صـــــافيـــه
خيـــرٌ مِنَ السَّـــــاعَـــاتِ فِي
فَيْءِ القُصُـــــورِ العـــاليـــة

* * *

وما أنعم اللـه على رسوله ﷺ في الآخرة بنعمـة أجلَّ ولا أتَمَّ من نعمة الماء، بل إنه جعلها له خاصة دون غيـره من الأنبياء عندما أعطاه له ولأمته الكوثرَ في الآخـرة فيما يحكيه القرآن: ﴿**إنا أعطيناك الكوثر**﴾(32) والكوثر نهر في الجنـة ماؤه أشـد بياضـاً من اللبن، وأحلى مذاقاً مـن العسل، عدد كيـزانـه بعدد نجـوم السمـاء من شَـربَ منـه لا يظمأ بعـدها أبـداً، وقـال الرســولﷺ: «الكوثر نهر في الجنـة، حَافَتَاهُ من ذهب، ومجـراه على الدر واليـاقوت، تـربتـه أطيب من المسك، ومـاؤه أحلى من العسل، وأبيض من الثلج».

ويبين الرســول ﷺ أن ذلك خاصٌّ بـه، وبأمته كمـا في صحيح مسلم ولكنـه يقول فيمـا يقول: «إنـه ياتي أقـوام يوم القيـامة إلى ذلك النهـر أو

32) سورة الكوثر الآية : 1.

الحوض، فتذوذهـم الملائكة عنه، كما تـذاذ الإبل الغريبة، فيقـول الرسول: ربي... ربي، إنهم من أمتي، فيقول الحق سبحانه وتعالى: لا يا محمد، إنك لا تعلم مـاذا غيروا بعـدك(33)، ولعل ممـا غَيَّره هـؤلاء بعد الـرسول عليـه السلام، أنهم لم يقدروا نعمة الله ونعمة الماء حق قدرها فحرمهم الله منها، ومن خيرها...

* * *

ثم، أليس يعـرف المومنون فـي الآخرة بأنهم : «الغُـرُّ المحجلون»(34)، يقول الحق سبحانه: ﴿**مثل الجنة التي وُعِد المتقـون فيها أنهارٌ من ماء غيـرِ آسن، وأنهـار من لبن لـم يتغيـر طعمـه، وأنهـار من خمـر لـذة للشاربين، وأنهار من عسل مُصَفّى**﴾(35)، وقوله تعالى: ﴿**إن المتقين في جنات وعيون**﴾(36)، وقوله تعالى: «إن المتقين في مقام أمين»(37).

بيد أن أكثـر الآيات التي ورد فيها ذكر الأنهـار والعيون ارتبطت بنعيم الآخرة، وعدت العيون والأنهار في الجنة من أهم مظاهر النعمة والرغد التي يثاب بهـا المومنون الصـالحون، «أولئك جزاؤهم مغفـرة من ربهم وجنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ونعم أجر العاملين»(38)، ويقول الحق سبحانه فـي آية أخرى: ﴿**بشر الـذين آمنوا وعملوا الصـالحات أن لهم جناتٍ تجري مـن تحتها الأنهار**﴾(39) أي مـاء الأنهار، وروي أن أنهـار الجنة ليست فـي أخاديد، إنمـا تجري على سطح الجنـة منضبطة بـالقدرة حيث شاء أهلها(40).

---

33) تفسير القرطبي ص 20/217.
34) الغرُّ والتحجيل : هذا سبب الماء والوضوء.
35) سورة محمد – آية : 15.
36) سورة الذاريات : آية 15.
37) سورة الدخان، آية 52.
38) سورة آل عمران : آية : 136.
39) سورة البقرة، آية : 25.
40) تفسير القرطبي ص 1/140.

ويبدو أن لذكر الجنات مقرونة «بالمياه» «والأنهار» أثراً كبيرا في تحقيق الغرض الديني... ذلك أن منظر الجنات لا يتم حُسنه، ويتكامل بهاؤه، ما لم تزينه المياه والأنهار الجارية، والعيون المتفجرة، فمنظر المياه والأنهار مع الجنات، أبلغ تأثيرا في النفس من منظر الجنات خالية من الأنهار، وهذا ما يشهد له الحس السليم، وبذلك يكون القرآن قد لاحظ ما يستهوي النفس، ويثير فيها البهجة والسرور، تحقيقاً لغرضه الخطير في الحث على الإيمان والتقوى وصالح الأعمال...

قال الزمخشري : «ولولا أن الماء الجاري من النعمة العظمى، واللذة الكبرى، وأن الجنات والرياض، وإن كانت آنس شيء وأحسنه، لا تروق الناظر، ولا تبهج النفس، ولا تجلب الأريحية والنشاط حتى يجري فيها الماء، وإلا، كان الأنس الأعظم فائتاً، والسرور مفقودا، وكانت كتماثيل لا أرواح فيها، وصور لا حياة لها، لما جاء الله تعالى الجنات مشفوعة بذكر الأنهار الجارية من تحتها مسوقين على قران واحد، كالشيئين لابد لأحدهما من صاحبه، ولما قدمه على سائر نعوتها(41).

وقد حفلت سور «الرعد» «والواقعة» «والرحمن» خاصة بأنواع من النعم في الجنة أبرزها «الماء»، فنقرأ قوله تعالى: ﴿**مثل الجنة التي وُعِد المتقون تجري من تحتها الأنهار**(42)، **أُكْلها دائمٌ وظلها، تلك عقبى الذين اتقوا، وعقبى الكافرين النار**﴾(43)، ونقرأ في سورة «الواقعة» قوله تعالى: ﴿**وماء مسكوب، وفاكهة كثيرة، لا مقطوعة ولا ممنوعة**﴾(44).

---

41) الكشاف : ج : 1/199 – 200.

42) تذكر الأنهار في القرآن الكريم في 54 موضعا موضعها في السور المدنية، فقد وردت في 35 موضعا، بينما ذكرت في السور المكية في 19 موضعا... وذكر الأنهار في الغالب مرتبط بما يجده المومنون الصالحون من النعيم في الآخرة.

43) سورة الرعد، رقم الآية : 35.

44) سورة الواقعة، رقم الآية : 33.

وكانت العـرب أصحاب بادية، وبـلادٍ حارة، وكانت الأنهـار في بلادهم عزيزة، لا يصلـون إلى الماء إلا بالدَّلْـوِ وَالرِّشاء، فوعـدوا في الجنة خلاف ذلك، ووصف لهم أسبـاب النـزهة المعـروفـة في الـدنيا، وهي الأشجـار وظلالها، والمياه واطِّرادها...

ففي سورة «الرحمن» : ﴿**ولمن خاف مقام ربه : جنتان... فبأي آلاء ربكما تكـذبان، ذواتـا أفنان، فبـأي آلاء ربكما تكـذبان؟ فيهمـا عينان تجريان**﴾(45)، أي تجريـان بالماء العذب الـزلال... إحْدَى العينين التسنيم، والأخرى السلسبيل...

لقد حفلت سورة الرحمن خاصـة، أو «سورة جمال الطبيعة في القرآن» كما يسميها الغربيون(46)، بمناظـر من النعم الأرضية التي تبهـج النفوس، وتؤثر في الأحـاسيس، ويصحبها موسيقى رقيقة مناسبـة لذلك كله، وهي تـدُلُّ على ما جعل اللـه في الأرض من مظـاهر النعم والمنـافع للعباد ممـا سخـر لمنفعتهم وخدمتهم، فممـا جاء في سـورة «الرحمن» قـوله تعـالى: ﴿**مـرج البحـرين يلتقيـان بينهما بـرزخ لا يبغيـان، فبأي آلاء ربكمـا تكذبان، وله الجوار المنشآت في البحر كالأعلام**﴾(47).

فقـد عُدّ انتفـاع الإنسان بمـا في الأرض من النعم تكريمـا له، وإعـلاء لشأنه، وإظهـاراً لمعنى الخلافة فيها التـي اختصه بها، ولذلك قـال تعالى: ﴿**ولقـد كـرمنـا بني آدم وحملنـاهم فـي البَـرّ والبحـر ورزقنـاهم من الطيبات، وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا**﴾(48).

* * *

---

45) سورة الرحمن، رقم الآية : 50.

46) سيد أمير علي : «روح الإسلام» ص : 171.

47) سورة الرحمن : آية : 20 – 21 – 22 – 24.

48) «الإسراء» رقم الآية : 70.

ومن روائع الإيجاز قوله تعالى في صفة الأرض : ﴿**أخرج منها: ماءها ومرعاها**﴾(49) فقد أغنت لفظتا: الماء والمرعى عن أشياء كثيرة في الطبيعة... وقد دل بهاتين الآيتين على جميع ما أخرجه من الأرض قوتاً ومتاعاً للأنام من العشب والشجر والحَب، والعصف والريحان واللباس والنار والملح، لأن النار من العيدان، والملح من الماء(50)... وفي روعة الإيجاز أيضا، قوله تعالى: ﴿**ولو أن أهل القرى آمنوا، واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض**﴾(51)، فقد عبّر ببركات السماء والأرض عن أنواع من النعم السماوية والأرضية متعددة متنوعة... وتلك هي الأرزاق... والقرآن لا يعبر «بالرزق» عن شيء، إلا وذاك الشيء مما يحسن ويلذ، وهو كثير في القرآن. من أجل ذلك أشار فيلسوف الإسلام المجدد محمد إقبال، فقال: «والقرآن يجعل الأرض مستقر أو متاعاً للإنسان، ينبغي أن يشكر الله عليه: «ولقد مكناكم في الأرض، وجعلنا لكم فيها معايش، قليلا ما تشكرون»..

والرزق عند أهل السنة، ما صح الانتفاع به، حلالا، كان أو حراماً، خلافاً للمعتزلة في قولهم: إن الحرام ليس برزقٍ، لأنه لا يصح تملكه، وأن الله لا يرزق الحرام، وأن الله يرزق الحلال، والرزق لا يكون إلا بمعنى الملك(52)...

* * *

لذا، كان القرآن يلفت أنظار الناس إلى النعم التي أنزلها الله من السماء، أو المخرجة من الأرض كالغيث الذي به يستبشرون ويمرعون، وكالزرع الذي تنبته الأرض، فإذا هو بواسطة الماء زينة ورزق كريم لهم ولأنعامهم،

---

49) سورة النازعات – آية رقم : 31.

50) «الاتقان في علوم القرآن» للسيوطي ج : 2/55.

51) «سورة الأعراف» رقم الآية : 96.

52) القرطبي، ج : 1/ص : 177.

ويجعل تلك النعم من آيات الله الدالـة على وحدانيته، وعلى دحض الشرك الذي كانوا به يدينون...

فالقـرآن يقول : **﴿يا أيهـا الناس اذكـروا نعمة اللـه عليكم، هل من خـالـق غيـر اللـه يـرزقكم من السمـاء والأرض لا إلاه إلا هـو فأنى توفكون﴾**(53)... ويقول الحق سبحانـه في الدلالة على توحيـده عز وجل: **﴿الله يبسط الرزق لمن يشاء من عبـاده، ويقدر له، إن الله بكل شيء عليم، ولئن سألتهم من نزل من السماء مـاء، فأحْيَا به الأرض من بعد موتها، ليقولن الله، قل الحمد لله، بل أكثرهم لا يعقلون﴾**(54).

قال الزمخشري : والرزق من السماء : المطر : ومن الأرض : النبات.

* * *

وترتبط الأنهـار، غالبا، بالنعيم، سـواء في الدنيا أو الآخرة، ففي الـدنيا ترد في قصص القرآن التي يذكرها للعظة والعبرة تتناول الأقوام السابقين، وما كانوا فيه من أفانين النعيم، وأفـاويق البذخ والترف، ولكنهم قابلوا ذلك بالجحود وعـدم الإيمان بالرسل، فلقوا العقـاب، قال تعالى: **﴿ألم يَرَوْا كَم أهلكنا من قبلهم من قَرْنٍ مكّنـاهم في الأرض ما لم نمكن لكم، وأرسلنا السمـاء عليهم مِدرارا، وجعلنـا الأنهـار تجري من تحتهم، فأهلكنـاهم بذنوبهم، وأنشأنا من بعدهم قرناً آخرين﴾**(55).

وفي قصة طالوت يقول الحق سبحانه : **﴿فلما فصل طالوت بالجنود قال: إن الله مبتليكم بِنَهَرٍ...﴾**(56)، وهو نهر بين الأردن وفلسطين.

---

53) سورة فاطر، رقم الآية : 3.

54) سورة العنكبوت آية : 63.

55) سورة الأنعام رقم الآية : 6.

56) سورة البقرة رقم الآية 249. وعين جالوت : اسمها العبري اليوم: «عين حَرُود». «وعين جالوت» قال عنها ياقوت الحموي في معجم البلدان: «عين الجالوت اسم أعجمي لا ينصرف وهي بليدة لطيفة بين بيسان، ونابلـس من أعمال فلسطين كان الروم قد استولت عليهـا مرة ثم استنقذها منهم صلاح الدين الملك الناصر يوسف بن أيوب عام 579هـ [انظر التوراة في سفر صَمُوئيل الأول في الاصحاح: 29/1 باسم عين يَزْرَعيل التي نزل عليهـا شاوول بجيشه في الحرب التي قامت سوقهـا بيـن الفلسطينيين والإسرائيليـين، وانظـر: سـورة البقرة الآيات 249 – 250 – 251 – 252].

وقد أشـار أبو العلاء إلى أصحاب طـالوت الذين ذكرهم اللـه في الآية السابقة بقوله :

سَقيـا لِـدِجلـةَ، والـدنيـا مفـرقـةٌ
حتى يعـود اجتمـاعُ النجم تشتيتـا
وبعـدهـا لا أحب الشـربَ من نَهَـر
كأنمـا أنـا من أصحـاب طَـالُـوتَـا
ذمَّ الـوليـدُ، ولم أذمم بـلادَكم
إذ قـال مـا أنصَفَت بغـداد، حُـوشِيتَـا

وَحُوشِيتَا : معناها : نُزِّهْتَ. وهو دعاء.

وفي الحكايـة عن غرور فرعـون بما لـديه من نعيم، يقول اللـه تعالى: ﴿**وَنَادَى فـرعون في قـومه قال: يـا قوم، أليس لي ملك مصـر، وهذه الأنـهار تجري من تحتي، أفلا تبصرون**﴾ (57).

وفي قصة الرجلين صـاحبي الجنة اللذين كان أحدهما شـاكرا، والآخر جـاحداً، يظهـر النهر كمثل على النعيـم الذي كـان يحظى به كل منهمـا : ﴿**كلتـا الجنتين آتت أكلهـا، ولم تظلم منه شيئـاً، وفجـرنـا خلالهمـا نَهَراً...**﴾(58).

* * *

ولعل أهم ما يميـز ويثير اهتمام، ويلفت النظر في الاستفـادة من نعمة الماء هو ربط القرآن لسلوك الإنسان بنعمة الماء، وجعل نزولها وانقطاعها، متوقفين على صلاح الإنسان في هذه الحيـاة، أو عدم صلاحِه فيها، فجعل ذلك المفهوم، مثلا، حكاية على لسان نوح عليه السلام، وهو يخاطب قومه قائلا: ﴿**ويا قوم، استغفـروا ربكم، ثم توبوا إليه، يـرسل السماء عليكم**

57) سورة الزخرف رقم الآية 51.
58) سورة الكهف رقم الآية 33.

مدراراً، وَيَـزِدْكُم قوة إلى قوتكـم، ولا تتولـــوا مجرمين﴾(59) أو حديثـا عمـا سلف من الأمم: **﴿ولو أن أهل القـرى آمنوا، واتقـوا، لفتحنا عليهم بـركـات من السمـاء والأرض، ولكن كـذبـوا فـأخـذنـاهم بمـا كـانـوا يكسبون﴾**(60)...

* * *

بِمِثْل هذه الآيات الكريمات نقل القرآن الفكر البشري نقلة واضحة، نقلهُ من التدجيل بـالسحر والطلاسم والكهانـة التي يعمد أصحابهـا إلى تحريك قوى الطبيعة وتسخيرهـا، إلى الإيمان، والعمل الصالح، والسلوك الصحيح الذي هـو مفتاح كل خيـر وبركـة تنزل من السمـاء، أو تخرج من الأرض، وهو مفهوم يبـدو على جانب كبير من الأهمية، إذا مـا قيس بما سبقه من مفاهيم لدى الأمم الأولى(61)...

وقد وصف شراب الجنة بأنه طهـور يفيد التطهير عن أوضار الذنوب، وعن خسائس الصفـات كالغِل والحقد والحسـد، فإذا شربوا هـذا الشراب، يطهرهم اللـه من رحض الذنوب، وأوضـار الاعتقادات الذميمـة، فَجَاؤا إلى الله بقلب سليم، ودخلـوا الجنة بصفـات التسليم، وقيل لهم حينئذ: **﴿سلام عليكم، طبتم، فادخلوها خالدين﴾**(62)...

وقال على كـرم الله وجهـه في قولـه تعالى : **﴿وسقاهم ربهم شرابا طهوراً﴾**(63): إذا توجه أهل الجنة إلى الجنـة، مروا بشجرة يخرج من تحت ساقهـا عينان، يشـربون من إحـداهما، فتجـري عليهم بنضرة النعيـم، فلا

---

59) سورة هود رقم الآية : 52.

60) سورة الاعراف رقم الآية : 96.

61) «الطبيعة في القرآن» ص : 84.

62) سورة الزمر آية 73.

63) سورة الإنسان، آية : 21.

تتغير أبشـــارهم، ولا تتشعت أشعارهم أبَـداً، ثم يشربـون من الأخرى، ثم تستقبلهم خزنــة الجنة، فيقـولون لهم: ﴿**سلام عليكم، طبتم، فـادخلوها خالدين**﴾(64).

و«الشراب الطهور»، هو البالغ في نقائه من القذى والشوائب المادية، أو المراد طهارته مما يكون في الأشربة الدنيوية من الأضرار، وسوء التأثير.

* * *

يصف أبو العلاء المعري(65) تلك الأنهار المـائية التي تختلج مـن ماء الحيـوان فيقول: «وتجـري في أصـول ذلك الشجـر، أنهار تُخْتَلَجُ من مـاء الحيوان، والكوثر يَمُدُّهـا في كل أوان، مَن شَرِبَ منها النُّغْبَة(66)، فلا مَوْتَ، قد أَمِنَ هنالـك الفَوت، وَسُعُدٌ(67) من اللَّبَن مُتَخَـرِقات، لا تُغَيَّرُ بـأن تطول الأوقات، وجعافِرُ(68) من الرحيق المختوم، عَزَّ المُقْتَدِرُ على كل محتوم، تلك هي الرَّاحُ الدائمة، لا الذميمة ولا الذَّائِمـة، بل هـي كما قال: «علقمة» مفتريا، ولم يكن لعفو مقتريا(69):

تشفِي الصُّـداعَ، ولا تـؤذيـــه صَـالبُهـا
ولا يخـــالط منهـا الـــراسَ تـــدويم(70)

* * *

أمـا حديث المـاء في آداب الأمم، فغايـة في الاستفاضـــة، وموقعـه في الأدب العــربي جاهِلِيـه وإسلامِـه، في البداوة والحضـارة موضع التصـدر

64) الجامع للأحكام القرآن، للقرطبي ص : 147/ 19.

65) رسالة الغفران : ص : 141. وماءُ الحيوان : أي ماء الحياة.

66) النخبة : الجرعة من الماء.

67) سُعُد ج سعيد : مجرى الماء الصغير.

68) الجعفر : النهر.

69) المفتري : الكاذب، مـن الافتراء، والمقتري : الطالب القـاصد. وعلقمة : هو علقمة الفحـل، شاعر جاهلي عُمِّرَ طويلا، مشهور بالمناظرة بينه وبين امرىء القيس.

70) صَالِبُهـا : صُداع الحُمَّى وغيـرها، جعله هنـا بمعنى شدة الخمـر وفعلها في الـرأس. التدويم : دَوَرَان الخمر في الرأس، أو هو السكر وسورته.

والتقدم، كموقع التشبيب بـالنساء الحسان، وأوصاف الطبيعـة الأنيقة فيه، وهـو فيما تجـري بـه الألسن أول: ثلاثـة تنفي عن النفس الحـزن، وهي: «الماء، والخضرة، والوجه الحسن».

ويبـدو الافتتان بـه في الأدب العـربي بالغ الـروعـة في هذه النعـوت والتشبيهـات والأوصـاف، وفي مضافـاتـه الكثيـرة التي ابتكرهـا الكتـاب والشعراء، فأبدعوا الإبداع كله(71).

وبديهي أن هذه «الثقـافة المائية» غيـر محصورة في الأدب القديم، ولا سيما في المعلقات... فالشعر العربي – كمـا سنرى – رقراق بالماء، بوجه عام، فالنابغة الحارثي يقول:

ونحق حق شـــربينـا في مـــائنـا
حتى يكـــون كأنـــه أسقـــانـــا

ويقول زيد بن عمرو :

وأسلمـتُ وجهـــي لمـن أسلمـــت
لـــه الأرض تحمل صخـرا ثقـــالا
دحـــاهـــا فلمـــا رآهـــا استـــوت
على المـاء أرسى عليهـــا الجبـالا
وأسلمـت وجهـــي لمـن أسلمـــت
لـــه المـــزن تحمل عـــذبـــا زلالا
إذا هـــي سيقـت إلـى بلـــــــــدة
أطـــاعت، فصبّ عليهـــا سجـــالا

وثلاثـة يجلين البصر : النظر إلى الخضرة، وإلى المـاء الجاري، وإلى الوجه الحسن...(72)

---

71) «محمد بهجت الأثري» مقدمة لكتاب : الماء وما ورد في شربه من الآداب.
72) «كشف الخفا» ص : 2/386.

وقد قال رسول الله ﷺ : ثلاث يزدن في قوة البصر: النظر إلى الخضرة، وإلى الماء الجاري، وإلى الوجه الحسن.

وقد ألف جمال الدين بن عبد الرحمن السيوطي كتاباً بعنوان : «النضرة، في أحاديث الماء، والرياض، والخضرة.(73)

وأنشد الشهاب الخفاجي لأبي الوفا العرضي قوله :

بِوَرْد الخد، ريحان محيط
وتركي حبه لا أستطيع
وقلت النفس خضرا، يا عَذولي
كما قد قيل : والزمن الربيع

وفي ذلك ما قال ابن الخطيب : مررت يوما بشيخنا أبي البركات ابن الحاج ببعض مسالك غرناطة، فأنشدني من نظمه :

غرناطة ما مثلها حَضْرَه
الماء والبهجة، والخُضْرَهْ

واستجازَني رحمه الله تعالى، فقلت :

سكانُها، قد أسكنوا جنةً
فهم يُلَقَّوْن بها نَضْرَهْ(74)

قال الخفاجي : وهذا مثل عَامِّي يقولون : «النفس خضراء، تشتهي كل شيء» وقولهم تشتهي إلى آخره مفسرة لخضراء، وكان أصله ما ورد في الحديث أن أرواح الشهداء في أجواف طيور خُضْر، ترتع في الجنة...

---

73) وقد نسبه السيد مصطفى بن عبد الله – حاجي خليفة في كشف الظنون، وجميل العظم في عقود الجوهر، والبغدادي في هدية العارفين... منه مخطوطة بالتيمورية مكتوبة بخط قديم نفيس، وأخرى بخزانة ابن يوسف بمراكش ضمن مجموع.

74) أزهار الرياض ص : 272/1 نفح الطيب ص : 482/6.

والأصـوب أن يقـال : إن أصلـه : ثلاثـة تـذهب عَنْكَ الحَـزَن : «المـاء والخضــرة، والـوجــه الحسن» ومعنى أن النفس خضـــراء، أي تميل إلى الخضرة بالطبع.(75)

* * *

غياب عنصر الماء : معناه الذبول والفناء...!

فغياب هذا العنصر الحيوي الذي يعتبر «إكسير الحياة»، وسر الوجود، معناه الذبـول والموت والفناء.! ولعل هذا المعنى، هـو الذي المح إليه الحق سبحانه وتعالى في هذه الآية الكريمة من سورة «المـلك» حيث يقول: **﴿قل أرأيتم إن أصبح ماؤكم غَوْراً... فمن ياتيكم بماء معين؟﴾** إذ لم يشأ الله أن يختم آيات التهديـد والإنذار، التي خاطب بها المشـركين المكذبين بغير كلمة تـذكير، يستميل بهـا قلوبهم، ويستلين عَـرَائِكَهُم، فهو سبحــانه يمُنُّ عليهم بالمـاء الذي جعلـه يجري تحت مـواقع أبصارهم، وعلى مقـربة من تناول أيـديهم، هـذا الماء الذي فجـره الله من الصخـر الصلد، فخـرج من الأرض، وانبسط من حولهـا، فنقع غلتها المحـرقة، قبل أن ينقع غلـة القوم الظماء، وسال على ظهـرها بمحض قدرته تعالى، ومحكم تـدبيره، فلو أراد اللـه تعالى أن يغيض ذلك المــاء، ويـذهب في الأرض، بحيث لا يمكنهم أن يتـوصلـوا إليه، فمن يقـدر على إيجـاد مـاء لهم يسقي زروعهم، ويغـذى ضروعهم، ويُطفىء عطشـهم؟ فمن رحمته تعـالى تسهيل أمر السقي عليهم بخلق الماء، وسلكه ينابيع في الأرض، ثم خروجه وجريانه على وجهها...

وكما أن الماء هو مادة الحياة للبشـر، مثال من أمثلة رحمته تعالى، هو أيضاً، مثال مما يتوكل النبي والصحابة عليه سبحانه وتعالى في تناوله من مجاريه والانتفاع به عن كثب...

---

75) «خلاصة الأثر»، للمحبي ص : 1/150.

الحياةُ بالماء... والتعذيب بالماء !

قـد يـذيق اللـه عبـاده العاصين لبـاس الجـوع والخـوف، لعصيـانهم وتمردهم، بإمساك السُّقْيَا، وتـوقُّف الحَيَا، فتمسك السماء عن إنزال الغيث، أو يعذبهم الله بـالطوفان والفيضـان الـذي يهلك الحرث والنسل، أو يذيقهم الماء الحميم بالإحراق...

فكما أن المـاء صديق الإنسان، فإنـه – أحياناً عـدوٌّ له، فالجليـد الذي يحفظ الطعام يُغرِق عَـامِرَات المحيط، والثلوج يمكن أن تكون خيـرا وبركة وتزكية لوفرة المياه في باطـن الأرض، ولكنها تسد الطرُق، والطوفان الذي يعم الأرض، ويـذهب بالمـاشية، ويخـرب الـدور والبيوت، كمـا حصل في الفيضانات المهُولـة الخطيرة، التي أجمع الكل على أنها لم يسبق لها مثيل، وذلك يوم 17 غشت عام 1995 على إثر الكارثة المـائية التي ضربت مناطق أوريكة، و«ستي فاطمة» مـولاي إبراهيم أسنى، وَرْغَان أمليل بإقليم الحوز بمراكش، والتي كـانت بسبب الرعود والبـروق وما أعقبَهَما من فيضـانات خطيرة، أَوْدَت بـوفاة أَكثـر من مائتي شـخص ونحـو من 300 شـخص في عداد المفقودين، علاوة على الخسائر المادية والبشرية الجسيمة التي كانت بسبب طوفان الماء، وما إلى ذلك.

صـــور هـــذه المأســاة والمُصــــاب الجلل الـذي حلَّ بأوريكـة فطمس معالمها، الشـاعر محمد الحلوي في قصيده الرائع حيث قـال وهو يخاطب «أوريكة»:

فجيعتُكِ النكـراء، أفْقَــدَتِ الصَّـبْـرَا
ومأســاةُ مَن ودّعتِ ضِقْنَـا بِهَـا صَـدْرَا

فكيف استحالت جنتي بعد أنسها
خرابا وعادت بعد بهجتها قبرا
وأية ريح صرصر عصفت بها
وسيل أتى جاء يقتلع الصخرا
ورعد تميد الأرض من صعقاته
وموت يذيق الناس من كأسه المرا
كصيحة عاد دمرت كل عامر
فلم ينج منها من أقام ومن فرا
تهاوت مبانيها العجاف كأنها
هشيم وقد كانت لساكنها قصرا
ومن لم يمت فيها غريقا فقد قضى
بما أبصرت عيناه من هولها ذعرا
ولولا رجال من بنيها بواسل
تحدوا هوادي السيل واقتحموا الوعرا
لما سلم الناجون من قبضة الردى
وخطب مهول كاد يطمرهم طمرا
فكم من غريق لم يجد يد منجد
هوى في مجاري الموت واستقبل القعرا

كما أن الماء يكون موظفا لعذاب العاصين في الدنيا والآخرة، ورحم الله المعري إذ يقول:

وهل يجودُ الحَيَا أنَاساً
مُنْطَوِياً عنهمُ الحياءُ

* * *

في كتاب الله صُوَر حية ناطقة بعذاب الماء الذي يشوي الوجوه، كقوله تعالى: ﴿**وإن يستغيثوا يُغاثُوا بماء كالمُهْل يشوي الوجوه**﴾،(76) وقوله تعالى: ﴿**يُصَبُّ من فوقِ رؤوسِهم الحميم**﴾،(77) ﴿**ثُمَّ إنَّ لهم عليها لَشَوْباً من حَمِيم**﴾،(78) وقوله سبحانه: ﴿**يُسْحَبون في الحمِيم، ثم في النار يُسْجَرُون**﴾،(79) وقوله سبحانه: ﴿**إن شجرة الزقوم طعامُ الأثيم، كالمُهْلِ تغلي في البُطُونِ كغلْيِ الحميم**﴾،(80) وفي قوله تعالى: ﴿**كَمَن هُوَ خالدٌ في النار، وسُقُوا ماءً حميماً، فقطَّع أمْعَاءَهم**﴾،(81) وقوله جل وعَلاَ: ﴿**فَمَالِئُون منها البطونَ، فشارِبون عليه من الحميم، فشارِبُون شُرْبَ الهِيم**﴾،(82) ﴿**فَنُزُلٌ من حميمٍ، وتَصْلِيَةُ جحيم**﴾،(83) وقوله: ﴿**لا يذوقون فيها بَرْداً، ولا شراباً، إلا حميماً وغسَاقاً**﴾،(84) ومنه قوله تعالى: ﴿**تُسْقَى مِنْ عين آنية**﴾،(85)

* * *

ويقال بأن بعض القبائل المتوحشة، تعاقب مُذْنِبيهَا بالشرب القسري للماء، وقد حكت آلهة الإغريق على «تتالوس» لأسباب ليست واضحة، بأن يموت عطشاً إلى الأبد، عندما وضعوه في بحيرة تحت الشمس، والماء

---

76) سورة الكهف : آية : 29. المهل : ضرب من القطران [انظر القرطبي ج : 10/ 394.

77) سورة الحج : آية : 20. انظر القرطبي : ج : 12/ص. 27.

78) سورة الصافات : 67. الشَّوْبُ : الخلط – القرطبي ج : 15/ص : 87.

79) سورة «غافر»، آية : 72.

80)سورة الدخان آية : 46.

81) سورة محمد آية : 15.

82) سورة الواقعة : آية : 55.

83) سورة الواقعة : آية : 93.

84) سورة : عم، آية : 25. الحميم : الماء الحار، ومنه اشتق الحمام، ومنه الحمى ومنه: «وظل من يحموم».

85) سورة الغاشية، آية : 5. الآني : الذي انتهى حره، من الإيناء، بمعنى التاخير ومنه: آنيت، وآذيت، وفي التفاسير: «من عين آنية» : أي تناهى حرّها.

يرتفع حتى شفتيه، فإذا انحنى يرتوي منه، انحسر الماء إلى قدميه... وإلى الأبد... أو أجلسوه عند مدخل كهف، وأسقطوا فوق رأسه حجراً، يكون له دَوِيٌّ هائل، ولكنه يتوقف بالقرب من رأسه، فيعيش «تتالوس» في خوف أبدي!!!(86)

وصدق الله العظيم : ﴿**إلاَّ كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إلى الماء ليبْلُغَ فَاهُ، وَمَا هُوَ بِبَالِغِيه...**﴾.

ويقول الإمام علي : «هو كالعطشان، على شَفَةِ البِئر، فلا يبلُغُ قَعْرَ البئر، ولا الماء يرتفع إليه...

ولقد قال الشاعر الرقيق سَنَاء المُلك :

أموتُ غَراماً، حين أُحْرَم وَصْلَ مَن
هَوِيتُ، وأحيا فرحةً حين أرزق
وإن الفتى يحيا بما قد يُميتُه
فبالماء يَحْيَ، وهو بالماء يرزق

وبعض ماء المطر يكون، وفي وقت واحد، دُرّاً... وسُمّا...! بِاستعداد المحل، وعدمِ استعداده، ولعل المراد بذلك الماء، هو ما ينزل من السماء في شهر نيسان (أبريل)، وفي ذلك يقول شاعرهم:

أرَى الإحسانَ عند الحرِّ دَيْنَا
وعند النَّذْلِ مَنقَصةً وذَمَّا
كَمَا النيسانِ في الأصْداف دُرٌّ
وفي جَوْف الأفاعي صار سُمّا...!

أي كماء نيسان...

86) «صالون العقاد»، لأنيس منصور ص : 575.

وفي نفس السياق والمعنى يشير الشيخ محمد بن عيسى الخليفة الوائلي البحريني، وهو يمثل الناس بالماء، فيقول:(87)

فالنـاسُ مثلُ الماء، عـذبٌ سـائغٌ
يُحْي، ويَشفي غُلَّـةَ الـوُرَّاد
ومِنَ الميـاهِ، معـادنٌ مَـوبُـوءَةٌ
وحميمُهـا يسـري إلى الأكبـاد

* * *

وللماء مكَانَتُهُ وقدرُه العظيم، فليسَ أشـرَفُ «للمَاء» من أنْ جَعَلَ اللّـهُ تَعالى عليه عَـرْشَـه، كَما قـال سبحانـه : ﴿**وهـو الذي خلقَ السمـاوات والأرض في ستةِ أيامٍ، وكانَ عَرشُهُ علَى المَاء**﴾.(88)

وذَكَرَ المُفَسِّرون أنَّ أوَّلَ الأشْيَاء وُجُوداً في الكَوْنِ : هما :«العَـرْشُ» و«المَاء»... وكَلِمَة «كان» في الآيةِ الكَرِيمَة، لاتمْنَع استمرارية هَـذا الحدَث العَظِيم... كَمـا أنَّ كَلِمة «على» تَـدُلُّ على أنَّ أوَّلَهُما وُجوداً هُو المَاء... وأضاف: وقد زاد الله المَاءَ تَشْرِيفاً بأن ياتيَ الله سُبْحانَهُ مُحاطاً بالغَمَامِ يَوْم القيامة، مصْداقاً لِقَوْلِهِ تَعَالى: ﴿**هَلْ ينْظُرون، إلاَّ أنْ يأتيهُم اللهُ، فِي ظُلَلٍ من الغَمَامِ، والمَلائكَةِ وقُضِيَ الأمْرُ، وإلى اللهِ تُرْجَعُ الأمُور**﴾(89)

* * *

وعَوْدٌ على بدء، فبفضل الماء يتبدَّى البستانُ الناضر الذي يهتز بصنوف الأشجار، وأفانين الأزهار، ويتراءَى في ألوان من النبات، مشتهيات وغير مشتهيات من هائج وعميم، وبَارِضٍ وجَميم، وكروم

87) الديوان ص 157.
88) سورة : «هود»، آية : 7 . ـ القرطبي، ج : 9/ص : 8.
89) سورة : «البقرة» : 210 ـ القرطبي، ج : 3/ص : 25.

وأعناب، وسنـابل وأعشاب، تفيـض أرجاؤهـا بالجداول والغـدران، والقني والخلجـان، والريـاض والغياض، حيثُ تَتَجلَّى الـدنيَا، بأبهجِ مـا رأتْ عينٌ، وصَوَّرها خيَالُ الشَّاعر..

* * *

وما أروع تلك الفلسفة الحياتية لذلك البدوي الطيب الذي اكتفى من قلَق الوجود بالتمر والماء، ومراقبة شروق الشمس وغروبها !!..

ومـا العيشُ إلا نــومـةٌ وتشـرُّقٌ،

وتمــرٌ على رأس النخيـل، وَمَــاءُ

الباب الثاني :

اللغة العربيـة... أغنى لغات العالم

> «... الكلم نفسةُ طافح بحمد آلاء «الماء» نقول :
> إننا «نتعطَّش» إلى الحقيقة... ونتحدث عن «السلاسة»
> التي تطبع القول، ونتدفق أحياناً «بسيل» من الكلام
>
> «بول فاليري»

اللغــة العربيــة من أرقى لغــات العــالم، وذلك بكثــرة مُــرونتها، وسعــة اشتقاقها.... فالمرونة التــامة، والاشتقاق والقلب والمجاز والنحت، والإبدال، هو الذي جعل اللغة العربية تستطيع أن تكـون لغة القرآن الكريم، والحديث الشريف، ومــا فيهما من مَعَــانٍ في منتهى السُّمُو والـرفعة، فهي بــالنسبة لغيرها من اللغات، أَوْفَرُ وأغنى، وأكثر مُرُونَة.

والعرب هم الـذين حملوا لغتهم معهم، حيث يسكنـون، وحيث يفتحون، ويقرر دارسوا اللغــات السامية أنها من أرقى لغات العــالم، وأهلها يملكون «ثقافــة مائيــة»، تتجلى في وفرة المــادة اللغويــة في هذا البــاب، فهي في مقدمة اللغــات جميعا، تعبيراً ودلالة، وتصــوراً للمجتمع الذي لهج - ويلهج بها...

وما كان لغة في دنيانا هذه، أن احتفلت بنعمة الماء، احتفال لغة التنزيل بها، ومــا كان لأدبٍ ممــا يضطرب فيــه الناس في عــالمنا، أن تشــرق فيه صفحات مبــاركة على ما أشرقت الصــور الوضيئة في الآيات الكـريمة في إكبارها للرحمة مُصَوَّرةً في الماء...

وقد قسمنا هذا الباب إلى فصلين :

الفصل الأول : ويتناول مادَّة الماء اللغوية.

الفصل الثاني : ويتحدث عن التراكيب والاستعمالات المجازية للماء.

الفصل الأول :

مادة الماء اللغوية

انتشرت لغتنا العربية انتشاراً رائعا في العالم بالسرعة التي لم تعرف لأي لغة تنتشر من غير سلطة سياسية، ومن غير استعمار... لقد أصحبت اللغة العربية، لغة العلم، ولغة الثقافة، ولغة التأليف... وتغلغلت في أحشاء العالم الإسلامي... وكان المسلمون في كل رقاع الأرض وبقاع الدنيا يتنافسون في تعلمها، وفي التضلع منها... كانوا عجماً بالثقافة، وبالوراثة، وباللغة وبالنشأة... ولكنهم كانوا يوثرون هذه اللغة للكتابة، والتفكير، والعلم والفلسفة...

* * *

ولقد كانت هذه اللغة العربية غنية بألفاظها وكلماتها وقواعدها ونحوها وصرفها... وقد عبر عن ذلك الأستاذ «نولدكه»(*) خير تعبير، إذ يقول: «إنا ليتملكنا الإعجاب بغنى معجم اللغة العربية القديم، إذا ذكرنا مقدار بساطة الحياة العربية وشؤونها، وتوحد مناظر بلادهم، واطِّرادها اطرادا يدعو إلى السأمة والملل... وهذا يستتبع، حتماً، ضيق دائرة التفكير، ولكنهم في داخل هذه الدائرة الضيقة، وضعوا لكل تغير، وإن قَلَّ، كلمة تدل عليه...».

وهذا مستشرق آخر، هو أمين عبد الكريم (Michel Barbat)، الذي اعتنق الإسلام، ويدير اليوم معهد الدراسات العربية والإسلامية بجامعه ستراسبورغ الفرنسية، وهو متخصص في اللسانيات العربية وفقه اللغة، تحدث عن اللغة العربية، فقال:

(*) نُولِدِكي (ثيودور) (NOELDEKE) (1836 – 1930) ولد في همبورغ، من مشاهير المستشرقين الألمان، اشتغل خصوصاً باللغات السريانية والعربية، والفارسية، «له تاريخ القرآن»، و«في نحو العربية الفصحى» و«أبحاث جديدة في علم اللغات السامية».

«...لقد تعلمت إلى جانب اللغة الفرنسية عدة لغات منذ الصغر، لكن، عندما تعاطيت للغة العربية، اكتشفت أنني كنت أرى بعين واحدة، فصرت أرى بعيون الكون كله، والفضل لبديعها سبحانه وتعالى... توغلت في أعماقها، بحب وشغف، وصادفت المحاسن والدُّرَر، إنها لغة غنية جداً، غذّت فكري ووجداني، ودفعتني إلى الخوض فيها بكل جهد وحماس، فجمعت طيلة حياتي حقائق علمية ثرية ومهمة، أكدت لي أن العربية الفصحى لغةٌ ليست، فقط، لماضٍ متألِّق، وإنَّما أيضا، لمستقبل العالم بأسره، شرقا وغربا، إنها لغة فكر وروح وحضارة أفضل للبشرية جمعاء...

هذا رجل منصف يخالف ما يذهب إليه بعض المستشرقين الذين يجعلون من أهدافهم التشكيك في قدرة اللغة العربية على مسايرة التطور العلمي، لنظل عَالَةً على مصطلحاتهم التي تُشْعِرُنَا بفضلهم وسلطانهم الأدبي علينا، وتشكيكهم في غِنَى الأدب العربي، وإظهارِهِ مُجْدِباً فقيراً، لنتجه إلى آدابهم، وذلك هو الاستعمار الأدبي، الذي يبغونه، مع الاستعمار العسكري الذي يرتكبونه...

وتلك هي الأهداف العلمية التي يَعْمَلُ لها أكثرهم أو جمهرتهم الساحقة.

* * *

وأرى أن لغة العرب كانت غنية ذات دلالة على رقي وحضارة... وثروة وغناء... لأن وضع اللفظ على الشيء دليلٌ على وجوده... ولعمري، إنه لا يمكن أن يكون تمدُّن لغوي، إلا بعد تمدن اجتماعي، راقٍ في حقيقته، وإن لم يرقَ في شكله، عامٌّ في أثره، وإن لم يعُمَّ في أهله...

صحيح أن العرب في عصرهم القديم كانوا أغنياء في الحدود التي رسمتها لهم بيئتهم، فأنت ترى غِنىً في رحاب اللغة فيما يتعلق بالصحراء والخيل والجمال، وما يتعلق بالمشاعر الجياشة، والأحاسيس الدقيقة،

كما ترى ثـراء واسعا عريضا في اشتقـاقها، وتصريف كلماتهـا بما يشعر شعورا تاما بغنى اللغة العربية وصلاحيتها للبقاء...

وإنّ الـذي مـلأ اللغـاتِ محـاسنـاً
جعل الجمالَ وَسِـرَّه، في «الضاد»

* * *

ومن يتتبع المعـاجم اللغويـة القديمة، ويتسقـط ما ورد فيها مـن مادة لغويـة لها عـلاقة بالمـاء، يدرك ما وصل إليـه علم العرب في هـذه المادة بالذات... فالمـادة اللغوية مظهر كبير للحياة العقليـة والاجتماعية للمجتمع البشري في أي عصر من العصور.

ولو أنك ذهبت إلى تجريد الماء في أدبنا القديم، لكان لك من ذلك سفر عظيم، فـالعرب قد أدركـوا حاجتهم إلـى الماء إدراكـا خاصا، فخلعـت هذه الحاجة على أدبهم رُوَاءً وبَهاءً، تصرفـواْ إلى معاني الخير والجمال، وسائر ألوان الحياة...

ولارتبـاط حياة العـرب بالمطـر والمـاء كثرت الألفـاظ المتعلقة بـه في لغتهم... ففي معاجم اللغـة ألفاظ كثيرة في معنى المطر، مثـلا، وفي أمور تتعلق بـه في مثل السحاب وأنـواعه، وأسمـاء قطَعِـه، وما شـاكل ذلك من ألفاظ وأسمـاء، تمثل لك مدى عنايـة العرب بـالمطر والماء لشـدة حاجتهم إليه...

ولا أدل على ذلك، ذلك التعلق العربي القـديم «بالماء» في شبه جـزيرة العـرب، من هذه الكثـرة المطلقـة من الألفاظ والتعبيـرات التي يـزخر بهـا المعجم العربي القديم، والتي تتصل بالمـاء، سواء في شكل أسماء خاصة، أو صفات معينة، تستعمل على سبيل الحقيقة أو المجاز، ومن المعروف أن الثروة اللغويـة التي تضمها معاجمنا القديمـة قد جمعت أول ما جمعت من أصقاع شبه الجزيرة العربية...

لقد رَاقب العـربي القديم المـاء في جميع أحواله، منـذ نشأته سحـاباً، ونزولـه مطرا، وانسياحه في الأرض سيـلاً، والتجائه إلى الأماكن الجـوفية مـاء مخزونـاً، وظهـوره في الآبـار والعيون والمنـاهل والأحـواض، وحتى وصوله إلى فم المخلوق الذي يرتوي منه، أو الزرع الذي يرويه...

ولكل حالة من هذه الأحوال مئات الألفاظ والتعبيرات تستعمل حقيقة أو مجازا، فإذا نظـرنا إلى السحاب مثلا، وجـدنا العربي القديم يحـدق النظر فيه؛ فيراقب السحابة منذ نشأتها ويتابع تطورها وحركتها في السماء حتى تسقط المطر، ويسجل كل موقف من مواقفهـا، وكل طور من أطوارها، وكل لون من ألوانها في أحوال النشـأة والاكتمال، وفي أحوال التفرق والاجتماع، وفي أحوال الكبر والصغـر، والرقة والضخامة، ومن حيث علاقتُهـا بالبرق، واشتمـالها على الـرعـد، وخلوهـا منـه، فلكل موقـف من المواقف أسمـاء وصفات ولكل اسم مجاز يشتق منه ليدل على مواقف الحياة المختلفة(1)...

* * *

إن الباحث المختص في جغرافية الأنهار والـوديان وضروبها وصفاتها ليجد مـادة لغوية واسعـة في موضـوع: أسمـاء الوادي ونعوتـه، ومجاري الماء ومستقره، وأنواع السحب والغيوم في المعـاجم اللغوية، ولا سيما في «المخصص لابن سيده(2) الذي لم يجر على طريقـة اللغويين الذين سبقوه، إذ لم يقتصر على المادة اللغوية، بل تجاوز ذلك، فصنف المادة اللغوية من حيث اتصالُهـا بالعلوم الحضاريـة المختلفة، وكان له أن عـرض مواد ذات ألوان علمية مختلفة إلى جانب قيمتها اللغوية.

* * *

---

1) الإنسان والماء في جزيرة العرب... للأستاذ أحمد الضبيب..
2) المخصص ج : 10 / 101 – 112.

مادة «ماء» اللغوية :

ولناخذ، مثلا وحيداً، على ذلك، وهو كلمة : «ماء»... فما عند العرب في مادة هذه الكلمة التي نحن بصدد دراستها..؟

«فالماء» كما هو معلوم : أصله «مَوَهَ» أعِلّت عينُه بإبدالها ألفا لتحركها، وانفتاح ما قبلها، وأبدلت هاؤه همزة لاتحاد مخرجيهما، فقلت «ماء»، الألف الأولى عين الفعل، وبعدها الهمزة التي هي بدل من الهاء، وبعد الهمزة ألف بدل من التنوين...

يقول الفراء : سمعت الكسائي يقول : إنه سمع : اسقني شربة ما (بالقصر) يريد شربة ماء.

قال أبو الحسن : لا يجوز أن يكتب الا بألفين عند البصريين، وإن شئت بثلاث، فإذا جمعوا أو صغروا ردوا إلى الأصل، فقالوا «مُويه»، «وأمواه» «ومياه»، مثل جمال وأجمال...(3)

والدليل على أن لاَمَهُ، هاء، جمعه على مياه، وأمواه، وربما أعلوها، أيضا، في الجمع فقالوا: أمواء.

حكى ابن جني في جمعه «أمواء» قال : أنشدني أبو علي :

وبلدةٍ قالصةٍ أمواؤُها
تَسْتَنُّ في رأد الضحى أفياؤها
كأنما قد رُفعت سماؤها

وتصغير الماء مُويه، وفي الحديث : «كان موسى عليه السلام، يغتسل عند «مُويه»»، والنسبة إليه مائي، وماوي، ويقال: موّه الموضوع تمويها صار ذا ماء، والقدر أكثر ماءها، وموّه الخبر على فلان: أخبره بما يخالف الحقيقة وبما سأله، وزوّره عليه ولبّسه، فكأنه جعل له ماء ونضارة حتى قبله... وموّه النحاس والحديد، طلاه بفضة أو ذهب... وأمَاهَتِ السماء: أسالَتْ ماءً كثيراً، وأماهت الأرض: نزت...

---

3) «الجامع لأحكام القرآن» للقرطبي ص : 229 / 1.

وتقول : مَاهَت الركيــة، تماه، وتموه، وتميه مَوْهاً، ظهـر ماؤها وكثر...
وتقول: حَفَرَ البئر حتى أمَاه وأمْـوه، أي بلغ الماء... وأماه الحَافِرُ: أي أنبط الماءَ، وَمَوَّهَ الموضـع: صـار فيه الماء، قال ذو الرُّمَّة:

تِميمِيَّــةٌ نجْـــدِيـــةٌ دارُ أهلِهـــا
إذا مَــوَّه الصَّمّــانُ مِنْ سَبَلِ القَطْـرِ

[لسان العرب ج : 3/551]

* * *

وقد ألغز بعض الشعراء في «الماء» فقال :

أيُّ شـيء إذا ســألتك مَـــــا هُـــــو ؟
كنتَ لي كـالصدى مجيبـا... «مَاهُــو»...

ومن لطائف شعر عبد البر الفيومي العـوفي الحنفي أحد أدباء زمانه(4) في الغزل: (ت: 1071هـ).

لي حبيـب قـــــد سَـــــالَمَـــــاهُ
عـــذبـــا، وطـــرفـــاه ســـالمـــاه
فيـــــا خليـــــلاي عــــذر صب
جـــــودا، والا، فســــــالمـــــاه
فـــالطـــرف هـــام من التجـــافي
طـــول الليـــالي قـد ســـالَ مَـــاهُ
وســـــــاكن القلـب مـــــذ رآه
يهيم بـالـوجــد سـال مـا هـو(5)

4) «خلاصة الأثر» ص : 391 / 2.
5) المصدر السابق ص : 294 / 2.

الأول : ساء بـالهمز مقصـور للشعـر، ولمى، أي الريق فاعل، وإسـاءته منعه لوارده...

والثاني : ماض والألف للتثنية...

والثالث : أمر لاثنين...

والرابع من الاسالة... والماء قصر للضرورة...

والخامس من السؤال، سهلت الهمزة ضرورة... «وما» سؤال على سبيل تجاهل العارف...

* * *

حقيقة الماء :

فما هو الماء ؟ وما هو الدور الذي يقوم به ؟ وما هي خواصه العجيبة، وعلاقته بالأرض، وتأثيره عليها ؟...

فالقـاموس يقـول : إن «الماء» سـائل شفاف لا لـون له، ولا رائحـة... ويتكون من الإيدروجين والأوكسجين...

لكن هـذا التعريـف كما يقـول : «طـومسون كينج» يفتقـر إلى الإثـارة والتشويق، كمـا أن كل ما فيه معروف لـديك، من قبل... وقد وصف بعض العلماء «المـاء» بقوله: إن الماء ينفـرد من بين المواد اللازمة لقيـام الحياة على الأرض بأنـه أعظمها أهميـة، وأوسعها انتشـارا، وأعجبها شأنـاً، ومع ذلك، فما أقل ما يعرِفُه سواد الناس عنه...

وقد عرف ابن سينا «الماء» فقال : «الماء جوهر، أي جسم بسيط، يعين في تسييل الغذاء وترقيعه وبرقته، نـافذاً إلى العروق، ونافذاً إلى المخارج، لا يستغنى عن معونته هذه في تمام أساس الغذاء».

لقد وردت في بعض المعـاجم الأجنبية القديمـة والحديثة عـدة تعاريف «للمـاء»، نـذكر منهـا على سبيل المثـال، التعـريف الذي أورده قـامـوس:

«ويبستر» WEIBSTER الدولي الموسع، الصادر سنة 1935، أن «الماء» : هو السائل الذي ينزل من السحاب... والذي يشكل الأنهار والبحيرات والبحار...

أما التعاريف التي توردها المصادر الأخرى كدائرة المعارف البريطانية، «وموسوعة لاروس»، فإنها تنصب على تعريف الجانب العلمي، فتقول موسوعة: «لاروس الكبرى»: إن الماء مادة ليس لها لون، ولا طعم، ولا رائحة، سائل في درجات الحرارة الاعتيادية يتكون من الأوكسجين والهيدروجين؛ وتعرفه دائرة المعارف البرياطانية، فتقول في بداية شرحها المفصل للماء، بأنه مركب كيماوي، يحتوي على ذرتين من الهيدروجين وذرة واحدة من الأوكسجين H 2 وهو واحد من أوسعها انتشاراً، ويوجد في الطبيعة على ثلاثة: صلب، وسائل، وغاز...

* * *

فأنت ترى، هنا، ومن خلال هذا النوع من المصطلحات المفسرة لماهية الماء، عدة تعاريف مختلفة ومتنوعة تحدد ماهية «الماء»، لأن لفظة «الماء» كبقية المفردات التي يعز تحديدها، والتي يختلف في تعريفها العلماء، ولا يتفقون، لأن كُلاًّ يفسرها حسب مالديه من معلومات وأدوات، ومن هنا يجب أن نلتمس العذر لذلك الأعرابي الذي سئل عن تحديد «الماء» وتعريفه، فَبَاتَ طُولَ الليل وهو يُجهد فكره، ويعصِر ذهنه، ويَنتِفُ عُثْنُونَه من الجَهد والهَوَسِ والعَناء، واهتدى في النهاية بأن الماء... هو الماء... فقيل فيه :

وبات يقدح طول الليل فكرته،

وَفَسَّر الماء، بعد الجهد، بالماء !!

وكما عجز صاحبُنا عن شرح لفظة «الماء»، وعز عليه التحديد والتوضيح والبيان، فكذلك نجد ذلك الأديب الآخر الذي ركَّب جملة، أو نظم بيتا، وهو لا يعلم أن سر الفصاحة والبلاغة يرجع إلى ما في المعنى من

قوة وروح... ومن المتفق عليه أن لا يكفي أن يكون المعنى صحيحا، ليكون الكلام بليغاً... ألا ترى أنه لا يوجد أصدق من قول القائل:

كأننـــا، «والمـــاءُ» من حَـــوْلِنَـــا،

قـــومٌ جلـــوسٌ، حـــولَهـم مـــاءُ

ولكن من الذي يقيم وزنا لصدق هذا الكلام، إن هذا الصدق هو التفاهة بعينها كما قال الدكتور زكي مبـارك، وقد رأى بعض النحاث أن البديهيات لا تسعى كلاما كمـا قال أبن آجروم: «الكلام هـو اللفظ المركب المفيد»، أو كما قـال ابن مالك في ألفيته: كـلامُنا لفظ مفيـد: كاسْتَقِم... ومن رأْي ذلك البعض أن من يقـول «السمـاءُ فوقنـا، والأرضُ تحتنـا» لم يقل شيئـاً، ولا يضاف ما يلفظ به إلى الكلام المفيد.

ونوقش الشهاب الخفاجي(6) في البيت المشهور :

كأنـــه فـوق شقّـــاتِ الـرُّخـــام ضُحَى

مـــاءٌ يسيـل على أثـــوابِ قصَّـــار

بعد قوله :

للـــه يـــوم بحمـــام نعمـتُ بـــه

والماءُ من حوضـــه ما بيننا جاري

فقيل له : إنه عيب، حتى قيل في قائله :

وشـاعـر أوقـد الطبع الـذكي لـه

فكـاد يحـــرقـــه من فـــرط لألاء

أقـــام يعمل أيـــامـــاً رويتَـــه

وشبَّه «الماء» بعد الجهـد بالماء(7)

6) انظر ترجمته في «خلاصة الأثر» ج : 1 / ص 331.

7) المصدر السابق ص : 336 / 1.

فقال هـذا العيب ليس بشـيء، فإنه شبه هـذا الرخام في الحمـام بشقة قصـار، جرى عليها الماء، ولم يرد تشبيه الماء، ولكن ما ذكر في الطرفين، جاء باردا، فأشـار الشاعر إلى برودته في كلامه بما ذكره...

* * *

إن العرب قوم قد شغفهم الماء حبا، فهم يعشقونه عشقا عظيما، وبدافع من هذا الحب العميق، تفَنّنوا في وصفه وتسميته وتصـوير حاله وحركته، ونعت مواقعـه وأماكنه، فهو الـديمة، والهطل، والهتلان، والتهتـان، والودق، والغـدق، والعـز، والعُباب، والـرجْع، واليعلـول، والقَـراح، ووصفوا منـازلـه ومواقعـه بمثل النبع، والمَعين، والعد، والغـدير، والفلج، والجَـدْوَل، والربيع، والخليج، والـركية، والظَّنـون، والرَّسَ، والمقراة، والجـابية، والنـزوع، بل إن «الثقافة المائية» حاضرة دوما في الشعر العربي قديمه وحديثه...

ويكفي أن نقرأ لأحد شعراء المعلقات لبيـد بن أبي ربيعة العامري الذي يسوق في ثلاثة أبيات «معجما» للمفردات التي لها وشيج الاتصال بالحقل المائي.. فهو يصف مجاري المياه بأنهـا توحشت في وادي الرَّيّان، فعرّت رسمَها السيول حتى أصبح باليا، ولكنه لم يَمَّـحِ تماماً، بل بقى أثره ظاهراً كما تظهر الكتابة في الحجارة... وذلك حيث يقول:

فمـــدافـع الـــرَّيَّـــان عُــــرِّيَ رسمُهـــا
خَلَقـاً، كمـا ضَمن الـوُحِيّ سِـلامُهـا(8)

ثم يقـول بأن تلك الديـار أو الدِّمن رُزقت الأمطـار الربيعية ثـم أمطار السحائب ذوات الرعد من غزير وليّن.

رُزقت مـــرابيع النجـــوم وَصَـــابَهَـــا
وَدْقُ الـرواعـد : جَـوْدُهـا فَـرِهـامُهـا(9)

---

8) مدافع : ج مدفع : مجرى الماء. الريَّان : وادٍ بالحمى. الخلق : القديم البالي. الوُحِي : ج : الوحي : الكتابة. السِّلام: ج سليمة: الحجر.

9) مرابيع النجوم الأنواء الربيعية. الجَود : المطر الغزير. الرهام : المطر اللين.

ثم يفصل في هذا البيت الأخير أنواع السحب التي أمطرت الديار، فيقول:

من كل سارِيةٍ، وغادٍ مُدْجِنٍ
وعشية متجاوبٍ إرزامها(10)

وهذا الحرث بن حِلزة : يقتبس في تشبيهاته الماء الذي لا يغرب عن أذهانهم، اسمعه يقول :

فَهَدَاهُم بالأَسْوَدَين، وأمر الله
بالغ، يشقى به الأشقياء(11)
فجبهناهُمُ بضرب، كما يَخْ
رجُ من خُرْبَةِ المَزادِ «الماء»(12)

* * *

إن للعرب مصطلحات كثيرة في الإرواء بالماء، وفي سقيهم وسقي إبلهم، لارتباط حياتهم بالماء، ولأثر الحر والعطش والجفاف فيهم، وفي أحوالهم ومن جملة هذه المصطلحات: **الشريعة:** مورد الشاربة التي يشرعها الناس، فيشربون منها ويستقون، وربما شرعوا دوابهم، فشرعت تشرب منها... والعرب لا تسميها شريعة حتى يكون الماء عَداً، لا انقطاع له، ويكون ظاهراً معيناً لا يستقى بالرشاء، وإذا كان من السماء والأمطار، فهو **الكرع**، وقد أكرعوه إبلهم، فكرعت فيه، وسكوها بالكرع، وهو مذكور في موضعه كالمشرعة..(13)

---

10) السارية : السحابة الماطرة ليلا. الغادي : السحاب الممطر بالغداة. المُدْجِن : المطبق حتى يغطي آفاق السماء. الإرزام: الصوت، والمراد به صوت الرعد.

11) هداهم : تقدمهم أو ساقهم. الأسودان : الماء والتمر، أي تقدمهم بزادهم، وأمْرُ الله : أي أمرُ الله بالغ مبالغة، لا يشقى به إلا الأشقياء، في حكمه وقضائه.

12) جَبهَه : ضرب جبْهتَه. المزاد : زق الماء، خُربته : ثقبُه، أي ضربناهم فخرج الدم من جراحهم، كما يخرج الماء من أفواه القِرَب.

13) «تاج العروس» مادة «شرع» ص : 395 / 5.

ومن أسمـاء الماء عنـد العرب : **النزيف**،(14) **والابيضان:** الماء واللبن **والأسودان:** الماء والتمر.(15)

وقـد ذكر علمـاء اللغة في تقسيم خـروج المـاء وسيلانـه من أماكنـه، فيقال: سحّ السحاب، ونبع الينبوع، ومن الحجر انبجس، ومن النهر فاض، ومن السقف وَكَفَ، ومن القـربـة سَـرَبَ، ومن الإنـاء رشح، ومن العين انسكب، ومن المذاكير نَطفَ، ومن الجرح ثع...

وفي رحلة ابن معصـوم المدني، قال : كل ماء يجـري فهو نهر، وحيث ينبع فهو: عين، وهو حين يكون معظم الماء، فهو : بحر...

* * *

تفصيل أسماء المطر :

وقد وصف أئمـة اللغة في تفصيل أسمـاء المطر ننقلها من كتـاب فقه اللغة لأبي منصور عبد المالك الثعالبي.(16)

إذا سقطت السحابة ماءها، تنوعت أسماؤها على الأرض، فوجدنا أسماء كثيرة له تدل على قوته وضعفه، وفي حالة الانسكاب والنزول...

فالحيا : هو الذي يحي الأرض بعـد موتها، **والغيث:** هو الذي يجيء عقيب المحل أو عنـد الحاجـة إليه، **والدِّيمة** إذا دام مع الغيث مع سكـون، **والضرب** فوق ذلك قليلا، **والهَطْل** فوقه، فإذا زاد فهو **الهَتَلاَن والتهتهان،** فإذا كان القطر صغـارا كان شذْر فهو **القطقط،** فإذا كانت مطرة ضعيفة، فهي **الرَّهمَه،** فإذا كانت ليست بالكثيرة فهي **الغَيبة والحشكه والحفشة،** فإذا كانت ضعيفة يسيرة **فهي الذِّهاب والهَيْمَة،** فإذا كان المطر مستمرا

---

14) «الحيوان» للجاحظ : ص : 139 / 5.

15) المصدر السابق : والصفحة...

16) «فقه اللغة» : تحقيق مصطفى السقا إبراهيم الأبيـاري، وعبد الحفيظ شلبي – القاهرة، مصطفى البابي عام 1954.

فهو **الوَدْق**، فإذا كان ضخم القطر، شديد الوقع فهو **الوابل**، فإذا تبعّق بالماء فهو **البُعَاق**، فإذا كان يروي كل شيء، فهو: **الجود**، فإذا كان عامّا، فهو **الجَدَى** فإذا دام أياما لا يُقلع فهو **العين**، فإذا كان مسترسلا سائلا فهو **المُرتَعِنُّ**، فإذا كان كثير القَطر، فهو **الغَدَق**، فإذا كان شديدا كثيرا فهو **العِزُّ والعباب**، فإذا كان شديد الوقع، كثير الصوب **فهو السحيفة**، فإذا جرف ما مر به فهو **السحيتة**، فإذا قشرت وجه الأرض فهي **الساحية**، فإذا أثرت في الأرض من شدة وقعها فهي **الحريصة** لأنها تحرص وجه الأرض، فإذا أصابت القطعة من الأرض، وأخطأت الأخرى فهي **النُّفضة**، فإذا جاءت المطَرة لما يأتي بعدها فهي **الرَّصْدة**، **والعهادُ** نحو منها، فإذا أتى المطر بعد المطر فهو **الوَلِي**، فإذا رجع وتكرر فهو **الرّجْع**، وإذا تتابع فهو **اليعلول**، فإذا المطر دَفَعات فهي **الشآبيب**...

وعن الأصمعي في ترتيب المطر الضعيف : أخف المطر وأضعفه، **الطل**، **ثم الرذاذ** أقوى منه، **ثم البعش والدث**، ومثله **الرك والزهمة**.

قال مالك بن المرحل :

والطلُّ ما قلَّ من الأمطار

والوابل الغزيرُ ذو انهِمَار

* * *

أسماء الآبار وأوصافها :

وقد ذكر أئمة اللغة تفصيلا في أسماء الآبار وأوصافها، وما تحويه من ماء. **فالقَلِيب**:(17) البئر العادية لا يعلم لها صاحب ولا حافر، **والجب**: البئر التي لم تطو **الرَّكيّة**: البئر التي فيها ماء، قلّ أو كثر. **الظَّنُون**:(18) البئر

17) كتاب البئر لمحمد بن زياد ابن الأعرابي ص : 58...

18) «فقه اللغة» للثعالبي ص : 262.

التي لا يدرى أفيها ماء أم لا تقول بئر ظنون: إذا كانت قليلة الماء، قال الأعشى:

مَا جُعِلَ الجُدُّ الظَّنُونُ الذي
جُنِّبَ صَوْبَ اللَّجِبِ الماطِرِ
مثلَ الفُرَاتِيِّ إذا ما طما
يقذِف بالبُوصِيِّ والمَاهِرِ(19)

العيلم: البئر الكثيرة الماء. **الرسّ:** البئر الكثيرة الماء، **الضهول:** البئر التي يخرج ماؤها قليلا قليلا، **المكول:** البئر القليلة الماء. **الجُد:** الجيدة الموضع مع الكلأ **المَتُوح:** التي يستقى منها مدا باليدين على البكرة. **النزع:** التي يستقى منها باليد. **الحُسيف:** المحفورة بالحجارة. **المعروشة:** التي بعضها بالحجارة، وبعضها بالخشب. **المغواة:** البئر المحفورة للسباع...

فإذا كانت البئر جديدة فهي البدي والقريح،(20) فإذا كان في حلقها عوج فهي: «زوراء»،(21) فإذا كانت ضيقة فهي: «سُك،(22) ونضوض وبَرُوض ورشوح ومكول، إذ كان ماؤها يجتمع قليلا قليلا،(23) وهي جَمُوم: إذ كانت سَريعة رجوع الماء،(24) وهي «واتنة» إذا كان ماؤها يدوم في المطر والقيظ،(25) وهي قَلَيذم إذا كانت كثيرة الماء،(26) وخِضرم إذا كانت غزيرة الماء،(27) و«ناكز» إذا قل ماؤها...(28)

---

19) الجد : البئر تكون في موضع كثير الكلأ، الفراتي : المنسوب إلى الفُرات. البُوصِي : ضرب من سفن البحر، والملاح أيضا. الماهر : السابح.
20) ابن الأعرابي : ص 58.
21) المصدر السابق ص : 61.
22) المصدر السابق : ص : 61.
23) المصدر نفسه ص : 62.
24) المصدر نفسه : ص : 62.
25) المصدر نفسه ص 63.
26) المصدر السابق...
27) المصدر نفسه ص : 64.
28) المصدر السابق ص : 64.

وقد وصف أعرابـي امرأةً عجوزاً بالضعف، وذَهَاب المُنّـة، وهي تجدب دلوهـا من البئر: فيقول: إنهـا تحركه حركـة ضعيفةً تشبه تحـريك المرأة العجوز لطفل تداعبه حيث قال:

بـــاتت تُنَـزِّي دلـــوهـــا تنـزيـــا
كمـــــا تنـــزي شهلـــــة صبيـــــا

والشهلة : المرأة العجوز

تلك أسماء الآبار عند العرب في لغـاتها وأوصافها، ويمكن أن يقال عن أماكن استقرار الماء الأخرى بـالإضافة إلى أسماء أدوات السقي وما اشتق منها من صفات وسمات وشِيَّات... سنتحدث عنها أثناء بحوثنا الآتية...

* * *

أجناس الأقداح :

وقد تفنن العرب فـي أسماء لأجناس «الأقداح» وما ينـاسبها من أواني شرب الماء :

فالعُسّ مِن خشب – والعُلبة من أَدَم – والطِّرْجِهَـالة : من صُفر أو شَبَه – المِـركَن: من خزف – الصُّـواع: من فضة أو ذهب، والسقـاية والصُّـوّاع شيء واحد: إنـاءٌ له رأسان في وسطـه مَقبِض. كان الملك يشـرب منه من الرأس الـواحد، ويكـال الطعام بـالرأس الآخـر، وكل شيء يشرب بـه فهو صُوَاع، وأنشدوا:

نشـرب الإثـم بـالصُّـــواعِ جهـاراً
وتـرى المُتْك بيننـــا مستعـارا(29)

واختلف في جنسه، فروى شعبة عن أبـي بشر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: في قـوله تعالى: ﴿**فلما جهزهم بجهازهم جعل السقاية**

29) المُتْك : الأترُجّ بلغـة القبط. وقالـوا : المُتَّكأُ : هـو الطعام، قـال تعالى : ﴿**وأعتـدَتْ لهن مُتّكأ**﴾ [سورة يوسف 31] والإثم: الخمر.

في رَحْلِ أخيه﴾،(30) كان صُواَع الملك شيء من فضة يشبه المكُّوك، من فضة مرصع بالجوهر، يجعل على الرأس، وكان للعباس واحد في الجاهلية..(31) وسأله نافع بن الأزرق ما الصواع؟ قال: الإناء، قال فيه الأعشى:

له دَرْمَكٌ في رأسه ومَشارِبٌ
وقِدر وطباخٌ وَصَاعٌ وَدَيْسَق(32)

والقدح من زجاج، وعن ابن عباس، قال : كان لرسول الله ﷺ قدح من قوارير يشرب فيه.

ومما أخذه أهل الأندلس عن زِرْيَاب المغني علي بن نافع (ت:230هـ) لما قدم الأندلس: تفضيله آنية الزجاج الرفيع عن آنية الذهب والفضة، وقد نص الأطباء على أن الشرب فيها أحسن من الشرب في غيرها من الأواني لمكان أمن النفس بظهور لون الماء وصفائه من وراء الزجاج الشفاف.

قال العلامة الحكيم عبد اللطيف البغدادي لدى شرحه لهذا الحديث في كتاب: «الأربعين الطبية»:(33) الزجاج فاضِل للشرب، والهنود تفضله، وكذا ملوكها تختاره على الذهب والياقوت، لأنه قل ما يقبل الوَضَر والسُّهُوكة، ويرجع بالغسل جديدا، وأيضا، يرى ما في باطنه من ظاهره، فهو كالنَّمَّام عن قَذَى الشراب وكَدَرِه، ويستمتع بصافيه، وقلَّ ما يقدم الساقي أن يدس فيه السُّم، وهذا أشرف الخلال التي دعت ملوك الهند إلى اتخاذه، وقد ذكرنا فضائله في كثير من كتبنا، ويسمى الزجاج من بين الأحجار، بالأحمق والمائق، لأنه يفشي أسراره، ويقبل لون من يجاوره...

---

30) سورة يوسف رقم : الآية : 70.

31) القرطبي ص : 229 – 230 / 9.

32) الدَّرمك : التراب الناعم من دَرْمَكَ البناء : ملَّسه. مشارب : ج : مشربة : غرفة. علِّية. صاع : إناء، ثم مكيال. ديسق: خِوان أبيض أو من فضة. وهي من قصيدة في مدح المحلَّق..

33) طبعتها وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بتحقيق وتعليق المرحوم الأستاذ عبد الله كنون.

وأنشد الشيخ أحمد المرشدي أحد فضلاء مكة، معللا تسمية القدح، قَدَحاً :

مُـــذ صَبّ ســـاقِينــا الطّـــلا
حتـى تنـــــاثـــــر وانتضـح
قـــالـــوا : شــــراراً مـــا رأوا
فـــلأجل ذا، قـــالـــوا : قَـــدَح(34)

ثم الكأس : وهو عند أهل اللغة اسم شامل لكل إناء مع شرابه، فإن كان فارغاً، فليس بكأس... قال الضحاك والسدي: كل كأس في القرآن فهي الخمر، والعرب تقول للإناء، إذا كان فيه خمر كأس، فإذا لم يكن فيه خمر، قالوا: إناءٌ وقدح...

قال النحاس : وحكى من يوثق بـه من أهل اللغة أن العرب تقول للقدح إذا كان فيه خمر كأس، فإذا لم يكن فيه خمر، فهو قدح..(35)

أوعيـة للمـاء :

هناك أوعية للمائعات، فالسقاء والقربة للماء، والزق والركرة للخل والخمر... والوطب والمحقن: للبن... والعُكة: للسمن، والحميت والمسأب: للزيت، والبديع: للعسل، وفي الحديث: «إن تهامة كبديع العسل، أوله حُلْوه وآخره...».

والحب، معروف عند الجاهليين، يختزن فيه الماء للشرب، يعمله الكواز والفخار، والكوز إناء يشرب به، ذكر أنه يكون بعُروة، أما إذا لم تكن به عُروة فهو «كوب»..(36) وهناك الأباريق وأوان أخرى استعملت في الشرب.

---

34) «خلاصة الأثر» للمحبي ص : 271 / 1.
35) «الجامع لأحكام القرآن» ص : 77 / 15. وص : 68 / 17.
36) تاج العروس ص 86 / 4. مادة : «كَانَ».

ومن أوعية المـاء «المِهراس». حجر منقـور ضخم لا يقله الـرجال، ولا يحركونه لثقله، يسع ماء كثيراً، يـوخذ منه الماء للشرب وللاستعمال، وقد استعمل في الإسلام للوضوء منه.(37) ومن ذلك الحَنْتَم، والمُزَفَّت، والنقير، والدُّبّاء، وقد قال رسول اللـهﷺ لِوَفْدِ القيس : «أنْهَاكُمْ عن الدُّبَّاء، والحَنْتَمِ، والنَّقِيـر، والمُـزَفَّت» فنبههم عليـه السلام على تـرك المعصيـة في شـرب الخمر، دون سـائر المعاصي... فالـدُّباء : القرع اليـابس، والحَنْتَم : الجَرَّة، والنقير، أصل النخلـة، ينقر، فيتخذ منـه وعاء، والمُزَفَّتُ : الإنـاء الذي طلي بالزفت.... [تفسير القرطبي، ج : 18/73].

* * *

وكان الأَعراب يشربون الماء بأيديهم، بأن يمدوا أيديهم في عين الماء أو في مستجمعه، ثم يغرفوا منه، فيشربـوه، وهكذا حتى يرتووا.. وقد ينبطح أحدهم على الأرض، ثم يمد فمـه إلى الماء فيشرب منه... أمـا بالنسبة إلى الآبار، والقِرب، ومخازن الماء، فإنهم قد يشربون من أفواه الدِّلاء أو القِرب، وقد يستعملون أواني يشربون بها، منهـا: الغَمر، وهو قدح صغير، والقدح، والتبن. والصحن، والقَعْب وغير ذلك من أسماء ذكرها علماء اللغة...(38)

ولقـد كان العـربي يفضل أن يتنـاول شـرب الماء بكفيـه، قـال بعض المفسرين: الغَرفة: بالكف الواحد، والغُـرفة بالكفين، وقال بعضـهم: كلاهما: لغتان، بمعنى واحد،(39) قـال الإمـام علي رضي اللـه عنـه: «الأكُفُّ انظف الآنية» ومنه قول الحسن:

لا يدلفـون(40) إلى مــاء بـآنيـــة
إلا اغتـرافـاً من الغُـدْران بـالـرَّاحِ

37) اللسان ص : 248 / 6 مادة : «هرس».
38) بلوغ الأرب ص 393 / 1.
39) الجامع لأحكام القرآن ص : 253 / 3.
40) الدليف : المشي الرويد.

الصَّوت الذي يُحدثه الماء :

وتحدث العرب في لغتهم عن الفرق الدقيق للصـوت الذي يحدثه تحرك الماء:

فالخرير : صوت الماء الجـاري، والقشيب : صوته إذا كان تحـت ورق أو قماش، الفقيق: صوته إذا دخل في مضيق، البقبقـة: حكاية صوت الجرة والكوز في الماء... القرقرة: حكايـة صوت الآنية إذا استخرج منها الشراب. والشجب : صوت اللبن عند الحلب عن أبي عمرو، والشخيخ: صوت البول، عن الليث، والنشيش: صوت غليان الشراب.

والحَوَات : صوت الماء، ومنه قول الحطيئة :

وإن عَبَّ في مـاء، سمعتَ لجرعـه
حَوَاتـاً كتثليم الجَدَاول في الـدَّبْرِ(41)

وعنـد العرب أسمـاء خاصـة للشراب، فـالجـاشريـة : شرب السحـر، والصبـوح: شـرب الغداة، والقيـل: شرب نصف النهـار، والغبـوق: شـرب العشي.

* * *

وفي تغير المـاء : يقال : أجِن الماء : إذا تغير، غير أنـه شَروب، وأسِن الماء: إذا انتن فلم يقدم على شربه...

وما يمسك المـاء من شفة الـوادي يسمى بـ«الحاجر»، قال أبـو حنيفة: الحاجر شفة الوادي مِمّا يلي بطنه، ينبت البقل...

والجرف : مـا أكل الماء من شط الوادي من أسفله، فإذا لم يـاكل الماء من أسفله، فهو شط ولايدعى جرفا...

والشط : سَنَدٌ الوادي الذي يلي بطنه، والجمع شطوط..

41) عبّ : شرب من غير مَصٍّ. الدّبْرُ : ج الدَّبْرَة : البقعة المزروعة.

والإخاذ عند العرب : الموضع الذي يحبس الماء كالغدير... وعن مسروق قال: وجدت أصحاب محمدﷺ مثل الإخاذ يُروي الواحد، والإخاذ يُروي الاثنين.. والإخاذ لو ورد عليه الناس أجمعون لأصدرهم، وأن عبد الله بن مسعود من تلك الإخاذ،(42) ذكر هذه المناقب أبو بكر الأنباري في كتاب الرد..(43)

* * *

مناقع المياه :

والرّزون : أماكن مرتفعة يكون فيها الماء، واحدها : رزن.. والفقء : كالحفر في وسط الحَرّة، وهو من مناقع المياه،(44) والسِّكر، وهو السداد الذي تجعله سداً للبثق ونحوه، والإمْدَان: الماء الناقع في السبخة؛ والنَّجْل: ما يستنجل في الأرض من الماء، والعِرْمة: وهي السد يعترض به الوادي، والجمع عَرِم، وفي التنزيل: «فأرسلنا عليهم سَيْلَ العَرِم» والصِّناعة والصِّنع، خشبة يحبس بها الماء..

* * *

الفرق بين الغيث والمطر، والريح والرياح :

وقد حدد القرآن الكريم استعماله لألفاظ الطبيعة تحديدا دقيقاً، لا نجده في غيره، فهو مثلا، يفرق في الاستعمال بين: «الغيث» و«الرياح» «والريح» والمطر..

فالغيث «مثلا» مثله مثل الرياح في ذلك، لا يذكر في القرآن الا في مواطن الرحمة والنعمة.

42) يعني أن فيهم الصغير والكبير، والعالم والأعلم.

43) القرطبي – تفسير ص : 35 / 1.

44) المخصص : ص : 79 – 90 / 10.

فانظر إلى هذه الآيات في استعمال الغيث :

«إن الله عنده علم الساعة، وينزِّل الغيث، ويعلم ما في الأرحام».(45)

«وهو الذي ينـزل الغيث من بعد ما قنطـوا، وينشر رحمته»(46) «كمثل غيث أعجب الكفارَ نباتُه، ثم يهيج فتراه مصفرا».(47) «ثم يأتي من بعد ذلك عام، فيه يُغَاثُ الناس، وفيه يعصرون»..(48) على حين لا يذكر «المطر»، إلا في مقام العـذاب والتخويف، فهـو كالريـح تماما، فمن مثلـه قولـه تعالى: ﴿**وأمطـرنـا عليهم مطـراً، فـانظر كيف كـان عـاقبـة المجـرمين**»،(49) «وأمطرنـا عليهم مطرا، فساء مطـر المنذرين.. «وأمطرنـا عليهم حجارة من سجيل..(50) «ولقد أتوا على القرية التي أمطرت مطر السوء».(51)

وقد وردت كلمـة «مطر»، وهي مصدر في سبع آيات، كمـا وردت فعلا في سبع آيات أخرى، وفي آية واحدة، جاءت اسم فاعل: ممطر من الرباعي، وكلها ينصرف إلى العذاب، والنذر بالشر.

فالعـرب فرّقـوا بين «الغيث»، و«المطر»، فكـان الغيث في الأغلب الأعم خيراً وخصبـا وبركـة، ولن يكون عـذاباً البتـه، أما المطـر، فينصرف إلى العذاب، كما ينصرف إلى حقيقته، بيد أنه لم يرد في القرآن إلا في معرض العذاب والشر.

* * *

والوشيجة بين الغيـث والإغاثة التي تعني النجدة والعـون وطيدة، ولذا كان ذكـره في موطن النعمة منـاسباً كل المنـاسبة، وقد جعلـه القرآن في

---

45) «لقمان» آية : 34.
46) الشورى : آية : 28.
47) الحديد : آية : 20.
48) يوسف : آية 49.
49) الأعراف : آية : 84.
50) الشعراء : آية : 173 – النمل : 58.
51) الفرقان : آية 40.

بعض المواضع في مقابل الجدب والقنوط، فالغيث: المطر، وسمي الغيث غيثا، لأنه يغيث الخلق، وقد غاث الغيث الأرض، أي أصابها، وغاث الله البلاد يغيثها غيثاً، وغِيثت الأرض تغاث غيثاً، فهي أرض مغيثة ومغيوثة،(52) وعن الأصمعي، قال: مررت ببعض قبائل العرب، وقد مطروا، وقد سألتُ عجوزا منهم: أتاكم المطر؟ فقالت: غثنا ماشئنا، غيثاً، أي مطرنا.. وقال ذو الرُّمة: قاتل الله أمَةَ بني فلان، ما أفصحها!! قلت لها: كيف كان المطر عندكم؟ فقالت: غثنا ماشئنا.. وربما سمي السحاب والنبات غيثا.

قال قتادة : ذكر أن رجلا قال لعمر بن الخطاب : يا أمير المومنين: قحط المطر، وقَلَّ الغيثُ، وقنط الناس.. فقال: مطر تم إن شاء الله، ثم قرأ: «وهو الذي ينزل الغيث من بعد ما قنطوا وينشر رحمته» والغيث ما كان نافعا في وقته، والمطر قد يكون نافعا وضارا في وقته وغير وقته، قاله الماوردي..(53)

وقد ذكر علماء اللغة أن الغيث هو المطر الخاص بالخير الكثير النافع، ومن المجاز: الغيث بمعنى الكلأ، ينبت بماء السماء، وكذا السحاب، ورأى بعض العلماء أن الغيث اسم المطر كله... وإذا بكر الغيث في أول الوسمي قيل له باكور.(54)

الغيث الربيعي... والغيث الشتوي :

وهل الغيث الربيعي الطف من الشتوي.؟ أو بالعكس؟..

ذكر العلماء فيه قولين، قال من رجح الغيث الشتوى: حرارة الشمس تكون حينئذٍ أقل.. فلا يجتذب من ماء البحر إلا ألطفه، والجوصاف، وهو

52) «الجامع لأحكام القرآن» ص : 205 / 7.

53) «الجامع لأحكام القرآن» ص : 29 / 16.

54) تاج العروس ص 157 / 3. المخصص : 11 / 8.

خال من الأبخـرة الدخانيـة، والغبار المخالـط للماء، وكل هذا يـوجب لطفه وصفاءه وخلوه من مخالط...

وقال من رجح الربيعي : الحرارة توجب تحلل الأبخرة الغليظة، وتوجب رقة الهـواء ولطافته، فيخف بـذلك الماء، وتقل أجزاؤه الأرضيـة، وتصادف وقت حياة النبات والأشجار، وطيب الهواء...

وقد ذكـروا أن الغيث لذيـذٌ على السمع، والمسمى على الـروح والبدن، تبتهج الأسمـاع بـذكره، والقلـوب بـوروده، وماؤه أفضـل المياه وألطفهـا وأعظمها بركة، ولا سيما إذا كـان من سحاب راعد، واجتمع في مستنقعات الجبـال، وهـو أرطب من سـائر الميـاه، لأنـه لم تطل مـدتـه على الأرض، فيكتسب من يبوستهـا، ولم يخالطـه جوهـر يابس، ولذلـك، يتغير ويتعفن سريعا للطافته، وسرعة انفعاله...(55)

وذكر الشافعي رضـي الله عنه عن أنس بن مالك رضـي الله عنهما قال: كنا مع رسول اللـه ﷺ، فأصابنا مطر، فحسر عنه، وقال: إنـه حديث عهد بربه..

* * *

على حين، لا يـذكر «المطر» ومشتقـاته في القـرآن الكريم إلا مـرتبطا بمواقف العذاب والعقاب في الدنيا، فهو، في ذلك كالريح تماما، ويلاحظ أن كل هـذه المواضع تـرد في سور مكيـة مـا عدا آيـة واحدة، وتتعلق كلهـا بقصص المخالفين والمنافقين والكفار من السـابقين الذين تذكر قصصهم لتـوخذ منهـا العظة والعبـرة.. ففي قصة لـوط وقومـه البغاة يقـول الحق سبحانـه وتعالى: **﴿فأنجينـاه وأهله إلا امـرأتـه كانـت من الغابـرين، وأمطرنـا عليهم مطرا، فانظـر كيف كان عاقبـة المجرمين﴾**،(56) فلفظ:

55) «زاد المعاد» لابن القيم.

56) سورة الأعراف رقم الآية : 84.

«الأمطار» لم يأت إلا للعذاب، فلم يرد فيه لفظ للخير.. حيث يتكرر تعبير: «وأمطرنا عليهم مطرا» في كثير من الآيات ليدل على العقاب، ففي قصة «هود» مع قومه ينظر، أولئك المكذبون، إلى السماء، فيرون العذاب مقبلا عليهم، فيظنونه مطرا سيروي أو ديتهم، ولكنهم ما يلبثون أن يعرفوا أنه العذاب الذي يدمر مساكنهم قال تعالى: **﴿فلما رأوه عارضاً، مستقبلَ أوديتهم.. قالوا: هذا عارضٌ ممطرنا، بل هو ما استعجلتم به، ريحٌ فيها عذاب أليم، تدمِّر كل شيء بأمر ربها، فاصبحوا لا ترى الا مساكنهم، كذلك نجزي القوم المجرمين﴾**.(57) وقال تعالى: **﴿وأمطرنا عليهم مطرا، فساء مطر المنذرين﴾**(58) **﴿وامطرنا عليهم مطراً، فانظر كيف كان عاقبة المجرمين﴾**،(59) **﴿وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل﴾**(60) **﴿ولقد أتوا على القرية التي أمطرت مطر السوء﴾**(61) **﴿وأمطر علينا حجارة من سجيل﴾**(62) **﴿فأمطر علينا حجارة من السماء﴾**(63) **﴿ولا جناح عليكم، إن كان بكم أذى من مطر، أو كنتم مرضى، أن تضعوا أسلحتكم﴾**..(64)

ومن أسماء المطر : السماء؛ كما في حديث الموطأ : «صلّى لنا رسول الله ﷺ صلاة الصبح بالحديبية على إثر «سماء» كانت من الليل، أي مطر، ومنه قول الشاعر جرير :

إذا نزل «السماء» بأرض قومٍ،
رعيناه، وإن كانوا غِضابَا

57) سورة الأحقاف رقم الآية : 24 – 25.
58) «الشعراء» 173 – والنحل : 58.
59) الأعراف 84.
60) الحجر : رقم الآية : 74.
61) سورة الفرقان آية 40.
62) سورة هود، آية 82 – 83.
63) سورة الأنفال، آية 32.
64) سورة النساء، آية 102.

فقوله : «نـزل السماء» أي المطر، وقوله : «رعينـاه» أي رعينا السماء، بمعنى الكلأ والعشب الناتج عن المطر، كما في قوله تعالى: «يرسل السماء عليكم مدرارا»(65) أي المطـر، وهذا الاستعمـال معهـود متداول لـدى أهل اللسـان، بل تطلق «السماء» كما قدمنا، أحيـانا على الكلأ الذي ينبت بهطول المطر عليـه، وكل هذا تجـوز وتوسع في كلمـة «السماء» التي معنـاها في الأصل، ما أظل الإنسـان من جهة العلو...

فإعادة ضمير «رعينـاه» في البيت السابق على «السماء» بغيـر معناها الأول نوع بديعي يسمى في علم البلاغة بالاستخدام، وهو أن يراد بلفظ له معنيان: أحدهما، ثم يراد بضميره الآخر، أو يراد بأحد ضميريه أحدهما، ثم يراد بالآخِر الآخَر كقول البحتري:

فسقى الغضا والسـاكنيه، وإن هُمُ
شَبُّـوه بين جـوانحي وقلـوبِ

والسماء وردت، في كلام العرب مذكرة، قال شاعرهم :

فلـو رفع السمـاءُ إليـه قـومـاً
لَحِقْنـا بـالسمـاء مع السحـاب

فالسماء فاعل (رفع) ولم يقل : «رفعت» يريد الشاعر أن السماء لو كان من عادتها ودأبهـا أن ترفع إليها قوما لِفضْلهم وعزِّتِهم ومجـدهم لرفعتنا إليهـا، ولكنا مقيمـون فيها مع سحـابهـا، أو يقال إن السمـاء مؤنث غيـر حقيقي، ويجوز في مثله تانيث فعله وتذكيره..

لقـد تقع اللفظة الـواحدة على معـان كثيـرة، تعرف في لغتنـا العربيـة الجميلـة من سيـاق الكـلام، كلفظـة «السمـاء» مثـلا التي تقع على معـان مختلفة: فهي تعنـي الفضاء تارة: كمـا في قولـه تعالى في صفـة الشجرة

65) سورة نوح : آية 11.

الطيبة: «أصلها ثابت وفرعها في السماء».(66) وتعني العلو وارتفاع الشأن، كما في قوله تعالى: «أأمنتم من في السماء أن يخسف بكم الأرض» إخبارا عن قدرة الله وسلطانه، وعلو شأنه، ونفاذ أمره...(67)

وقد تكون بمعنى الغيث، كما في قـوله تعالى : «وأرسلنا السماء عليكم مدراراً»..(68)

وقد عـد صاحب كتـاب : «الكون والقرآن» أن السمـاء في قولـه تعالى: ﴿**وإذا السماء كُشِطَتْ**﴾ يراد بها الطبقة الأثيرية.(69)

وإذا ذكرت الأرض مع السماء المفردة أو المجموعة، فالمراد بها كوكبنا الذي نعيش عليه..

* * *

ونرى القرآن يستعمل ألفاظاً متباينـة تلتقي في معنى واحد، كاستعماله مثلا، الفعلين: «سـاق» «وأزجى» اللذين هما بمعنى واحـد مع السحاب،(70) كما في قوله تعالى: ﴿**حتى إذا أقَلَّتْ سحاباً، سُقناه لبلد ميت فأنزلنا به المَاء**﴾(71) ﴿**والله الـذي أرسل الريـاح فتثير سحـابا فسقنـاه إلى بلد ميت**﴾(72) ﴿**ألم تر أن اللـه يزجي سحابـاً، ثم يؤلف بينـه، ثم يجعله ركاما**﴾.(73)

وقلمـا ذكـر القـرآن إطـلاق الـريـاح إلا عبّـر عنـه بفعل : «**أرسل**» «**فالمرسلاتِ**»، وأطلقت هَابّةً بعد طول عُرفاً أي الرياح التي أرسلت ركودها

66) سورة إبراهيم : 24.
67) أمالي السيد المرتضى ص : 75 / 4.
68) الأنعام : 6.
69) محمد علي حسن، الكون والقرآن ص : 12 – 13.
70) الكشاف، للزمخشري ص : 391 / 2.
71) الأعراف : 57.
72) فاطر : 9.
73) سورة النور : 43.

وسكونهـا؛ ففي سورة فـاطر: «واللـه الذي **أرسل** الريـاح»، وفي الحجر: «**وأرسلنا** الريـاح لواقِحَ»، وفـي الأحزاب: «**فأرسلنا** عليهم ريحـاً»؛ وفي الأعراف: «هـو الذي **يُرسل** الريـاح...»، وفي الروم: «ومن آيـاته أن **يرسل** الرياح»، وفي آياتٍ أخرى غيرها».

ومن أسماء المطر : الصوب.. قال الشاعر :

فسقى ديـارك «غيـر مفسـديهـا»
صَـوبُ الغمـام، وديمـةٌ تَهْمِي

وقال كعب بن زهير :

تنفي الريـاح القذى عنه، وأفـرطه
من صَـوْب ساريـة، بيضٌ يَعَـالِيلُ

وقـد قلنـا، آنفـا، إن من أسمـاء المطـر : الغيث، قـال الأصمعي: قلت لأعرابي: أي الناس أوصف للغيث؟ قال: الذي يقول: «يعني امْرَأً القيس»:

دِيمَـة هطـلاءُ فيهـا وَطَفٌ
طبق الأرض تحـرَّى وتـدرّ

قلت فبعده مَن ؟ قال : «الذي يقول»، «يعني عبيد بن الأبرص» :

يـا مَن لبـرقٍ أبيتُ الليلَ أرقُبُـه
في عـارض مكفهـر المُـزْن دَلَّاج
دانٍ مُسِفٌ فُـوَيْقَ الأرض هَيـدَبُـه
يكـاد يـدفعُـه، مَـن قـام، بـالـرَّاح

* * *

فَجَّرَ... وانبجس :

يُلاحظ، أيضـا، أن القرآن حينما ذكـر انبثاق الماء من الأرض عبّـر عنه بـالفعل: «فجّر»، وحينمـا ذكـر انبثاقـه من الحجر، عبّـر عنـه، إما بـالفعل المذكور، أو بالفعل: «انبجس».

وقد أشار الراغب الأصبهاني في «مفردات القرآن» : «بَجَسَ» إلى ذلك، فقال: «يقال: بجس الماء، وانبجس: انفجر، لكن الانبجاس، أكثر ما يقال فيما يخرج من شيْء ضيّق.. والانفجار يستعمل فيه وفيما يخرج من شيء واسع، ولذلك قال عز وجل: ﴿**فانبجست منه اثنتا عشرة عيناً**﴾(74) وقال في موضع آخر: ﴿**فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً**﴾(75) فاستُعمل حيث ضاق المخرج اللفظان، قال تعالى: ﴿**وفجرنا خلالهما نَهَراً**﴾(76) وقال: ﴿**وفجرنا الأرض عيونا**﴾،(77) ولم يقل «بجسنا»..

وهكذا نجد أن القرآن يحدد استعماله للألفاظ عند وصف الطبيعة تحديدا دقيقاً بحيث يستعمل الألفاظ في مقام ما لا يستعمله في مقام آخر.

وأخيرا، فإن من أسماء المطر : «الرجع» لقوله تعالى: ﴿**والسماء ذات الرجع**﴾(78) أي ذات المطر، ترجع كل سنة بمطر بعد مطر، وقال أهل اللغة: الرجع : المطر... وأنشدوا للمتنخِّل يصف - سَيْفاً شبهه بالماء :

أبيضُ كالرّجْع، رسوبٌ إذا
ما ثاخَ في مُحْتَفَلٍ يَخْتَلِي(79)

قال الخليل : الرَّجْع : المطر نفسه، والرجع : أيضا، نبات الربيع، وقد يسمى المطر: «أوْباً» كما يسمى رجعاً قال:(80)

رَبَّاءُ شمَّاءُ لا يأوي لِقُلَّتِهَا
إلا السحابُ، وإلا الأوبُ والسَّبَل(81)

74) سورة الأعراف، آية 160.
75) سورة البقرة، آية 60.
76) سورة الكهف، آية 33.
77) سورة القمر، آية 12.
78) سورة الطارق، آية 12.
79) ثاخت قدمه في الوحَل : تثوخ وتثيخ : خاضت وغابت فيه، قاله الجوهري.. المُحْتفَل: أعظم موضِعٍ في الجسد.. يختلي : يقطع.
80) للمتنخِّل الهذلي.
81) قال السكري في شرح هذا البيت : ربّاء يربأ فوقها. يقول لا يدنو لقُلتها، أي لرأسها أي لا يعلو هذه الهضبة من طولها. إلا السحاب والأوْبُ... والأوبُ: رجوع النحل، والسَّبَل: القطر حين يسيل. [تفسير القرطبي ص: 10 / ج : 20.

ومطرُ أولِ الربيع يسمى بالوَسْمِي، لأنه يسم الأرض بالنبات، نسب إلى الوسم. قال الشاعر :

وغيثٍ من الـوَسْمِـيّ حُـوٍّ تِـلاَعُـهُ

تَبَطَّنتـــــه بشيظَم صَلَتَـــــانِ(82)

* * *

الحوض الذي يحوي المياه :

في كتب اللغـة العربيـة ألفاظ عدة، أطلقـت على الحوض الـذي يحوي الميـاه، شملت اتسـاعه وشكلـه وبنـاءَه وهـدمَـه وتنقيته.. وحـددت هـذه الأوصاف بدقة،(83) إلى جـانب مـا ذكـرتـــه في المصـانع، والصهـاريج، والأحباس، والقلات، والمداهن.

1 - **فالمصانع**، وكأنَّه جمع مصنع، الأبنيـة، وقد ذكـر المفسرون في قـولـه تعالـى، و«تتخذون مصـانع لعلكم تخلـدون» أن المصـانع: الأبنيـة والقصـور، قال لبيد:(84)

بَلِينـا، ومـا تَبْلَى النجـوم الطـوالعُ

وتبقى الديـار بعدنـا و«المصانع»

وقال امرؤ القيس :

أَلم أخبــرك أن الـــدهــرَ غـــولٌ

خَتُـــول العهـــد يلتهم الـــرجـــالا

---

82) التلاع : ج : تلعـة، وهي أرض مرتفعة غليظة يتـردد فيها السيل، ثم يدفع منهـا إلى تلعةٍ أسفل منهـا. وهي مكرمـة من المنـابت. تبطنتـه: دخلته. الشيظم: الطـويل الجسيم الفتى من النـاس والخيل. الصِّلَتان: النشيط الحديد الفؤاد من الخيل.

83) الطبيعة في الشعر الجاهلي. ص 54، د. نوري حمودي القيسي.

84) الديوان ص 168.

أزال من «المصـــانـع» ذا ريـــاشٍ

وقـد ملك السـهـولـة والجبـالا (85)

والمصانع التي عناها امرؤ القيس في قصيدته اسم مخلاف باليمن كان يسكنه، ذو رياش، وهو باقٍ على اسمه إلى يومنا هذا..(86)

وقال عنترة :

وفي يـوم «المصانع»، قـد تركنـا

لنـــا بفعـالنـــا، خبـــراً مُشـــاعـــا

ويطلق هذا الاسم على عـدة مواضع، فبأعمال صنعاء: حصن يقـال له: المصانع، والمصانع أيضا: قريـة من قرى اليمامة التي لم تدخل في صلح خالـد بن الوليد أيام قتل مسيلمـة الكذاب... قال ابن بلبيهـد النجدى: «في الريـاض عاصمة المملكـة العربية السعـودية قـرية يقال لهـا «المصانع»، ذكرها صاحب المعجم، ولا تزال باقية بهذا الاسم إلى هذا العهد، وتقع في قرى الرياض الواقعة في جنوبية قريب منفوحه..(87) والمصانع هنا موضع يحتفر فيه بركة يحتبس فيها الماء.

2 - **الصهاريـج** : مفردهـا : صهريج، وهي كالحيـاض يجتمع فيها الماء.

3 - **الحَبْسُ** : حِجارة أو خشب تبنى في مجـرى لتحبسه، كي يشرب القوم، ويسقوا، أموالهم. جمع : أحباس، قال الأصمعي الحبس: جبل شرف على السلماء، لو انقلب لوقع عليهم، وأنشد :

سقى الحبسَ وسْمِيُّ السمـاء، ولم يـزل

عليـــه رَوَايَـــا المُـــزْنِ، والـــدِّيَمُ الهُطَّلُ

85) معجم ياقوت ج : 8 / ص : 67.

86) «صحيح الأخبار» ج : 1 / ص : 95.

87) «صحيح الأخبار» ص : 2 / ج : 4.

ولـــولا ابنـــة الـــوهبيّ زبـــــدة لم أبل

طَـوَال الليـــالي أن يخـــالفـــه المحل(88)

وحِبْس سَبَل : حـرة بنـى سُليم، على مسيـرة يـوم من الســـوارقيـة.. والحبس: ج: أحبـاس، فلوق في الحـرة تمسك الماء، لـو وردت عليها أمـة لوسعتها... روى أبو البدّاح بن عاصم عن أبيـه، قال: سألْنَا رسـول الله ﷺ جِدْثان ماقَدم؟ فقلنا: لا ندري..! فمر بنا رجل من بني سُلَيم، فقلت له: «من أين جئتَ؟ قال: من حبس سَبَل، فانحدرت بـه إلى رسـول الله ﷺ، فقلت له: «زَعَمَ هـذا، أن أهله من حبس سبل»، فقـال لـه: «اخرج أهلك، فيـوشك أن يخرج منها نار، تضيء أعناق الإبل منها بِبُصْرى».

4 – **القلات** : ج قلت، بإسكان اللام، وهو النقرة في الجبل يستنقع فيها المـاء إذا انصب السيل،(89) وقـال الليث: القلت: حفرة يحفـرها مـاء واشل يقطر من سقف كهف على حجـر أيِّر، فَيـوقِفُ فيه على مر الأحقـاب وقبةً مستديرة. وقِـلات الصمَّان: نَقَرٌ في رؤوس قفافها يملؤهـا ماء السماء في الشتاء، وردتُها مرّةً وهي مفعمه، فوجدتُ القلت منها ياخذ مائة راوية وأقل وأكثر، وهـي حفر خلقهـا الله في الصخـور الصُّم، وقد ذكـرها ذو الـرُّمة فقال:

أمن دمنـــةٍ بيـن القِـــلات وشـــارعٍ

تصـــابيتُ حتى ظلت العيـنُ تسفح(90)

والقلتين : البحرين، قرية من اليمامه لم تدخل في صلح خالد بن الوليد أيام قتل مسيلمة الكذاب، وهما نخل لبني يَشكُر، وفيها يقول الأعشى:

شـــربت الـــراح بـــالقلتين، حتى

حسبت دجـاجـة مرّت، حمـارا(91)

---

88) انظر: ياقوت ج: 3 / ص: 210، وصحيح الأخبار، عما في بلاد العرب من الآثار ج: 3 / ص: 84.
89) معجم البلدان، لياقوت ص : 142 / 7.
90) «صحيح الأخبار»، ص : 10 – 11، ج : 5.
91) يا قوت، ج : 7، ص : 144، وانظر «صحيح الأخبار» ج : 3 / 121.

5 - **والمداهـن** : فقـرة في الجبل يستنقع فيهـا المـاء، وقيل هـو كل موضع حَفَرَهُ سيـل.(92)

ألفاظ لها صلة بالبحر :

وقد وردت، في كتب اللغـة ألفاظ عديـدة لها صلة بميـاه البحر... وهي تكون لنا فكرة عن مـدى معرفة العرب بالبحار وميـاهها. وكما سيأتي في غير هذا الباب.

فالبحر معروف سمي بذلك لاتساعه.. ويقال: فرس بحر إذا كان واسع الجـري، أي كثيره، وفي ذلك قـول رسول اللـهﷺ في مندوبٍ فـرسِ أبي طلحة: «وإنْ وجدناه لبحراً».

والبحر الماء الملح، ويقال : أبحر الماءُ : مَلُحَ، قال نُصَيب

وقـد عـاد مـــاءُ الأرض بحـراً، فـزادني

إلى مَـرَضي، أن أبحر المَشـربُ العَذْبُ.

ومن الألفاظ العـديدة التي لهـا صلة بميـاه البحر، «البـرزخ»، وهو في اللغـة الحاجـز بين الشيئين..(93) وقـد وردت اللفظـة في القـرآن الكـريم، والقامـوس: بمعنى وسط البحر،(94) وأسطمـة البحر، بمعنى وسطـه،(95) وعرض البحر، بمعنى وسطه، وبلدة البحر، بمعنى وسطه،(96) ولجة البحر، أي معظم المـاء، ومنـه: «بحـــر لجي»،(97) «والشـرم»، لجة البحـر، وقيل

---

92) انظر ديوان أوس بن حجر ص : 67.

93) القاموس : ص : 257 / 1، شرح القاموس : ص 252 / 2، المخصص : 10 / 16.

94) القاموس : 243 / 2، شرح القاموس : ص 233 / 4.

95) وأسمطة القوم كطرطبة، وسطهم وأشرافهم، القاموس ص 128 / 4، شرح القاموس ص 335 / 8 وما بعدها، المخصص: 10 / 16 وما بعدها.

96) المخصص ص : 10 / 16 وما بعدها..

97) القاموس ص : 205 / 1، واللج : معظم الماء، وخص بـه معظم البحر، وفي اللســان: لج البحر الماء الكثير الذي لا يرى طرفاه كاللجة، شرح القاموس ص: 92 / 2.

موضع فيه،(98) والعَوْطَبُ: لجة البحر كذلك،(99) والدردور : موضع في البحر يجيش ماؤه، قلما تسلم منه السفينة، قال الجوهري: المَاءُ الذي يدور، ويخاف منه الغرق، وقال الأزهري: هو موضع في وسط البحر يجيش ماؤه، لا تكاد تسلم منه السفينة،(100) والخليج، وهو من البحر، سمي بذلك لأنه يجذب من معظم البحر، وكذلك: خريص البحر: خليج منه، وفي التهذيب: الخليج نهر في شق من النهر الأعظم إلى موضع ينتفع به فيه، والخليج شرم من البحر، وقال ابن سيده: هو ما انقطع من معظم الماء...(101) والخَوَر: الخليج من البحر، وقيل الخَوَرُ مصبّ الماء فيه إذا جرى، وقيل هو مصب المياه الجارية في البحر إذا اتسع وعرض، وقال شمر: الخور عنق من البحر يدخل في الأرض، والجمع: خؤور...(102) والغُب: الضارب من مياه البحر حتى يمعن في البَرِّ...(103) والجزيرة: ما جزر عن البحر، قال ابن دريد: سميت جزيرة لانقطاعها عن معظم الأرض، والعَالَة: ما ينقطع من ماء البحر، فيجتمع في موضع منه، والدبْرُ: قطعة تغلظ في البحر كالجزيرة يعلوها الماء، وينضب عنها...(104)

وقد ذكر علماء اللغة ألفاظاً عديدة عن تلاطم أمواج البحر واشتدادها، وعن ارتفاع مياهه وانخفاضها وانحسارها عن الساحل.. وألفاظا أخرى تشير إلى الانفعالات التي تحدث للناس عند ركوب البحر، كما ذكروا ألفاظاً تشير إلى مواضع البحر، كالأماكن العميقة، والأماكن الضحلة، ومواضع دخوله في الأرض مثل الخليج، وغير ذلك.. وفي ورود هذه الألفاظ القديمة

---

98) القاموس ص : 135 / 4.

99) القاموس ص 106 / 1.

100) شرح القاموس ص : 205 / 3.

101) شرح القاموس ص : 34 / 2.

102) شرح القاموس : ص : 192 / 3.

103) القاموس ص : 109 / 1، شرح القاموس ص : 403 / 1.

104) المخصص : 70 / 15 – 20.

التي لها علاقة بمياه البحر في كتب اللغة دلالة على أن للعرب قبل الإسلام وبعده علم وفقه بمياه البحر، فلا يعقل بالطبع، ورودها في اللغة دون أن يكون للمتكلمين بها، ولا سيما سكنة السواحل، علم البحر...(105)

ووردت لفظة «اليم» في القرآن الكريم،(106) ويراد بها البحر، وفي اللغة العربية ألفاظ أخرى مرادفة للبحر أيضا، منها: القَلَمّس و«الد أماء» و«الكافر» و«والحضارة» و«السَّدِر» و«البقيع» و«الحنبل» و«المُهْرَقَان» و«الخضم» و«الرجاف» و«العيلم»(107) وغير ذلك من ألفاظ ترد في كتب اللغة.

* * *

ومن أمارات الغيث عن العرب : الهالة التي تكون حول القمر، فإن كانت كثيفة مظلمة كانت من دلائل المطر، ولا سيما إذا كانت مضاعفة ومن أماراته وعلاماته، أيضا، الندأة، وهي الحمرة التي تكون عند مغرب الشمس أيام الغيوث... ومن دلائله كذلك أن ترى القمر والكواكب في الصحو يحيط بها لون يخالف لون السماء، وكذلك إن رأيت القمر في الغيم، وإن كان قَزَعاً، كأنه تحيط به خطوط قوس المُزن.

* * *

---

105) د. جواد علي ص : 102 – 103 – 104 / 8.

106) طه : الآية : 39 – 78 – 97 – القصص، الآية : 7.40، الأعراف : الآية : 135، اليم : البحر، وقيل : هي لغة سريانية المخصص: ص : 163 / 10.

107) المخصص : ص : 15 / 10، «فالقلمس» كعلمّس : الكثير الماء من الركايا، والبحر» القاموس ص : 243/2. – والكافر : الليل والبحر والوادي العظيم، والنهر الكبير: القاموس: ص 128 / 2 والخُضَارة بالضم: معرفة البحر» «السَّدِر» : كَكَتِف: البحر القاموس ص: 46 / 2، «البضيع»: كأمير: الجزيرة في البحر، «والحنبل»: البحر، القاموس ص : 362 / 3، والمُهرَقان : كمسجلان وملكمان، وبضم الميم وفتح الراء: البحر، أو الموضع الذي فاض فيه الماء: القاموس ص: 290 / 3، الخضم: البحر.. القاموس ص 107 / 4، العيلم: البحر والماء التي عليه الأرض: القاموس ص 154 / 4.

من أسماء السحاب :

ولنعرض الآن لما جاء من باب السحاب وأنواعه في لغة العرب، فمن أسمائه: «الدَّجْن»: وهو السحاب إذا اشتد صوت رعده. «وبنات نحر ونجر»، وهو سحاب يخرجن من البحر بين الخريف والربيع. و«الجهام»، وهو السحاب الذي قد هرق ماءه، و«الجفل» و«الصراد» و«الرهج» كل سحاب قد ساقته الريح قد صب ماءه. و«الحماء» وهي السحابة السوداء تضرب إلى الحمرة، و«الحمل» وهو السحاب الكثير الماء، و«الخسيف»: ما نشأ من السحاب من قبل العين، «الخال»: السحاب، «الحولاء» السحابة الكثيرة المياه، الحِّبي من السحاب: القريب من سطح الأرض، «الخايل» هو السحاب الذي تستخيل فيه المطر، «الحير» الغيم ينشأ مع المطر، «الخلق»: ما يرجى أن يكون فيه مطر، «الديمة» السحابة الدائمة لا رعد فيها ولا برق، الدجن، اظلال السحاب الأرض، وهو اليابسة أياها أمطر أم لم يمطر، و«الدجنة» من الغيم، المطبق تطبيقاً، «الريف»، أول السحاب الممطر، الرَّمِي: قطع من السحاب صغار دقاق قدر الكف أو أكبر شيئاً والجمع أرماء، «الرباب»: السحاب المتعلق دون السحاب، وقد يكون أبيض، وقد يكون أسود، «الركام» إذا ركب السحاب بعضه بعضا وكذلك «المكفهر»، «الزبرج»: الغيم في عرض السماء، «السمي»: السحاب، «السد» السحاب الذي يسد الأفق، «والسبق والجيء»، الغيم في عرض السماء، «الشيق» من السحاب، ما طرءته الريح، «الظلة»، أول سحابة تظلل.. قال تعالى: «فكذبوه فأخذهم عذابُ يوم الظُّلَّة»(108) قال ابن عباس: أصابهم حَرٌّ شديد، فأرسل الله سبحانه سحابةً، فهربوا إليها ليستظلوا بها، فلما صاروا تحتها صيح بهم فهلكوا، وقيل، أقامها الله فوق رؤوسهم، والهبها حرا حتى ماتوا من الرَّمْد، ومن أسماء السحاب عند العرب: «الصبير»، وهو السحابة البيضاء

108) سورة الشعراء رقم الآية : 189.

التي يـراها الإنســان متراكبـة في بيـاض - «الصيب»: إذا كان ذا صــوت شديد، قـال تعالى: أو «كصيب من السماء فيه ظلمـات ورعد وبرق»،(109) «طـرة الغيم» أبعـد ما يـرى من الغيم، «الطخـاف»: إذا ارتفع وحمل المـاء وكثف وأطبق، «الطخارير»: السحاب الصِّغار، «الطخاء»: هو السحاب الرقاق - «العـارض»: الـذي يعرض في قطـر من أقطـار السمــاء من العشيّ، ثم يصبح وقد حبا واستوى، وإذا أقبل إليـك، وأخذ يعلو فهي الحَبيّ.. «العقر» السحــاب ينشـأ في عـرض السمــاء، فــلا تبصــره، ولكن تسمــع رعـده، «العقاقـة»: السحابـة معها برق، «العين»، كل سحـابة تبـدأ من قبل القبلة، «العَنان»: السحــاب، «الغفارة» إذا كـان سحابـا فوق السحــاب، «القرد» إذا ارتفع في السمــاء وتَلَبَّدَ بعضــه فوق بعض، «الغمــاء»: السحابـة السوداء، «الغديق»: السحاب الكثيـر الماء، «الغمام»: إذا تغيرت لـه السماء، الكرفـيء: السحــاب المـرتفع الذي بعضــه فـوق بعض، «كفـاف السحاب» أسـافلـه، «الكَنَهْور قطع من السحــاب مثل الجبال، واحدتهمـا كنهورة، «النشء»: أول ما ينشأ من السحــاب، «المحلولك»: السحاب الشديد الســواد، «المحمومي» السحاب المتراكم الأســود، «المزن»: ذو الماء الريــان، «المكفهر»: السحـاب المتراكب، «المعصرات»: ذوات المطر، قال تعالى: ﴿**وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجا**﴾،(110) والمعصــرات الريــاح، كأنها تعصِـر السحاب، أو أنَّهَـا السحاب، أو السحائب التي تنعصِر بالماء، ولما تُمطر بعد، كالمرأة المُعصِر التي قَدْدَنَا حيضُها ولم تَحِضْ، قال أبو النجم :

تمشي الهُــوَيْنَى مــائلاً خمــارهــا

قـد أَعْصَـرَتْ، أوْ قدْ دَنَـا إعصـارهـا...!

---

109) سورة البقرة رقم الآية : 19

110) سورة «عم» رقم الآية : 14.

وقال عمر بن ابن ربيعة :

فكـــــــان مِجَنِّي دون مـن كنت أتقـي
ثلاث شخـوصٍ : كَاعِبَـان ومُعصِرُ(111)

ومن أسماء السحاب السُّدّ وهـو السحاب المرتفع السَّادُّ الأفق، والجمع سُدُود. قال:

قعـــدتُ لـــه، وشيّعني رجــــالٌ
وقـــد كَثُـر المخــايلُ والسُّـــدود

ومن أسماء السحاب أيضا : «النضد» من السحـاب الذي تراه متراكبا... و«النقع»، وهو سحاب أبيض صيفي.. «النشاص» هو السحاب الذي يرتفع بعضه فـوق بعض، و«النِمِّرَة السحابـة كجلد من غيم صغـار تكاد تتصل، و«الفارق» السحابـة تفارق معظم السحاب فتنفرد، وربمـا أمطرت بأماكن أخرى.. و«قزعة» القزع: سحاب صغار يتطاير في السماء، وقيل، هي قطع رقـاق كأنها ظل من تحت السحـاب، وقيل: السحاب المتفـرق، ومنه قـزع الخـريف، الواحـدة قـزعـة... و«القنيف» إذا كان ذا مـاء، «قلع»: إذا كـانت السحب متـراكمة كأنهـا الجبال، «الهيدب» الـذي يتدلـى ويدنو مثـل هدب القطيفة، «الهزيم» السحاب لرعده صوت، ويقال سَحَابٌ صَلِفٌ: كثير الرعد، قليل الماء، والـراعدة: السحـاب ذات الرعد، ومنـه المثل: «رُبَّ صَلَفٍ تحت الراعِـدة»، والصَّلَف: قلة الماء، أي أن السحـاب ربما رعـدت ولم يكن منها خير. وهذا مثل يضرب للبخيل مع سعة ذات يده.. وقيل للرجل يكثر الكلام والمدح لنفسه ولا خير عنده، وقد اعترض على قائل الأول بأن السحاب إذا كثـر فيها المـاء لم يُقَلْ لهـا صَلِف، وقد أجـاب العـلامة الحسن اليـوسي قائلا:(112) «يعني، فلا يشبه بها الرجل الكثير المال لبخله، ويجاب بأن قلة

111) الجامع لأحكام القرآن ص : 172 / 19.

112) «زهر الأكم في الأمثال والحكم» للحسن اليوسي ص 42 / 3.

الماء المسمّى بالصَّلَف إنما هو باعتبار النزول إلى الأرض... فصح تشبيه البخيل بذلك، وإن كثر ماله، باعتبار قلة ما يخرج من يده، وإن أريد بالصَّلَف أن لا يكون ماء في السحابة نفسها أصلا، فالمراد حينئذٍ التشبيه باعتبار ما فيها من أصوات الرعود والبروق، فإنه مظنة السقي، كما أن كثرة المال مظنة النفع...

وضمّن هذا المثل ابن الشِّبل البغدادي إذ يقول :

صحةُ المرء للسقام طريقٌ
وطريق الفناء هو البقاءُ

بالذي نغتذي نموت ونحيا
أقتلُ الداء للنفوس الدواء

مالقِينا من غدر دنيا، فلا كا
نت، ولا كان أخذها والعطاءُ

صَلَفٌ تَحْتَ راعدٍ، وسحاب
كَرَعَتْ منه مُومِسٌ خرقاء

راجعٌ جودُها عليها فمهما
يَهَب الصُّبْحَ، يستردُّ المساء..!

ليت شعري حلمٌ تمُرُّ به الأيام
أم ليس تعقل الأشياء

من فسادٍ يكون في عالم الكو
ن، فما للنفوس منها اتقاء

وقليلا ما تصحَبُ المهجة الجسـ
ـمَ، ففيم الشقا وفيم العناء ؟

قبّح الله لذةً لشقانا
نالها الأمهاتُ والآباءُ

نحن لــولا الوجــودُ لم نالم الفَقْــ

ــــدَ، فإيجـــادنـــا علينـــا بـــلاءُ

وقد ضمن المثل السابق في قصيدة العلامة الحسن اليوسي فقال:

ولـــــربّ ذي رعـــــدٍ علـى صَلَفٍ

وَمُهَـــدَّرٍ فـي العُنَّـــة الحِجْـــر

وسمَّى ساعدةُ بنُ جُؤْيَه الدّمَ ماءً فقال يهجو امرأة :

شــروبٌ لماء اللحم في كل شَتْـوةٍ

وإن لَم تَجِـدْ مَن يُنزِلُ الـدُّرَّ تحلُب

أراد، وإن لم تجـد من يحلُب لهـا، حلبتْ هي، وحلبُ النســاء عـار عنـد العرب.

التراكيب والاستعمالات المجازية للماء

ذلك هـو بعض من مـادة «المـاء» ومشتقـاتـه ممـا عـرف العـرب في جاهليتهم.. وتلك هي الألفاظ المعجميـة التي تحمل دلالات وظلالات كثيرة، على تعلق العربي بعنصر الماء، وشغفه بالمطـر والحيا ولشدة حاجته إليه في صحرائه ذات الرمال الوعساء...

* * *

من جهة أخرى، فإنه يمكننا، بعد هذه الدراسة اللغوية «المائية» أن ننظر في التراكيب والاستعمالات المجازية، والجمل الاستعارية، والألفاظ الكنائية، لنجد في أمثال العـرب وشعرهم وقصصهم أعداداً هائلـة تستمد من مادة «الماء» وعنصره، وفي حالاته المختلفة سـواء كان سحاباً أو سيلاً أو ثلجا أَو بَرَداً.. وما إلى ذلك.

* * *

فقد قرن العـربي القديم في صحراء شبه الجزيرة العـربية «الماء» بكل معنى خَيِّر، وبكـل منظر حسن، وبكل فعل جميل، ولـوّن الماء تعـابيرهم، فقالوا لما لا يستحسنونه: «**لا ماء فيه**» قال ابن قتيبة،(113) وهو يتحدث عن اللفظ والمعنى في قول لبيد الشاعر:

ما عـاتب المـرء الكـريم كنفسـه

والمـرء يصلحـه الجليس الصـالح

قال : «هذا، وإن كان جيد المعنى والسبك، فإنه «**قليل الماء**» والرونق.. وقالوا: «**فـلان ليس في وجهه مـاء**»، واستعاروا «الماء» في كـلامهم لما

113) «الشعر والشعراء» ص : 9.

يحسن وقعه ومنظره، ويعظم قدره ومحله من نفوسهم، قال أبو نواس:(114)

لما ندبتك للجزيل أجبتني :

«لبيك، واستعذبت «**ماء كلامي**»

يقول الثعالبي : «العرب تستعير في كلامها «الماء» لكل ما يحسن وقعه ومنظره، ويعظم قدره ومحله، فتقول: **ماء الوجه، وماء الشباب، وماء السيف، وماء الحياة، وماء النعيم**..

وحين اجتهدوا في تسمية امرأة بالجمال، والبركة، والحسن، والصفاء، والبياض، قالوا: «**ماء السماء**»(115) وقالوا: المنذر **بن** «**ماء السماء**».. وهو آخر ملوك الحيرة، قالوا: نسب إلى أمه وكانت تسمى: «**ماء السماء**» وهذا مذهب أبي العلاء المعري الذي يومن بأن ينسب الإنسان إلى أمه، فهو يقول:

ولحبِّ الحقيقة، آثرت الـرو

م، انتساب الفَتى إلى أمهاتِهْ

جَهِلوا مَن أبوه، إلا ظنونا

وطِلاَ الوحش، لاحقٌ بِمَهَاتِهْ

ويقال : صبغ له ماء، ولون له ماء، وفلان ليس في **وجهه ماء**، وردني فلان ووجهي **بمائه**، قال الشاعر :

ماء الحياء يجول في وجناته(116)

وإلى «ماء الوجه» يشير ابن الخياط :

لم يبقَ عندي ما يباع بحبة

وكفاك، شاهدُ منظري عن مَخْبَرِي

---

114) الديوان ص : 110.

115) «الحيوان» ص : 141 / 5.

116) الحيوان للجاحظ : ص : 142 / 5.

إلا صُبَابَة «ماء وجه» صنتها

من أن تباع، وأين؟ أين المشتري؟

وإليه أشار الكاتب أبو المطرف بن عميرة :

وأصعبُ من ماء يراق على الصدا

بِيَهْمَاءَ، «ماء الوجه» حين يراق

ولكن إذا ما كَاسَهُ عرضت على

كريم، نباها عنه وهي دِهَاق

كما تستعير العرب، في كلامها، الاستقاء في طلب خير، وكذلك سموا السائل والمجتدي مستميحاً، وإنما الميح جمع الماء في الدلو.(117)

ويكفي أن نذكر أن العرب لفرط تشوقهم وتطلعهم للمطر والغيث وبحثهم عنه، وترحلهم في سبيله، قد لقبوا ببني «ماء السماء» كما جاء في حديث أبي هريرة: «أمكم هَاجَر يا بني ماء السماء».(118)

كما استعملوا كثيرا من الكلمات المتصلة بالماء في شؤون حياتهم الخاصة فاستعملوا كلمة «الغوث» بمعنى العون والمؤازرة والمساعدة، واستخدم شعراؤهم تعبير: «أغثني» عندما يخاطبون ممدوحيهم طالبين للرِّفد والنوال، كقول جرير:

أغثني، يا فداك أبي وأمي

بسيب منك، إنك ذو ارتياح

وفلان طلب الغوث، واستغاث فلان، إذا طلب النجدة والعون...

---

117) الثعالبي عبد الملك بن محمد، «ثمار القلوب، في المضاف والمنسوب» تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ص : 563.

118) يريد العرب، «لسان العرب» لابن منظور كلمة «موه».

وكان إذا نزل القَطْر بعد امتساك السقيا، وتوقف الحيا، يقول النبي عليه السلام : «اللهم اجعله غيثاً نافعاً».. وقد أخذ هذا المعنى أبو تمام فقال:

واعلَمْ بـأن الغيثَ ليس بنـــــافِعٍ،

مـا لم يكن للنـــاس، في إبَّـانِـهِ...

وغايـة دعائهم للمرجـو والمشكور أن يقولـوا: سقاك الله، فإذا تـذكروا أياماً طاف فيها الأنس، وَصَفَتْ فيها النفوس، قالوا: سقى الله تلك الأيام..

والبخيل، عنـدهم، يشبـه «خيـره» بـالبعـد في قعـر الحـوض بحيث لا يستطيع أحد أن يغترف منـه فيقولون: «ماؤه لا ينـال قادِجُهُ،(119) أي أن خيره لا يصل إليه أحد، فيكنون بالماء البعيد، عن الخير البعيد.. ويشبهونه، أيضا، بالسحابة التي لا يسيل منها شيء ولا تنزل المطر، كقولهم: «ما هو إلا سحابة ناصحة»(120) أو قولهم: «هل بالرمل وشال».(121)

أما الضعيف الـذي لا عقل له يردعـه ويمنعه من السقوط فهو كـالبئر التي لا جوانب صلبة لها تمنعها من الانهيار..(122)

والإنسان الكـريم الذي يقصده النـاس يشبه «بالمـورد» والمنهل الكثير الورود.. كما في قول الشاعر:

تـــزدحم القصـــــاد ببـــابـــه

و«المـورد» العـذب كثير الـزحـام

ومنه قولهم : «ثَـوْبُ الماء» : الغِرْس الذي يكـون على المولود، Liquide Amniotique قال الراعي :

تشق «الطيـرُ ثـوبَ المـاء» عنـه

بُعَيْـدَ حَيَـــاتِـــه إلا الـــوَتِينَـــا

---

119) «مجمع الأمثال» للميداني ص : 90 / 1.

120) «مجمع الأمثال» للميداني ص : 288 / 3.

121) المصدر السابق ص : 460 / 3. والوشل الماء المنحدر من الجبال، ولا تحتفظ به الرمال.

122) «ماله جول ولا معقول» الميداني، مجمع الأمثال ص : 295 / 3.

ويقــولون في أمثــالهم، وهم يتحدثــون عن مــورد من مواردهم اسمــه «أضاخ»، فيشبهون الإنســان الكريم الذي تتزاحم على أبوابــه القصّاد بذلك المنهل الذي يؤمــه الناس، وينسِلُون إليه من كُلِّ حدب وصَــوْب، فقالوا: إن أَضَاخاً منهل مورود».(123)

* * *

ولقبت أم المنذر بن امرىء القيس بن عدي بن ربيعة بن نصر اللخمي، «بماء السمــاء»، وهي ابنة عــوف ابن جشم، من النمر بن قــاسط، وسميت بذلك لجمالها، وقيل لولدها: «بنو ماء السماء» وهم ملوك العراق..

وقد لقِّب عامر بن حارثة الأزدي «بمــاء السماء»، وهو أبو عمرو مُزَيْقِيَا الــذي خرج من اليمن لمــا أحس بسيل العَرِم، فسمي بــذلك، لأنه كــان إذا أجذبَ قــومُه مَانَهُم حتى يــاتيهم الخصب، فقالــوا : هو «ماء السمــاء» لأنه خَلَفٌ منه، وقيل لولــده : بنو «ماء السماء» وهم ملــوك السماء، قال بعض الأنصار:

أنــــا ابن مُــزَيْقِيَـــا عمــرٍ وجـــدي
أبـــو عـــامــــرٍ «مـــاء السمـــاء»

وسمي مُزَيْقِيَا، لأنه كان يمــزق كل يوم حلة يلبسها من أول النهار إلى آخره، ثم يمزقها لِيَلاَّ يلبسها أحدٌ بعده...

وفي حديث لأبي هريرة : «أمُّكم هاجر يا بني ماء السماء» يريد العرب، لأنهم كانوا يتبعون قطر السماء، فينزلون حيث كان.

وقالــوا : «مــــاء الشبــاب» واداروه في شعرهــم، قــال عمـــرو بن أبــي ربيعــة :

وهي مكنــــونـــةٌ تحيّــــر منهـــا
في أديم الخــديــن «مــاء الشبــاب»

123) «مجمع الأمثال» للميداني ص 90 / 1.

وقال أبو العتاهية :

ظبي عليـــه من المـــلاحــة حلــةٌ

«مَاءُ الشبــاب» يجول في وجنــاته

وقال أحمد بن إبراهيم بن إسماعيل :

أهيف : «ماء الشباب» يرعد في خد

يـــه، لـــــولا أديمـــه قطـــــرا

وما أجمل إشارة ابن الرومي إلى هذا، في قوله يرثى «بستان» المغنية:

يــا حَــرّ صدري علــى ثلاثــة أمــوا

ه، هُـــرِيقَتْ في التــراب والمـــدر

«**مـــاء الشبـــاب**» ونعمــة مُزِجــا

«**بمـــــاء ذاك الحيـــــاء**» والخَفَر

تبتل العـــــود بعـــــد فقـــــدِكُمُ

وازدجـــر اللهـــو أيّ مـــــزدجـــر

وغــاض «**مـــــاء النعيم**» يتبعكم

وانهمـــــر الــــدمــع أي منهمــــر

فتراه استعار الماء في أبياته هذه إلى كل ما يحب ويعظم، فيقول: «ماء الشباب» و«ماء النعمة»، و«ماء الحياء»، و«ماء النعيم».

و«ماء الشبيبة» : نضارتها وحسنها، ومنه قول المتنبي :

وأحسنُ من «مــاء الشبيبــة» كلِّــه

حَيَــا بَارِقٍ، في فَــازَةٍ أَنَــا سَائِمُــهْ

وقال الرئيس أبــو العباس أحمد بن أبي طالب العــزفي في قصيدة من قلائده:

لم تشتعِلْ نــارُ المَشِيــب بمفــرقي

حتى أراق الــدهــر «مــاء شبــابي»

ويقول الوزير أبو عبد الله بن الخطيب :

سـلام علـى تلك المعـاهـد، إنهـا
مَـرَابعُ أُلَّافِي، وعهـدُ صِحَـابِي
وَيَـا آسـة العهد انعمي، فلطـالمـا
سكبتُ على مثـواك، «ماء شبـابي»

وقالـوا في كلامهم: «مـاء الحياة»، و«ماء المحيـا» كما في قـول الإمام الشافعي:

إذا أَظمـأتـك أكـفُّ اللئـــام
كَفَتْك القنـاعَـةُ شبعـا وريّـا
فكن رَجُـلاً، رِجلُـه في الثَّـرى
وهـامـة همتـه فـي الثـريـا
أبِيّـاً لنـائل ذي ثـروة
تـراه بمـا في يـديـه أبيـا
فـإن إراقـة «مـاء **الحيا**
ة»، دون إراقـة «**ماء المحيـا**»

ويطلق «ماء الحياة» أيضا، على مني الرجل كما أشار إليه ابن سينا في قوله:

احفظ منيّك، مـا استطعت فـإنـه
«مـاء الحياة»، يصب في الأرحـام

«ماء الحيـاة»، يريد بـالماء صفاء البشَـرة، ورقتها، ولألاء الوجـه الذي يتراءى كالمـاء، ونسبه إلى الحياة، إشارة، إلى أنه يحي قربُـه، والنظر إليه، كما قال :

لـو أسنـدتْ ميْتـاً إلى صـدرهـا
عـاش، ولم يُنقَلْ إلـى قَـابِـرِ

ولقـد لجّ المنكـرون الـذين جـردوا المتنبي من كل فضل في تصغيـر نسبه، كما لجُّوا في تصغير أدبه، فدعـوه ابن السقّاء، وبه قال قائلهم، وهو يستعمل عبارة «ماء المحيا»:

أيُّ فضلٍ لشـاعــر يطلب الفضــ
ـــل مِن النــاس بكــرة وعشيــا
عـاش حيناً يبيع في الكـوفة المـا
ء، وحينـــاً، يبيع «مـــاء المحيــا»

وقال أبو تمام :

رددت رونـق وجهي فــي صحيفتــــــه
ردّ الصقـــال لمـــاء الصـــارم الخَــذِم
ومـا أبـــالي، وخيــر القـول أصـــدقـه
حقنت لي «مـاء وجهي» أم حقنت دمي[124]

وقالوا «ماء الحسن»، وما أجمل إشارة ابن المعتز إليه في قوله :

لِي مـــــولًـى لا أسميـــــه
كـل شيء حســن فيـــــه
تصف الأغصـــان قــامتــه
بِتَثَـنٍّ كتثنيـــــــــــــــه
ويكـــــاد البــــدر يشبهــــه
وتكــــاد الشمـس تحكيــــه
كيف لا يخضـــر عــارضُـــه
و«**ميـــــاه الحسن**» تسقيه

124) الديوان ص : 219.

وقالوا في : «ماء الصبا»، ما قالوا : أنشد ابن السكيت:(125)

قـد قلت إذ «مـاء صبـاك» يُـرعشُ

وإذ أهـــاضيب الشبـــاب تبغش

وتحدث عشـاقهم عن الوجـه والبكاء، وكنـوا عن الدمـوع، فقالـوا: «ماء الشوق»، و«ماء الجفن» و«ماء الصبابة»، و«ماء الهوى» قال العَتَّابي:

أكـاتِم لـوعـات الهـوى ويبينهـا

تخلل **«ماء الشـوق»** بين جفوني

ويقول أبو الطيب المتنبي في صباه يمدح أبا المنتصر شجاع بن محمد ابن رأس بن معن الرضى الأزدي، وهو يتحسر على شبابه:

والمــرء يـامـل، والحيـاة شهيــة

والشيب أوقــر، والشبيبـة أنــزق

ولقـد بكيت علـى الشبـاب وَلمتي

مَسْوَدّة، **«ولمـــاء وجهي»** رونق

حَــذَراً عليــه قبل يـوم فــراقِــه

حتى لَكِـدْتُ **«بمـاء جفني»** أشرق(126)

وقال ذو الرُّمّة :

أأن تَــوَسَّمتَ من خــرقـــاءَ منـــزلـــةً

«ماء الصبـابة» من عينيك مسجـوم(127)

---

125) أخبار أبي تمام للصولي ص : 36.

126) ديوان المتنبي ج : 3 / ص : 76، تحقيق عبد الرحمن البرقوقي...

127) من العوارض التي تعرض لألسنة العرب : العنعنـة، وتعرض في لغة تميم، وهي إبدالهم العين من الهمزة، كقولهم: ظننتُ عنك ذاهب، أي أنك ذاهب، وكما قال ذو الرُّمة:

أعن توسّمتَ من خرقاءَ منزلة «ماء الصَّبـابـة» من عينيك مسجوم

ومنه قول الآخر :

إن حُـزتَ عُـلاَ، فـاتخــذ جِـرْفَـةً
تصـون **مـاء الـوجـه**، لا يبـدل
ولا تُهِنْـــهُ، أن تُـــرَى ســـائلا
فشأن أهـل العلم، أن يســألــــوا

وقال ذو الرمة أيضا :

اداراً بحُــزْوَى، هجت للعيــن عبــرةً
«**فماء الهوى**» يرفض أو يترقرق

وقالوا، أيضا، «ماء الندى» و«ماء النوال»، يقول البحتري :

ومــا أنــا إلا غـــرس نعمتك الـذي
أفضت لـه «**مــاء النــوال**» فأورقا
وقفت بـــآمـــالـي عليك جميعهـــا
وأراك في إمســـاكِهِنّ مـــوفقـــا..

وأخذ النقاد على أبي تمام قوله :

لا تسقنـــي «**مــاء المــلام**» فإنني
صب، قـد استعذبت «مـاء بكائي»

وفي إضـافة المـاء لِلْمَلام غـرابـة، أوجبت بعض الهُجنة والبـرودة في الكلام...

ويحكى أنه عيـب عليه ذلك حتى تحـدث أن بعض عصريِّيه أرسـل إليه بشربة من «**ماء الملام**» فقال: حتى تبعث إليّ بـريشةٍ من جنــاح الذل... وهـذا خطيئة أبشع من الأولـى، فإن الاستعارة في جنـاح الـذل مأنوسـة

الاستعمال قـديما وحديثـا، ومُدْرَكُ حسنها وفصـاحتها بالـذوق دون ماء الملام، وقد وقع له في هذه القصيدة نفسها ما يقرب من هذا، حيث قال:

رأيٌ لـو استبقيتَ «مَـاءَ نصيحـةٍ»

لجعلتـــــه رأيـــــاً من الآراء...

غير أن هـذا، وإن كان غـريبا، يُحسِّنه أن الـرأي والنصيحة تحيـا بهما النفوس، كما تحيا بالماء الأبدان، ولا كذلك الملام...

ثم إن لطف «الصنعة» فـي «جَنَاحِ الذل»، ومـا يتأتى فيها من تصـوير للخفض وللعاطفة، التي تصحَبُها، لا يمكن أن تقابل بـ «ماء الملام».

* * *

ولما قدم الشاعـر أبو تمام، البصرة، وكان بها عبـد الصمد ابن المعدّل الشاعـر، فلما سمع بوصـوله، خاف أن يميل النـاس إليه، ويعرضـوا عنه، فكتب إليه قبل دخوله البلد :

أنتَ بيـن اثنتين تبـــرز للنـــا

س، وكلتـــاهمـــا بـوجـــه مُـــذَالِ

لست تنفـك راجيـا لـــوصـــالٍ

من حبيـب، أو طـــالبـــا لنـــوال

«أيُّ مـــاء» يبقى لـــوجهك هـــذا

بين ذل الهـــوَى، وذل الســـؤال

فصير لماء الوجه ماءً،(128) ولهذا قيل بأنه كان اظرف نقد وجه للشعر والشعراء ما قصـه الثعالبي إذ قال: وقد أفصح عبـد الصمد بن المعدل عن حقيقة الحال في انحطاط رتبة الشاعر لاشتغاله بخلاف المراشد حيث قال لأبي تمـام، وقد قصـد البصـرة، وشارفهـا: «أنت بين اثنتين»، فلمـا بلغت الأبيات التي قـالها ابن المعـدل تصور حياة الشعـراء أحسن تصويـر قال:

---

128) «أخبار أبي تمام» للصولي ص : 34.

صدق والله وأحسن، وثنى عنانه عن البصرة، وحلف أن لا يدخلها أبدا،(129) وهذه الأبيات التي قالها ابن المعدل تصور حياة الشعراء الأقدمين أصدق تصوير.(130)

وقولهم أيضا، «مَاءُ السخاء» كما أنشده حازم القرطاجني في مقصورته، بقوله:

سَنُّوا على أثواب أعرَاضِهِمُ
«ماءَ السخاء»، فَنَفَى عنها الصَّخَى

يقال : سننت الماء عَلَى وجهي : إذا أرسلته إرسالا من غير تفريق، فإذا فرَّقته في الصب: قلتَ: شننته.

و«ماء السخاء»، جاء به الشاعر على جهة الاستعارة، وحسنه أن العادة جرت في الكلام، أن يقال: فاضت علي عطايا الأمير، وفلان يهمى جوده، وتصوب مواهبه، وغرقت في بحر نوالك، فحسنت لأجل ذلك استعارة الماء للسخاء... ألا ترى كيف حَسُن قول ابن اللبانة :

بروحي وأهلي جِيرةٌ ما استعنتهم
على الدهر، إلا وانثنيت مُعَانَا
وراشُوا جناحي، ثم «بَلُّوه بالندى»
فلم أستطع من أرضهم طَيَرَانا

لما كان العطاء يستعمل معه ما ذكرته من الأوصاف التي تستعمل مع «الماء»، كان موقع البَلَل هنا عَذْباً، وزيادة حسنة مع ما انضم إليه من التورية، بذكر الندى بعد قوله: «وراشوا جناحي...» فجاء غاية في البراعة، ومستطرفا جدا...

---

129) «نثر النظم»، ص : 14.

130) النثر الفني، في القرن الرابع لزكي مبارك ص 22 / 1.

وليس ذكر «الماء» مع «السخاء» في لفظ حازم القرطاجني، «كماء الملام» في قول أبي تمام، فإن استعارة «الماء للملام» معلوم فيها ما ذكرت من هذا الاستعمال، لا سيما، وقد تمكنت الاستعارة لِمَا وصف به «ماء السخاء» من إزالة الصّخَاء، وهو الدَّرن، وذلك من أوصاف الماء...

* * *

وقالوا أيضا، «ماء الجمال»، وقد أنشد ابن السمان عبد الباقي الدمشقي يوماً قصيدة غزلية يقول في مطلعها:

غصن رنَّحه شكرُ الدلال

ينثني رَيّان من «ماء الجمال»(131)

كما تحدثوا عن «ماء الغيب»، فقال القاضي عبد الجواد بن شعيب بن أحمد ابن عباد بن شعيب القنائي الأصل، المصري الشافعي الأنصاري من علماء مصر، وأدبائها في «كشف الريب، عن ماء الغيب» «شرح الأبيات الثلاثة، وهي:

توضأ «بماء الغيب» إن كنت ذا سر

وإلا تيمّم بالصعيد وبالصخر

وقدِّم إماماً كنت، أنت إمامه

وصل صلاة العَصْر في أول الفجر

فهذى صلاة العارفين بربهم

فإن كنت منهم، فامزج البَر بالبحر(132)

وتحدثوا، أيضا عن «ماء المفاوز»، «وماء المكرمات»، وقد جمعها الشاعر، فقال، وَلعله ابن دراج القسطلي:

---

131) «خلاصة الأثر» للمحبي ص 284 / 2.

132) «خلاصة الأثر» ج : 2 / 301. والعجيب أن حاجي خليفة صاحب «كشف الظنون» ذكر هذا الكتاب بهذا العنوان «كشف الريْب، عن عَمَاء الغيب» وهو غلط يدل عليه سِيّاقُ الأبيات.

تخـــوفني طـول السِّفـــار، وإنني
لتقبيل كف العـــــامـــري سفيـــــرُ
ذريني، أرِدْ «مـاء المفـاوز» آجنـا
إلى حيث «مـاءُ المكـرمات» نميـر
وإن خطيـــرات المهـــالـك ضُمَّن
لــراكبهـــا، أَن الجــــزاءَ خطيــر

ولعـل البيـت الثاني يشبه ما قالـه أبو الطيـب المتنبي :
وأظما فـلا أُبْدِي إلـى الماء حـاجةً
وللشمس فـــوق اليَعْمُـلاتِ لُعَـــابُ(133)

فهـو يقـول : إنني أعطش في الفيـافي الحـارة، التي يشتـد فيهـا حـر الشمس، ويسيل لعـابُهـا فوق الإبل، فـلا أبـدي حاجتـي إلى الماء تصبُّـرا وتجلدا وحزماً، وقد أخذ هذا المعنى مِن قول أبي تمام :

جـديـــرٌ أن يكـرَّ الطـــرفُ شـــزرا
إلى بعض المـوارد، وهــو صـــادي

وقد تحدثوا عن «ماء الهوى»، حيث قال ذو الرمة :
أدَاراً بِحُــــــزْوَى، هجتِ للعين عبــــرةً
«فمـاءُ الهـوى»، يـــرفض أو يتـرقـرق

و«بنـاتُ المـاء» قال عنهـا ابن أبي الأشعث : هي سمك ببحـر الـروم، شبيهة بالنساء، ذوات شعر سبط، ألوانهن إلى السمرة ذوات فروج عظام... وكـلام لا يكـاد يفهم، ويضحكن ويقهقهن، وربمـا وقعن في أيـدي بعض المراكب، فينكحوهن، ثم يعيدوهن إلى البحر... وحكى عن الروياني صاحب

133) اليعملات : النياق النجيبة المتعملة المضبوطة على العمل، ولعاب الشمس : ما يراه المسافر من أشعة الظهيرة كأنه خيوط تتدلى فوق رأسه.

البحـر، أنـه كان إذا أتـاه صيـاد بسمكـة على هيئـة المرأة، حلفـه أنـه لم يطأها.(134)

وجاءت كلمة : «بنات الماء» في شعر ابن شهيد أبي عامر أحمد ابن عبد الملك، يأتسي كثيرا على المعتمد حيث يقول :

وحملتني كـالصقر فـوق معاشـرٍ
تحتي كـأنّهُمُ «بنَـــاتُ المـــاء»

ويقول الأفوه الأودي، وهو يصور حالـة كلب ألحّتْ عليه السماء بالمطر أياما، ثم طلعت الشمس، فـذهب يتشرق، فلم يشعر إلا بسحابـة، قد أظلته ففزع، ورفع رأسه، وجعل ينبح:(135)

لـــه هيــدبٌ، دانٍ، ورعـــدٌ، ولَجَّـــةٌ
وبـــرقٌ تـــراه، ســـاطعـــا يَتَبلَّجُ
فبـــاتت كِــلابُ الحي، ينبحن مــزنـــةً
وأضحت «بنــات الماء»، فيهـا تمعج(136)

و«إنسان الماء» يشبـه الإنسان، إلا أن له ذنباً، وللقـزويني كلام طويل في «إنسان الماء»،(137) وقد ذكرناه في أساطير ومعتقدات وتقديس الماء...

ويسمى الماء، أيضا، بابن «السحاب»، ويشير إليه حافظ إبراهيم شاعر النيل حيث يقول:

أَلَّفْتُ بين «ابن السحــاب»، وبينهـا
فـرأيت صحةَ مـا حكاه الطـائي :
صَعُبَتْ، وَرَاضَ المَزْجُ سَيِّءَ خلقها
فتعلمتْ مـن حُسْنِ خُلْقِ المــــاء

134) «حياة الحيوان الكبرى» لكمال الدين الدميري ج : 1 / 157 و43 / 1.

135) الحيوان للجاحظ. ص : 73 / 2.

136) الهيدب : السحاب المتدلي. اللّجة : الجلبة. تتمعج : تسبح أو تنثني.

137) «حياة الحيوان» للدميري ص : 1/43.

وقالوا «ماء السرور»، ومنه قول الأعشى :

من ديـــار بـــالهَضـــب، هضب القَلِيبِ[138]

فـاض «ماءُ الســرور»، فيض الغـروب[139]

ويقولـون : نساءٌ «مثلُ الماء»، وقـد كتب عمر ابن أبي ربيعـة لهند تلك العينية الرائعة التي تذكر بعينية الصمة القشيري في الحنين إلى نجد:

ألم تسأل الأطـلالَ والمتـربَّعـا

ببطن حُليــــات دوارسَ بَلقعـــا

إلى السفح من وادي المغَمَّس بُدّلت

معـالِمُـه وَبْـلاً، ونكبـاء زعـزعـا

لهنـدٍ، وأتـراب لهنـد، إذا الهـوى

جميع، وإذ لم نَخْشَ أن يتصـدعـا

وإذ نحن «مثلُ المـاء» كَانَ مـزاجُه

كما صفّق الساقي الرحيقَ المشعشعا

ولعل «نحن مثل المـاء» من الفلتات الجـديرة بـالتوقف، خصـوصاً أن قـائلها مـن المنقطعين لفضاء الأنـوثـة، ومن الـذين يحيلونهـا إلى أقنـوم يختصـر الزمـان والمكان... ويعتقـد فيلسـوف المكان الأكبـر «جاسـتـون باشلار»[140] أن طبيعة الأنثى أقرب إلى الماء والتـراب... أما طبيعة الرجل، فتختصـر نفسها في الهـواء والنار، وفي حين تأخـذ المرأة بعض أشكـال الثبات والتجذر، يظل الـرجل في منطقة الطارىء والعابـر، ويظل يدور في فلك المرأة ومجـرتها دون أن يخلق فضـاءه الخاص.. ومن هـذا الاختلاف

138) القليب : معروفة عند العـرب، وقد يضـاف إليها فيقال : هضب القليب، وهي التي أجريت فيها داحس والغبراء.

139) الغروب : ج : غرب الدلو.

140) "GASTON BACHELARD" فيلسوف فرنســي، ولد عام 1884 ـ وتوفي 1962 بباريس، عالم ابستمولوجي، له كتب : «الفكـر العلمي الجديد» عام 1934 "Le nouvel ésprit scientifique" و«العقلانية التطبيقية» عام 1949، "Le rationalisme appliqué" وله أيضا : «المـاء، والأحلام» عام 1942 "L'eau et les rêves".

تنبع معظم عقد الحب، فنفسية الرجل بسيطة وواضحة ومحددة العناصر.. أما نفسية المرأة فمثل مغارة اللصوص التي تجد فيها كل ما يربك ويحير ويخيف..

لهذا كان عددُ الذين يفهمونها من الشعراء قِلّه، ومنهم عمر بن أبي ربيعة الذي حصد من جراء تلك المعرفة والفهم اتهامات عديدة تشكك في رجولته، وتضعه في بعض الأحيان بين المخانيث، وآخرُ مَن قال تلك التهمة صراحة عباس محمود العقاد الذي يتبنى الرجولة بالمفهوم «الصعيدي» الذي حمله معه من أسوان.

وأخيرا يتحدث لنا أبو تمام عن «ماء الوصال» فيقول :

إن يفترق نسب يفرق بيننا
أدب أقمناه مقام الوالد
أو يختلف «ماء الوصال» فماؤنا
عذب، تحدر من غمام واحد

* * *

وختاما لهذا الفصل، المتعلق بالدلالات اللغوية العربية... والماء، فإننا نشير إلى توصية الندوة العربية الثانية للموارد المائية التي انعقدت في الرباط من 21 – إلى 24 سبتمبر عام 1981، وشاركت فيها 15 دولة عربية، وعدد من المنظمات والمراكز العربية الدولية... التي أوصت باعداد معجم (عربي – إنجليزي – فرنسي) للمصطلحات الخاصة بالموارد المائية بالتعاون مع مكتب تنسيق التعريب بالرباط، وتلك ضمن دعوتها الأقطار العربية لدراسة الموارد المائية واستثمارها والعمل على تطوير الدراسات المائية بها.

* * *

وبعد ألم يكن «الماء» الفَيصَلَ القاطع في سَلْبِ القصيدة شعريتها وشاعِرِيَتَهَا، وخاصة حين كان الناقد العربي القديم يصدر حكمه على القصيدة عَلَنِياً وحُضُورياً بأنَّهُ «لاماء فيها»، فتذْبُلُ كلماتها، فتُحْرم من الانتشار والتداول؟

ألم يكتب أعظم الشعر العربي بـ «ماء الذهب»، كما تذهب إلى ذلك الروايات.

الباب الثالث :

المـاء فـي القـرآن ...
ظاهـرة فريـدة في كتاب الله ...

إذا كانت عناية كتاب الله، بالطبيعة من أجل تحقيق أهدافه الكبرى فائقة هادفة مؤثرة؛ فهي تَتَّسِمُ بالأهداف النبيلة التي تَوَخَّاهَا الكتاب العزيز، وهي أهـدافٌ تتصل عن كَثَبٍ بقضيـة الإنســان وتكـوينـه الفكـري والأخـلاقي والنفسي، وهو يقطع شَوْطَهُ في هذه الحياة، ويستعدُّ لاستقبال مصيره في الحياة الأخرى...

وقد كـانت آياتُ الطبيعـة التي تربو على السبعمـائة آية، محققـة لهذه الأغراض المهمة التي جـاء من أجلها كتاب الله الـذي كان محوراً لتصحيح فكري على نطاقٍ واسع، وذلك حين حَوَّل الفكـر الإنساني من الميثولوجية الحائرة، إلى الحقيقة المطمئنـة.

في إطار هذه المعاني يشتمل هذا الباب على فصلين...

الفصل الأول : يتناول التركيز على نواميس الوجود وأسراره.

والفصل الثاني : القرآن، ومظاهر الكون البيولوجي.

الفصل الأول :

التركيز على نواميس الوجود وأسراره

إننا لنلحظ في كتاب الله العزيز ظاهرةً فريدة، طالما استوقفت ذوي الفكر والنظر، وحفزتهم للتأمل والاعتبار، وهي اهتمامُه بسنن الله الكونية، في غير ما آية من كتاب الله، وتركيزُه على نواميس الوجود وأسراره، أكثر من ذكره للأحكام الدينية، والتشريعات الدنيوية، إذ نجده في غير ما آية ينبه المومنين إلى ما في هذا الكون الرحيب من عجائب وغرائب، ويلفت أنظارهم إلى مخلوقات الله، في السماوات والأرض، واختلاف الليل والنهار، **وما أنزل الله من السماء من ماء... فأحيا به الأرض بعد موتها، وبثَّ فيها من كل دابة، وتسخير الرياح والسحاب، والفلك التي تجري في البحر**، وكلها تدل على آلاء الله ونعمه على مخلوقاته، وهي لا تحصى ولا تعد، ولا تستقصى ولا تحد..

* * *

لقد وهب الله للإنسان عقلا ليبحث به، ويتفكر ويتأمل ويخترع، أي ليستخدمه في ميدانه، ويفيد منه بما يحقق سعادته وخيره في هذه الحياة، وليتدبر بعقله هذا وبصيرته في حكمة الله وقدرته، وبديع صنعه: «إن في خلق السماوات والأرض، واختلاف الليل والنهار، والفلك التي تجري في البحر، بما ينفع الناس، وما أنزل الله من السماء، من ماء، فأحيا به الأرض بعد موتها، وبث فيها من كل دابة، وتصريف الرياح والسحاب المُسَخَّرِ بين السماء والأرض... لآيات لقوم يعقلون».(1)

1) سورة البقرة، آية : 164.

ففي هذه الآية، نجد أمر الله الحكيم للناس، هو أن يتأملوا ويتدبروا في خلقه السماء والأرض، وفي اختلاف الليل والنهار، وفي «النظرية الطبيعية» التي تجعل السفن تسير على الماء، فتحمل الناس ومتاعهم ومتاجرهم، «والظاهرة الطبيعية» التي تنزل الماء من المطر، فتنبت الحب والزرع والشجر، وتجعل من الماء كل شيء حي، وكذلك مَسِير السحاب، وَسَوْقه من مكان إلى مكان، وتسخيره بين السماء والأرض، وتصريف الرياح...

* * *

لقد كان المرحوم الدكتور محمد أحمد الغمراوي، صاحب «في سنن الله الكونية» دقيقا حين فصل بين ما جاء في القرآن من الشرعيات والكونيات... إذ أن الشرعيات من حيث الاعتقاد والأحكام، لابد أن يتضح الحق فيها قبل وفاة الرسول، وإلا فقد فاتت فرصة التوضيح والتصحيح... أما الكونيات فتصحيح خطأ معتقد الناس فيها مما يظهره الزمن آنا بعد آن، لأن آيات الله الكونية من العِظم والجلال بحيث لا يحول تصورها الكامل دون الاهتداء بها إلى الله... والزمن في سيره المتواصل يسير نحو هذا التصور شيئا فشيئا... لذلك جاءت كشوف العلم كاشفة لبعض حقائق الكتاب المبين...

* * *

إن ترك التفكير في مظاهر آيات الله في الكون، والاستهانة بشأنها، بحيث لا تتضح حقيقتها على وجهها، يرادف الإعراض عنها! ومعنى ذلك، أن المسلم مأمور، بأن لا يصرف النظر عن آية من آيات الكون إذا واجهته، بل ويجب عليه أن يقوم بمشاهدتها والتفكير فيها بجد وصرامة، ويتبين حقيقتها بغاية الاهتمام حتى يطلع على حكمة صنع الله التي تختفي فيها تمام الاطلاع.. كما أن المسلم مأمور من قبل الله سبحانه وتعالى، بالتفكير في هذه الآيات والمظاهر لتنكشف عليه الحقيقة، وما لم تتبين الحكمة في

قـدرة اللـه، لا يمتنع عن التفكيـر، بل يستمـــر فيـه حتى يتضح لـه الحق والحكمة....

وقد علم النبي ﷺ أمته دعاء يؤيد هذه الفكرة، وهو : «**اللهم أرِنا الحق حقا، وارزقنا اتباعـه، وأرنا الباطل باطلا، وارزقنا اجتنـابه، اللهم أرنا الأشياء كما هي..**» فهذا الدعـاء يؤيد فكرة التحقيق العلمـي للأشياء، لأن فكرة التحقيـق العلمي التي تركـز جهودها علـى الأخذ بالحيطـة في تنظيم نتائج المشـاهدات الكونية، تهـدف إلى أن تبدو الأشياء على حقيقتهـا كما خلقت...

* * *

إن آيـات قـرآنية معـدودات من قـولـه تعـالى : ﴿**يوصيكم اللـه في أولادكم**﴾، مثـلا، أحـوجـت آبـاءنـا الأولين إلى تـدوين علم يسمى «**علم الفرائض**» أدخلـوه ضمن علم الفقـه، فأبـانوا العَصَبَـة، وذوي الفـرائض، وأصحاب الثلث، والنصف، والسدس، والثمن، وكيـف يحجب أحدهم الآخر، فدخلـوا في بحرٍ لُجِّـي، وتغلغلوا في الفـروض والاحتِمالات... ولما كـانت التِّركـات يُعوِزها نوعٌ من الحســاب، جاسوا خلال العلـوم، وبحثوا في كل الفنون، وجدُّوا فـي المسير، حتى استنبطوا حِسابا للفـرائض، واشتقوه من علم الحساب العام... وعلم الحســاب العام مشتق من علم «الارتيماطيقي»، أي علم خـواص الأعـداد كمـا هـو معلـوم، كـل ذلك ليسهل عليهم قسمـة التركات، وحفظ نظام الأُسَر، وإيفاء حقوق الأبناء والبنات... ضـربوا في كل علم بسهم، وسلكوا سُبُلا، وذلّلـوا طرقا، وعبَّدوا منــاهج، ومدُّوا أيديهم إلى فرع من فروع العلم الـرياضي الذي هو أحد أقسَام علم الفلسفـة الشاملة لسائر العلوم حتى استظلت به سِهام التـركات، وانتظمت به الأُسْرَات... هذا ما صنعه فقهاؤنا الذين استنبطوا علما قائما بذاته هو «**علم الفرائض**» من آيات معدودة في سورة النسـاء...

لقد كانوا بعيدي النظر، واسعي الأفق، فاستعانوا بالعلوم على الاستنباط من القرآن، ولم يدَّخِرُوا وُسعا في استنبـاط العلوم، واستخدام ما يحتاجون إليه من علـوم الحكمة العامة آيـات معدودة في الفرائض اجتذبت فـرعاً من علوم الـرياضيات... فكيف والقـرآن يضم سبعمائة آيـة فيها عجائب الـدنيا كلها...

فلماذا لا يعمل المسلمـون في آيات العلـوم الكونية مـا فعله آبـاؤنا في آيات الميراث؟

إن هذه القطيعـة الموحشة، بين الـدين من ناحية، وبين الكـون والحياة من ناحية أخرى، ينكرهـا الإسلام كل الإنكار، ويطلب من عباده الصالحين مسلكا يُنَاقضها كل المناقضة.

* * *

وقد التفت المرحوم الأستاذ مصطفى صـادق الرافعي، إلى هذه الناحية من الإعجـاز العلمي، فأيد مـا ذهب إليه العـالم التـركي باشـا في كتابـه «سرائـر القـرآن» ونقـل قـدراً منـه في الجـزء الثـانـي من «تـاريخ أدب العـرب»،(2) ثم قـال الرافعـي:(3) «ولعـل متحققـا لهذه العلوم الحديثـة لو تدبـر القرآن الكريـم، وأحكم النظـر فيه، وكان بحيث لا تعوزه أداة الفهم، ولا يلتـوي عليه أمـر من أمره، لاستخـرج منه إشـارات كثيرة، تـومئ إلى حقـائق العلـوم، وإن لم تبسط من أنبـائها، وتـدل عليهـا، وإن لم تسمهـا بأسمائها، بلى، وأن في هذه العلوم الحديثة على اختلافها لعونا على تفسير بعض معـاني القرآن، والكشف عن حقـائقه، وأن فيهـا لجماما ودربـة لمن يَتَعَاطَـى ذلك، يحكـم بها من الصـواب ناحيـة، ويحرز مـن الرأي جانبـا، وهي تفتـق لـه الذهن، وتواتيـه بالمعرفـة الصحيحة على ما يأخـذ فيه،

---

2) ص : 127، ط، س 1953.

3) ص : 125، ط، س 1953.

وتخرج له البرهان، وإن كان في طبقات الأرض، وتنزل عليه الحجة وإن كانت في طباق السماء»!!

إن دراسات العلوم الكونية، كما قال العلماء، أفضل من دراسة علم الفرائض، لأنه فرض كفاية، فأما علم سنن الله الكونية ونواميس الطبيعة، فإنها للازدياد في معرفة الله، وهي فرض عين على كل قادر، كما هو مقرر في باب الشكر للإمام أبي حامد الغزالي، وهي نفس علم التوحيد الحقيقي، والمعرفة والشكر يكونان على كل امرئ بقدر طاقته.. إن كتاب الله يكرر الحديث عن سنة الله في الطبيعة والإنسان، إثارة للعبرة، وحفزاً للفكرة، ودعوة إلى التأمل والتفكر.

يقول المفسرون في الآية الكريمة وتفسيرها : «**قد خلت من قبلكم سُنَن، فسيروا في الأرض، فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين**»،(4) سنن من الله في الأمم السالفة، إذ كذبوا رسله، وجحدوا نبوتهم بالاستئصال، وتبقية آثارهم في الديار للاعتبار والاتعاظ... فعن الحسن وابن إسحاق: «**...فسيروا في الأرض، فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين**»: أي تعرفوا أخبار المكذبين، وما نزل بهم، لتتعظوا بذلك، وتنتهوا عن مثل ما فعلوه، ولا تسلكوا في التكذيب والإنكار طريقهم، فيحل عليكم من العذاب ما حّل بهم...».

فكتاب الله، لم يعول على المعجزات، أو على الخرق في الطبيعة كوسيلة للإيمان والتصديق، بل جعل التأمل في جمال الكون، وصفحته القائمة البينة، أو الهالكة الدارسة، وسيلة للإيمان، وطريقا للخضوع للواحد الديان..

ونلحظ في الاستفهام التوبيخي في قول الحق تعالى: ﴿**أفلا تبصرون**﴾،(5) ازراءً بأولئك الذين يصدون عن هذه الآيات

4) سورة آل عمران، آية : 137.
5) «الذاريات» آية : 21.

المنتشـــرة في أرجاء الأرض، وحث لهم على النظـر إليهـا، وتأملها تأمـلا فكريا مُوحيـا دَالاًّ.

وهذا جار الله صاحب الكشــاف يقول في قوله تعالى : ﴿**قد خلت من قبلكم سنن**﴾ يريد ما سنه الله في الأمم المكـذبين من وقائعه.. «هذا بيان للناس»: إيضــاح لسوء عــاقبة مـا هم عليه من التكـذيب، يعني حثهم على النظــر في سوء عــواقب المكذبين قبلهم، والاعتبــار بما يعــاينون من آثــار هلاكهم...» والإنسان لا يزال ينتقل، كل لحظـة ولمحة، من برهان إلى آخر، ومن دليل إلى دليل آخــر، فكثــرة الدلائل، وتــواليهــا أثر عظيــم في تقويــة اليقين، وإزالة الشبهات، فإذا كان الأمر كذلك، ظهر أنه تعالى، جَدّ ربنا، إنما أنــزل هــذا الكتـــاب لهـذه الفـوائد والأســرار، لا لتكثيــر النحـــو الغــريب، والاشتقاقات الخــالية من الفوائد، والحكايــات الفاسدة كما قــال الرازي في «مفاتيح الغيب»، والذي كــان يرى رحمه الله أن القرآن، إنمــا أنزل لأغراض سامية، ومقاصد عالية، في جملتها، إثبات الخالق سبحانه، وأنه كان ينحي على أولئك المفسرين الذين يعنون بمسائل النحو والصرف، وقواعد البلاغة والبديع حين غفلتِهم عن هذه الأغراض القرآنية الخطيرة.

وكما قال الأستاذ محمد الغزالي : إنني أكره التدين المحجوب عن جمال الكون وعظمته، المشلول عن فهم أسراره وتسخيرها لمصلحته...

ويساورني – وأنا أتلو القرآن – شعور بأن اللــه، يُريد لفتنا إلى إبداعه في الأنفس والآفاق، يــريد إشـعارنــا بما في كونــه من دقة ورقة، ولطــافة واقتدار، يريد من الناس أن يطالعوا آيات عظمته في هذا الكون، الدال على ربه، الموجِّه إليه بالليل والنهار...

※ ※ ※

إنــه مثيــر للعجب أن يعيش جمهـــور المسلمين من بضعــة قــرون، لا يعــرفون عن الكــون شيئاً يــذكر. وأن تكــون علومــه ثانــوية في ثقــافتهم

الخاصة والعامة، وأن يكون التعـرف على أسراره وقواه شيئا كماليا خفيف الوزن عند البعض، وضربا من اللغو والعبث عند البعض الآخر...

* * *

وفي الـوقت الذي صـدّ فيه المسلمـون عن الدراسـات الكونيـة، أوغل آخرون، من غير المسلمين، في طريقها، وحققـوا مآرب رهيبة، ثم طوعوها لنصرة عقائد باطله، وفلسفات وضيعة..

إن تقدم العقل الإنساني مما يزيد في ضرورة هذا التحليل والبيان على نَحْوٍ تطمئن إليـه البصائر المخلصـة، والضمائر المنصفة... وإذا كنـا نرى «النصـوص الدينيـة» في أوروبـا تـؤلف لها المجـامع المختلفـة، من ذوي الثقافـات المتعددة، فيقومـون بتوضيح ألغـازها، وتفسير مضمـونها، كل حسب اختصـاصه ومنحـاه، فهـذا مؤرخ يستعـرض مـا جاء في التـوراة والإنجيل من قصص وأنبـاء، وذاك طبيب يستنبط من شتى النصوص مـا يؤيـده تقدم الطب، وتفـوق التشريح... وذاك اجتماعـي يستخلص مما بين يديـه قواعد ثـابتة لازدهار العمران وانقـراضه، وارتفاع الأمم وانخفـاضها، حتى تضخمت المكتبة الـدينية تضخما لا يمنع مستقبـلا من اطراد البحث، ومواصلة الاستنتاج.

* * *

وقد جاء الدين الإسلامي بالتدبر في ملكوت الأرض والسماوات، ويدلك لذلـك أن ثُلُثَ الشريعـة الإسلامية عبـادات، وأسرار تلك العبـادات تتضمن سعادة البدن وحيـاة الروح، زيادة على إخلاص العمل لوجـه الله... وبقية الثلثين معاملات دنيوية، وكيفية الأخذ منها، والرد بالقسط، انظر إلى أجزاء الزرقاني، مثلا، على المختصر، الثمانيـة... فإن أحكام العبادة منها لا يزيد على جزئين، وبقية الأجزاء الستة أحكام المعـاملات الدنيوية، بل قال بعض الكاتبيـن: إن في القرآن من آيـات العلوم الكـونية مـا يزيد علـى سبعمائة

وخمسين آية، أما علم الفقه تزيد آياته الصريحة على مائة وخمسين آية..(6)

* * *

وكان من الطبيعي أن يتفاوت اجتهاد المسلمين في فهم آي القرآن بتفاوت معارف عصورهم، وبتفاوت إدراك أشخاصهم مع حد أساسي من الفهم الصحيح للقرآن الكريم عرفه المسلمون منذ سمعوه يتلى عليهم أول مرة، أدركوا بمفطور حسهم البلاغي اللغوي الدقيق، وبما تعلموه في مدرسة النبوة الأولى...

وإذا كانت عناية كتاب الله المبين بالطبيعة من أجل تحقيق أهدافه الكبرى فائقة هادفة مؤثرة، فهي تتسم بالأهداف النبيلة التي توخاها الكتاب العزيز وهي أهداف تتصل عن كَثَبٍ بقضية الإنسان وتكوينه الفكري والأخلاقي والنفسي، وهو يقطع شوطه في هذه الحياة، ويستعد لاستقبال مصيره في الحياة الأخرى.

* * *

وكانت آيات الطبيعة التي تربو على السبعمائة آية، محققة لهذه الأغراض المهمة التي جاء من أجلها كتاب الله الذي كان محورا لتصحيح فكري على نطاق واسع، وذلك حين حوّل الفكر الإنساني من الميثولوجية الحائرة، إلى الحقيقة المطمئنة...

بل إن القرآن الكريم، في وضوح بيِّن، قد جعل الإيمان لحمةً في نسيج، سَداه معارف العلوم الطبيعية الكونية، وقد شاءت إرادة الله وحكمته أن يكون إرشاد الناس وهدايتهم بوسائل متنوعة، وهو سبحانه خبير بعباده، فهو تارةً يخاطبهم بما يمس قلوبهم مسّاً رَقيقا رفيقا، وهو تارة أخرى يُقرِّع عقولهم قرعاً قويا شديدا...

6) لابن المتوج أحمد بن عبد الله بن علي الشيعي (تـ : 810هـ) : «كتاب النهاية»، في خمسمائة من آيات القرآن التي فيها مدار الفقه، [إيضاح، ج : 4، ص : 347].

ولقد اهتدى الأسبقون إلى تفاوت الناس في فهمهم للقرآن، فمن ذلك ما اقتبسه أحمد الشرباصي رحمه الله عن الراغب الاصفهاني من كتابه: «مقدمة التفسير» : «...ثم إن القرآن – وإن كان في الحقيقة هداية للبشرية، فإنهم لن يتساووا في معرفَتِهِ، وإنما يحظون به بحسب درجاتهم، واختلاف أحوالهم، فالبلغاء تعرف من فصاحته، والفقهاء من أحكامه، والمتكلمون من براهينه العقلية، وأهل الآثار من قصصه ما يجهله غير المختص بِفَنِّه، وقد علم أن الإنسان بقدر ما يكتسب من قوته في العلم تتزايد معرفته بغوامض معانيه»، وقد علَّق الأستاذ عبد الحافظ حلمي محمد في مقال له على هذه المقولة: «ولعله من فضول القول أن نقول بعدما قدمنا. إن علماء الطبيعة ليسوا بِدْعاً مِن هؤلاء الذين ذكرهم الأصفهاني.

* * *

إن الإسلام يريد منا أن نكون نحن أعلم الأمم لا في التفسير والحديث والفقه وعلوم الدنيا وحدها، لا، بل أن نكون أعلم الأمم بعلوم الأبدان، وعلوم الأذهان، وعلوم الأكوان، وعالم الحيوان والبلدان، بل في كل علم توصل إليه الإنسان...

هكذا كان المجتمع الإسلامي الأول... كان المسلمون هم سادة الدنيا، وهم قادتُها، وهم أساتذتُها، وهم أغنياؤها، ولكن كان مقصدهم منها رضَى الله، واتخاذه هذه الدنيا مزرعة ليوم الحصاد في الآخرة، ومدخرا للربح يوم الحساب، أي أن الدنيا كانت في أيديهم، ممتلئة بها، لكن لم تكن في قلوبهم، لأن قلوبهم ممتلئة بحب الله وخشيته، وابتغاء ثوابه، وخوف عقابه... لقد مدح شاعرٌ المامونَ بقوله:

أضحى إمامُ الهدى المامونُ مشتغلاً
بالدين، والناس، والدنيا مَشاغِلُ

فلم يلتفت إليه، فشكا ذلك إلى صديق له، وقال له : «إن المامون على علمه وفضله لا يقدِّر جيّد الشعر... أنشدته هذا البيت، فلم يئجّ له، ولم يحفل به، فقال له صديقه: يا أحمق، مازدت على أن جعلته محجوزاً في مِحْرابِها.! هلاّ قلت له مثل الذي قاله عمك في الوليد:

فلا هو في الدنيا مضيع نصيبه

ولا عرض الدنيا عن الدين شاغلُه

هذا هو الإسلام : توازن بين مطالب الدنيا، وبين أسباب النجاة في الآخر...

* * *

إن الذي يقرأ كتاب الله الكريم بتمعن، في محاولة للإلمام بطبيعة موقفه من «**العلم**» يجد نفسه أمام حشد من الآيات البينات ممتدة، وفق أبعاد أربعة، توازي المسألة العلمية في اتجاهاتها كافة، **يتناول أولها** مسائل تتعلق بحقيقة العلم وآفاقه وأهدافه، في ما يعرف بفلسفة العلم، ونظرية المعرفة، **ويتناول ثانيها** منهج الكشف عن الحقائق العلمية المختلفة، **ويعرض ثالثها** لمجموعة من السنن والقوانين في مجالات العلم المختلفة، وخاصة الطبيعة والجغرافيا وعلوم الحياة، فيما يسمى بالعلوم المحضة أو الصِّرف، **ويدعو رابعها** لاستخدام هذه السنن والقوانين التي كشف عنها منهج تجريبي في البحث، من أجل ترقية الحياة وتنميتها على طريق خلافة الإنسان لإعمار العالم فيما يعرف بالعلوم التطبيقية.

* * *

وما من شك أن هناك ارتباطاً وثيقاً ومحكما بين هذه الأبعاد، يقود أحدُها إلى الآخر، فالفلسفة تحلِّل أهداف العلم، والمنهج يطرح طريقة عمل للكشف عن الحقائق: السنن والنواميس التي تحكم الكون والعالم والحياة، وتمحي صيرورتها الزمنية ذات النظام المعجز... وهذه السنن والنواميس

تمنح الإنسان - بدورها - المعادلات التي يمكن بها من أن يدخل إلى صميم التركيب المعجز هذا لبنية الكون والعالم والحياة من أجل اعتماد تلك السنن والنواميس لتنفيذ قدر من التطبيقات العلمية تمضي بالحضارة البشرية قد ما صوب الأحسن والأرقى، وتتيح للإنسان أن يتحرر من شد الضرورات لكي يكون أكثر قدرة على رفع رأسه إلى فوق ومحاورة السماء، وتلبية حاجاته الروحية التي بها يتميز الإنسان عن سائر الخلائق، ويمكن من تنفيذ أكثر امتداداً لمقتضيات خلافته العمرانية في العالم...(7)

* * *

إن مبدأ الاستخلاف الذي يطرحه الإسلام في كتابه وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام، هو واحد من المبادىء التي يرفدها العلم ويمكن لها في الأرض...

إن الإنسان المسلم هو خليفة الله في العالم بعث لتطويره. وإعماره، وتذليل صِعَابِهِ وعِقَابِه، والاستجابة لتحدياته، من أجل تسوية أرضيته كي تكون أكثر ملاءمة لحياة مطمئنة راضية تعلو على الضرورات، بعد أن تتحرر منها، وتكون أكثر قدرة على التوجه إلى فوق، إلى خالقها جل وعلا، دون أن تُنغِضَ رؤُسها، أو تحني ظهورها ثقلةُ الجاذبية أو ضرورات التراب...

وهكذا فإن تنفيذ مهام الاستخلاف، ومنحها الضمانات الكافية، وإعانتها على تحقيق أهدافها في التقدم الدائم، لن يتأتى بدون اعتماد طرائق البحث العلمي ومناهجه للكشف عن سنن العالم والطبيعة ونواميس الكون من أجل الإفادة من طاقتهما المذخورة، وتحقيق قدر أكبر من الوفاق بين الإنسان وبين محيطه، وبدون هذا... فإن مبدأ الاستجلاف لن يكون بأكثر من نظرية أو عقيدة تسبح في الفراغ.

---

7) الدكتور عماد الدين خليل.

لقد أصِيب الشرق بركود طـويل، وسُبَات عميق، في بعض فتراته، دفع ببعض بـلاد الإسلام إلى الانكمـاش داخل حدودهـا، كما تنكمش القـوقعة داخل صَدَفتها... حتى أصيبت بالضعف والهوان...

ومما يكشف عن عمق التخلف منذ فترة غير بعيدة نسبياً، ولا سيما في مصر في هـذا الوقت الـذي كان مجـرد عينة من التخلف العربـي ككل، ما ذكره المؤرخ المصـري الجليل: الجبرتي بعد زيارتـه لبعض معامل الحملة الفرنسية، ومشـاهدته لبعض التجارب الكيمـائية التي عرضـهـا عليه علماء الحملة: «هذه أشياء لا تقوى على فهمها عقول أمثالنا».

يقول الجبـرتي هذا، وهو سليل الحضـارة العربية الإسلاميـة الأصيلة التي انجبت من قبل عشـرات العلماء الأفذاذ الـذين ملأوا العالـم بأفكارهم ونظرياتهم، ويكفي أن كتب ابن سينا في الطب، ظلت تدرس في الجامعات الأروبية حتى القـرن الثامن عشر، ولكن الشقـة كانت حقا بعيـدة بين عهد الازدهار، ومرحلة التخلف والانهيار...

وقد وصف الرحـالة الأروبيون الذين وفدوا على مصـر والشام وسائر بلدان الدولة العثمانية في أواخر القرن الثامن عشر أمثال «سافاري» Savary، و«فولني Volney» وغيرهمـا، بعض البلدان الإسـلامية قـال «فولني» يصف الحالـة العلمية في مصـر وقتذاك: «الجهل عـام في هذه البـلاد مثل سائر تركيـا، وهو يشمل كل الطبقات، ويتجلى في كل العوالم الأدبيـة والطبيعية، وفي الفنون الجميلة... أما العلم، فوجـود الأزهر فيها جعلها مقصد الطلاب من الشرق الإسلامي».

وحتى هذا العلم، وحتى هـذا الأزهر، لم يكـونا في القرن الثـاني عشر (الثامن عشر الميلادي) في حالة طيبة مبشرة، بل شملتها موجة من الركود والجمود، وقد وصف المؤرخ المصري الشيخ عبـد الرحمن الجبرتي مدى ما وصلت إليه الحـالة العلمية في مصر من تأخـر وجمود في ذلك القرن،

فذكر أن أحمد باشا الوالي التركي على مصر (1162هـ 1163 – 1749 – 1750) كان: «من أرباب الفضائل، وله رغبة في العلوم الرياضية، ولما وصل إلى مصر، واستقر بالقلعة، وقابله صدور العلماء في ذلك الوقت، وهم: الشيخ عبد الله الشبراوي شيخ جامع الأزهر، والشيخ سالم النفراوي والشيخ سليمان المنصوري، فتكلم معهم، وناقشهم وباحثهم، ثم تكلم معهم في الرياضيات، فأَحْجَمُوا، وقالوا: «لا نعرف هذه العلوم!!! فتعجب وسكت»...(8)

ثم ذكر الجبرتي أن الشيخ الشبراوي طلع على عادته إلى القلعة في يوم جمعة، «واستأذن، ودخل عند الباشا يحادثه، فقال له الباشا:

«المسموع عندنا بالديار الرومية أن مصر منبع الفضائل والعلوم، وكنت في غاية الشوق إلى المجيء إليها، فلما جئتها وجدتها – كما قيل: «تسمع بالمعيدي، خير من أن تراه...».

فقال له الشيخ : «هي يا مولانا – كما سمعتم – معدن العلوم والمعارف» فقال : «وأين هي ؟ وأنتم أعظم علمائها، وقد سألتكم عن مطلوبي من العلوم، فلم أجد عندكم منها شيئا، وغاية تحصيلكم الفقه والمعقول والوسائل، ونبذتم المقاصد،» فقال له: «نحن لسنا أعظم علمائها، وإنما نحن المتصدرون لخدمتهم، وقضاء حوائجهم عند أرباب الدولة والحكام... وغالب أهل الأزهر لا يشتغلون بشيء من العلوم الرياضية إلا بقدر الحاجة الموصلة إلى علم الفرائض والمواريث كعلم الحساب والغبار...».

فقال له : «وعلم الوقت، كذلك من العلوم الشرعية، بل هو من شروط صحة العبادة، كالعلم بدخول الوقت، واستقبال القبلة، وأوقات الصوم والأهلة... وغير ذلك.!!

---

8) «عجائب الآثار» للجبرتي ص : 244 / 1. ط : الأنوار المحمدية بالقاهرة.

فقال : «نعم؛ معرفة ذلك من فروض الكفاية، إذا قام به البعض سقط عن الباقين الطلب، وهذه العلوم تحتاج إلى لوازم وشروط وآلات وصناعات وأمور ذوقية، كرقة الطبيعة، وحسن الوضع والخط والرسم والتشكيل، والأمور العطاردية، وأهل الأزهر بخلاف ذلك، غالبهم فقراء، وأخلاط مجتمعة من القرى والآفاق، فيندر فيهم القابلية لذلك...».

فقال : «وأين البعض؟» فقال : «موجودون في بيوتهم، يسعى إليهم» قال الجبرتي المؤرخ: «ثم أخبره عن الشيخ الوالد (يقصد والده الشيخ حسن الجبرتي العالم الرياضي الفلكي الكبير في ذلك الحين) وعرّفه عنه، وأطنب في ذكره».

ثم ذكر الجبرتي بعد ذلك أن الباشا أرسل إلى الشيخ حسن الجبرتي فاستدعاه لمقابلته، وأنه : «سُرَّ برؤياه، واغتبط به كثيرا، وكان يتردد إليه يومين في الجمعة... وهما السبت والأربعاء، وأدرك منه مامولَه.. ولازم المطالعة عليه مدة ولايته، وكان يقول: «لو لم أغنم من مصر إلا اجتماعي بهذا الأستاذ لكفاني».

وأخيرا يختم الجبرتي قصة والده وعلماء مصر مع الباشا بجملة لطيفة فيها نقد ساخر لاذع فيقول:

«وكان المرحوم الشيخ عبد الله الشبراوي كلما تلاقى مع المرحوم الوالد يقول: «سترك الله كما سترتنا عند هذا الباشا، فإنه لولا وجودك كنا جميعا عنده حميرا...» (9)

الأمير شكيب في مصر :

لما زار الأمير شكيب أرسلان مصر عام 1890م، واجتمع مع الشيخ الإمام محمد عبده، قال لرفيقه وخليله الأستاذ الشيخ عبد الكريم سلمان،

---

9) الجبرتي : «عجائب الآثار، في التراجم والأخبار» ص : 244 – 245 / 1. مطبعة الأنوار المحمدية.

بأن يذهب معه إلى كبار مشايخ الأزهر، كالشيخ العباسي، والشيخ الأنبابي، والشيخ عبد القادر الرافعي، حتى يتعرف الأمير شكيب على حال هؤلاء العلماء... فلما زار الشيخ الأنبابي، وجد الأميرُ شكيب عنده عالما جليلا اسمه الشيخ الظواهري، فلما ذكر الشيخ عبد الكريم اسمَ الأمير شكيب، وقال بأنه من جبل لبنان، قال هذا الشيخ المسمى بالظواهري: وأين جبل لبنان؟ أمِن العرب؟ فأجابه الشيخ عبد الكريم، بل في سورية... فكاد الأمير شكيب أرسلان يصعق من الدهشة لجهل هذا الشيخ إلى هذا الحد معرفة البلدان، ولما رجع الأمير إلى البيت، أخبر الأستاذ الإمام محمد عبده بما وقع، فقال لنا: «نعم، وهذا الشيخ الظواهري الذي يجهل أين جبل لبنان، هو من علماء الطبقة الأولى.. وهذا، وأشباهه كان من أسباب نعي الشيخ الإمام على جمود العلماء الأزهريين، ونفورهم من العلوم العصرية، وحصرهم جميع قواهم العقلية في دروس معلومة يجهلون كل شيء، سواها، حتى أصبحوا كأنهم ليسوا من أهل هذا العصر، بل ليسوا من أهل هذه الدنيا... وما جعل الإمام محمد عبده يتأوه على فراش موته، رحمه الله، ويقول:

ولست أبالي أن يقال محمد
أبلّ، أم اكتظت عليه المآتم
ولكنه دين، أردت صلاحه،
أحاذر أن تقضي عليه العمائم!!

* * *

لقد كان العلماء في الصدر الأول يهتمون بالنظر في آلاء الله، وأسرار الكون، ونواميس الطبيعة، ويحضون طلابهم أثناء تفسير كتاب الله على التأمل والنظر والاعتبار... ثم خَلَفَ من بعدهم خَلْف، فوجهوا اهتمامهم إلى العلوم العربية والمنطق والعلوم الآلية. وقد وصف ما آلت إليه حالة العالم

الإسلامي من تخلف وإهمال في هذا المضمار العالم المصري رفاعة رافع الطهطاوي الذي أرسله والي مصر محمد علي، إلى باريس مع بعثة علمية مصرية، وعاد ليكتب عن تجربتِه الغنية ويقول في معرض حديثه عن العلماء في العالم الغربي، وعلمائنا في المشرق الإسلامي فقال: «وكما أن البلاد الإسلامية قد برعت في العلوم الشرعية والعمل بها، وفي العلوم العقلية، وأهملت العلوم الحكمية بجملتها، فلذلك احتاجت إلى البلاد الغربية في كسب ما لا تعرفه... ولهذا حكم الافرنج بأن علماء الإسلام، إنما يعرفون شريعتهم ولسانهم، يعني ما يتعلق باللغة العربية، ولكن يعترفون لنا بأنا كنا أساتيذهم في سائر العلوم، وبِقِدَمِنَا عليهم. ومن المقرر في الأذهان، وفي خارج الأعيان، أن الفضل للمتقدم، أو ليس أن المتأخر يغترف من فضالته، ويهتدي بدلالته؟ وما أحسن قول الشاعر:

ومما شجاني أنني كنت نائما
أعلِّل من فرطِ الكَرى، بالتَّنَسُّمِ
إلى أن بكت ورقاءُ في غصن أَيْكَةٍ
تردد مبكاها بحسن الترنّم
فلو قبل مبكاها، بكيتُ صَبابة
بسُعْدى، شفيت النفس قبل التندم
ولكن بكت قبلي فهيج لي البكا
بكاها، فقلت، «الفضل للمتقوم»(10)

وقال في جهة أخرى من كتابه الآنف الذكر يشرح معنى العلماء عندهم وعندنا فقال: «... ولا تتوهم أن علماء الفرنسيس هم القُسوس، لأن القسوس إنما هم علماء في الدين فقط، وقد يوجد من القسوس مَن هو عالم أيضا... وأما ما يطلق عليه اسم العلماء، فهو من له معرفة في العلوم

---

10) «تخليص الابريز، في تلخيص باريز» ص : 16 – 17.

العقلية... ومعـرفة العلماء في فروع الشـريعة النصرانية هينـة جدا... فإذا قيل في فرنسا هذا الإنسان عالم، لا يفهـم منه أنه يعرف في دينه، بل إنه يعرف علما من العلوم الاخر، وسيظهر لك فضل هؤلاء النصارى في العلوم عَمَّن عداهم، وبذلك تعرف خلو بـلادنا عن كثير منها... وأن الجامع الأزهر المعمور بمصر القاهرة، وجامع بني أمية بالشام، وجامع الزيتونة بتونس، وجامع القرويين بفـاس، ومدارس بخارى، ونحو ذلك كلها زاهـرة بالعلوم النقلية وبعض العقلية كعلوم العربية والمنطق ونحوه من العلوم الآلية...(11)

ولقد أدت هذه الكشـوف والمخترعات والإضافات العلميـة ونظارُها إلى تمكن الإنسان من تسخير ما خلق في الكون للتسخير والانتفاع... إذ مهدت الاكتشافات العلمية الأجواء والأرضين والبحار لوجود حضارة علمية ممثلة في الطيران والصواريخ ومـركبات الهواء، والوسائط الفضـائية القادرة على نقل الصور والكلمـات «والفاكس» عبـر القارات الممثلة في هنـدسة حـركة الأجسام الضخمـة الطافية على سطح البحـر، والساربة فيـه، والممثلة في تطـويـر الـزراعـة، وهندسـة المعلـومـات، والسيطـرة على معظم الأوبئـة والأمراض...

* * *

ومبـدأ التسخير ملمح إنسـاني من مـلامح الرؤيـة الإسـلامية للكـون والحياة، يحتم، ولا ريب، اعتمـاد العلم لتحويلـه على أرض الواقع، والتحقق بعطائه الكريم...

---

11) المصدر السـابق ص : 161، من الأعمال الكاملـة لرفاعة رافع الطهطـاوي، وأحمد رافع الحنفي الطهطاوي (مدينة في مصر) ولد عام 1858، تعلم في الأزهر على عليش والخضـري والأنبابي، له مـؤلفات دينية منها: «كمـال العناية، بتوجيـه ما ليس كمثله شيء من الكنايـة» في الكلام... [انظر : «الرحلـة إلى الغرب، والرحلة إلى الشرق» لنـاجي نجيب دراسة مقارنة – رحلـة رفاعة الطهطاوي إلى فـرنسا، ورحلة «إدوار دلين» إلى مصـر في مطلع القرن التاسـع عشـر، وانظر، أيضا: أصول الفكر العربي الحديث عند الطهطاوي لمحمود فهمي حجازي...

إن العالم والطبيعة، وفق النظرة الإسلامية، قد سُخِّرا للإنسان تسخيرا... والله سبحانه قد جَدّد أبعادهما وقوانينهما ونظمهما وأحجامهما بما يتلاءم والمهمة الأَسَاسِية لخلافة الإنسان في العالم، وقدرته على التعامل مع الطبيعة تعاملا إيجابيا فاعلا...

فثمة ذلك المبدأ الأساسي من مبادىء الحياة والفكر الإسلامي: التوازن بين الحاجات الروحية والمادية، وهي مسألة عميقة في نسيج القرآن الكريم...

* * *

ويتبين، بوضوح، أن الآيات القرآنية التي تحدثت عن التسخير الكوني، إنما خوطب بها مطلق إنسان، سواء أكان هذا الإنسان مسلما، أم يهودياً، أم نصرانيا، أم بوذياً، أم لا دين له - من سماء أو أرض - لأن الخطاب في الكتاب العزيز متعلق بالبشرية المطلقة...

إن التقدم العلمي والتقني في الغرب هو من عطاء الرّب، منحه لأولئك الأقوام الذين استجابوا لمقتضيات سننه في كونه العظيم...

فهذه الحضارة الإنسانية هي جهد عقلي علمي منهجي استطاع أن يكتشف من قوانين الكون، ومن سنن تسخيره ما مكنه من أن يبني نشاطه العلمي على أساس صحيح في هذا المجال...

ولئن تقدم الغرب بسبب فهمه لقوانين الكون، وتفاعله معها، وبناء حضارته العلمية على أساس ذلك، فإن المسلمين لما فرطوا تفريطا طويلا في مُبَاشَرة هذا السبب، قَلَّ حظهم من مفهوم الربوبية هذا، كما قلت، أو انعدمت حظوظ الذين أرادوا عملا بلا طلب، ونسلا بلا زواج، وصحة نَضِرة، بلا غذاء صحيح، وبلا اعتدال في طعام وشراب، ونوم وصحو...

وما دام أنه لا حياة إسلامية، بمعنى الكلمة أن لم يتحقق ذلك التوازن العادل بين طرفي التكوين الإنساني، بل في نسيج التكوين الإنساني بشكل

أدق، وما دام قد أريد للتجربة الإسلامية أن تتحرك على أرض الواقع، وتصوغ إنساناً متوازناً قديراً على الفعل والحركة والتغيير، غير متأزم أو جانح أومكبوت، فلابد من طرائق العلم وحقائقه وتطبيقاته، هذه الرؤية التعادلية التي لا نجدها في أي مذهب أو عقيدة أخرى في هذا العالم بهذا القدر من الشمولية والالتزام.

إن هذا القرن قد تألق بملايين الكشوف والاختراعات منها أربعة ملايين براءة اختراع في الولايات المتحدة وحدها... معظم هذه الكشوف والمخترعات قد أنجز بعقول، وبأيد غير إسلامية من شتى المِلَل والأعراق منذ بواكير النهضة العلمية الحديثة، وإلى يوم الناس هذا...

أليس من المفارقات المذهلة، أن ميزانيات البحث العلمي في العالم الإسلامي، لا تكاد تبلغ 4٪ من ميزانيات البحث العلمي في اليابان...

ويكفي أن نقول بأن الحملة التي قادها «الكفار» كانت الشرارة الأولى لانطلاق الفكر العربي من إساره، نحو المسيرة العلمية الحاضرة...

* * *

إن المواجهة بين الحملة الفرنسية والمجتمع المِصري رغم قصرها، إلا أنها كانت بمثابة الشرارة التي أطلقت عِنان الفكر العربي الحديث، وذلك أنه بعد الاحتكاك المباشر والرؤية العيانية للغرب المتقدم ممثلا في الحملة الفرنسية... ثارت التساؤلات حول ما هي أسباب التخلف العربي؟ وكيف يمكن أن نكتسب أسباب التقدم؟

هذه هي الإشكالية الرئيسية التي تصدى لها رائد الفكر العربي الحديث الشيخ رفاعة رافع الطهطاوي الذي أرسله والي مصر محمد علي إلى باريس مع بعثة علمية مصرية، وعاد ليكتب عن تجربته الغنية كتابه المعروف: «تخليص الإبريز، في وصف باريز «الذي سجل فيه بالتفصيل ملاحظاته الثاقبة عن المجتمع الفرنسي، وتعليقاته الذكية على النظريات

السياسيـــة والاقتـصادية والفـــكرية التي كانت تمـوج بها أروبـا في ذلك العهـد...

ولا نريـد أن ندخل، هنا، في الجـدل الذي يدور في الـوقت الراهن بين المـؤرخين والمنظرين حـول **مـا إذا كـانت الحملة الفـرنسيـة هي التي وضعت العالم العربي على طريق العصرية والتحديث... أم أنها كانت هي بـذاتهـا التي أجهضت عمليـة تطـور تحـديثي بطيء، وتـدريجي وأصيل، كان يأخذ مجـراه في بنية المجتمع العربي...** ونقتنع بالإشارة إلى أن جمهرة المـؤرخين العرب ظلوا إلى وقـت قريب من أنصار النظـرية الأولى... إلى أن ظهرت مجمـوعة من المؤرخين العـرب وبعض المؤرخين الأجانب من أبرزهم المؤرخ الأميريكي الشهير «بيترجران» مؤلف: «الجذور الإسلامية للرأسمالية» لقد ذهبت هذه المدرسة الثانية من المؤرخين إلى أن حركة الإحياء كانت تأخذ مجراها في بنية المجتمع العربي في أواخر القرن الثامن عشر، كما يؤكـد «بيترجران» من خلال تحليل متعمق لبنية المجتمع المصـري الاقتصاديـة والفكـريـة... إنه نشأت في مصـر - نشأة محليـة خالصة - ضـرب من ضروب الرأسمالية التجاريـة أثر على الإبداع العقلي والانتاج الفكري الذي ظهـرت بوادره في حركة تجديد فكريـة الأزهر قادها الشيخـان حسن العطـار والزبيـدي وغيـرهمـا من كبار العلمـاء وصـدور الإعلام.

فكانـت الحملـة الفرنسية بما ضمته بين صفوفها كانت إعلانا بارزا عن الغرب: التقدم التكنولوجي ممثـلاً في السلاح الحديث، الفكر العلمي ممثـلا في فريـق العلمـاء، والمطبعـة رمـزاً للفكـر وأهميـــة إذاعته ونشـره بيـن النــاس، ولم يضيـــع علماء الحملـــة الفرنسيـة وقتهم، فقـد قامـوا بعملية مسح شاملـة للمجتمع المصري بجوانبه المـادية والفكرية، كـان حصادها العمل الموسوعي الشـهير «وصـف مصـر» الذي خرج في عـدة مجلـدات.

* * *

على أن الفريق الأول لا ينسى ما قامت فرنسا إزاء العلماء ومطاردتهم وملاحقاتهم وإيداعهم السجون وديار المنفى، بل إننا لا ننسى ما فعله الاستعمار الفرنسي عندما دخل مصر ووصل إلى أعظم مقدساتها ومعاهدها، «لقد دخلوا إلى الجامع الأزهر، وهم راكبون الخيول، وبينهم المشاة كالوعول، وتفرقوا بصحنه ومقصورته، وربطوا خيولهم بقبلته، وعاثوا بالأروقة والحارات، وكسروا القناديل والسهارات، وهشموا خزائن الطلبة والمجاورين والكتبة، ونهبوا ما وجدوه من المتاع والأواني والقصاع والودائع والمخبآت بالدواليب، والخزانات، وشتتوا الكتب والمصاحب، وعلى الأرض طرحوها، وبأرجلهم ونعالهم داسوها، وأَحْدَثُوا فيه، وتغوطوا وَبَالُوا، وتمخطوا وشربوا الشراب، وكسروا أوانيَه، وألقوها بصحنه ونواحيه، وكل من صادفوه به عروه، ومن ثيابه أخرجوه... فانتهكت حرمه تلك البقعة بعد أن كانت أشرف البقاع، ويرغب الناس في سكناها، ويودعون عند أهلها ما يخافون عليه الضياع، والأجانب لا يمرون بها إلا في النادر، ويحرَمونها...(12)

تلك هي الحضارة التي أتى بها الفرنسيون إلى الشرق، وذلك هو الجواب المفحم الذي نرد به عما أخذ به بعض الذين يردون التطور الذي حصل في مصر إلى الفرنسيين.

* * *

هذا عن مصر. فماذا عن غيرها من الأقطار والديار فيما يتعلق بالحركة الفكرية، والنهوض العلمي في هذه الفترة... ولا سيما في الشام والمغرب؟

تحدث الأمير شكيب أرسلان أيضا عن بعض هؤلاء العلماء، أنه قيل له، وهو في بيروت صحبة الشيخ محمد عبده، أن الشيخ سيدي إبراهيم التادلي الرباطي المغربي يريد أن يقرأ درسا في الجامع العمري الكبير في

---

12) تاريخ الجبرتي ج : 3 / 36 - مطبعة الأنوار المحمدية بالقاهرة.

بيروت، فأقبلت الناس لسماع درس هذا الشيخ المغربي الكبير، وذهبنا مع الأستاذ الإمام، ونحن نرجو أن نسمع شيئا جديداً، أو بحثاً عائداً إلى أمراض العالم الإسلامي الحاضر، وطرق علاجها، مما هو مقدم على كل شيء، فإذا بدرس الشيخ التادلي في شرح: «البسملة»، وما تضمنته من العلوم والمعارف مما هو مستفيض في كتب علمائنا رحمهم الله...

ومما لا شك في أن الأستاذ التادلي أتقنه إتقانا تاما، ولكنه دَلَّ بهذا على أنه غير مطلع على أحوال زمانه، ولا مكانه، ولا عارف بما يوجب الدين والعلم على العالم المسلم في مثل هذه الأحوال...

وكان الشيخ محمد عبده يسمي هذا النوع حفظا لا علما، ويقول : إن العلم الذي لا يمتزج بالنفس، ولا يصير جزءً من أجزائها لا يسمى علما...

* * *

وقد روى عنه الشيخ «علي يوسف»(13) صاحب «المؤيد» مجلسا جرى بينه وبين جمال الدين أفندي شيخ الإسلام في الاستعانة من جملة ما ذكر الشيخ فيه، أن أمثال هؤلاء، لا يقال لهم علماء، وإنما يقال لهم حفّاظ، لأنهم يحفظون عن ظهر القلب أصولا وقواعد، لا يطبقون منها شيئا على فروعها، وقال أيضا، إنه جاء في تعريف بعض السادة المالكية للعالِم إنه «الخبير بأمور قومه، المطلع على أحوال زمنه»...

وقد كان الإمام الشيخ سيدي إبراهيم التادلي عندما عاد من الحجاز، عرَّج على المسجد الأقصى، وألقى به درساً أبان فيه عن مقدرته العلمية، ثم انتقل إلى بيروت حينما كانَ الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده فيها... فذهب الأستاذ للسلام عليه، وذهبنا معه، أنا والأستاذ «الشرتوني» صاحب

---

13) علي يوسف الشيخ البلصفوري، مؤسس الصحافة الإسلامية العصرية بمصر، وصاحب جريدة «المؤيد»، له ديوان شعر، «نسيم الحر» (تـ : 1912م).

«أقرب الموارد»،(14) قال شكيب أرسـلان : ولم تكن لي ألفة يومئذٍ بلهجة إخواننا المغـاربة، فقلما فهمت شيئاً ممـا كان الشيخ التادلي يقـوله، وإنما روى لنا الشيخ بعد انصرافه مآل حديثه..!

فقال لنـا : إنه عـالم على الطريقة المعهـودة بالأزهـر، والتي ابتلي بها العالم الإسـلامي كله، فالأزهـر والأموي والزيتـونة وجامع القـرويين كلها واحد، ولم يفهم منه شيئاً جديداً، إلا أنه أعجبه من كلامه شيء واحد، وهو أن الشيخ الإمام سأله: «هل في المغرب، اليوم، مؤلفون، في أصناف العلوم المختلفة؟! فَأَجابه التادلي: نعم، يـوجد مؤلفون في المغرب، إلا أن العلم لا ينتشر بقوة التأليف، وإنما ينتشر بقوة التدريس، وكثرة المذاكرة الشفوية... قال الأمير شكيب: أستاذنا وجد هذا المعنى صحيحا، وقال لنا: هذا أحسن ما سمعته من كلامه...(15)

* * *

وللحقيقة والتاريخ أقول بأن الشيخ سيـدي إبراهيم التادلي كان أعرف الناس بـزمانه، فكـانت له مواقـف حاسمة في جميع مـا يمس العقيدة، أو يخـدَش كرامـة المسلمين الذين يلحقهم الحيف والظلم، يجـاهر بـالتنديـد، ويرفع عقيرته لكـل مَن سَوّلت له نفسُه المساسَ بحرمـة المواطن، فها هو مـوقفُه المنـدِّدُ «بـالمُكُـوس» حيث بعث للسلطان الحســن الأول، بواسطـة المتصلين به، بالنكيـر ضد هذه الضريبة، وله في هذا الصـدد كلامٌ طويل سجله محمـد مصطفى بوجندار في كتـابه:(16) فيمـا يلي : «فـي ليلـة 27 رمضان عام 1302 طلب السلطانُ مولاي الحسن، أن أَحْضُرَ معهم بمسجده

---

14) «أقربُ المـوارد، في فُصَحِ العربيـة والشوارد» قـاموس اللغـة العربيـة، أخذاً عن أئمتهـا لسعيد الشرتوني. طبع في بيروت بمجلدين، وذيل (1889 – 1893).

15) مجلة «المقـاصد»، ع : 5 / س : 1 / أيام 1982، مقال للأمير شكيب أرسـلان، «عندما عاش محمد عبده في بيروت منفياً.

16) الاغتباط، خ.ع.ج : 2 ص : 18 ـ 20.

بالرباط، على العادة عنده في تلك الليلة، بواسطة قاضي الرباط حينه السيد أحمد ملين، فامتنعتُ، واعتذرتُ له بأنني غير صحيح، ونويت أني غير صحيح مما يفعلونه من المظالم، كالمكوس وغيرها»، وبعد هذا، يقول عن الحاجب أحمد بن موسى : «وقد كان السيد أحمد المذكور قبل ذلك، طلب الإذن في زيارتنا، فَإِذِنَّا له، فلما أراد الانصراف، وضع بيدي ضَبْلُونَيْنِ ذَهباً»، فقلتُ له : «زيارتكم عندنا، أن ترغبوا سيدنا، حتى يعطف الله قلبه لزوال المكس»... مما يدل على حضور هذا العالم، ومُلاَحَقَتِهِ لأحوال وقته، واستماعه إلى نَبْضِ مجتمعه... كدلالته على تعرف أحوال العالم الإسلامي في زيارته لأقطارهم وديارهم، وإلقاء محاضرات أمام جلة علمائهم، ومبتعداً عن السياسة داخل المساجد، ولا سيما وهو زائر غريب.

* * *

لقد أهم المفسرين ربط الآيات القرآنية التي تصف الطبيعة، كما أهمهم ربطها ببقية المقاصد والأغراض...

فالرازي، رحمه الله كان يرى أن القرآن، إنما أنزل لأغراض سامية، ومقاصد عالية في جملتها إثبات الخالق سبحانه، وأنه كان ينعي على أولئك المفسرين الذين يعنون بمسائل النحو والصرف حسب غفلتهم عن هذه الأغراض القرآنية الخطيرة...

وقد أشار إلى ذلك بقوله: «...ومن الناس من اعتقد أن جملة هذا العالم محدث، وكل محدث، فَلَهُ محدث، فحصل له بهذا الطريق إثبات الصانع تعالى، وصار من جملة المستدلين، ومنهم مَن ضَمَّ إلى تلك الدرجة البحث عن أحوال العالم العلوي، والعالم السفلي على سبيل التفصيل، فيظهر له في كل نوع من أنواع هذا العالم حكمة بالغة، وأسرار عجيبة، فيصير ذلك جاريا مجرى البراهين المتواترة، والدلائل المتوالية على عقله، فلا يزال ينتقل كل لحظة ولَمْحَة من برهان إلى آخر، ومن دليل إلى دليل آخر. فكثرة

الدلائل، وتواليها أثر عظيم في تقوية اليقين، وإزالة الشبهات، فإذا كان الأمر كذلك، ظهر أنه تعالى إنما أنزل هذا الكتاب، لهذه الفوائد، والأسرار، لا لتكثير النحو الغريب، والاشتقاقات الخالية من الفوائد والحكايات الفاسدة...».(17)

ولقد قال فرعون لسيدنا موسى : أسمعني علم التاريخ، فقال موسى: كَفَى، كَفَى، هلم بنا تقرأ تاريخ الطبيعة... هلم بنا تقرأ ما كتبه الله في الطبيعة، وما خطه في قراطيس السماء، وألواح الأرض، وهي العلوم الحق التي تعطي قوة الاستبصار والاستنتاج والذاكرة والجمال والحب والإخلاص هذا هو كلام الله، وهذا هو مقصود القرآن، ولهذا أنزله الله، فإن لم يعرفه من قبلنا من الأجيال المتأخرة، بعد عصر الصحابة، فسيعرفه الأجيال الغابرون والأمم المتأخرون.

فالقرآن قد أحاط بالمُثُلِ العليا كلها، فكان كتاب حق وجمال.

كتاب علم... ولكنه لا يعرض نظريات ولا يسرد قوانين، بل يوجه الناس إلى إعمال عقولهم في فهم أسرار الحياة الدنيا، ويؤكد لهم أن لهذه الحياة سنناً محكمة، وقوانين ثابتة، ويشير، وبمقدار ما يستطيع المجتمع الذي نزل فيه القرآن، إلى بعض هذه القوانين والسنن، يشير إليها إشارة، ويدعوهم إلى اكتشافها في أنفسهم... في أجسادهم وعواطفهم، وفي الحيوانات من حولهم، في إبلهم وأنعامهم، وفي النباتات كيف تتجرد ثم تكتسي، وكيف تموت في الشتاء، وتحيا في الربيع في الأرض وما فيها، والسماوات وما يرى منها، في البحار والأنهار، والعيون والغُدْران، في الآبار والأمطار... ويخبرهم أن كل شيء في الكون محدد المقادير قائم على نسب مضبوطة، وعلاقات ثابتة...

يشير كتاب الله، دائما، إلى قوانين الطبيعة التي طبع الله الكون عليها، وينبه أتباعه إلى استشمال كل ما فيها، وإلى أنه سخره لنا لننتفع به، إذا أعملنا عقولنا، وأفكارنا في الوصول إلى هذا الانتفاع.

---

17) «مفاتيح الغيب» للرازي 4 / 230.

هناك أنصار التفسير العلمي للقرآن التي بسطها العالم المتمكن الأستاذ محمد أحمد الغمراوي غير مرة في أعداد مختلفة من «الرسالة»،(18) وجاء كتابه العلمي النفيس: «في سنن الله الكونية» تطبيقا عمليا لما يرتئيه، وقد احتاط احتياطا مفيدا حين وضع القيود المحكمة لهذا التفسير العلمي، فقال نقْلاً عن الرسالة:(19) «وقبل أن نورد بعض الأمثلة التوضيحية، يجب أن نُنَبِّه إلى أمرين مهمين: الأول: أنه لا ينبغي في فهم القرآن الكريم أن نعدل عن الحقيقة إلى المجاز، إلا إذا قامت القرائن الواضحة تمنع من حقيقة اللفظ، ويحمل على مجازه، لأن مخالفة هذه القاعدة الأصلية قد أدى إلى كثير من الخلط في التفسير... أما الأمر الثاني، فهو أنه ينبغي ألا نفسر كونيات القرآن إلا باليقين الثابت من العلم، لا بالنظريات ولا بالفروض، لأن الحقائق هي سبيل التفسير الحق، هي كلمات الله الكونية ينبغي أن يفسر بها نظائرها من كلمات الله القرآنية... أما الحَدْسِيَات والظنيات، فهي عرضة للتصحيح والتعديل... إن لم تكن للإبطال في أي وقت.

* * *

وهكذا كان علماؤنا الأقدمون يحثون على انتهاج تفسير الآيات الكونية وغيرها من الآيات التي تحكي خلق الله سبحانه وتعالى للإنسان وغيره من الحيوانات والنباتات، إذ العلماء المتقدمون قد اهتموا بتفسير الآيات المشتملة على الأحكام، ولم يهتموا بتفسير الآيات الكونية، وقد قال طنطاوي جوهري رحمه الله عقب تفسيره لآيات الفرائض، وبيان اهتمام العلماء بعلم الفرائض: «يا أمة الإسلام... آيات معدودات مع الفرائض اجتذبت فرعا من علم الرياضيات... فما بالكم، أيها الناس، بسبعمائة آية فيها عجائب الدنيا كلها... الله أكبر، جَلّ العلم، وجلّت الحكمة... ياليت شعري، لماذا لا نعمل في آيات العلوم الكونية ما فعله آباؤنا في آيات

18) «الرسالة» الاعداد : 705 – 706.

19) «الرسالة» الاعداد : 705.

المِيرات... ولكنني أقـول: «الحمد لله، الحمـد لله، إنك تقرأ في هـذا التفسير خلاصات من العلوم ودراستها أفضل مـن دراسة علم الفرائض، لأنه فرض كفاية، فأمـا هذه، فإنها للازدياد في معرفـة الله، وهي فرض عين على كل قـادر... إن هذه العلـوم التي أدخلناهـا في تفسيـر القرآن هي التي أغفلهـا الجهلاء المغرورون مـن صغار الفقهاء في الإسلام، فهـذا زمان الانقلاب، وظهور الحقائق... والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.(20)

ويقول أيضا في مكان آخر : «لماذا ألف علماء الإسلام عشرات الألوف من الكتب الإسلامية في علم الفقه.؟

وعلم الفقـه ليس لـه في القـرآن إلا آيـات قلائـل لا تصل مائـة وخمسيـن آيـة؟

فلماذا كثر التأليف في علم الفقه ؟ وقلّ في علوم الكائنات التي لا تخلو منها سـورة؟ بل هي تبلغ سبعمائة وخمسين آيـة صريحة... وهنـاك آيات أخرى دلالتها تقرب من الصراحـة... فهل يجوز في عقل أو شرع أن يبرع المسلمون في علمٍ، آياتـه قليلة، ويجهلوا علما آياته كثـيرة جـدا..؟!

إن آباءنـا برعـوا في الفقه، فلنبـرع نحن الآن في علم الكائنـات... لنقم به... لترقى الأمة.(21)

---

20) الجواهر : ج : 3 / 19.

21) «الجواهر» ج : 25 / ص : 53. الشيخ طنطاوي جوهـري، الذي كان أستاذاً بـدار العلوم، كما اختير ضمن هيئة التدريس في الجامعة المصرية القـديمة حين إنشائها، ثم كان هدفاً لدسائس كثيرة من بعض الجامدين انتهت به إلى المدارس الثـانوية التي ظل فيها أستاذا حتى أحيل إلى المعاش، وهو أحد أصحاب التفاسير القيمة التي ظهرت طبعته الأولى في عام 1918.

الفصل الثاني :

القرآن، ومظاهر الكون البيولوجي

التأكيد على أهمية الماء :

إن القرآن يستلفت أنظار المومنين إلى مظاهر الكون في العالم البيولوجي، فيذكر أن كل شيء خلق من الماء، ويذكر نبات الأرض الحي، والمروج الخضر، والروابي الناضرة، وإنبات الحبوب والثمار والفواكه ذات الألوان الزاهية، وهي صنوان وغير صنوان تسقى من ماء واحد، ويفضل بعضها على بعض في الأُكْلِ... والإشارة إلى أن النسل البشري مصدره الأرض، وانتشار كل حيوان في الأرض، وطيران الطيور في الهواء، ووجود زوج من كل شيء حتى النبات، وخلقة الإبل العجيبة، وخلقة الإنسان الأعجب التي هي أًعقد وأعجب من كل شيء... ثم تنظيم هذا الكون تنظيما محكما في دقة وتنظيم واتقان... وصدق الله العظيم: «مَا تَرَى في خلق الرحمن مِن تفاوت.. فارجع البصر هَل ترى من فطور.؟؟!(22)

* * *

وفي كثير من الآيات الكريمة نرى تأكيدا على أهمية الماء، والنتيجة العلمية لوجودها على تربة الأرض وخصوبتها، ولا شك أن الماء في البلاد الصحراوية وغيرها يمثل العنصر الأول الذي عليه بقاء الإنسان... ولكن ذكر القرآن لهذا يتخطى تلك الخاصية الجغرافية.. إن الآية تبرز ميزة ثراء الكوكب بالماء.. تلك الميزة الفريدة في النظام الشمسي على حسب أحسن معطيات المعارف الحديثة ثبوتا، فلولا الماء لكانت الأرض كوكبا ميّتا مثل القمَر...

---

22) سورة تبارك، آية : رقم : 3.

وللأهمية العظمى التي لعنصر الماء في مـادة الحياة، وتكوين الكائنات الحية، ولِلَفْتِ القـرآن الكريم نظر المـومنين لأهمية هـذا العنصر في سنن الكون، ونواميس الطبيعة، فقد ورد في القرآن الكريم في نحو ثلاث وستين آية، وردت في صيغ مختلفة، وصور رائعة وكلهـا تندرج في إطار ما امْتَنّ به الحق سبحانه وتعالى على عباده وخلقه من نعم وآلاء...

وترتبط معظم هذه الآيات بين تنزيل الماء من السماء، واستمرار الحياة على الأرض وازدهارها ممـا يجعل منه نعمة كبرى للبشريـة يمتن الله بها على عباده، ويدعوهم إلى تأملها...

والمـلاحظ أن لفظ «المـاء»، في القرآن الكـريم يـرد في ثـلاث وستين موضعا، معظمها يذكر في السـور المكية، في نحو ثمان وأربعين موضعا، وهذا في حد ذاته دليل على أهمية المـاء في جَدَل القرآن مع مخالفيه، ففي هـذه الفتـرة كـان النبي عليـه السلام يحـاور الكفـار، ويحـاول إقنـاعهم، ويدعوهم إلى التفكر والتأمل في ملكوت الله...

والجدل مع منكـري البعث في الفترة المكيـة من البعثة يستلزم تقـريبه إلى أذهانهـم، وتذكيرهـم بأن البعث يشبه إنبـات الزرع الذي يحـدث كل يوم، والذي يجري بأمر الله وحكمته، فالله يُنْشِئُ السحاب، ثم يسوقه إلى البلـد الميت، وينـزل فيه المـاء فيحييـه، ويخـرج به من كل أنـواع الثمـار والغـلال...

وتتنـوع أساليـب القرآن الكـريم في عـرض الماء، ودعوة الكفـار إلى تأمـل معجـزة الله فيـه، وفضلـه عليهم... ومن تلك الأسـاليب البـديعـة، الاستفهـام تـارة للتقريـر وذلك كقـولـه تعـالى: ﴿**أفـرأيتم الماء الـذي تشربـون أأنتـم انزلتمـوه من المـزن، أم نحن المنـزلون لـو نشـاء جعلنـاه أجاجـا فلـولا تشكـرون**﴾. وتـارة للتنـبيه: «كقــوله تعالى: ﴿**ألم تـر أن الله أنـزل من السمـاء مـاءً، فسلكـه ينابيع في الأرض،**

ثم يخـرج به زرعـاً مختلفا ألوانُه، ثم يهيج، فتـراه مصفرا، ثم يجعله حطامـا، إن في ذلك لـذكرى لأولي الألبـاب﴾، وإذا كان المقـام مقام تَبْيِيـن لفضـل اللـه على الإنسـان، وامتنان لـه عليـه، كان وصف المـاء مرتبطـا بالصفـاء والبهـاء والعذوبـة، والكثـرة والبركة : **﴿ألم نجعـل الأرض كفاتـاً، أحيـاء وأمـواتـاً وجعلنـا فيهـا رواسـي شَـامِخَـات، وأسقيناكـم مـاء فُراتـا﴾** وقولـه : **﴿وأنزلنـا من المعصـرات مـاءً ثجَّاجـاً﴾. ﴿ونزلنـا من السماء مـاءً مباركـاً، فأنبتنا بـه جنات وحبّ الحصيد﴾..**

وإذا كان المقـام مقام ذكر وتـوعد للكافـرين بما ينتظرهم يـوم الدين كانت صفة الماء صفة منفرة، كقوله تعالى: **﴿وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمُهْلِ يشوي الوجوه﴾**.. وقوله: **﴿كمن هو خالد في النار، وسقوا ماءً حميما﴾** وقولـه تعالى: **﴿مِن ورائه جهنم، ويسقَى من مـاء صـديـدٍ، يتجرعه ولا يكاد يُسِيغه، ويأتيـه الموت من كل مكان، وما هو بميت، ومن ورائه عذاب غليظ﴾**.

ونلاحظ أن صفـات الماء في القرآن الكـريم يختلف باختـلاف الموقف والسياق، فإذا كان المقـام مقام تحقير للإنسان، وتذكير بأصلـه ذكر بأنه خلق من ماء مهين، ففي أربعة مواضع من القرآن، الظاهر أن معناها النُّطْفَة: في سورة الفـرقان: **﴿وهـو الذي خلق من المـاء بشـراً، فجعله نسبـا وصهراً، وكان ربُّك قديرا﴾** وفي سورة السجدة: **﴿الذي أحسن كل شيء خلقه، وبـدأ خلق الإنسان من طين، ثم جعل نَسْلَهُ من سلالـة مِنْ ماء مهين﴾** وفي سورة المرسلات: **﴿ألم نخلقكم من ماء مهين، فجعلناه في قرار مكين﴾**.. وفي سورة الطارق: **﴿فلينظر الإنسان مم خلق، خلق من ماء دافق..﴾**.

* * *

ولعل من بديع الإيجاز في القرآن مـا ذكره الشيخ بدر الدين محمد ابن عبد الله الزركشي (794هـ) في كتابه: البرهان، في علوم القرآن(23) في قوله تعالى: ﴿**يسقى بماء واحد، ونفضل بعضها على بعض في الأُكُلْ**﴾ فدَلَّ على نفسه، ولطفه، ووحدانيته، وقدرته، وهَدَى للحجة على مَن ضل عنه، لأنه لو كان ظهور الثمرة بالماء والتربة لوجب في القياس ألا تختلف الطعومَ والروائح، ولا يقع التفاضل في الجنس الواحد، إذا نبت في مَغْرِس واحِد، ولكنه صنع اللطيف الخبير...فالماء واحد، والزهر ألوان.

وفي قوله تعالى : ﴿**وقيل : يا أرض ابلعي ماءك، ويا سماء اقلعي، وغيض الماء وقضي الأمر، واستوت على الجودي، وقيل: بُعداً للقوم الظالمين**﴾ كيف أمر، ونهى، وأخبر، ونادى، ونعت، وسمّى، وأهلك، وبَقَى، وأسعد، وأشقى، وقَلَّ من الأنباء ما لو شرح، لا ندرج في هذه الجملة من بديع اللفظ والبلاغة والإيجاز والبيان، ما لو كتب، لجفت الأقلام، وانحسرت الأيدي..، وطُوِيتْ الصحف...

* * *

ونسوق بين يدي نجوى هذه الدراسة المائية بعض تلك الآيات البينات التي ورد فيها لفظ: **الماء...** وأَن من أراد أن يجدِّدَ إحساسه وشعوره بالماء. وبفضيلته المتجددة، فهما وتقديرا وانتفاعاً وحرصاً وحراسة وحماية وقتالا دونها إن تعيّن القتال - من أراد ذلك، فليفتح المصحف الشريف إن شاء، وليقرأ فيه أو منه إن شاء... مع الإشارة إلى السورة، والمدينة: مكية أو مدنية ورقم الآية:

---

23) البرهان، في علوم القرآن، جمع فيه الزركشي ما تكلم الناس في فنونه، ورتب على سبعة وأربعين نوعا. قال: ما من نوع منها إلا ولو أراد الإنسان استقصاءه، لاستفرغ عمره، ثم لم يحكم أمره.

يقول الله تعالى :

﴿وإن منها لما يشقق فيخرجُ منها الماء﴾ (البقرة : م. 24).

﴿ومـا أنـزل اللـه من السمـاء من مـاء فأحيـا بـه الأرض﴾ (البقرة : م. 164).

﴿وأنزل من السماء ماء، فأخـرج به من الثمرات رزقا لكم﴾ (البقرة : م. 22).

﴿فلم تجدوا ماءً، فتيمَّمُوا صعيداً طيباً﴾ (النساء : م. 43).

﴿وهو الـذي أنزل من السمـاء ماء، فأخـرجنا به نبـات كل شيء﴾ (الأنعام : ك. 99).

﴿أن افيضوا علينا من الماء، أو مما رزقكم الله﴾ (الأعراف : ك. 50).

﴿سقناه لبلد ميت، فأنزلنا به الماء﴾ (الأعراف : ك. 57).

﴿وينزل عليكم من السماء ماء ليطهِّركم به﴾ (الأنفال : م. 11).

﴿إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء﴾ (يونس : ك. 24).

﴿قال سآوي إلى جبل يعصمني من الماء﴾ (هود : ك. 43).

﴿يا أرض ابلعي ماءك، ويا سماء اقلعي﴾ (هود : ك. 44).

﴿وغيـض المـاء، وقضـي الأمـر، واستـوت على الجودى﴾ (هود : ك. 44).

﴿وكان عرشه على الماء ليبلوكم أيكم أحسن عملاً﴾ (هود : ك. 7).

﴿ونخيل صنوان وغير صنوان تُسْقَى بماء واحد﴾ (الرعد : م. 4).

﴿إلا كباسـط كفيـه إلى الماء ليبلغ فاه، وما هو ببالغيه﴾ (الرعد : م. 14).

﴿أنزل من السماء ماء، فسالت أودية بقدرها﴾ (الرعد : م. 17).

﴿من ورائه جهنم ويسقى من ماء صديد﴾ (إبراهيم : ك. 16).

﴿وأنزلنا من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم﴾ (إبراهيم: ك. 32).

﴿وأرسلنا الرياح لواقح فأنزلنا من السماء ماءً﴾ (الحجر : ك. 22).

﴿هو الذي أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر﴾ (النحل: ك. 10).

﴿والله أنزل من السماء ماء، فأحيا به الأرض بعد موتها﴾ (النحل: ك. 65).

﴿وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمُهل يشوي الوجوه..!﴾ (الكهف : ك. 29).

﴿أو يصبح ماؤها غورا، فلن تستطيع له طلبا﴾ (الكهف : ك. 41).

﴿واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء﴾ (الكهف : ك. 45).

﴿وأنزلنا من السماء ماء، فأخرجنا به أزواجا من نباتٍ شتى﴾ (طه : ك. 53).

﴿وجعلنا من الماء كلّ شيء حي﴾ (الأنبياء : ك. 30).

﴿وترى الأرض هامدة، فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وَرَبَتْ﴾ (الحج: م. 5).

﴿ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فتصبح الأرض مخضرة﴾ (الحج : م. 63).

﴿وأنزلنا من السماء ماء بِقَدَرٍ فأسكناه في الأرض﴾ (المومنون : ك. 18).

﴿والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء﴾ (النور : م. 39).

﴿والله خلق كل دابة من ماء﴾ (النور : م. 45).

﴿**وأنزلنا من السماء ماء طهوراً**﴾ (الفرقان : ك. 48).

﴿**وهو الذي خلق من الماء بشرا فجعله نسبا وصهرا**﴾ (الفرقان : ك. 54).

﴿**أمن خلق السماوات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء**﴾ (النمل : ك. 60).

﴿**ولئن سألتهم من أنزل من السماء ماء، فأحيا به الأرض بعد موتها**﴾ (العنكبوت : ك. 63).

﴿**وينزل من السماء ماءً فيُحي به الأرض بعد موتها**﴾ (الروم : ك. 24).

﴿**وأنزلنا من السماء ماءً، فأنبتنا فيها من كل زوج كريم**﴾ (لقمان : ك. 10).

﴿**أو لم يروا أنَّا نَسُوقُ الماءَ إلى الأرض الجُرُزِ**﴾ (السجدة : ك. 27).

﴿**ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء، فأخرجنا به ثمراتٍ مختلفاً ألوانُها**﴾ (فاطر : ك. 27).

﴿**ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء، فسلكه ينابيعَ في الأرض**﴾ (الزمر : ك. 21).

﴿**فإذا أنزلنا عليها الماء، اهتزّت وَرَبَتْ**﴾ (فصلت : ك. 39).

﴿**والذي نزّل من السماء ماءً بقدر، فأنْشَرْنَا به بلدةً مَيْتاً**﴾ (الزخرف : ك. 11).

﴿**كمن هو خالد في النار، وسُقُوا ماء حميما**﴾ (محمد : ك. 15).

﴿**فيها أنهار من ماء غير آسنٍ وأنهارٌ من لبن لم يتغير طعمه**﴾ (محمد : م. 15).

﴿**ونزلنا من السماء ماءً مباركا، فأنبتنا به جناتٍ وَحبِّ الحصيد**﴾ (ق : ك. 9).

﴿ففتحنا أبواب السماء بماء منهَمِر﴾ (القمر : ك. 11).

﴿وفجّرنــا الأرض عيونــا فالتقــى الماء على أمــرٍ قَدْ قُدِر﴾ (القمر : ك. 12).

﴿ونبئهم أن الماء قسمة بينهم﴾ (القمر : ك. 28).

﴿وظل ممدود، وماء مسكوب﴾ (الواقعة : ك. 31).

﴿أفرأيتم الماء الذي تشربون﴾ (الواقعة : ك. 68).

﴿إنا لما طغا الماء حملناكم في الجارية﴾ (الحاقة : ك. 11).

﴿وأن لــو استقامــوا على الطريقــة لأسقيناهــم ماء غــدقا﴾ (الج : ك.16).

﴿ألم نخلقكم من ماء مهين﴾ (المرسلات : ك. 20).

﴿وجعلنا فيها رواسي شامخات وأسقيناكم ماءً فُرَاتا﴾ (المرسلات : ك. 27).

﴿وأنزلنا مِن المعصرات مــاء ثجاجــا﴾ (النبأ : ك. 14).

﴿أخــرج منها ماءهــا ومرعاهــا﴾ (النازعات : ك. 31).

﴿فلينظــر الإنســان إلى طعامــه، إنا صببنــا الماءَ صَباً﴾ (عبس : ك. 25).

﴿فلينظر الإنسان مِمَّ خلق، خُلق من ماء دافق﴾ (الطارق : 5. 6).

الباب الرابع :

الكوكب المائي

إن كوكبنا، يمكننا أن نطلق عليه «الكوكب المائي»، ولا يضارعه في ذلك أي كوكب آخر في المجموعة الشمسية، وقد أطلق أجدادنا اسْم «الأرض» على كوكبنا، حيث كانوا يرون اليابسة تحيط بهم من كل جانب، وعلى قدر علمهم عن الكوكب الذي يعيشون فيه، كانوا يعتقدون لعدة قرون من الزمان، أن سطحه يكادُ يتكون كليةً من صخور وتربة، فيما عدا جسيمات صغيرة من الماء مثل البحر المتوسط...

والنشأةُ الأولى للماء، لم يرد بها نصّ، ولكن الذي ورد هو وجودُهُ كأَول مَخْلُوقَاتِ الله تَعالَى.

وفي هذا المجال نتحدث في موضوع البحار المائية، وقد قسمنا هذا الباب إلى ثلاثة فصول :

الفصل الأول : عُلُوم البحار..

الفصل الثاني : البحر في حياة الرَّسول.

الفصل الثالث : حديث البحر في الأدب العربي.

الفصل الأول :

علـوم البحار

إن كلّ مـا يمكن لِلّسـان أن ينطق به، ويتحـدث عنـه، ويلفظه تسبيحـاً وترتيلا وتقديسا لآلاء الله وآياته، سوف يكون غاية في النقص والتقصير، ونهايـة في العجز والإبلاس، فمهمـا عدّد الإنسـان تلك الآيات، وأسهب في تفسيرهـا وإحصائها، فسيخرج آخـر الأمر مقتنعا بأنه لم يُحِط بهـا عِلماً، وإنما تناول منها بعضَ جوانبها...

والحق أنه لـو قُدِّر لـلإنسان أن تنكشف لـه جميع العلوم الكـونية، ثم يجلس سكان المعمور، جميعُهم، وقد هُيِّئت لكـل فرد منهم جميع الوسائل في أكمل صورهـا، فإن هؤلاء جميعا لـن يستطيعوا تدوينها أبـدا... فالقلمُ يَخْفَى دون توفِيَتِهـا بعضَ حقِّها، والتعمق في كنهها وأسرارِهـا، ومجالاتُ التعبير، تضيقُ عن تصـوير شَطْرٍ من حقيقتهـا، وعَزَمَاتُ الـرَّوِيّة تَكِلُّ عن خوض لُجَجِ سُوحِها وبـاحاتها... فَالأشجار لو كانت أقـلاماً، والبحار مِداداً فكتب بها عجـائب صنع الله، الـدالة على قدرتـه ووحدانيتـه، لم تنفذ تلك العجائب...(1) أليس هذا هو مصداق قوله تعالى: ﴿**ولو أنما في الأرض من شجرةٍ أقلامٌ، والبحر يَمُدُّه من بعدِهِ سبعـةُ أَبْحُر، ما نفِذَتْ كلماتُ الله إن الله عزيز حكيم**﴾(2) وقوله تعالى: ﴿**قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفذ البحر قبل أن تنفذَ كلماتُ ربي ولوجئنا بمثله مدداً**﴾.(3)

* * *

---

1) تفسير القرطبي ج : 14 / ص : 76.

2) «سورة لقمان» رقم الآية : 27.

3) سورة الكهف، رقم الآية : 102.

ولعل أكثر فـروع علوم الأرض، تخلفا، كان تلك المـادة المعقدة: «علوم البحـار» التي تحـاول أن تُمـد معرفتنـا لتشمل واحـداً من أَهم المجـالات المحيطة بنا، وهو ذلك الجزء من عالمنا المغطى بالْماء.

فمنذ أخذ الماء يعمل في وجـه الأرض، والتغييرات والتعديلات هي التي هيأت لنـا نـوع الأرض التي نعيش عليهـا، وهي التي سـوف تحـدد نـوع الأرض التي سَتَرِثها سلالتُنا بعد مليون عام من الآن...(4)

* * *

وكلما تعمقنـا في معرفـة تاريخ الأرض عن طـريق الدراسـة للسجلات المسطورة بين طيـات الصخور، ازددنا اقتناعـا بأن هذا العالم، كَـان، وما يزال، وسيكون عالماً متغيرا لفترةٍ طـويلة جدا، والواقع أن التغيرات الدائمة في سطح هـذا الكـوكب إنمـا هي من عمل المـاء أساسـا، ولكن المنـاطق الشـاسعة التي تغطيهـا المياه هي أقل المنـاطق تغيـراً، فالمـاء من فوقهـا سـاكن، والـرواسب التي تسقط فيهـا قليلـة جدا... أمـا الشمس والـريـاح والصقيع التي تعمل دائما في اليابسـة، وتؤثر فيها، فهي غيـر معروفة في الأعماق السحيقة المظلمة...

فالأرض حية، وليست جامدة، وهذه الحيوية ناجمة عن الطاقة الحرارية الكبيرة المـوجودة بين جَنبَـاتِهَا، والتي تَنفُثُ مـن آن إلى آخر، وبـدرجات مختلفة الشِدَّة، على شكل بَراكين، أو حركات زلزالية....

* * *

كان الله، ولا شيء معه في الأزل... ثم برأ هذا الكون، وذرأ هذا الوجود، وخلق من السديم شموساً وأقمـارا ونيازك وسحبا... ثم أوجد هذه الأرض التي نعيش فوقها... وليس هناك من يعلم عن يقين، كيف جرت الأمور، في

4) طومسون ص : 44.

انفجرت هذه النجمة من آلاف السنين مضت

الفصول الأولى من تاريخ الأرض... هناك عدة مدارس وروايات في هذا الصدد...

ولا بُدَّ من التعرف، ولو قليلا، على أصْلِ وَمَنْشَأ الكُرَة الأرضية، لأن هذه المعرفة بيانٌ لكثير من خصوصيات الأرض بأعماقها المختلفة، والتي يمكن من خلالها إلقاء الضوء على كثير من الجوانب المبهمة لظاهرة المياه الجوفية والزلازل...

فما هي أقوال العلماء في الموضوع :

أقوال العلماء تضاربت، قديما وحديثا، في أصل ونشأة الأرض، فالعالم لفرنسي «لابلاص» (5) LAPLACE والعالم الألماني «عيمانويل كَانْت» (6) KANT: ونظرية «لوكير»، ونظرية «بويل Boyle روبرت»، (7) والعالمان الفرنسيان «بوانكرية» POINCARE وكامي فلاماريون FLAMMARION، وغيرهم كلهم له نظر علمي في الموضوع، وكل له وجهة هو موليها، ومع ذلك، فقد آبوا وقنعوا بالغنيمة بالإياب، ولم ياتوا إلا بعلوم ظنية... لكن الذي نريد البحث عنه في هذه الدراسة التي تمس موضوعنا في الصميم، هو كيف نشأت المياه على هذه الكرة الأرضية؟ باعتبار أن كوكبنا بحق وصدق، يمكننا أن نُطلق عليه «الكوكب المائي»، ولا يضارعه في ذلك أي كوكب آخر في المجموعة الشمسية... وقد أشار ابن خلدون في مقدمته بأن شكل الأرض

---

5) لابلاص Laplac، (1749 – 1827) من مشاهير علماء الفلك الفرنسيين، وصاحب الرأي السائد أن العالم تكون في بدئه كرة ضبابية، وصدرت منها الأجرام السماوية، ومنها أرضنا...

6) عما نويل كانت Kant (1724 – 1804) فيلسوف ألماني له : «نقد العقل» و«نقد الحكم العقلي»، وهي مؤلفات فلسفية خطيرة، ذهب «كانت» إلى القول بأننا لا ندرك ماهية الأشياء، ولكن ظواهرها الحسية في الزمان والمكان... قال بالحرية وخلود النفس، وبوجود الله» وإن ما جاء به «كانت» في عام 1755 يعتبر لبنةً حقيقية في صرح المعرفة البشرية عن أصل الشمس وكواكبها المختلفة.

7) بُويل روبرت Boyle. (1627 – 1691) فيزيائي كيميائي إنجليزي، اكتشف وظيفة الأكسجين في الاحتراق...

كروي، وأنها محفوفـةٌ بعنصر الماء كأنها عِنَبَةٌ طافية عليـه، فانحسر الماء عن بعض جوانبها، لما أراد الله من تكوين الحيوانات فيها وعمرانها بالنوع البشري الذي له الخلافة على سائرها».(8)

ويشير القزويني...(9) «بأن الماء محيط بالأرض، إلا بالْقدر البارز الذي جعله الله تعالى مقرّاً للحيوان...».

كمـا أن ابن تيميـة يتحـدث عـن قـولـه تعـالى : **﴿وهو الـذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام، وكان عرشه على الماء، ليبلوكم أيكمُ أحسنُ عملاً﴾** ويقول: **﴿اعلم أن الأرض قد اتفقوا على أنهـا كُرِية، وهي في المـاء المحيط بأكثرهـا، والمـاء، أيضا، مقبّبٌ من كل جـانب﴾** قال ذلك، وهو يتكلم عن صفات الله، ويفسر تلك الآية...

* * *

المطر أو البحر ؟

فالمطر، مازال لغزا، حتى بالنسبـة للعلماء، فهم، إلى يوم الناس هذا، لم يتأكدوا بعدُ، عن أيهما كان أسبق في الوجود... المطر... أم البحر...

وينفـرد كـوكب الأرض بـوجود المحيطـات دون كـواكب المجمـوعـة الشمسية الأخرى، وفي الواقع، فإن ذلك يعتبر أمراً عجيباً، أدَّى إلى حدوثه أن درجـة حرارة سطح الأرض تقع في المـدى الضيق جداً الـذي يمكن أن يحتفظ الماء فيه بالحالة السائلة، أي بين درجة الصفر المئوي الذي يتجمد الماء دونهـا، وبين درجة 100 مئوية التـي يتحول الماء فوقها إلـى الحالة الغازية، أما في أجواء الكـون الفسيحة – خلا الأرض – فإن درجة الحرارة تتراوح بين نهايتين، تقترب إحداهمـا من درجة الصفر المطلق في الفضاء

---

8) مقدمة ابن خلدون ص : 424/1.

9) «عجائب المخلوقات»، ج : 1/247 على هامش : حياة الحيوان للدميري.

بين النجــوم، بينما يصل الحــد الآخر إلــى عشرات المــلايين من الدرجــات داخل النجوم ذاتها...

ويندر الوصــول إلى درجات حرارة بين هذين الحــدين يمكن أن تسري فيها السوائل، ومن تم، فإن الجزء الأعظم من المــادة في الكون، توجد إما على هيأة غازات ملتهبة، أو مواد صلبة متجمــدة...

* * *

إن ميركاتور(10) الجغرافي الهــولاندي، راسم الخــرائط، وأول من أطلق اسم «الأطلس» على ذلك الكتاب المحتوى على الخَــرائط الجغرافية (1512 – 1594) كان حتى 375 عام مضت يعتقد أن الأرض تنقسم نصفين متكافئين تقريبا، أحدهمــا اليابسة، والآخر الماء، وأن هناك كتــلا ضخمة من اليابسة في نصف الكرة الجنوبي، توازي كتل أروبا وآسيا وأميريكا الشمالية، التي تقع في النصف الشمالي، ولم تتجل المعرفة الحق عن كيف وكمّ المياه في عالمنا إلا نتيجة للرحلات البحرية التي قــام بها كل من الرحالة الهولاندي «آبل تاسمان»(11) (TASMAN ABEL JANS 200 N) الذي سميت «تازمانيا باسمه، وهي جزيرة جنوب أستراليا (TASMANIE) والقبطان الإنجليزي ذائع الصيت» جمس كوك(12) (1728 – 1779) الذي اكتشف المحيط الهادي...

وقد أثبت «تــازمان» و«كــوك» أن البحار الجنــوبية تبلغ من الضخــامة والاتساع، ذلــك المدى الذي قــد يؤدي بسفينــة سيئة الحظ، أن تــدور من حول العالم في المدارات العرضية الجنوبية، دون أن تصادف براً أبدا...

---

10) ميركاتور جيرارد علامة وجغرافي فَلَمَنْكِي (1512 – 1594).

11) تاسمان، ولــد عام 1603، وتوفي في «جــاكارتــا» عام 1659، رحالــة هولاندي، خــلال رحلته الاستكشافية لعام 1642، اكتشف أرض: «فــان دِيمَن» LaTerre de Van Diemen الجزيرة التي سميت بعــد ذلك في عــام 1853 «بجزيرة تــاسمانيا» (TASMANIE)، والتي تــوجد في جنــوب زيلاندة الجديدة، «الطيونكا» وجزر الفيدجي. Nouvelle Zèlande, les tonga et les Fidji.

12) كوك : Cook، (1728 – 1779) نُوتي ورائد انجليــزي، تجول «أوقيانا»، قتله المتــوحشون من سكان «جزر سندويش» وكان من أوائل الذين فتحوا الطرق للأسفار العلمية.

لقد تعددت وجهات أنظار العلماء، واختلفت آراؤهم في أصل ومنشأ المياه على وجه هذه الكرة الأرضية، تلك المياه التي تغمر أحواض البحار والأنهار والمحِيطات والبحيرات...

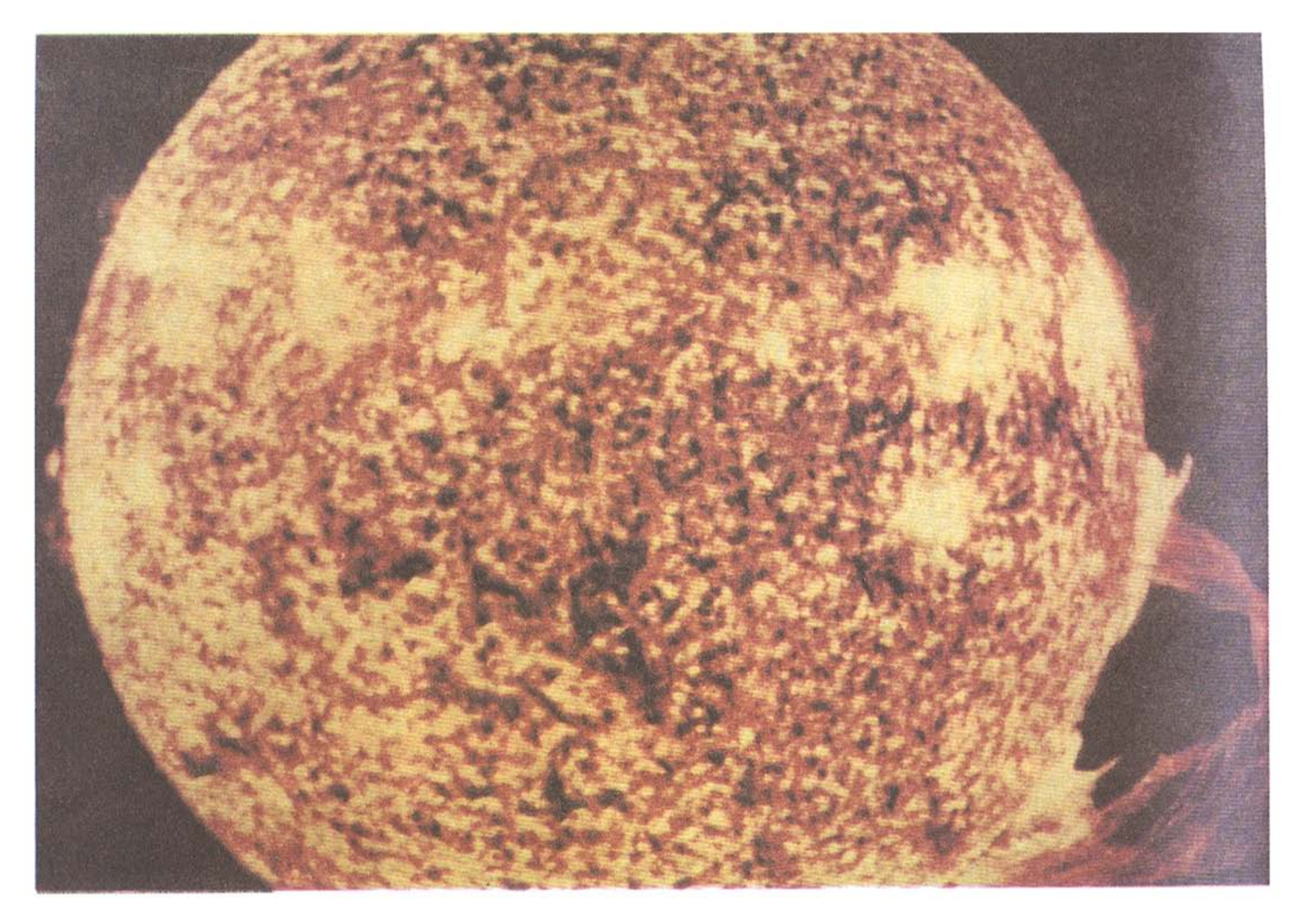
فهناك رأي للعالم «جيمس James» والعالمين الأمريكيين الأستاذ الجيولوجي تشمبرلين، chamberlain ومولطون Molton، (فلكي)، فالعالم «جيمس» يرى أنه قد يكون سطح اليابسة، حينما كانت القشرة الأولى في دور التكوين، يحتوي على كمية قليلة من الماء الناتج عن برودة الصخر الذائب الخارج من باطن الأرض إلى سطحها العلوي...

وقد بنى «جيمس» رأيه هذا، على أساس أن الصخر الذائب يمكنه الامتزاج بالماء بأية نسبة كانت مما أَدَّى إلى احتواء باطن الأرض على كمية هائلة من المياه، بدليل أن كثيراً من بخار الماء ينطلق من باطن الأرض مع الثورات البركانية، وعلى ذلك، فإن مقدار الماء في البحار والمحيطات كان يتزايد خلال العصور الجيولوجية، كما خرج من الصخر الذائب إلى السطح، وبرد وتجمد تحت تأثير العوامل الجوية...

أما «تشمبرلين» و«مولتن» فقد جَاءَا بنظرية تدعي بأن مياه البحار والمحيطات، جاءت من مصدرين، هما: الغلاف الغازي، والأجرام الكوكبية، فلقد استطاعت الكرة الأرضية جذب الغلاف الغازي نحوها، بعد أن كبر حجمها، وزادت قوة جذبها من جراء توالي سقوط الأجرام الكوكبية عليها، ولما كان الغلاف الغازي حينذاك، مكونا من جزيئات من بخار الماء، وثاني أوكسيد الكاربون والنتروجين، فإن بخار الماء يعتبر المصدر الأساسي لمياه البحار والمحيطات...

* * *

ومن جهة أخرى، فإن العلماء يشيرون إلى أن الأجرام الكوكبية، أيضا، تحمل جزيئات من بخار الماء، وثاني أوكسيد الكاربون، والنتروجين ما



يظهر سطح الشمس في شكل حباث وحبيبات مبرقشة

يعادل حجمها عـدة مرات طبقا للتركيب العنصـري للشهب التي تشابه إلى حـد كبيـر الكـويكبـات التي تحمل قـدراً من الغاز. ولقـد بـدأ بخار المـاء الموجود في تلك الأجرام الواصلة إلى الأرض بالتكاثف والتجمع في الفراغ، وبـذلك تكونت المحيطـات والبحار تحت سطح اليـابسة، أولا، ثم تـلا ذلك تكاثف بخـار الماء في الغلاف، وتجمعـه على هيأة مسطحات مائيـة كانت أقرب إلى البحيرات منها إلى المحيطات، ولكنها أخذت تملأ التجاويف التي كانت على سطح الأرض آنـذاك... غير أن المياه الباطنيـة لم تلبث بعد ذلك أن اتصلت بـالبحيرات السطحيـة، فأخـذت البحيـرات والمحيطات شكلهـا الحالـي...

وقـد صادفت هـذه النظرة عـدة اعتـراضـات... ولعل أبـرزها اعتـراض «جيفرز» الذي يتلخص بما يلي :

1 – إن جميع الكـويكبـات تتـلاشى عنـد اصطـدامهـا مع بعضهـا في الفضـاء.

2 – إن نظرية «مولتن» لم تبين كيفية خروج المياه إلى السطح.

3 – إن الكويكبات تشـابه إلى حد ما الشهب، وتتصف معهـا بالجفاف ولذلك، قالوا، بأن احتواء الكويكبات على نسبة كبيرة من بخار الماء مردود أصـلا...

ولذلك ظهرت نظريات وآراء أُخَـر، منها أن برودة القشرة الأرضية أدت إلى سقـوط أمطار غـزيرة لفتـرة طويلـة من الـزمن، مما أدى إلى تكـوين المجـاري المائيـة على اليـابسة، وبـالتـالي المسطحات المـائيـة الواسعـة كالمحيطات والبحار...

* * *

ولقد اعترض بعضهـم حول ملوحة مياه البحـار بالمقارنة مـع عذوبة المياه الجارية، وقـد رد الاعتراض هذا، نظرا، لأن المياه الجاريـة بمرورها

على صخور اليـابسة تعمل على إذابة أمـلاح اليابسة، وتنقلها بـالتالي إلى المسطحات الواسعة الراكدة (المحيطات) وبتراكم هذه الأملاح خلال الأزمنة الجيولوجية المختلفة ازدادت نسبتها في مياه تلك المسطحات...

* * *

لقد اتخـذ كوكبنا اسماً خَـاطئا، فقد أطلق عليه أجْـدَادُنا اسم «الأرض» حيث كانوا يرون اليابســة تحيط بهم من كل جانب، وذلك لنظرهم الساذج، ولقلة علمهم بأطراف الأرض، وعلى قدر علمهـم عن الكوكب الذي يعيشون فيه، كانوا يعتقدون لعدة قرون من الزمان، أن سطحه يكاد يتكون كلية من صخور وتربـة، فيما عدا جسيمات صغيرة من المـاء مثل البحر المتوسط، والبحـر الأســود، وبالطبـع كـانوا يعرفـون شيئـا عن الأطلنطي، ولكنهم كانوا يعتبرونه كنهر ضيق نسبيـا يجري من حول أطراف العالم... ولو أن القدمـاء كانـوا يعلمون حقـا كنه الأرض، لكـانوا قطعـا، اطلقوا عليهـا اسم «المحيط». تبعا للمساحات الهـائلة من المياه التي تغطي 70,8٪ من سطـح الكوكـب...

* * *

لقد قال الكاتب الإنجليزي «ولز» : «إن العرب عرفوا أيضا هذه المباحث من القرن العاشـر بعد الميلاد»... يؤكـد هذا ما ذكره الإمـام الفخر الرازي فقـال: «الأشبه أن هـذه المعمـورة كانت في سـالف الـزمان معمـورة في البحـار، فحصل فيهـا طين لـزج كثير، فتحجـر بعـد الانكشـاف، وحصل الشهوق بحفر السيول والرياح، ولذلك كثـرت فيها الجبال، ومما يؤكد هذا الظن أنا نجـد في كثير من الأحجار إذا كسرنـاها أجزاء الحيوانـات المائية كالأصداف والحيتـان...» [من شرح المواقف] وهذا مهم جـدا... جدا... من الإمام الفخر الرازي...

* * *

وصدق الله العظيم حيث قال عز وجل : **﴿أوَ لم يَرَ الذين كفروا**(13) **أن السماواتِ والأرضَ كانتــا رَتْقاً**،(14) ففتقناهما(15) **وجعلنا من المــاء كل شيء حي، أفلا يومنون﴾**.(16)

قال ابن عباس والحسن وعطاء والضحاك وقتادة يعني أنها كانت شيئا واحداً ملتــزقتين، فَفَصَل الله بينهــا بالهــواء... وكذلك قال كعــب: خلق الله السماوات والأرض بعضا على بعض، ثم خلق ريحا بــوسطها، ففتحها بها، وجعل السماوات سبعا، والأرضين سبعــا، وقول ثان قاله مجــاهد والسدي وأبو صــالح: كانت السمــاوات مؤتلفة طبقــة واحدة. ففتقهــا، فجعلها سبع سماوات... وقــال عكرمــة وعطية وابن زيــد وابن عبــاس، أيضــا، فيمــا ذكر المهدوي: إن السمــاوات كانت رَتقا لا تمطر، والأرض كــانت رتقاً لا تنبت، ففتق السماء بالمطــر، والأرض بالنبات، نظيره قــول الله تعالى: **﴿والسماء ذات الرجع، والأرض ذات الصَّدْعِ﴾**، واختار هذا القول الطبري، لأن بعده: **﴿وجعلنا من الماء كل شيء حي، أفلا يومنون﴾**.(17)

ونفسر الآية الســابقة الذكر بــآيات أخرى من كتاب اللــه، فقال تعالى : **﴿والأرض وما طحاها﴾**، ويمكن أن نعتبر «طحَا»، بمعنى اقتطع، فعن ابن عباس : «طحاها» : قسمها، وقيل : خلقها، قال الشاعر :

وما تدري جذيمة مَن طَحَاها ولا مَن ساكِنُ العرشِ الرفيع

فإذا كان ذلك كذلك، فإن الله يقسم باقتطَاع الأرض التي كانت جزء من المجموعــة الشمسية ثم انفصلــت عنهــا، وكانت في أول أمرهــا، قطعة من سَدِيــم، فمعنــى هــذه الآيـــة، تعزيزٌ لمعـــنى الآيــة السابقـــة، ولا تختلف عنها في شـــيء..

---

13) أي أو لم يعلموا.
14) ذو اتي رتق أو مرتوقتين، فهو مصدر بمعنى اسم المفعول، أي ملتحمتين متصلتين.
15) ففصلناهما وأزلنا اتحادهما.
16) سورة «الأنبياء» رقم الآية : 30.
17) تفسير القرطبي ص : 283 – 284 / 11.

يقول العلامة طنطاوي جوهـري في تفسيره، تعقيبا على الآية السابقة: ﴿**أو لم ير الـذين كفروا**﴾ ثبت عن أهل أوروبـا في هـذا العصـور إذ هم الذيـن قرّروا هذا العلـم، وقالوا إن الشمـس كانت كـرة أشبه بـالنار دائرة ملايين من السنين، والأرض والسيارات وتوابعها كانت معها، ثم إن أرضنا انفصلت كما انفصل غيرها من السيارات، انفصلت جميعا من خط الاستواء الشمسي أثناء سرعة سير الشمس وجريهـا حول نفسها، فتباعدت أرضنا والأرضون الأخـرى وهي السيارات فإن شمسنـا والسيارات الأخـرى كلها سيارات وكلها أرضـون، وهكذا كل الشموس التي نـراها كأنها كواكب ثابتة على هذه الحال لهـا سيارات وقد اشتقت منها وقـد قدروا على سبيل الظنّ أن الأرضين في العوالم كلهـا لا تنقص عن ثلاثمائة مليون أرض مسكـونة ويقـولون ليست جميـع السيارات حـول شمسنـا يظنّ أنها مسكـونـة بل المسكون منها أرضنا وربما كان المريخ وسيار آخر إلخ.

فثبت أن أرضنـا مشتقة من الشمس، والشمـس أيضا من شمس أكبـر منها وتلك من شمس أكبر منها وهكـذا، وكل شمس من هذه دائرة حول ما اشتقت منـه إلى ما يقف عنده الفكر ويدهش العقل. هذه قصة العالم الذي نسكنه. وهذا هـو القول المشهور الآن في العالم الأوروبي الكافـر بسيدنا محمدﷺ جهلا به فقوله تعـالى على سبيل الاستفهام التقديري: «أو لم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما» من المعجزات، لأن هذا العلم لم يعرف عنـد العرب ولا عند الأمم المعاصـرين لهم وإنما عرف في عصـرنا الحـاضـر، فعليّ أن أعلن المسلمين بـه، وأقول لهم: إن هـذه معجزة واضحة في القـرآن، فإن الله قد استدلّ بحسن صنعـه واتقانه على تفرّده بالقدرة والحكمة، إذ جعل الحـرارة سببا في حركات تلك العوالم التي كانت نـارا محترقـة ثم بواسطـة هذه الـدورات أزمانـا برد ظـاهر الشمس فـانفصلت منـه الأرض وغيرهـا من السيـارات وأرضنـا منها وكـان هـذا

الحساب المدهش في سيرها والخلق البديع على ظهرها واتقان كل شيء عليها. هكذا كان ذكره في القرآن مع جهل المسلمين وغير المسلمين من فرس وروم وأمم أخرى بهذه النظرية التي لم تكن إلا حديثا معجزة مدهشة، فإن أهل أوروبا وهم الكافرون بنبينا محمد ﷺ عرفوا هذا الرأي، فالله تعالى يوبخ الأمم الذين كانوا في زمن النبيﷺ ويوبخنا أيضا لجهلنا. يقول: أو لم يعلم هؤلاء الكافرون بعقولهم أن العالم الأرضي قد فصل من العالم السماوي أي أن العقل البشري مستعدّ لمعرفة هذا من اتباع الأسباب ومن قراءة الكتب ومن درس العجائب فكيف لا يؤمن الناس باله واحد.(18)

* * *

وقد أتى عالم أمريكي في بداية القرن الأخير، وهو السيد «جورج غامو» GAMOW، بثابتة علمية عندنا وعند أكثر علماء الفلك والكونية، والمعروفة بالانفجار الكبير "big - bang"، والتي نادى بها، تلك النظرية التي تقول بأن الكون قد يكون، قد تكون منذ عشرة ملايير سنة على إثر انفجار ضخم (البيغ – بانغ) تسربت على إثره بروتونات، ونوترونات، وإلكترونات وفوتانت على درجات عالية من الحرارة.

ومن العلماء الذين اشتهروا، كثيرا، بنظرية، «الانفجار الكبير» المتعلقة بنشوء الكون، عبقري العصر، وعالمُ الفيزياء البريطاني الدكتور «ستيفن هاوكنج»، الذي يشغَلُ، اليوم، كرسي الأستاذية لمادة الفيزياء في «جامعة كمبردج»، ويحاضر في جامعات مختلفة، بالرغم من عدم قدرته على النطق والحركة، إلا أن نظاماً «كومبيوتريا»، صُمِّم خِصِّيصاً له، لأداء مهامِّه العلمية والحياتية.

ويعد هذا العالم أشهر عالم فيزياء حَيّ، بعد «نْيُوتُن» «وأنشتاين» فهو معجزة بكل ما في الكلمة من معنى، فلا شيء حَيٌّ في هذا العالِمِ، سوى

18) كتاب الجواهر، ص : 190 / 10.

دماغِه المذهل الـذي كرّسه لفهم ألغاز الكون، عَبْرَ قوانين الفيـزياء.. كتابه الأخير هو: «قصة موجزة للزمن»..

وللعـلامـة الألمـاني «ألفـرد فغنـر» Wegner، كتــابٌ: «أصل القــارات والمحيطات» (1912 – 1918) كما أن له نظرية الأرض المتصدعة...

* * *

فـالله سبحـانـهُ وتعالى هــو الـذي فصل الأرض عن الشمس، وكانتـا ملتحمتين، والله جَلّ عُـلاه هو الذي خلق كل الدواب من المـاء وفي البحر، ثم ارتقت إلى أن ارتفعت في الهـواء، وهو سبحـانه نظم السمـاء، وجعلها سقفاً محفوظا، فحفظ الشمـوس في مداراتها، بحيث لا تختلط ولا تختبط، بل جعلها سالمــة في أماكنها الخاصــة بها، وبقوة الجاذبية، لأنـه سبحانه رفع السمـاوات، بأعمـدةٍ غـيرِ مَرْئيـــة، وهي الجاذبيـــة مِصــداقاً لقــوله تعالى: ﴿**رفع السماوات بغير عمدٍ تَرَوْنها...**﴾ فالقمر والشمس والكواكب الأخرى متجـاذبات حـافظات لمدارتهـا لا تخرج عنهـا، وإلا لاختل الكون، وتـداعى هــذا العــالم، وبهذا الحفـظ، ونظام الـدوران، كـان الليل والنهـار الحادثان من جري الأرض حول الشمس، وصدق الله العظيم: «ما تَرَى في خلقِ الرحمن من تفاوت... فارجِع البصر هل ترى من فطور».(19)

ورحم الله الأستاذ شبلي الجُمَيِّل حيث يقول في هذا المعنى :

هُــو الحبُّ إكسيـرُ الحياة، بِـلاَ مِـرَا(20)

ولــولاه مـا كـان الـوجـود كمـا تـرى..

فالكون والـوجود قائم على الحب والتعاطف، والتمـازج والتآلف، وكذلك الكـواكب والمجـرات في مـداراتهـا، لا تختلط ولا تختبط... وإنمـا هي في تعاشق وتمازج وحب وانسجام... فما ترى في خلق الرحمن من تَفَاوُت؟؟؟

19) سورة تبارك : آية : 3.

20) الرجاء كسرُ مِيم : بلا «مِرا» ليلا تحدث لنا مشكلة، إذا فتحناها.

وعود على بدء، فإن أنظار العلماء، اختلفت آراؤهم، وتعددت مشاربهم في أصل ومنشأ الماء على وجه هذا الكوكب المائي، تلك المياه التي تغمر أحواض البحار والأنهار والبحيرات والمحيطات... المملوءة بالتيارات البحرية، منها أحد عشر تيارا مائيا ساخنا، ومن هذه التيارات تيارٌ يمُرُّ في المحيط الأطلسي قرب مدينة الرباط يعرف بالانجليزية «كُولْفْ اسْتْرِيم»، Gulf Stream وهو دافيء، وفيها خمسة عشر ألف بركان، بين مشتعل وبارد، وعشرون لجَّة تصل أعمقها إلى 11516 مترا، وهي مملوءة، أيضا، بالجبال، وأضخمها، كما يقولون، السلسلة الجبلية الممتدة حتى مسافة 70 ألف كلم في المحيط الأطلسي، والمحيط الهندي والمحيط الهادي.

ولقد كتب عالم البحار الموسوعي: إيف كُوسْطُو Cousteau، صاحب: «عَالَم المحيطات» والذي عايش البحار، ومارس التعامل معها طوال حياته ما فحواه: «إن البحار – عدا المخلوقات الحية التي تعيش فيها – هي في الحقيقة كائِنٌ حيّ يجب علينا احترامُه، حتى نتعامل معه».

* * *

ولنتأمل، هذه الأبيات الجملية لأمير الشعراء أحمد شوقي رحمه الله يتناول فيها مصادر المياه وينابيعه الأصلية، مخاطبا نيل مصر، فيقول وهو يشير إلى بعض النظريات التي سقناها.

مِن أي عهدٍ في القُرى تتدفقُ ؟
وبأي كفٍّ في المدائن تغدق ؟
ومن السماء نزلتَ ؟ أم فُجِّرتَ من
عليا الجِنان جداولا تترقرق ؟
وبأي عينٍ، أم بأيةِ مزنةٍ ؟
أم أي طوفانٍ تفيض وتفهَقُ ؟

وبأي نَـــوْلٍ أنـت نـــاسجُ بـــردةٍ
للضفتين، جـــديـدهـــا لا يخلق ؟

تعَيَي منــابعُك العقـــولَ ويستــوي
متخبط فــي علمهـــــــا ومحقق !!

عمر المحيطات...

ميـاه البحــر هي التي تشكل سطح الأرض، وتنظم المنــاخ، وهـي مهـد الحياة.. وخضم مـائي واسع كبير... ولم يعـرف بعد، بصورة مضبـوطة، عمرُ بحـار ومحيطات العالم... ولكن جـرت بعض المحاولات لمعرفـة عمر المحيطـات، ومنهـا معرفـة معـدل إرســاب الأملاح في البحــر عن طـريق الإحصــاء، وعن طـريق تقـديـر مجمـوع كميات الأمــلاح المـوجـودة الآن بالمحيطات، ومجموع ما تضيفه الأنهار والمجاري المائية سنويا، ثم قسمة الأولى على الثاني، فتظهـر المدة التي استغرقتها ارســاب هذه الكميات من الأملاح في البحر... وقد جاء بهذه الطريقة «أدموندهالي»، فقد قدر مجموع أملاح البحار بحوالي 15.4 طن، وقدرت الأمــلاح التي تنقلها الأنهارُ سنــويا بحوالي 400 مليون طن، وبتطبيق تلك القاعدة يقـدر عمر المحيطات بحوالي 100000000 سنة، إلا أن بعض الباحثين يرون أن هذه المدة غير كافية، وقد قدرت بأضعاف تلك المدة...

وفي غيمة كبيرة نشأت الأرض منذ أربعة ملايير سنة، ونصف، تقريبا، كما تقدر الـدراسات الجيولوجيــة بأن الأرض تكونت، كما قلنــا، منذ أربعة مليارات ونصف من السنين، أي بعـد نشأة الكون بعشرة مليارات عـاما... واللهُ أعلم...

[أنظـر : «جغرافيــة البحار، والمحيطـات» للـدكتور حسنين جـودة، خ: 31265 :C، وانظر أيضا: «تطور علوم البحــار ودورها في النمو الحضاري» تونس، وزارة الثقافة].

في شهر ديسمبر عام 1962 عقد في «إمـاره موناكو» المؤتمـر الدولي الأول لتاريخ «علـوم البحار»، تحت رعاية أميـر «مُونَاكُو» الـذي كان والده «البرنس اليـوت» رائداً من رواد العلم البحري، إذ قام ببحـوث مبتكرة على ظهر يخوتـه في الربع الأول من هذا القرن، وأسس معهد مُونَـاكُو البحري ومتحفهـا الشهير الـذي يَؤُمُّـه كل عـام جمع كبير من البـاحثين، ومحبي المعرفـة، حضر المؤتمـر المذكور صَفْوَة من أسـاتذة علوم البحـار، وأمير البحر من مختلف الدول، ومن المهتمين بتاريخ علوم البحار .

ظلمات... في بحر لجي...

تحدث الأمواج بفعل الرياح والضغط، وكثيرا ما تحدث نتيجة لارتفاع قاع المحيط أو انخفاضـه... وهي تتفاوت من مجرد تموجـات خفيفة، إلى تلك الأمواج الهـائلة المكتسحـة التي يبلغ طولها ميـلا، والتي تعبرُ عبـر: «كاب هورن» Cape Horn... ففي المحيط المتصـل الـذي يحيط القـارة القطبيـة الجنوبية توجد أكبر أمـواج يمكن أن يحدثها المحيط، باستثناء تلك التي قد توجد في الأعـاصير المدارية... وتدفـع الرياح والعواصف الغربيـة القوية التي تهب على هذه المنطقة الموحشة التيار الوحيد الذي يدور حول العالم مكتسحا في طريقه الذي يسير في دائرة لا تنتهي قط.(21)

وإن اضخم أمـواج المحيط، وأشـدهـا رعبا، هـي أمواج غيـر منظـورة، تتحرك في خطوط سيرها الغامضـة بعيداً في أعماق البحر... وقد كان مِن المعـروف منذ سنين كثيـرة أن سفن البعثـات إلى القطب الشمالي، كـانت تشق طريقهـا بكل صعوبة فيما كـان يسمى «بالماء الميت»، والـذي عرف الآن أنه أمواج داخلية...

21) أي رأس القرن، وهي لسان من الأرض يمتد في المحيط الأطلسي جنوبي الشيلي، وتعد أقصى نقطة جنوبية في أمريكا اللاتينية.

وفي أوائل 1900 لفت الأنظار كثيـر من مساحي البحار الاسكنـدنافيين إلى وجود أمـواج تحت سطح الماء، والآن بالرغم من أن الغمـوض لا يزال يكتنف أسباب تكـوين هذه الأمواج العظيمة التي تـرتفع وتهبط بعيداً أسفل السطح، فإن حدوثها على نطاق واسع في المحيط، قـد أصبح أمراً معروفاً جدا، فهي تقذف بالغواصات في المياه العَميقة كما تعمل شقيقتها السطحية على قذف السفن، ويظهر أن هذه الأمواج، تنكسر عند التقائها بتيار الخليج، وبتيارات أخـرى قويـة في بحرٍ عميق...(22) ومن المعلـوم أن في البحـار العميقة، وعلى عمق 3.000 متر، أمواجـا عاتية قد يصل طـولها إلى بضعة كلم، وارتفاعهـا إلى مائة متر، وأنه على عمق ستين متـرا على سطح البحر يصـبح كـــل شيء مظلـما، في البـــحار، وصـــدق رب العـزة إذ يـــقـــول: **﴿أو كظلمات في بحـر لجي، يغشاه مـوجٌ، من فوقـه موجٌ، من فـوقه سحاب، ظلمات بعضها فوق بعض، إذا أخـرج يده لم يَكَدْ يراها، ومن لم يجعل الله له نـوراً، فما له من نور﴾**. فهذه الآية تقول: يغشاه موج من فوقه موج،(23) تشير إلى الأمواج الـداخلية والسطحية، ويؤيـد هذا، ما وصفه القرآن للبحـر، بأنه: «لُجِّي»، أي كثير الماء عميقـه، وفي هذا إشارة، أيضا، إلى المحيطات، وليس إلى الشواطىء والسواحل، والجـدير بالذكر أن هذه المواضـع يقل فيها وهج الشمس، فما بالك باجتماع السحاب الذي تكثر فيه الظلمة، ويصبح الواقع، «إذا أخرج يده، لم يكد يراها...».

وفي معنى قوله تعالى : يغشاه موج، أي يعلو ذلك البحر اللجي، موج، ومن فوق هذا الموج الثاني سـحاب... إذ أن هناك، في المحيطات، أنواعاً من السُّحُب التي تعكس ضوء الشمس بكـامله، فيجتمع خوف المـوج! وخوف

---

22) «البحر المحيط بنا» تأليف : راشل. ل. كارسو.

23) قال النابغة يصف بحرا :

يماشيهنَّ أخضرُ ذُو ظِلالٍ   على حافاتـه فِلَـقُ الدِّنـان

وصدق الله العظيم : «وإذا غشيهم مَـوْجٌ كالظُّلل».

الريح! وخوف السحاب!، والمراد بهذه الظلمات: ظلمة السحاب... وظلمة الموج... وظلمة الليل... وظلمة البحر، فلا يبصر من كان في هذه الظلمات شيئاً ولا كوكبا...(24)

تذكرني هذه الظلمات الثلاث بما كان يعانيه أبو العلاء المعري من ظلماتٍ ثلاث أخر، هي عَمَى العين! وغُموض الدين! وحلوكة الليل! فهو، رحمه الله، يعاني من ثلاث ظلمات، أشار إليها في مطلع قصيدة من لُزومياته حيث قال:

عَمى العينِ ! يتلوه عمى الدين! والدجى!
فَلَيْلَتِيَ القُصْرَى، ثلاثُ لَيَالِي

وقد ضرب الله سبحانه، مثلا آخر للكفار حيث قال : «أو كظلمات في بحر... أي أعمالهم كسراب، أو كظلمات... فإن شئت مَثِّل بالسراب، وإن شئت مثل بالظلمات... «فأوْ» للاباحة...(25)

* * *

وقد ذكر الشيخ يوسف الدجوي في كتابه : «رسائل السلام» الذي وضعه لأهل أمريكا: أن بعض الأوروبيين اعتنق الإسلام، لما وجد من وصف القرآن البحر، وصفا شافيا مع كون النبي عليه السلام لم يركب البحر طول عمره، وذلك مثل قوله تعالى: **﴿أو كظلمات في بحر لجي، يغشاه موج، من فوقه موج، من فوقه سحاب، ظلمات بعضها فوق بعض... إذا أخرج يده لم يكَدْ يراها﴾**.(26)

صدق الله العظيم...

---

24) تفسير القرطبي ج : 12 / ص : 285.
25) المصدر السابق ج : 12 – ص : 283.
26) سورة النور آية : 40.

هذا عذبٌ فُرات سائغ شرابُه... وهذا ملحٌ أجاج !!

هناك ظاهرة طبيعية معروفة عند الإنسان منذ أقدم العصور، وهي أنه إذا التقى نهران في ممر مائي واحد، فلا يذوب أحدهما في الآخر... فهناك على سبيل المثال نهران يسيران في «تشاتغام» بباكستان الشرقية إلى مدينة «أركان» في «بورما» ويمكن مشاهدة النهرين مستقلا أحدهما عن الآخر، ويبدو أن خيطا يمر بينهما حداً فاصلا، والماء عذبٌ في جانب، وملحٌ في جانب آخر... وهذا هو شأن الأنهار القريبة من السواحل، فماء البحر يدخل ماء النهر عند حدوث «المَدِّ البحري»، ولكنهما لا يختلطان، ويبقى الماء عذبا تحت الماء الأجاج...

وهكذا عند ملتقى نهري «الكنج» و«الجامونا» في مدينة «إلاه آباد» في الهند، فهما رغم التقائهما، لم تختلط مياههما، ويبدو أن خيطا فاصلا يميز أحدهما عن الآخر...

* * *

وهذه الظاهرة معروفة لدى الإنسان القديم، ولكنها لم تكشف قانونها إلا منذ بضع عشرات من السنين، فقد أكدت المشاهدات والتجارب أن هناك قانونا ضابطا للأشياء السائلة يسمى «قانون المطّ السطحي»، وهو يفصل بين السائلين، لأن تجاذب الجُزَيْئَات يختلف من سائل لآخر، ولذلك يحتفظ كل سائل باستقلاله في مجاله..

وقد استفاد العلم الحديث كثيراً من هذا القانون الذي عبر عنه القرآن الكريم بقوله سبحانه وتعالى: ﴿**وهو الذي مَرَج البحرين، هذا عذبٌ فرات سائغٌ شرابُه، وهذا مِلْحٌ أجاج، وجعل بينهما برزخا وحجرا**

محجورا﴾.(27) وقوله تعالى: **﴿مرج البحرين يلتقيان بينهما برزخ لا يبغيان﴾**،(28) وقوله تعالى: **﴿وَجَعَلَ بين البَحْرَيْنِ حَاجِزا﴾**.(29)

ولعل أحد الأسباب التي جعلت عالم البحار الشهير السيد «كوستو» يعتنق الإسلام قولُه تعالى: **﴿مرج البحرين يلتقيان، بينهما برزخ لا يبغيان﴾**.(30) كما ذكرت ذلك مجلة «جواب على كل شيء» بالفرنسية (ع: 6، عام 1990، ص: 13.

وملاحظة هذا البرزخ لم تخف عن أعين القدماء، كما لم تتعارض مع المشاهدة الحديثة، ونستطيع بكل ثقة، وتأكيد أن نقول: «إن المراد من «البرزخ» إنما هو المَطُّ أو التمدد السطحي الذي يوجد في المائين، والذي يفصل أحدهما عن الآخر»...

ويمكن فهم هذا «المط السطحي» بمثال بسيط، وهو أنك لو ملأت كوباً بالماء، فإنه لن يفيض إلا إذا ارتفع عن سطح الكوب قدرا معيناً... والسبب في ذلك، أن «جزيئات السوائل» عندما لا تجد شيئاً تتصل به فوق سطح الكوب تتحول إلى ما هو تحتها، وعند ذلك توجد «غشاوة مَرِنة» على سطح الماء، وهذه الغشاوة هي التي تمنع الماء من الخروج عن الكُوب لمسافة معينة، وهي غشاوة قوية لدرجة أنك لو وضعت عليها إبْرَةً من حديد، فإنها لن تغوص... وهذه الظاهرة هي التي تسمى «بالمطِّ السطحي» الذي يحول دون اختلاط الماء والزيت، والذي يفصل بين الماء العذب، والملح...(31)

وقال تعالى : **﴿وما يستوي البَحْرَان، هذا عذبٌ فُرَاتٌ سائغٌ شرابُه، وهذا ملحٌ أُجَاج، ومن كلٍّ تاكلون لحما طريا وتستخرجون حِليةً**

---

27) سورة «الفرقان» آية : 53.

28) سورة «الرحمن» آية : 20 – 21.

29) سورة «النمل»، آية : 61.

30) سورة «الرحمن» آية : 19 – 20.

31) «الإسلام يتحدى» ص : 142 – 143، ط : 2. «دار البحوث العلمية – الكويت».

تلبسونها، وترى الفلك فيه مَوَاخِر، ولتبتغوا مِن فضله، ولعلكم تشكرون﴾.(32)

* * *

المياه المالحة :

إن من أهم أَسباب البقاء لحياة الأرض ومَن عليها، وجود البحر المالح، واكتساحه ثلاثة أرباع المساحة الأرضية، فلو فرض أن البحر فَقد ملوحته، وتحول ما فيه مِن ملايين ملايين الأطنان المائية إلَى عذوبة، فإن ذلك سيؤدي حتما إلى تعفن في جو الأرض، هذا الجو الذي يتماسك بفضل ما يكتسب إلى ما فيه من غازات عدة من مواد وجدت في المحيط خصيصا لتتعادل مع ما في جو الأرض من أوكسجين، وخلافه فإن مصير الأحياء حتما سيكون الفناء..!!

وقد تحدث القزويني في كتابه «عجائب المخلوقات» عن الماء العذب، والماء المالح، فقال: «واعلم أن الماء عذب ومالح، وكل منهما له فائدة لا توجد في الآخر، أما المالح فملوحته من الأجزاء الأرضية السبخة التي احترقت من تأثير الشمس، واختلطت بالمياه، وجعلتها مالحة، فلو بقيت على عذوبتها لتغيرت من تأثير الشمس وكثرة الوقوف، لأن من شأن الماء العذب أن يُنتن من كثرة الوقوف، وتأثير الشمس فيه، ولو كان كذلك لسارت الرياح بِنَتْنِهَا إلى أطراف الأرض، فأدت إلى فساد الهواء، ويسمى ذلك «طاعونا»، فصار ذلك سببا لهلاك الحيوان، فاقتضت الحكمة، أن يكون ماء البحر مالحا لدفع هذا الفساد، ومن فوائد الماء المالح، الدر، والعنبر. وأنواع ما يُوتَى به من البحر...

32) سورة «فاطر» آية : 12.

والمياه المالحة في الحَمْأَة فيها شفـاء للأمراض الصعبة، ثم قال: «وأما العذب، فمعظم فـائدته الشرب، وفيـه قوة إذا نقعت فيـه مطعوما كـالزبيب مثلا يمص جميع حلاوتها حتى لا يترك فيها شيئا من الحلاوة، وإذا خالط شيئا يأخذ طبعه ولونه، فيصيـر عسلا وزيتا وخلا ولبنا ودما يقبل جميع الألوان والطعوم، ولا لـون له ولا طعم... **ومن عجيب لطف الله تعالى أن كل مـاكول ومشـروب يحتـاج إلى تحصيل، أو معالجـة، حتى يصلح للأكل، إلا المـاء فإن اللـه تعالى أكثـر منه، ولا حـاجة إلى معـالجته لعموم النفع والحاجة إليه، فإن الله تعالى كفى الخلق معالجة إصلاح المـاء بتأثير الشمس في ميـاه البحر، وارتفـاع البخار منهـا...** ثم إن الرياح تسوق ذلك البخار إلى الموضع التي شاء وينزلها مطرا... ثم يخزن ذلك في الأوشـال والكهوف في جـوف الجبال تحت الأرض، وتخـرج منها شيئا بعد شيء، وتجرى الأنهار والأودية، وتظهر من القُنِّي والآبار بقدر ما يكفى العبـاد لعامهم... فـإذا جاء العـام المقبل، أتـاهم مطر... وهكـذا مثل الدولاب يدور حتى يبلغ الكتاب أجلَه».

وأردأُ المياه المرّ... ثم المالح الأجاج، وهما يصلحان للرجلة، وهي البقلة والاسفاناخ والخس، والهِندَبَا، والسـوسي الأبيض، وهو الزئبق والملوخية... ومن أردأ المياه أيضا القابض العفص، ثم ما غلبه عليه طعم المعدن، والماء المالح الذي ينعقد منه الملح، وماء البحر يفسدان ولا يصلحان لسقي شيء البتة...(33)

وقد طرح أبو حيان التوحيدي ومسكويه في كتابه «الهوامل والشوامل» مسألة موضوعها: لم صارتْ مياه البحر ملحاً؟ فكان الجواب»، قال أبو علي مسكويه رحمه الله:

---

33) «علم الملاحة، في علم الفلاحة» لعبد الغني النابلسي النقشبدي القادري (تـ : 1143 هـ).

«إنمـا ذلك لأجل قـرب الشمس من سطح الماء، وتمكنِهـا من طبخـه... ومن طبيعة الماء إذا ألحّت عليه الحرارة بالطبخ إن يتحلل لطيفه إلى البخار، ويقبل الباقي اثـرا من الملوحة، فإن زادت الحرارة، ودامت صـار ذلك الماء شديد الملوحة، ثم انتهى في آخر الأمر إلى المرارة.

وأصحاب الصنعة يدبرون ماءً لهم بالنـار، ويدبّرونه حتى يكثر تردده على النار، فيصير - بذلك - الماءُ حاراً مالحا يضرب إلى المرارة.(34)

خصائص مياه البحـر...

تحدد نـوعية الصخور والظـروف المناخيـة الخواص الكيماويـة للمياه الباطنية، فـالعناصر الكيماوية التي تـدخل في تركيب الصخور تختلف في درجة قـابليتها من الـذوبان في المـاء، إذ تزداد درجة تـركيز هـذه المواد المذابـة في المناطق الجافة، حيـث ترتفع نسبة التبخر، بينمـا تقل درجتها في المناطق الرطبة والمطيرة والباردة، ولذلك نجد أن معظم الآبار والينابيع في المناطق الصحراوية وشبه الصحراوية تتميز بارتفاع نسبة الأملاح...

وقد ألف ابن قرة الحراني الصابىء رئيس المنجمين والأطباء (تـ258هـ) كتابا في «السبب الذي جعلت من أجله مياه البحر مالحة».(35)

ويذكر الطبري طـريقة نسبها إلى الفيلسوف (أرسطو) لإثبات أن الماء العذب أخف من الماء الملح فيقول: «إنك لو أخذت شمعا، فاتخذت منه آنية مجوفة ليس لها فـم، ووضعتها في البحر يوماً وليلة، لوجـدت في جوفها ماء عذبا، لأن المـاء العذب ينفذ إلى جوفها لِخِفَّتِه ولطـافته، ولا ينفذ الماء المالح لغلظه».

* * *

34) «الهوامل والشوامل» لأبي حيان التوحيدي ص : 359، تحقيق المرحوم أحمد أمين.

35) «هدية العارفين» ج : 2 / 227.

لقد جعل الله مـاء البحر ملحا أجاجـا، مُراً زعاقاً لتمـام مصـالح من هو على وجه الأرض من الآدميين والبهائم، فإنه دائم راكـد كثير الحيوان، وهو يموت فيه كثيرا، ولا يقبر، فلو كان حلواً لأنتن من إقامته وموت حيوانه فيه وأجـاف، وكـان الهواء المحيط بـالعـالم يكتسب منـه ذلك وينتن، ويُجيف، فيفسد العالـم... فاقتضت حكمة الله سبحـانه أن جعله كالملاحـة التي لو القي فيه جيف العـالم كلها وأَنْتَانَـه وأمواته لم تغيره شيئـاً، ولا يتغير على مكثه من حين خلق، وإلى أن يطوي الله هذا العالم، فهذا هو السبب الغائي الموجب لملـوحته، وصدق رسول اللـهﷺ إذ قال في البحر: «هـو الطهور ماؤه، الحل ميتته...».

وبـدورة التبخيـر بـالشمس، والتكثيف فـي السحب البـاردة، نظم اللـه سبحانه للإنسـان والحيوان والنبات استعمالاته للماء، وحاجـاته إليه، مياه البحـار والمحيطات مـالحة، فإذا شَـرِبَهَـا الحي أضرتـه... وإذا خلقت من الملح، فسدت وتعطنت، لذلك فإن الشمس تبخرها، فتصعد إلى أعلى كبخار يتكثف، ويتساقط كميـاه عذبة تجـرى بها الأنهار حيث يستعملهـا الأحياء، وهذه السحب التي ينزل منها الماء متراكبـة، ترتفع ارتفاعات تجعل درجة حرارة قـاعدة السحاب التي نـراها فيما لـو نظرنـا إلى السماء تختلف عن درجة قمته العالية، ولما كـانت الحرارة تنخفض كلما ارتفعنا، كان السحاب الذي تتجمع قطراته أكثر، كلما ارتفع حتى يأخذ شكل الجبل تماما، قاعدته هي التي تواجه الأرض، وقمته إلى أعلى، وهذا ما يراه راكب الطائرة فيما لو ارتفع فوق السحاب، وقـد سبق القرآن العلم إلى تقرير ذلـك في هذه الآية الكريمة: ﴿**ألم تـر أن الله يُـزجي سحابـاً، ثُمَّ يُـولِّف بينه، ثم يجعلـه رُكاما، فترى الودق يخرج من خلاله وينزِّلُ من السماء مِن جبالٍ، فِيهَا**

مِنْ بَرَدٍ فيُصِيبُ بِهِ من يَشَاءُ، ويصرِفُـهُ عَن مّن يَشَاء، يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بالأبصار...﴾.(36)

وتكتنـز مياه البحـر في طياتهـا مقـادير كثيـرة من الأملاح والمعـادن المتنوعـة في حالـة ذوبان، كمـا تحتوي على الأوكسجين، وثـاني أوكسيد الكربون، والنتروجين من الجو مذابة فيها...

أما الأكسجين المذاب فهو عماد تنفس الأحياء المائية...

ويستخدم ثاني أوكسيد الكربون المذاب بوساطة النباتات الخضراء في البحر لتكوين الغذاء...

ويعتبـر مـاء البحـر من أهم المصـادر التجاريـة لملح الطعـام، وَفِلِـزّ المغنسيـوم، والبروم، وعـدد من المواد الأخـرى ذات الاستخذام الصنـاعي الواسع... كما هو معروف...وكما سيأتي في موضوع آخر.

من أيـن يجـيء الملـح الموجـود في البحـار ؟

إن بعضـا من هـذه الأمـلاح، جاء نتيجـة تفتت الصخـور بفعل الجليـد وعمليات النحر التي تصـاحب التآكل التدريجي لسفـوح الجبال، مما ينشأ عنه بعض الكيماويات التي يذيبهـا ماء المطر، ويحملها معه إلى المحيط... أما باقي أملاح البحر فتأتي من الصخور الموجودة في قاع المحيط....

وهنـاك من الشواهـد ما دل على أن ملـوحة البحـر ظلت تعاني زيـادة بطيئة ومستمـرة طوال مآت المـلايين من السنين... ومن الدلائل الطـريفة على ذلك أن خلايا الجسم في الحيوانات بِمَـا فيها الأسماك أقل ملوحة من ماء البحر، مما يؤدي إلى استنتاج أن ماء البحر في الأزمنة التي بدأت فيها الخليقة كان أقل ملوحة مما هو الآن....

36) سورة «النور» آية : 43.

الفصل الثاني :

البحر في حياة الرسول... والعهد الإسلامي

الصلة بين الإنسان... ونعمة الماء :

لقد وثق القرآن الصلة بين الإنسان، ونعمة الماء، فراح يقربها إلى نفسه بالأوصاف الدالة على المنفعة والخير، فالبحر الذي كان يخشاه الإنسان الأول، ويحسبه مصدراً للشر والرهبة والغموض، ومَكْمَناً للحيوانات الأسطورية المخيفة، صار في القرآن محبّباً إلى النفس، مقرباً إليها، فعبّر عنه باليم،(1) كما عبّر عن ماء السماء «بالغيث»، لأن فيه إغاثة الناس من القحط والجدب.

ثم راح القرآن يعرض للحس مظاهر تلك المنفعة في البحر، فالفلك تجري فيه بما ينفع الناس مسخرة بأمر الله، والأنهار التي لا تنقطع صلتها بالبحر، لم تعد كما كانت في التصور القديم آلهة، وقوى مستعلية على الإنسان، بل هي في القرآن مسخرة كذلك، نجد ذلك في قوله تعالى: ﴿**وسخر لكم الفلك لتجري في البحر بأمره**﴾.(2)

وقد وضع القرآن حَداً لمكانة الطبيعة من الإنسان، فليست الطبيعة فيه إلا مظهراً من مظاهر تكريم هذا الإنسان، وإعلاء شأنه، وإشعاره برآسته لهذا العالم المحسوس الملموس، وقد عبّر القرآن عن ذلك بقوله: «ولقد كرمنا بني آدم، وحملناهم في البر والبحر، ورزقناهم من الطيبات، وفضلناهم على كثيرٍ ممّن خلقنا تفضيلا».(3)

---

1) مشتق منه التيمم، وهو القصد، لأن المستنفعين به يقصدونه.

2) سورة «إبراهيم» رقم الآية : 32 – انظر الكشاف : ج : 1 / ص : 571.

3) سورة الإسراء : رقم الآية : 70.

ولعل من المدائح المذكورة في هـذه الآية قوله تعالى: ﴿**وحملناهم في البَرِّ والبحر**﴾ قال ابن عباس : في البر على الخيل والبغال والحمير والإبل، وفي البحر على السفن، وهـذا، أيضا، من مـؤكدات التكريم، فتسخيـر الله تعـالى المياه والسفن وغيـرها ليـركبها، وينقل عليهـا، وينكسب بها، ممـا يختص به ابن آدم...

فالأرض للإنسان كالأم الرؤوم الحاضنة، منها خلقناكم، وفيها نعيدكم، وهي لهم فراش ومهاد، فالماء ينتفعون به في الشرب والزراعة والعمارة.

وماء البحر ينتفع به في التجارة واستخراج الحلي منه كما هو معلوم.

البحر في حياة الرسول والعهد الإسلامي :

عن المغيـرة بن أبي بُردة أنـه سمع أبا هـريرة يقول : «جـاء رجل إلى رسول اللـه ﷺ، فقال: يـا رسول الله: إنـا نركب في البحـر، ونحمل معنا القـليل من المـــاء، فإن توضأنا بـه عطشـنا، أفنـتوضأ به؟. فقـال رسول الله ﷺ: «هو الطهـور ماؤه، الحل مَيْتَتُه..(4) وفي هذا الحـديث دليل واضح على ركوب البحـر في الجهاد للـرجال والنساء، وإذا جـاز ركوبـه للجهاد، فركوبـه للحج المفترض أَوْلَى وأوجب، فهو سبحانـه، سخر البحر، ومكن البشر من التصرف فيه، وتذليله بالـركوب، والإرفاء وغيره، وهذه نعمة من نعم اللـه علينا... قال تعـالى: ﴿**والفلك التي تجـري في البحر**﴾(5) دليل أيضا على جواز ركوب البحر مطلقا لتجارة كان أو عبادة كالحج والجهاد.

وبالإضافة إلى هذه الآيات، هنـاك آيات أخرى أشارت إلى بعض منافع البحر، وذلك كقولـه تعالى: ﴿**ألم تـر أن الفلك تجري في البحـر، بنعمة الله ليريكم من آياته، إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور**﴾(6) وقوله عز

---

4) «تنوير الحوالك، شرح على موطأ مالك» ج : 1 / ص : 45 ط : دار الكتاب العلمية.

5) سورة البقرة آية 164.

6) سورة الشورى آية : 23.

وجل: ﴿**ومن آياتــه أن يرسل الريــاح مبشرات، وليــذيقكم من رحمته، ولتجري الفلك بأمره، ولتبتغوا من فضله، ولعلكم تشكرون**﴾،(7) وقوله عز من قائل: ﴿**حتى إذا كنتم في الفلك، وجــرين بهم بريح طيبــة**﴾ في هذه الآيــة معنى مهم، يدل على إحــاطة الجاهليين بــالبحر، وركــوبهم فيه، وتسييرهم لها بفعل الرياح، وتقدمت آيات وإشارات في القرآن الكريم... إلى صنع الفلك وإلى سيــرها مواخــر في البحر... ويظهر أن تلــك السفن كانت صغيرة مكشوفة الجوانب، ولم تكن تتســع لعدد كبير من المسافرين، حتى إن حركــات المسافــرين كانت تؤثــر فيها... روي أن جعفــر بن أبي طالب، سأل رسول اللــه ﷺ كيف نصلي في السفينة، إذا ركبنا في البحــر؟ فقال صَلِّ قائمــاً... إلا أن تخاف الغرق، أو يصلــى قائماً، إلا أن يضــرَّ بأهلها... وصلى أنسٌ في السفينة جالسا...(8)

* * *

وعن أنس بن مالــك رضــي اللــه عنــه أنه سمعه يقــول: كــان رسول الله ﷺ، يــدخل على أم حرام بنت ملحــان، فتطعمه، وكــانت أم حرام تحت عبادة بن الصــامت، فدخل عليهــا رسول اللــه ﷺ، فأطعمته، فنــام رسول الله ﷺ، ثم استيقظ، وهو يضحك، قالت، فقلت، وما يضحكُ يا رسول الله؟ قال: «ناس من أمتى عــرضوا عليّ غزاة في سبيل الله يركبــون هذا البحر، ملوكا على الأسرة، أو مثل الملوك على الأســرة، قالت: فقلت يا رسول الله: أدع الله أن يجعلني منهم، فــدعا لهــا رسول الله ﷺ، ثــم وضــع رأسه، ثم استيقظ، وهو يضحك، فقلت: وما يضحك يا رســول الله؟.. قال: «ناس من أمتي عرضوا علي غزاة، في سبيل اللــه، كما قال في الأول، قالت: فقلت: يا رسول الله: ادع الله أن يجعلني منهم، قال: أنت من الأولين، فركبت البحر،

7) سورة الروم آية 46.

8) الروض الأنف ج : 1 / ص : 215.

في زمن معاوية بن أبي سفيان، فصرعت عن دابتها!! حين خرجت من البحر... فهلكت... (9)

* * *

وفي رسالة ابن حزم في فضل الأندلس وذكر رجالها، وعدم تقصيرهم في تخليد أخبار علمائهم، ومآثر فضائلهم وسير ملوكهم... قال: «وأنا أقول: لو لم يكن لأندلسنا إلا ما رسول الله ﷺ بشّر به، ووصف أسلافنا المجاهدين فيه بصفات الملوك على الأسرة في الحديث الذي رويناه من طريق أبي حمزة أنس بن مالك أن خالته أم حرام بنت ملحان زوج أبي الوليد عُبادة ابن الصامت رضي الله عنه وعنهم أجمعين حدثته به عن النبي ﷺ أنه أخبرها بذلك، لكفى شرفاً بذلك يَسرُّ عاجله، ويغبط آجله... فإن قال قائل: فلعله، صلوات الله تعالى عليه، إنما عَنَى بذلك الحديث أهل صقلية وإقريطش، وما الدليل على ما ادعيته من أنه ﷺ عنى الأندلس حتما؟ ومثل هذا من التاويل، لا يتساهل فيه ذو ورع دون برهان واضح، وبيان لائح، لا يحتمل التوجيه، ولا يقبل التجريح، فالجواب – وبالله التوفيق – أنه ﷺ قد أوتي جوامع الكَلِم، وفصل الخطاب، وأُمِر بالبيان لما أوحي إليه، وقد أخبر في ذلك الحديث المتصل سنده بالعدول عن العدول بطائفتين من أمته يركبون ثبَجَ هذا البحر غزاة واحدة بعد واحدة، فسألته أُمُّ حَرام أن يدعوَ به تعالى أن يجعلها منهم، فأخبرها ﷺ، وخبرُه الحق بأنها من الأولين، وهذا من اعلام نبوته ﷺ، وهو إخبارُه بالشيء قبل كونه، وصحَّ البُرهان على رسالته بذلك، وكانت من الغزاة إلى قبرس، وخرَّت عن بغلتها، هناك، فتوفيت!! رحمها الله تعالى، وهي أول غزاة ركب فيها المسلمون البحر، فثبت يقينا أن الغُزاة إلى قُبرس هم الأولون الذين

9) صحيح البخاري ج : 2. ص 98 كتاب الجهاد والسير. المطبعة الخيرية بحوش عطا عام : 1304هـ.

بشّر بهـم النبي ﷺ، وكانت أم حـرام منهم، كما أخبـر صلوات الله تعـالى وسلامه عليه، ولا سبيل أن يُظَنّ به، وقد أوتي ما أوتي من البلاغة والبيان أنه يذكر طائفتين، قد سمى إحداهما أولــى، والتالية لها ثانية، فهذا من باب الإضافة وتـركيب العدد، وهذا يقتضي طبيعة صنـاعة المنطق، إذ لا تكون الأولى أُولى إلا لثانية، ولا الثانية ثـانية إلا لآولى، فلا سبيل إلى ذكر ثالث، إلا بعد ثـان ضرورة، وهو ﷺ إنمـا ذكر طـائفتين، وبشر بفئتين، وسمى إحداهما الأولين، فاقتضى ذلك بـالقضاء الصدق آخرين، والآخر من الأول، هو الثـاني الذي أخبر ﷺ أنه خيـر القرون بعد قرنـه، وأولى القرون بكل فضل، بشهـادة رسول اللـه ﷺ بأنـه خير من كـل قرنٍ بعـده... ثم رُكِبَ البحر بعـد ذلك أيام سليمان بن عبـد الملك إلى القسطنطينية، وكـان الأمير بها فـي تلك السفن هُبيرة الفـزاري، وأما صقلية، بـإنها فُتحت صـدر أيام الأغالبة عام 212هـ، أيـام قاد اليها السفنَ غـازياً أسد بن الفـرات القاضي صاحب أبي يوسف رحمه الله تعالى، وبهامات، وأما إقريطش فإنها فُتحت بعد الثـلاث والمائتين، افتتحها أبـو حفص عمر بن شعيب المعـروف بابن الغليظ، من أهل قريـة بطروج من عمل فحْص البلُّوط المجاور لقـرطبة من بلاد الأندلس...(10)

ونقل الحافظ عن موطأ ابن وهب عن ابن لهيعة أن معاوية أولُ من ركب البحر للغزاة...(11) وكان عمـر بن الخطاب لا يـأذن لأحد في ركـوب البحر غازيـاً كراهيـة للتغرير بجنـده، فلما فتح اللـه الشام، ألح معـاوية بن أبي سفيان، وهو يومئذ، على جند دمشق والأردن عمر في ركوب البحر... ففي جامع العُتْبِيَّة، قـال مالك: استأذن معاوية بن أبي سفيـان عمر بن الخطاب في ركوب البحـر، فأبى أن يأذن له، فلمـا ولي عثمان، كتب إليـه يستأذنه، فأبى، ثم ردّ عليه، فكتب إليه عثمان، إن كنـت تركب بأهلك وولدك، فاركب،

---

10) نفح الطيب ج : 3 – ص : 161 – 162.

11) التراتيب الإدارية.

فقد أذنت لك، فركب معاوية، ومعه امراته بنت قريظة... ومعلوم أنه لم يكن البحر يركب للغـزو في حياة رسول الله ﷺ، وخلافة أبي بكـر وعمر، كما في الخطط للمقـريزي، وأول من ركب البحـر للغزو العلاء بن الحضـرمي، وكـان على البحرين من قبل أبي بكـر وعمر، فأحب أن يـؤثر في الأعـاجم أثراً، يعز الله به الإسلام على يديه، فندب أهل البحرين إلى فارس، فبادروا إلى ذلك، وفـرَّقهم أجنـادا على أحـدهم الجـارود بن المعلى، وعلى الثـاني سوار بن همام، وعلى الثالث خُليد بـن المنذر بن ساوى، وجعل على عامة الناس خليدا، فحملهم في البحر إلى فارس بغير إذن عمر رضي الله عنه...

يقول ابن نوفل الطرابلسي في كتابه :(12) لما كان عهد معاوية بن أبي سفيان، أذن للمسلمين في ركوب البحر، والجهـاد على أعدائه، فاستخدموا، حينئذ، من النُّـوتية في حاجاتهم البحـرية أَمَماً تكررت ممـارستهم للبحر، وأنشأوا السفن والشـواني،(13) إلى أن بلغت في أيـامـه أَلفـا وسبعمـائة مشحونة بالرجال والسلاح... وفي «تسريح الأبصار، فيما يحتوي لبنان من الآثار» للقس «لا مانس» اليسوعي(14) ذكر تاوفان المؤرخ في تاريخ 1640، للعالم، أن معاويـة أول خلفاء بني أمية، ابتنى 1700 سفينة شراعية، واتخذ أعوادهـا من جبل لبنان، ولم تمر سنـوات قليلة بعد ذلك حتى جهـز أيضا أسطولا ثانيا أكثر عدداً، وأشد هولا من الأول.

* * *

12) «صناجة الطرب، في تقدمات العرب» ص : 327.

13) ج : شونة، وهي مركب البحـر المعد للجهاد، وجمعها : الشواني وتعرف بالأغـربة تطلى بالقار مع قلوع بيضـاء وهو مـركب طويل لـه مائة وأربعـون مجذافـاً، مزود بأبـراج وقلاع للـدفاع والهجوم، وقـد وصفها ابن حمديس الصقلي مخـاطبا الحسن بن علي من أمـراء بني زيري في المغرب الأدنى:

أنشأت شـواني طـائرةً
وبنيتَ على مـاء مُدُنـا
ببـروج قتال تحسبهـا
في شم شواهقهـا قننا

14) لا منس الأب هزى – اليسوعي 1937 – 1862) LAMMENS مستشرق بلجيكي : اشتهر بأبحاثه عن عرب الجاهليـة والعهد الأموي، من مؤلفاته العـديدة: «الإسلام» و«الجزيرة العربيـة الغربية قبل الهجرة»، و«خلافة يزيد الأول»، ص : 138.

ولما استقر الملك للعرب، وشمخ سلطانُهم، وصارت أمم العجم خولا لهم، وتحت أيديهم، وتقرب كل ذي صنعة إليهم بمبلغ صناعته، واستخدموا من النواتية(15) في حاجاتهم البحرية أمما، وتكررت ممارستهم للبحر وثقافته، استحدثوا بُصَراء بها، فَشَرِهوا(16) إلى الجهاد فيه، وأنشأوا السفن فيه والشواني، وشحنوا الأساطيل بالرجال والسلاح، وأمطوها العساكر والمقاتلة لمن وراء البحر من أمم الكفر، واختصوا بذلك من ممالكهم وثغورهم ما كان أقرب لهذا البحر، وعلى حافته مثل الشام وافريقية، والمغرب والأندلس.(17)

وأوعز الخليفة عبد الملك إلى حسان بن النعمان عامل افريقية باتخاذ دار الصناعة بتونس لإنشاء الآلات البحرية حرصا على مراسم الجهاد...(18)

* * *

وأحكم العرب خلال فتوحاتهم في المدن الساحلية سيطرتهم البحرية في حوض البحر المتوسط وأدت فتوحات هذه الجزر إلى تأسيس دور لصناعة السفن في الخالصة، وبالرم، ومسينا، ومشنت ماركو وفي قوصرة ومالطة، وإقامة قواعد بحرية في تلك الجزر، وذلك لشن غاراتهم المتواصلة على سواحل إيطاليا الجنوبية والغربية والشمالية الغربية والشمالية الشرقية وعلى سواحل فرنسا الجنوبية...(19) وفي هذا الصدد يقول ابن خلدون في مقدمته: «والمسلمون خلال ذلك كله، قد تغلبوا على كثير من لجة هذا البحر، وسارت أساطيلهم فيهم جائية وذاهبة. والعساكر الإسلامية تجيز البحر في الأساطيل من صقلية إلى البر الكبير المقابل لها من العدوة

15) النواتي : هم الملاحون في البحر، الواحد : نوتي.

16) شَرِّه، كفرح : غلبه حِرصُه، فهو شره، وشرهان.

17) مقدمة، ج : 2 / 628.

18) مقدمة ج : 2 – ص 628.

19) انظر «غزوات العرب في البحر الأبيض المتوسط...» للأمير شكيب أرسلان.

الشمالية، فتوقع بملوك الإفرنج وتثخن في ممالكهم، كما وقع في أيام بني الحسين ملوك صقلية القائمين فيها بدعوة العبيديين، وانحازت أمم النصرانية بأساطيلهم إلى الجانب الشمالي الشرقي منه من سواحل الإفرنجة والصقالبة وجزائر الرومانية لا يعدونها، وأساطيل المسلمين قد ضَرِيَت عليهم ضِراءَ الأسد على فريسته، وقد ملأت الأثر من بسيط هذا البحر عُدَّةً وعَدَداً، واختلفت في طرقه سلما وحرباً، **فلم تسبح للنصرانية فيه ألواح...**(20)

* * *

ولقد قام الأمير الأموي عبد الرحمن الأوسط ببناء **دار الصناعة** في اشبيلية عام 230هـ وقد عرف عن موسى بن نصير أنه اهتم كثيرا بإنشاء عدد كبير من السفن في دار الصناعة(21) في تونس، نقل بواسطتها الجند الذين عبروا إلى سواحل الأندلس، وعلى الرغم من أن ولاة بني أمية في الأندلس لم يهتموا بالأساطيل، فإن شهرة الأندلسيين في صناعة السفن، وخبرتهم بركوب البحر، وخوض غماره أدت إلى تكوين جماعات بحرية تقيم في السواحل الشرقية في الأندلس، تمارس الغزو البحري بمفردها في جنوب فرنسا، وجزر البحر المتوسط الغربي، أو تمتهن التجارة ما بين المغرب والأندلس... وقد ذكر ابن القوطية القرطبي أن أبا فريعة الذي عبر البحر مع بدر مولى عبد الرحمن الداخل، وتمام بن علقمة لنقل الأمير الأموي عبد الرحمن إلى الأندلس كان له بصر في ركوب البحر لتصرفه فيه، وكان لبعض الأفراد مراكب تجارية أو قوارب من بينها المركب الذي حمل عبد الرحمن إلى الأندلس، والمركبان اللذان أرسلهما زياد بن عمرو

20) مقدمة ج : 2 / ص : 630.

21) «الأساطيل العربية في البحر الأبيض المتوسط»، للدكتور إبراهيم أحمد العدوي، «وتاريخ الأسطول العربي» لمحمد ياسين الحموي... «وسُفن الأسطول الإسلامي وأنواعها ومعداتها في الإسلام» لعبد الفتاح عبادة.

واللخمي مشحونين بالميرة إلى جند بلج بن بشر القشيري وأصحابه الشاميين المحصورين في سبتة...(22)

لقد كانت القوة البحرية العربية الإسلامية في النصف الغربي من حوض البحر الأبيض المتوسط تشكل مركزاً أساسيا من مراكز الحضارة الإسلامية في القرنين الثالث والرابع للهجرة، وكان لاتصال المغرب الإسلامي بحراً، بثغور البحر المتوسط الشرقية عن طريق التبادل التجاري والعلمي له أكبر الأثر في توثيق الصِّلات الحضارية بين سائر أنحاء العالم الإسلامي وتداخل التقاليد الشرقية والغربية في حضارة الإسلام في العصور الوسطى.

* * *

وقد كان لبناء السفن في مصر، وفي فجر الإسلام، شأن عظيم، وقد أظهرت أوراق البردي التي كشفت في كوم اشقاو - والتي ترجع إلى العصر الأموي أن صناعة السفن كانت زاهرة بوادي النيل في جزيرة الروضة، وفي القلزم (السويس الحالية) وفي الاسكندرية، ولم يقتصر نشاط المصريين على إعداد السفن والأسطول المصري، بل كان والي مصر يرسل بعض الملاحين المصريين للعمل في أسطول المغرب، أو أسطول المشرق، والمساهمة في المشروعات البحرية العامة للدولة الإسلامية...(23)

وقد ظلت صناعة السفن الحربية زاهرة في مصر في العهد العباسي أيضا، فيذكر المقريزي(24) أنه بعد أن نزل الروم دمياط في عام 238هـ (852م) في خلافة المتوكل العباسي، وفي ولاية عنبسة بن إسحاق على

---

22) «تاريخ البحرية الإسلامية في المغرب والأندلس» تأليف الدكتور أحمد مختار العبادي والدكتور عبد العزيز سالم - 1969.

23) «مصر في فجر الإسلام» سيدة كاشف ص : 91 - 92.

24) الخطط ج : 2 - ص : 191.

مصر وقع الاهتمام من ذلك الوقت بأمر الأسطول، وأنشئت الشواني برسم الأسطول، وجعلت الأرزاق لغزاة البحر كما هي لغزاة البر، وانتدب الأمراء له الرماة، فاجتهد الناس بمصر في تعليم أولادهم الرماية، وجميع أنواع المحاربة، وانتخب له القواد العارفون بمحاربة العدو، وكان لا ينزل في رجال الأسطول غشيم ولا جاهل بأمور الحرب، هذا، وللناس إذ ذاك رغبة في جهاد أعداء الله، وإقامة دينه، لا جرم أنه كان لخدام الأسطول حرمة ومكانة، ولكل واحد من الناس رغبة في أنه يعد من جلستهم، فيسعى بالوَسَائل حتى يستقر فيه، وكان من غزو الأسطول بلاد العدو ما قد شحنت به كتب التواريخ، فكانت الحرب بين المسلمين والروم سجالا، يَنَالُ المسلمون من العدو، وينال العدو منهم، ويأسر بعضهم بعضا لكثرة هجوم أساطيل الإسلام، بلاد العدو، فإنها كانت تسير من مصر والشام ومن إفريقية!

* * *

في المملكة العربية السعودية، توجد كلية «علوم البحار» في جامعة الملك عبد العزيز في جدة، يقول عميدُها، د. عثمان عبده هاشم : الكلية تهدف إلى تأهيل الخريجين في مجالات علوم البحار المختلفة والاستزراع المائي وأمراض الأحياء المائية والمساحة والملاحة البحرية والقيام بالبحوث الأساسية والتطبيقية الهادفة لتنمية الثروات الطبيعية البحرية واستشعارها وخاصة الثروات المعدنية في مكامنها البحرية، ودراسة البيئة البحرية ومشاكلها واقتراح الحلول المناسبة لها، وفتح مجالات تدريبية وإعداد المستويات العلمية والفنية المختلفة اللازمة للمساهمة في برامج التنمية والبرامج البحثية والتقنية والتطبيقية في مجالات علوم البحار المختلفة، والتعاون مع المؤسسات العلمية والهيئات الوطنية والعربية والدولية وعقد المؤتمرات والندوات العلمية على المستويات الوطنية والإقليمية والدولية.

الفصل الثالث :

حديث البحر في الأدب العربي

تَـقَـدُّمُ العرب في علوم البحر...

إن المرحـوم الدكتور مصطفى جواد العـلامة الكبير في اللغة العـربية، كان في حقله اللغوي: «**قُلْ، وَلاَ تَقُلْ**»، ينتقد سائر الاستعمالات الحديثة في اللغة العـربية... ومن اعتراضاتـه الطريفة، رفضُه لِلقـول السائر: «وصلت السفينة شاطىء السلامة»، كإشـارة مُجَازَفة لزوال المشكلة، كأن يقول: إن هذا استعمـال غير عـربي، فالعـرب كانـوا لا يركبـون البحر، ولكن كـانوا يركبـون الجمل! ولحسن الحظ لم تستجب البشرية لآراء العـلامة مصطفى جواد وأمثاله، وفرضت سنة التطور نَفسها على اللغة... آراء مصطفى جواد تبعد عن الواقع بُعد الأرض عن السماء...

* * *

ومعلوم، أن بجزيرة العرب سواحل طـويلة تحيط بها من جميع جهاتها الثلاثة، فالمياه تحيط شبه الجزيرة العربية، فمن الجنوب مياه بحر العرب، ومن الغرب البحر الأحمر، ومن الشرق، الخليـج العربي، وكان لهذا الموقع إلى جـانب تلك الصحراء القـاحلة أثـر كبير في تعـامل العرب مع الميـاه، وركوبهم البحر منذ الأزمنة القديمـة، حيث برعوا في الملاحة،(1) وفي بناء السفن، رغم ندرة الأخشاب ببلادهم.

ولا يعقل، ألا يكـون لسكان سواحـل جزيـرة العرب، علم بـالبحر، وألا تكـون لهم سفن، مهما كـان حجمهـا، كانـوا يـركبونهـا في اتجـارهم مع

1) انظر : «الملاحة وعلوم البحار» للدكتور أنور عبد العليم.

السواحل الأخرى، فإن من العرب من كان يسكن جزيرتهم سواحل بحر القُلزُم، ومن جهة الشرق بحر فارس الخارج من بحر الهند إلى جهة الشمال إلى بلاد البحرين، وهنالك بلاد كثيرة من اليمن والحجاز وعمان والبحرين، وغير ذلك مما يطول ذكره، وكان سكنة هذه الأمصار والبلاد كلهم من العرب، ولهم متاجر في الهند والحبشة والروم وغيرهم، فكانوا ممن تمس حوائجهم إلى ركوب البحر، ومعاناة سيره، والقيام بما يعين على ذلك وهو علم المِلاحة...

وإننا لا نعرف إلا القليل من ذلك الجانب المضيء المشرق من حيوية العرب على عهودهم الزُّهر، في شرق افريقيا... لهم في إفريقيا تاريخ يمتد لِصِبَا الزمان أول الدهر، أشار إليه الرحالة الإغريقي مؤلف كتاب: «الكشاف البحري» Periplus، في القرن الأول الميلادي، حيث كتب يعجب لكثرة السفن العربية على الساحل الشرقي للقارة، ويُشِيد بقدرة العرب على العيش الجميع، مع الأهلين حتى في ذلك الزمان البعيد...(1م)

على أنه بظهور الإسلام، حدث تحول واضح في الجزء الأوسط من البحر الأحمر، إذ غدت تلك المنطقة معبرا قويا للأراضي المقدسة لأداء فريضة الحج، مما أدى إلى ازدياد النشاط التجاري في هذه المنطقة...

* * *

وقد عرف أهل السواحل البحر وعركوه، وعملوا على استغلال ثرواته، قدر طاقتهم، وتعاملوا مع أهل السفن الذين كانوا يقصدونها في مسافات بعيدة، وركب جمع منها السفن للاتجار مع السواحل المقابلة لهم، فباعوا في أسواقها، واشتروا، وقد أظهر أهل السواحل نشاطاً في ركوب البحر... فكان طبيعيا أن يعرفوا البحر وجماله وجلاله، وسفنه وشراعه، كما أقام عرب من صيادي الحيتان، في منتصف الساحل العربي المطل على البحر

1) مكرر : «افريقيا، تحت أضواء جديدة» لِبَاذل دافدسن ص : 11.

الأحمر، النـواة الأولى لمدينة «جدة» السـاحلية، بل، واستقر قُضَـاعة الابن الثاني لِمَعَدٍّ بن عدنان، في «جدة»، وسميت باسم أحد أبنائهم، وهو «جدة» بن جرم بن ريان، وكان هذا قبل الإسلام بنحو خمسة قرون...

* * *

ولقد كان أهل الجاهلية يكرهـون ركوب البحر، ويتهيبون منه، وأنهم لم يكونوا يملكون سفنا لعبوره، حتى إن المهاجرين الأولين من المسلمين، لما هـربوا من مكـة إلى الحبشـة، ركبوا سفنـا بـدائية حبشيـة، أوصلتهم إلى الحبشة... وأن الخليفـة عمر بـن الخطاب كان يتهيـب ركوب البحـر، وكان يـوصي قـواده بتجنيب جيوشهم مخـاطـره، والابتعـاد عنه قـدر الامكـان، وبضرورة وضع أرض آمنة، وراء الجيش ليكون في وسعهم الرجوع إليها عند المهالك والمآزق...(2) وأنـه لما ملك المسلمـون مصر، كتب عمـرو بن العاص، يسأله عن البحر، فقال: «إن البحر خلق عظيم، يركبه خلق ضعيف، دُودٌ على عود... كتب إليه عمر أن لا يركبه أحد طول حياته، ولم يركبه أحد من العرب إلا من افتـات على عمر في ركـوبه، ونـال من عقابـه، كما فعل بعرفجـة بن هرثمة الأزدي سيـد بجيلة لمـا أغزاه عثمان، فبلغـه غزوه في البحر، فأنكر عليه، وعنَّفه أنـه ركب البحر للغزو، ولعل السبب في ذلك كما يقول ابن خلدون. إن العرب لبداوتهم لم يكـونوا أولَ الأمر مَهَرَة في ثقافته وركوبـه، والروم والافرنجة لممـارستهم أحواله، وَمَـرْبَاهُم في التقلب على أعواده، مرنوا عليه، وأحكموا الدراية بثقافته»...(3)

ولم تكن الصحراء الشـاسعة، ذات الرمـال الوعساء، هي عـالم العربي الوحيد، لم يتعدوه إلى عالم البحر. مكتفين بركوب الخيل والبغال والحمير، بل عرف عَرَبُ الخليج البحر، وخاضـوا ثبجه، وهو يُعبُّ عُبابه، وتصطخب

2) إرشاد الساري ج : 4 / ص : 14.

3) مقدمة، ج : 2 / ص 628.

أمواجُـه، وأقامـوا عليه المراكـز التجاريـة الثابتـة، وعبرت سفنهم المحيط الهندي، ونقلـوا تجارة الهند، وصنعـوا سفنهم من أخشابها... وقـد ضرب لبيد بن ربيعـة العامري، مثلا بسفينـة الهندي في طولها وعـرضها، وفي إحكام عملها، عملها صاحبُها وصانعها من صفائح مشبوحة، ودهنها، وسد المسافات التي تكون بين صفائح الخشـب، حتى لا ينفذ منها ماء البحر،(4) مما يدل بالطبع على وقوفه عليها، وعلى شهرة تلك السفن في تلك الأيام... وكانت بالأُبُلّـة التي عاشت قبل البصرة جاليات جاءت إليهـا من الهند، فقد كان الاتجـار بين الهنـد وجنوبي العـراق، وسواحل جـزيرة العـرب اتجاراً قديما...(5)

* * *

ويكفي نظـرة إلـى المعجم اللغـوي العـربـي القـديم،(6) لنجـده عامـراً بالمفردات ذات الوضـع البحري، والدلالات القاطعـة التي تشهد للعربي بأنه خـاض ميـاه البحـر، فإنّ وَضْـع اللفظ على الشيء دليل على وجـوده، ولا يكون التمدن اللغوي، إلا بعد تمدن اجتماعي، راقٍ في حقيقته، وإن لم يرقَ في شكله، عامٌ في أثره، وإن لم يعُمَّ في أهله... فإن اللغة مظهر من مظاهر الحياة العقليـة والعلمية لكل أمة، وهي لم تخلـق دفعة واحدة، ولم يأخـذها الخلف عن السلف كاملـة، وإنما خلقت بـالتدريج، وعلى قدر الحـاجة، فإذا ظهرت أشياء جـديدة، خلق المتكلمون بها لهـا ألفاظاً جديـدة، وإذا اندثرت أشيـاء، فقد تنـدثر ألفـاظها... واللغـة مثل الناطقين بهـا في حياة ومـوت مستمرين، وإذا حصرنا الألفاظ التي أطلقها الجاهليون على البحر(7) وعلى

---

4) شرح ديوان لبيد ص : 142.

5) «المفصل في تـاريخ العرب قبل الإسـلام» ص : 256 / 7. تجارة العراق البحريـة مع أندونسيا حتى أواخر القرن السابع الهجري، لعادل محي الدين الألوسي.

6) «السُفُن الإسلامية، عَلى حُرُوف المعجم»، للدكتور درويش النخيلي.

7) «معجم المراكب والسفن في الإسلام» لحبيب زيات [مجلة الشرق، س: 43 – كانون 1949.

وسائل ركوبه، وعلى ما فيه، نستطيع، إذن، أن نعرف ماذا كانوا يعرفونه عنه، وماذا كانوا يجهلون من أمره...(8)

* * *

والمقام، هنا، لا يتسع لذكر الألفاظ والمصطلحات التي لها علاقة بالبحر، فهناك أسماء لمختلف أنواع السفن، وأسماء أدوات كثيرة استعملت في السفن، وأسماء للساحل وللجزر، وللنباتات البحرية وغير ذلك وردت في كتب اللغة، وإليها يجب أن يرجع من يريد المزيد من هذه الألفاظ والمصطلحات...

* * *

فكلمة، البحر، في رأي علماء اللغة العربية، الماء الكثير ملحاً كان أو عذبا، وقد وردت لفظة اليم في القرآن الكريم، ويراد بها البحر، وهناك ألفاظ أخرى، مرادفة للبحر، أيضا، منها: الخضم، والعيلم، والقلمس، والدأماء، والكافر، والحنبل، والقاموس، وكذلك استعملوا لركوب البحر: السفينة، والفلك، والزورق، والقارب، والخلية، والمركب، والجارية، والجواري، والجاريات، واستعملوا الساحل، والشاطىء والسِّيف، والعدّان، والفرضة، والجؤجؤ، والملاّح أو السفّان، كذلك، والنوتي،(10) والسكان، والمجداف، والصاري، والدَّقَل، والدردور، والخليج، والمرفأ، وهو الموضع الذي ترَفأ إليه السفن من أصل رَفَأً، بمعنى أدنى، وورد في حديث تميم الداري، أنهم ركبوا ثم أرفأوا إلى جزيرة «وفي حديث أبي هريرة في القيامة، فتكون الأرض كالسفينة المرفأة في البحر تضربها الأمواج».(11)

8) د. جواد على ج : 7 / ص 245. المفصل...
9) تاج العروس ج : 3 / 27. بحر، المفصل : ج 7 / ص 243.
10) لسان العرب، ج : 2 / ص : 600، والجمع نوتية، ونواتي.
11) تاج العروس، ج : 1 / ص : 211.

وكذلك تسمى لجة البحر، بالشـرم، وقد ذكر أمية بن أبي الصلت «الشروم في وصفه جهنم فقال:

فَتَسْمُــو لا يغيِّــرهــا ضِـــرَاءٌ

ولا تخبــو، فتبـردهــا الشَّـــروم

* * *

بل إن بعض الألفاظ الهنديـة، أخذ طريقه إلى اللغة العـربية على لسان الملاحيـن العرب فيما يتعلـق بمهمتهم وصناعتهم، فكلمـة البارجـة أصلها بـالهنديـة، وفي لسـان العرب، البـارج: المـلاح الفاره، ويقـول الأصمعي: البوارج: السفن الكبار، واحدتها بارجة، وهي من مراكب الهند عرّبها العرب عن لفظ «بيرة»،(12) كما دخلت بعض المصطلحـات البحرية الفـارسية إلى اللغة العربية...(13)

والقـرآن الكـريم ذكـر ألـواح الخشب التي تستعمـل في صنع السفن، «والـدُّسُر»، وهي المسـامير، والسفـن في ذلك العهد من صنع النجـارين، وآلات النجارة المذكورة في التوراة، وفي الأناجيل، معروفة ومستعملة عند الجاهليين... في القرآن: «ذات ألواح وُدُسُر».

* * *

فالسَّفينة، وهي واسطة النقل على وجه الماء في الأنهار والبحار، والتي أشار إليها شعر عمرو بن كلثوم :

مــلأنـــا «البحـر»، حتى ضـــاق عنـــا

و«مـوج» البحــر نمـلأه «سفينـــا»(14)

---

12) لسان العرب ج 1 / ص 244.

13) «انظر» : « العرب والملاحة» د. أنور عبد العليم.

14) لسان العرب مادة «سفن» ص 209 / 13.

ويعـرف سُكَّان السفينـة بـ«الخيزرانة» وبـ«الخيزران»، قال النـابغـة يصف الفُرات وقت مده :

يظلّ من خـوفـه المـلاّحُ معتصمـاً

بـالخيـزرانـة بعـد الأَيْنِ والنجَـدِ(15)

والخَلية، وهي العظيمة مـن السفن، والجمع خَلايا، قال فيهـا طرفة ابن العبد الـذي يلقب بشاعـر البحر، لأن شعره عني بلـوحات البحـر، وصوره أكثر من أي شاعر سواه:(16)

كأن حـدوج المـالكيـة غـدوة

خَـلاَيَـا سَفِينِ بـالنـواصف مِن دَدِ

* * *

وقال أيضاً :

وأتْلَعَ نَهّـاضٌ، إذا صَعِـدَت بـه

كَسُكّـانِ بُـوصِيٍّ بـدجلـةَ مُصْعِدِ(17)

* * *

وأواخر القرن السابع عشر يشرح لنا السيد مرتضى(18) الهندي الأصل والمولـد في «تاج العـروس» كلمات بحريـة في معجمه اللغـوي، ولا سيما

---

15) اللسان ج : 4. ص 238. والملاحُ : سُمِّي بذلك لملازمته، الماءَ المالح.

16) طرفة ولد بالبحرين عام 564 م، فتفتحت عيناه على عالم البحر والسفن.

17) الأتلع : المشرف، وأراد عنقها الطويل. والسكان : ذنب السفينة الذي تقوم وتسكن به. البُوصِي: السفينة، فارسي معرب.

18) الشيخ مرتضى البلكرامي نجل السيد محمد بن سيد قادري، ولد في «بلكرام»، حوالي قنوج بالهند عام 1145هـ، وقد أعرب السيد مرتضى بخطه عن أصله من «بلكرام» في آخر إجازته لعمر بن حمودة الصفار التونسي، كما ورد مصرحا في ترجمته بآخر المجلد العاشر «لتاج العروس» خلافاً لما ذهب إليه السيد الكتاني، والمحقق الضليع الأستاذ عبد الستار أحمد فراج في تقديم كتاب: «تاج العروس»... وقضى باليمن نحو سنتين، أو تزيد، حيث أقام في زبيد اليمن. ويسند الحديث على الشيخ عبد الخالق الزبيدي... وتلمَّذ في الهند على الشيخ الشاه ولي الله الدهلوي، وتوفي بالقاهرة عام 1205، بعدما جاور عدة مرات الحرمين الشريفين، كان يصف نفسه «بالحنفي مذهبا. القادري إرادة، النقشبندي سلوكا، الأشعري عقيدة [انظر: مجلة «الرائد»، العددان: 18 – 19، السنة: 26، 14 – 20 شوال عام 1415هـ – 16 مارس – أبريل عام 1995].

كلمة «الرهمانج»، وهو الذي يرجع أصله، كما نعلم جيداً، إلى «الهند وعاش نحو العامين في زبيد باليمن وعرف عنه ميل شديد إلى البحر، وقد جاء، مثلا، في «تاج العروس» في شرح القاموس (ص: 51 ج 2) مانصه: «الرَّاهنامج» بسكون الهاء، وفتح الميم، فارسية، استعملها العرب، وأصلها: «راه نامه»، ومعناها: كتاب الطريق، لأن «راه» هو الطريق، ونامه «الكتاب»، وهو الكتاب الذي يسلك به الربابنة، ويهتدون به في معرفة المراسي، وغيرها كالشعب ونحو ذلك، بل إن القاموس يورد هذا اللفظ، فقد جاء فيه: الراهنامج، كتاب الطريق، وهو الكتاب الذي يسلك به الربابنة البحر، ويهتدون به في معرفة المراسي وغيرها...

* * *

ويقص علينا المقدسي بحيوية فائقة عن ملاحظاته على سواحل جزيرة العرب من القُلزم إلى عبّادان، وعن آثارٍ مدونة كان يستعملها الملاحون، وعن محادثة له مع شيخ عارف بصورة البحر، فهو يقول: «... ورأيت معهم دفاتر في ذلك يتدارسونها، ويعولون عليها، ويعملون بما فيها، فعلَّقْتُ من ذلك صدراً صالحاً بعدما ميزت وتدبرت، ثم قابلتُ بالصور التي ذكرت، وبينما أنا يوما جالس مع أبي علي بن حازم انظر في البحر، ونحن بساحل عدن، إذ قال لي: «مالي أراك متفكرا؟ قلت: «أيَّدَ الله الشيخ، قد حار عقلي في هذا البحر لكثرة الاختلاف فيه، والشيخ اليوم من أعلم النَّاس به، لأنه إمام التجار...

* * *

وتتناثر صور البحر والزبد، والأنهار والسفن في بعض أبيات المعلقات وهي تموج بالحركة والحيوية وبراعة الوصف، وذلك مثل ما أنشده عمرو ابن كلثوم حيث يقول:

مـــلأنـــــا البحـــر حتى ضـــــاق عنـــا

وظهــــر البحـــــــر نمــــلأه سفينـــــا

ومثل البيت المشهور من معلقة أمير الشعراء امرئ القيس :

وليلٍ كمـــوج البحـــرِ أَرْخَى سُـــدُولـــه

عَلَـيَّ بأنـــــــواع الهمـــــــوم ليبتلـي

وهذا النابغة الذبياني يصف الفُرات :

فمـــا الفُـــراتُ – إذا هبَّ الـريـــاحُ لـــه

تـرمي أواذِيُّـــه العِبـرين بِـالــزَّبَـد(19)

يمـــــــــده كلُّ وادٍ مُتْـــــــرع لَجِـبٍ

فيـه رُكـــامٌ من اليَنْبُــوت والخَضَـد(20)

يظلُّ من خـــوفـــه المـــلاَّح مُعتصِمـــاً

بـالخيـــزرانـة، بعـد الأَيْـنِ، والنَّجَـد(21)

ويقول أيضا في وصف البحر :

يمـــــاشيهِـنَّ أَخْضَـــــرُ ذو ظـــــلالٍ

على حـــافـــاتـــــه فِلَقُ الــــدِّنـــان

وقال كعب :

فجئنـا إلـى مـوج من البحـــر، وسطـه

أحــابيـش منهم حــاســــر ومقنع(22)

---

19) إذا هب الرياح له، في رواية : إذا جاشت غواربُه، الأواذي، ج : آذي : الموج، العِبران: الضفتان.

20) يمده : يزيد فيه بإخصاب مائه، الركام، الحطام المتكلف المجتمع بعضه فوق بعض. الينبوت: شجر الخشخاش. الخَضَد: الشجر المنكسر.

21) خوفه : الهاء راجعة للفرات، الخيزرانة : السكّان، دفة السفينة، الأَيْنُ: التعب والعياء. النجَد: الكرب والشدة.

22) القرطبي : تفسير ج : 14 / ص 80.

وهذا الشاعر الأعشى الأكبر، يقول :

ومـــا مـــــزبـــــد، من خليـــج الفـــــرا
ت، جَــــوْنٌ غـــــواربُــــــه تلتطم(23)
يَكُـبُّ الخليـــــــــــةَ ذاتَ القِـــــــــــلا
ع، قـــد كـــاد جـؤجـــؤهـــا ينحطم(24)
تَكَـــأْكَـــأَ مـــلاحُـهـــا وسْطَهـــا
من الخـــــوف، كـــوثلهـــا يلتـــزم(25)

ويقول طرفة، شاعر البحر، في تصوير موكب رحيل الحبيبة، وتشبيهه بصور واقعية منقولة من عالم البحر :

كأن حُـــــدوج المـــــالكيــــة، غـــدوةً
خـلا يـا سفين بـالنـواصف مِنْ دَدِ(26)
عَـــدَوْلِيَّـــــة، أو من سَفِين ابنِ يـــــامنٍ
يجـور بهـا الملاح، طـورا، ويهتـدي(27)

---

23) الجون : الأسود. الغوارب. ج : غارب كل شيء : أعلاه.

24) الخلية : السفينة الكبيرة. القلاع : الشراع، الجؤجؤ : الصدر.

25) تكأكأ، تمايل. الكوثل : مؤخر السفينة أو سكانها.

26) الحدوج : ج : الحـدج : مركب النساء على الجمل. المالكيـة : نسبة إلى قومهـا بني مالك، وهي خولة الكلبية، فالمالكية تنصرف إلى الحبيبة، وإلى القبيلة معا في هذه الأبيات، خلايا: ج: خلية: السفينة العظيمـة. سفين: ج سفينة. النـواصف ج: الناصفـة أماكن تتسـع من الأوية كـالطرق، مجاربي الماء إلى الأودية. دَدِ: واد في الطريق من البصـرة إلى البحرين ترسو فيه السفن، وإن كان النواصف اسم مكان في عمان.

27) عَدولية : نسبة إلى عَدَوْلى : مـرفأ بالبحرين اشتهـر ببناء السفن ابن يامن: مـلاح مشهور من هجر، ورد اسمه أكثر من مرة في الشعر بذكره الأعشى أيضا:

فلما استقلت قلت نخل ابن يَامِنٍ   أهُنَّ أم اللاتي تربت يترب

وهو يقصد بنخل ابن يـامِن : سفين ابن يامن، وشبه سفنه بالنخل في علُوِّهـا، وتربّت: تَرَبَّى، يترب : يغتني: ويفتقر، وهو من الأضداد.

يشق حبـــاب المـــاء، حيـــزومُهـا بهـــا
كمـا قسم التـربَ، المفـــايلُ بـاليـد(28)

ففي هـذه الأبيات الثـلاثة تشبيه جميـل مركب، شبـه فيه الشـاعر أولا مراكب صاحبته وصواحبها بالسفن العظـام، يديرها الملاح، طورا في سواء السبيل، وتارة خارجاً، فتشق صدورها معظم الماء... ثم علّق بهذه الصورة الأخيـرة، فشبّه شق السفـن للماء، بقسم الـلاعب بـالفئـال ترابـه قسمين متوازيين...

* * *

وقد اشتهر سكان مدينة الشَّحْر،(29) على الساحل الجنوبي لحضرموت منذ القـدم بالمهارة في الملاحـة، ولعل الممثل العربي للجغرافية المـلاحية الذي أصبح معروفا بفضل أبحـاث الكاتب المؤرخ «فيران»(30) هو سليمان المهري الذي له كتاب: «العُمدة المهرية، في ضبط العلوم البحرية»(31) الذي يرجع تاريخ تأليفه إلى عام 917 – 1511م، وجميع المصنفات الخمس التي تبقت من مؤلفـات سليمان المهـري مكتوبة نثـراً، ومحفوظـة بأجمعها في إحدى مخطـوطتي باريس المشـار إليهما رقم 2559. – والمصنف الثـاني لسليمـان المهري يحمل عنـوان: كتاب «المنهـاج الفـاخر، في علم البحـر الزاخر....».

وعندما وضع فرامورو،(32) مصوره الجغـرافي في عام 1458، ذكر أن ملاحـا عربيـا أبحر حـوالي عام 1420، من المحيط الهنـدي حـول القـارة الافريقية فظهر بالمحيط الاطلنطيقي...

---

28) حباب الماء : أمواجه معظمه فقاقيعه التي تطفـو، الحيزوم: الصدر. المفائل: الذي يلعب بالفئال، وهو ضرب من اللعب يكون بأن يجمع المفائل: الذي يلعب بالفئال، وهو ضرب من اللعب يكون بأن يجمع التراب أو الـرمل فيه شيء، كـالخاتم وغيـره، ثم يقسم الفائل التـراب بيده نصفين، ويسأل صاحبَه عن الدفين في أيهما هو، فإن أصاب ربح، وان أخطا خسِـر.
29) الشحْر : بلاد ساحلية في حضرموت.
30) فيران غبرييل : G. Ferrand مستشرق فرنسي خبير بالجغرافيا العربية، (1864 – 1935).
31) «كشف الظنون» ج : 2 – ص : 1172.
32) كوزموغرافي، وكارتو غرافي إيطالي (تـ : 1459م).

وقد أبصر فاسكو داغاما(33) في عام 1497 – 1498 سفناً عـربية إلى الشمال من موزمبيق تحمل البوصلة «بيت الإبـرة» وخارطات بحرية، وهو يؤكد ذلك بقوله: «ويحمل الربابنة بوصلات لتوجيه السفن، وآلات للرصد، وخـارطات بحـريـة»، وعلى إحـدى هذه السفن، وجـد «فـاسكـوداغامـا» مخطوطات عربية بعث بها إلى الملك «مانويل».(34)

* * *

أما مواطنه الشهير ألبوكرك(35) Albuquerques، فإنه يدين بفتـوحاته في منطقة عمـان والخليج الفارسي ليس بالقليـل إلى خارطة بحـرية من عمل ربان عربي يدعى عمر، بل ويقول في مـذكراته: «إن ملاحاً مسلما وقع في أسر البرتغاليين عند جزيرة سُقُطُره،(36) كان رباناً عظيما، ذا معرفة جيدة بهذا الساحل، وقـد أعطاه مرشدا للطرق البحرية مبينـة عليه جميع موانىء مملكة «هـرمز» وهو من وضع ربان آخـر يدعى عمر كان قـد صحبه ذلك الربان في البحر.(37)

إن «فاسكـو داغامـا» نفسه قـد وفق في الاستفادة مـن تجربـة العرب العملية.

* * *

ولعل من أعظم المـلاحين العـرب أبو العبـاس شهـاب الدين أحمـد بن مـاجـد السعدي النجـدي. فهـو بهـذا ينتمي إلى نجد، وولـد بجلفـار على الساحل العربي لخليج عمان، ويقع نشاطـه البحري، كما يستدل من تاريخ

---

33) Vasco de GAMA (1469 – 1524) برتغالي من مشاهيـر النُّوتيين، اكتشف طريق الهند عن رأس الرجاء الصالح (1498) استعان بالعرب ليهتدي طريقه في مجاهل المحيط الهندي.

34) «مانويل» الأول، الكومنيني امبراطور بيرنطة (1143 – 1180).

35) البوكرك (1453 – 1515) بحار بـرتغالي أسس المستعمرة البـرتغاليـة القديمة في الهنـد كان يستعين في أسفاره بربابنة العرب.

36) سُقطره : جزيرة في الأقيانوس الهندي، واقعة شرقي خليج عدن (SOCOTORA).

37) الأدب الجغرافي ص : 563 ج : 2.

تأليف مصنفاته - في النصف الثاني من القرن الخامس عشر... فهو ينحدر من صلب أسرة اشتغل أفرادها بقيادة السفن، فجده وأبوه كانا معلمين، أيضا، وخلفا اسمهما في عالم الملاحة وفي الأدب وفي الأسطورة كذلك...(38) ويقص المؤرخ الرحالة الشهير «برتون» أن ملاحي عدن كانوا إلى منتصف القرن التاسع عشر ينسبون اختراح البوصلة إلى ولي من أهل الشام يدعى الشيخ ماجد، ويقرأون الفاتحة على روحة قبل ركوبهم البحر...(39)

وآثار ابن ماجد كثيرة، ويبلغ عدد الموجود منها في الآونة الحاضرة الأربعين ومعظمها قد تمت صياغته شعراً وفقا للمنهج التعليمي القديم، غير أن واحداً من مصنفاته الكبرى الهامة، قد كتب بالنثر، ويحمل عنوان: «كتاب الفوائد، في أصول علم البحر والقواعد»، وفيه يفصل المؤلف الكلام على الجانبين النظري والعملي للمسائل الملاحية معتمدا من جهة على من سبقوه في هذا المضمار: ومن جهة أخرى على تجاربه الشخصية بصورة خاصة، وميدان هذا الكتاب الرئيسي هو البحر الأحمر، والخليج الفارسي، والمحيط الهندي وأرخبيل الهند الشرقية (الملايو)...(40) فرغ من تأليفه عام 795هـ 1489م، وظل يدرس هذا الكتاب في مدارس أروبة البحرية حتى أواخر القرن التاسع عشر، وترجم إلى الانجليزية، حققه إبراهيم خوري، وعزة حسن، ونشره «مجمع اللغة العربية بدمشق عام 1971»، أما بقية مصنفات ابن ماجد فمنظومة شعرا، وتحمل عادة اسم «الاراجيز» رغما من أنها لم تنظم في كل الحالات ببحر الرجز، وإحدى هذه الأراجيز قد تم

---

38) المصدر السابق ص : 573 ج : 2. انظر : «ابن ماجد، أسد البحر الهائج»، قدري حافظ طوقان «الرسالة» للزيات، ع: 93 - 15 / 4 / 1935، وانظر: مجلة المجمع العلمي العراقي» ج: 1 / 282. 284.

39) المصدر السابق ص : وانظر : «الملاح العربي أحمد بن ماجد»، لمحمد بن ياسين الحموي.

40) كراتشكوفسكي، الأدب الجغرافي ج : 2. ص : 574.

تأليفها، قبل: «كتـاب الفوائد»، تلك هي أرجـوزته الكبرى الـواقعة في «ألف بيت» بـالتقريب والتـي تحمل عنوان: «حـاويـة الاختصار، في أصـول علم البحار»، التي فـرغ منها بمسقط رأسه جلفـار عام 866هـ – 1462م، وهي تقع في أحد عشر فصلا.

وتعد هـذه الأرجوزه من أفضل أرجوزاتـه، وهي حاوية لكل مـا يحتاج إليـه الملاح، ومـا يجب أن يعرفـه، وهي من 1082 بيت، ونسخة الحـاوية الخطية في مكتبة باريس الوطنية ضمن مجموعة برقم 5 – 2559 كما ذكر بروكلمان...].

وهـذان المصنفان، أهـم مادونـه يـراع ابن مـاجد من بيـن مصنفاتـه الموجودة، اليوم، سواء من حيث الحجم أو المضمون.(41)

وقـد أشـار ابن مـاجد إلى ثـلاثـة مـؤلفين في العصـر العبـاسي من السـابقين له في هـذا المضمار، وهم محمـد بن شاذان، وسهل بن أبـان، والليث بن كهلان...(42)

وفي مكتبة ملحقـة شعوب آسيا(43) «بسان بيترسبورك»(44) بقايا من مصنفات ابن ماجد، وهي ثلاثة أراجيز.

الأرجـوزة المسماة بـالمُعَلَّقِيَـة – من بَـرِّ الهند، إلى بَـرّ سيـلان، وهي وصف للملاحة في سواحل الهند وأندونسيا وجنوب الصين.(45)

---

41) المصدر السابق ج : 2 ص 576. ومخطوطات ابن ماجد ومصنفاته على جانب كبير من الجودة، فالمخطوطة الرئيسية بباريس تمثل نسخة مأخوذة من الأصل، وترجع إلى عام: 984 – 1576، أما مخطوطه دمشق، فقـد نسخت بمكة عام 1001هـ 1592م كما وأن نسخ المصنفـات الثلاث الموجودة بمعهد الدراسات الشرقية ترجع إلى منتصف القرن السادس عشر.

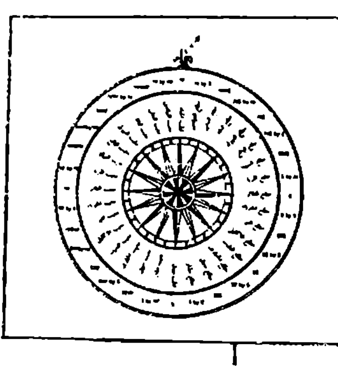
42) المصدر السابق ج : 2. ص 565.

43) المتحف الأسيوي سـابقا. «وسـان بيترسبـورك» جامعـة انطلق منها تعليم اللغـة العربيـة عام 1818م.

44) لينـنكراد، سابقا. SAINT - PETERSBOURG.

45) (808) 992. B. وهي تتألف من 273 بيت، وصف فيها المجـاري وقياساتها من بـر الهند إلى سيلان، وجاوة وسومطرة، ومطلعها:

عزمتُ، والعزم حميد السفر   لا سيما من بلدة فيها ضرر



البوصلة كما طورها ابن ماجد

الصفحة الأولى من الأرجوزة السفالية

صفحة من الأرجوزة السفالية لأحمد بن ماجد
(عن مخطوط لننجراد الذي نشره شومسكي سنة 1957)

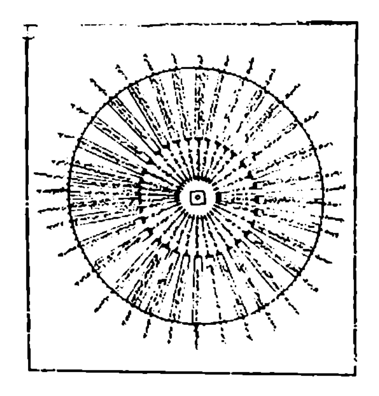
بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على محمد وآله وصحبه أجمعين هذه الأرجوزة
المسماة بالسفالية ومعناها تقتضي معرفة المجاري والقياسات من مليبار وكنكن
وجوزرات [illegible] والسند والطوايح إلى السيف الطويل ومنه إلى نواحي السواحل
والزنج وأرض السفالة [illegible] ونوادر علوم جميع ما في تلك النواحي إلى
آخر الأرض من الجنوب وذكر قياسات يعرف بهم العلم [illegible] الزيادة في
جميع الأخنان ووصف نوادر في تلك الطرق من القياسات والديرة والمجاري
وسكان الأرض وملوكها ومراسيها [illegible] على ما [illegible] تلك المكان [illegible]
[illegible] حاج الحرمين الشريفين شهاب الدين أحمد بن ماجد [illegible]

الحمد لله الذي أنشا الملا — من عدم جل تعالى وعلا
فذلك الانسان من أوصافه — وكم نرى العجب من الطافه
لو لم يكن إلا القياس والديرة — تجري عليها [illegible]
من أرض كاليكوت معاً أبولي — وجوزرات من الدبول
ثم [illegible] مع الطوايح — فافعل بضع حالتي يا صاحي
إلى السواحل ونواحي القمر — إلى سفالة استمع واحذر
من أرض كاليكوت إلى الغالات — من جاء أصحبن [illegible] لثلاث
بجراك في الجوزا معاً والشير — على قدر ربعك في المسير
إن كان [illegible] فافا — فالقلم تكفيني [illegible] صادقا
عشرين زاماً [illegible] — يتولى الخواش ربع العقرب
من جزر الغالات شام ويمن — فذاك [illegible]
فإن يكن أخذك من المغارب — مخالفاً على ذي المآرب
أو زحن أو طوفان أو أمطار — فذاك بالتدبير في الأسفار
ما حاجة يوصف للمعلم — يكون له فيه نجدة وعزم
لا تعط للجاه وقال مثل — إن له تنزل عن ثلاث كملا
قياس يغني على اليقين — وما قلّه تراه باليقين



آلة الكمال أو خشبات ابن ماجد وهي الطريقة التقليدية في معرفة خطوط العرض



الأخنان : أي أقسام الإبرة مفردها : خن، وهو جزء من 32 جزء من أقسام البوصلة

الأرجوزة المسماة بـالسفالية، وهي حول رسـالة الملاحة البحـرية في سواحل افريقية الشرقية.(46) والأرجوزة السِّفَالِيَّة، نسبة إلى إقليم «سفالة» على شـاطىء افـريقيـة الشـرقي، وهي من 701 بيت، وفيهـا وصف كوزموغـرافي لهذا الشاطىء والمجاري والقياسيـات من ميناء «مليبار» في الهند إلى آخـر أرض الجنوب (إقليم سفالة) وأخبار ملوكهـا، وعادات أهلها ومواسمها ومعادنها وثرواتها، ومطلعها:

الحمـد لله الـذي أَنْشَـا المـلا

من عـدم، جل تعـالى وعـلا

[انظر «ابن ماجـد» ملاح جغرافي وشاعر، مجلة القـافلة: الظهران 1988 للأستاذ عصـام ميداني] وقد نشر هذه الأرجـوزة وحققها عن نسخ خطية في معهد الاستشراق التابع للمجمع العلمي السوفياتي المستشرق تيودور شوموفسكي عام 1957، ثم ترجمها إلى الروسية.

ويقول النهروالي : إن ابن ماجد قد التقى «بفاسكودي غاما» في منطقة «سفالة» أوفي ملندي أو في غيرها من مرافىء إفريقية الشرقية.

الأرجوزة التائية، وهي في الملاحة بين جدة وعدن.(47) وهي الأرجوزة التائية على البحر الطويل، وتتألف 155 بيت، وصف فيها المجاري والطرق وقياساتها من ميناء جدة إلى عدن، ومطلعها:

سـرتْ نسمةُ الفِـردوس من أرض مكـة

بـريح الصَّبـا، فـاشتـاقت السيـرحلبتي

* * *

ونعيش مع الشريف الإدريسي في «نزهة المشتـاق» ساعات غير قليلة في قراءة أوصافه الممتعة الغريبة للبحار وغرائبها، مما يؤكد لنا اهتمامات

46) رقم المخطوط (807) B 992.

47) رقمها : 809 – B 992. عن الصديق الفاضل الدكتور عبـد الرحيم العطاوي الأستاذ بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط في بحثه عن «الدراسات العربية في روسيا».

هـذا الـرجل بهـذا العـالم الغني العجيب... فقـد ركب لجـة البحـر الأبيض المتوسط غير مرة، وأنه ركب لجة المحيط في جولة حَوْلَ الشاطىء الغربي للأنـدلس، ولا نعرف أن عبر البحـر الأحمر أو المحيط الهنـدي، ومع هذا، فإننا نجد من الإدريسي اهتماماً بالغا بصفة البحار، وما يكتنفها من مظاهر طبيعية، ومـا يسكنها من عجـائب البحر، ومن يعيش في الجـزر من أقوام غريبي العادات والطباع...

* * *

ووصف ابن رشيق البحـر، وقد اشتـدت الريح فيـه في يوم عـاصف، وعلت الأمواج وارتطمت بالسفين، والليل يغشى بظلامه كل شـيء، فقال، ولم ينس محبوبته برغم ذلك كله:

ولقد ذكرتكِ فـي السفينة، والرّدى
متـــوقع متـــلاطم الأمـــواج
والجـو يهطل، والـريـاح عـواصف
والليل مســـود الـــذُّؤابـــة داج

والأدب العـربي غني «بأدب البحـر» والأسـاطيل، وقـد خصـه الأدبـاء والمؤرخـون بدراسـات واسعة تشهـد للعرب بتقـدمهم في رُكـوب البحر. وإقامة الأسـاطيل الضـخمة..

وقد تحـدث في هذا المعنى مسلم بن الـوليد وهو يصف سفينـة يقول في مطلعها:

كشفت أهـــاويل الـدجـى عن مَهُـولِـهِ
بجـاريـــة محمـولـــةٍ حَـامـلٍ بِكـر(48)
إذا أقبلت راعَـتْ بمقلـــــةِ قَـــــرْهَبٍ
وإن أدبـــرت راقــت بقـــادمتي نســـر

48) زهر الآداب، وثمر الألباب، للحصري ج : 4 : ص : 1072. «رفع الحجب المستورة» 2/141.

أطلت بمجـــــدافيـن يعتـــــورانهـــــا

وقَـــوَّمهـــا كبحُ اللجـــامِ من الـــدَّبْـــرِ

كـــان الصّبـا تحكي بهـــا حين واجَهَتْ

نسيمَ الصَّبَـا مَشْيَ العروس إلى الخِـدر

والقرهب : الثور.

ومما قيل أيضا، في وصف الأساطيل، ما أنشده أبو القاسم ابن هانىء، وهو يصف أسطول المعز بالله حيث يقول في مطلع قصيدة:

أمـا والجـواري المنشـآت التي سَـرَتْ

لقـــد ظـاهــرتهـا عُـدَّةٌ وعـديــدُ(49)

قبـابٌ كمـا تُـرخَـى القِبـابُ على المَهَـا

ولكـنَّ من ضُمّـتْ عليـــــه أُســـــودُ

وهذا علي بن محمد الإيادي يصف أسطول القائم، فأجَادَ مَا أراد:(50)

اعجبْ لأسطـــــول الإمـــام محمــــد

ولحسنــــه وزمـــانــــه المستغـــرب

وانظر تمامها في : «رفع الحجب المستورة، في محاسن المقصورة» [ج: 2/ ص: 141].

وقـد أطنب النـاس في وصف السفن وأطـابُـوا، وقَـرْطَسُـوا القـريضَ وأصابوا، كما ذكر ذلك المقري في نفحه.

فهذا أبو عمـرو يزيد بن عبد الملك بن أبي خـالد اللخمي الاشبيلي(51) الكاتب (612هـ) أورد لـه ابن الأبّار في «تحفـة القادم» هـذه القصيـدة في وصف الجواري المنشآت من الأسطول العربي فقال:

---

49) نفس المصدر والصفحة.

50) نفس المصدر ج : 4 ص : 1073.

51) نفح الطيب ج : 4 / ص 55. انظر : «الأسطول في اللغة والتاريخ» لمحمد الشاذلي النَّيفر. مجلة: «الثريا» التونسية، مج: 2/ ع: 1/ 1945.

ويـا للجواري المُنشـآت وحُسنهـا
طـوائرَ بين المـاء والجـوّ عُـوَّمـا
إذا نشـرتْ في الجـو أجنحـة لهـا
رأيتَ بـه روضـا ونـوراً مكمَّمـا

إلى آخـر القصيدة... التي أجـاد مـا أراد في هـذا الوصف، وإن كـانت معانيها تنظر إلى قول أبي عبد الله ابن الحداد يصف أسطول المعتصم بن صُمادح:

هامَ صـرف الردى بهَـام الأعادي
أنْ سَمَتْ نحـوهـم لهـا أجْيَـادُ
وتـراءت بشـرعهـا كعيـونٍ
دأبُهـا مثلُ خـائفيهـا سُهَـادُ
حُمَمٌ فـوقهـا مـن البِيض نَـارٌ
كل مَـن أرسلت عليـه رمـادُ

ومـا أحسن قولَ أبـي الحسن ابن حريق في هـذا المعنى من قصيـدة أنشدها...

وكأنمـا سكن الأراقـم جـوفَهـا
من عهـد نـوحٍ خشيـةَ الطـوفـان
فـإذا رأيـن المـاءَ يطفـحُ نضنضتْ
من كـل خـرقٍ حيّـةٌ بلسـان

وهذا محلي بن محمد الإيادي التونسي في قصيدة طويلة، تُعَدُّ من غُرَر القصـائد، وقد سـرد جملة منها صاحب المنـاهج، ونَقل بعضها صـاحب النفح: يقول:

أعجِبْ بأسطـول الإمـام محمـدٍ
وبحسنـه وزمـانـه المستغـربِ

لبستْ بـه الأمــواح أحسن منظَـرٍ
يبــدو لعين النـــاظــر المتعجِّب

ومنها :

جو فـاءُ تحمِل موكبـاً في جـوفها
يـومَ الــرهـانِ وتستقل بمـــوكب

ومن هذه القصيدة الفريدة في كر الشراع :

ولهـا جنـــاحٌ يُستعـارُ يُطيــرُهـا
طـوعَ الـريـــاح وراحـة المتطـربِ
يعلـو بهـا حَـدَبَ العُبـاب مطـارُه
في كـل لُجٍّ زاخـــــر معلــــولَبِ

إلى آخر القصيدة :

ويقول أبو عمر القسطلي :

وحــــال المــوج بين بنــي سبيلٍ
يطيـــرُ بهم إلى الغَــولِ ابنُ مـــاء
أغــرّ لــــه جنـــاحٌ مـن صبـــاحٍ
يـرفــرفُ فـوق جُنْحٍ مـن سمـاء

وقد أخذ هذا المعنى أبو إسحاق ابن خفاجة فقال :

وجـــاريـــة ركبتُ بهـــا ظــلامـــاً
يطيـــر من الصبـــاح بهـا جَنـــاحُ
إذا المــــاء اطمأنّ ورقّ خصـــــرا
عـــلا من مــوجِـــهِ ردفٌ رداحُ
وقــد فغـر الحِمـــامُ هنـاك فـــاه
وأَتْلَعَ جيـــدَه الأَجـل المُتـــاح

ولابن الأبّار في وصف السفينة :

يـا حبذا من بنـاتِ المـاء سابحـةً
تطْفُـو لمـا شبّ أهل النـار تطفئُـهُ
تطيّرها الـريحُ غِرباناً بـأجنحة الـ
ـــحمائم البيض لـلأشراك تـرزؤه(52)

وقد أنشأ المنصور بن أبي عامر أسطولا تحدث عنه ابن دراج القسطلي في قصيدة، منها...

تحملَ منـه البحـرُ بحـراً من القَنـا
يـــروعُ بهـــا أمـواجَـــه ويهـــولُ
بكل مُمَـــالاَت الشـــراع كأنهـــا
وقـــد حملت أسـدَ الحقـــائق غِيلُ
إذا ســابقت شأوَ الـــريـاح تَخيَّلَتْ
خيولاً مـدى فرســانهن خيول(53)

وهي طويلة...

وأحسن ما قيل في هذا المعنى قول الحسن بن هانيء، في سفينة، أمر الأمين بإقامتها ليركبها في دجلة.

بنيـت علـى قـــــــــــدر وَلاَءَمَ
طبقـــان مـن قَيْـــرٍ ومن ألـــواح
فكأنهـــا، والمــاءُ ينطح صـــدرَهـا
والخَيْـــزُرَانـــة فـي يـدِ المـــلاَّح
جَـوْنٌ من العُقبـان يبتـدر الـدجـا
يَهْـوَى بصوتٍ، واصْطِفَـاق جَنَـاح

52) نفح الطيب ج 4 / ص : 58، وانظر مقطعـات لابن حمديس الصِّقـلي «حـول البحر» في النفح ج : 4/ص 271.

وَلِمَهْيَار الدَّيْلَمِي :

من الغـــادي تحط بـــه وتعلـــو
نجـــائب، من أزمتهـــا الـــريـــاحُ

فمَـــرَّت كـلُّ شـــائلـــة زفـــوف
لهـــا مـــن غيـــرهـــا اليـــدُ والجنـــاح

ململمـــة لهـــا ظهـــرٌ مصـــونٌ
وبطنٌ تحـــت راكبهـــا مُبَـــاحُ

تـــرى صـــوتَ الشّمـــال يَسُلّ منهـــا
طـــرائدَ لا يكُـــفّ لهـــا جِمَـــاح

تـــراوح رجل ســـائقهـــا يـــديـــه
ولا التَّعْـــرِيس منـــه ولا الـــرواح

ولأبي بحر صَفْوان بن إدريس رحمه اللـه، يصف ليلةً ركب فيها البحر، لصيد الحِيتان، وكان ساكناً أو لها، ثم أفرط في ارتجاج آخرها.

وفتيـــان كمـــا انتقيـــت لَئَـــالٍ
يلـــوح الـــدهـــر منهم في حـــلاه

ولأبي عبد الله بن الحداد يصف أسطول ابن صُمَادِح، وهو حسن جدا:

وتـــراءت لنـــاظـــر كعيـــون
دابهـــا مثل خـــائفيهـــا سهـــاد

ذات هُـــدْبٍ من المجـــادِيف تحكِي
هُـــدْبَ بـــاكٍ لـــدمعِـــه إسعـــاد

حُمَمٌ فـــوقَهـــا مـــن البيض نـــار،
كل مـــن أرسلت عليـــه رمـــاد

ومن الخط فـــي يـــدى كل ذمـــر
ألف خطـــه علـــى البحـــر صـــاد

وللقسطلي :

وحـــال المـــوج دون بنى سبيل
يطيـــر بهم إلى الغـــول ابنُ مـــاء
أُعِيـــر لـــه جنـــاحٌ من صبـــاحٍ
يـرفـــرف فـوق جُنح مـن مســاء

* * *

دراســة المصطلحــات البحريــة العربيــة :

دراسة المصطلحات البحرية العربية ليست بالأمر الهين، بل هي أمر في غايـة الدقـة والتعقيد، نظراً لشمـوله واتســاعه، بالإضــافة إلى الاختـلافات الكبيرة التي طرأت على المصطلحات، وحتى المفاهيم نفسها نتيجة التطور التقني والحضاري العـام الذي انعكست آثارُه فيما انعكست على البحـرية، وكل ما يتعلق بعلم البحار... وقد فطن العرب كغيرهم من الأمم البحرية إلى أهمية هذه الوسيلة الطبيعية التي تحيط ببلادهم على اتساعها، فسرعان ما وجهوا اهتمامهم إليها، إلى درجـة جعلت الأمم البحرية تسميهم بحق: أمراء البحار.(54)

* * *

عِلــمُ السِّماكـة :

لعل علماء «الإكتيـولوجيا» (علم السماكة) وعلماءَ المؤسســات الدولية الذين اهتموا بمنتوجات البحر الغذائية بوضع معاجم لأسماء الأسماك، بغية تفادي أدنى التباس بين المختصين في علوم البحر، وألوان غذائه...

فهناك عمل ضخم أنجزته أكاديمية العلوم للاتحاد السوفياتي عام 1980 تحت عنوان: «أسماء أَسْمَاك البحار في العالم» الذي جمع أسماء السمك في

---

54) هدية العارفين ج : 6 / ص 145.

عدد كبير من مناطق الكرة الأرضيــة، وقد ساهم، شخصيا، أخونا الدكتور عبد الرحيم العطــاوي أستاذ اللغات الأجنبية بكلية الآداب بالـرباط، بلائحة الأسماء المتداولة في بعض المدن الساحلية المغـربية، وخاصة منها مدينة أسفي، ويعــد هذا المعجم من أغنى المعــاجم وأدقها في بــابه... ثم هنــاك معجم عربي – فرنسي للسماكة والأسماك للأستاذ أخينا عبد العزيز بنعبد الله الذي أشــرف على طبعه عام 1969 المكتب الدائم لتنسيق التعـريب في العالم العــربي، ثم هناك عمل منظمــة التغذية العــالمية (F.A.O)، الذي يعتبر فقيرا بالنسبــة للأسماء المتداولة، وذلك كَجُــذَاذَات التي طبعتها في سلسلة

Fiches d'identification des espèces par les besains de la pêche.

وهناك كتــب ومقالات متخصصة فــي مصطلحات وعادات الصيــادين، وسكان المناطق الساحلية بالمغرب، وأهمها:

«البحر في عادات وصناعات الرباط وسلا».

"La Mer dans les traditions et les industries de Rabat et Salé" للأستـــــاذ "Louis Brunot" الصادر في باريس 1920، ولنفس المؤلف: «معجم المفردات البحرية في الرباط وسلا:

"Notes lexicologiques sur le vocabulaire maritine de Rabat et Salé" صدر هذا الكتــاب في بــاريس 1920... ونجــد في العملين المشــــار إليهمــا الأستــاذ «برونو» Louis Brunot حــوالي 100 اسم لمختلف الأسمـــاك، مع وصفهـــا وتــرجمتها إلــى الفرنسيــة، ومقــارنتها بــالأسمــاء المتــداولة فــي مدينــة «مستغانم» بالجزائر.. و«أسماء السمك في مــدينة تطوان» الموجودة ضمن مقال "A. Joly" «الصناعة في تطوان» الذي صدر عام 1912 في المجلد الثامن عشر من مجلة Les Archives Marocaines [انظر بحثا في الموضوع للدكتور عبد الــرحيم العطــاوي: «مدخل إلى معجــم مقارن لأسمــاء الأسمــاك بأسفي» [أعمال الملتقى الفكري الأول لمدينة أسفي].

لقد كان علماء المسلمين يعرفـون بأن هذا الكون الأرضـي البديع يحيط به الماء من جميع جوانبه، وكان كما قال ابن خلدون محفوفاً بعنصر الماء، وكأنه عِنَبَـةٌ طافيـة، فاهتموا بـه أيما اهتمام، وأولـوه في بحوثهم العنـاية. وألفـوا فيه من المـؤلفات التي تشـهـد لهم، بالتفـوق والفَلَج، وبأنهم كانـوا يدركون بأن هـذا الكوكب المائي خليقٌ بأن تؤلف فيه المـؤلفات ذات البعد العميق.

* * *

مؤلفات في عجائب البحر وغرائبه :

لقد شاع في تاريخ الكتابة العربية نوعٌ من المؤلفات يعرف «بالعجائب أو الغرائب»، وقد تعدد هذا النوع من الكتابة، فهناك على سبيل المثال نجد لشمس الـدين أبي عبـد اللـه محمـد بـن أبي طـالب الأنصـاري الصـوفي الدمشقي، شيخ الربوة (تـ727هـ)، «نخبة الـدهر، في عجائب البـر والبحر» وهو مجلد على تسعة أبـواب ككتاب عجائب المخلوقات،(55) وابن الوردي، له: «فريدة العجائب، وفريدة الغرائب»، والقزويني في «عجائب المخلوقات، وغرائب الموجودات».

فهذا نوع من الكتب الذي يعد من مصادر البحث، عرف بكتب العجائب، وهذا النوع من الكتب عبارة عن كتب وصفية للبلدان التي تتناولها... ولكن تختلف عن باقـي الكتب التي لا تحمل هذا الاسم، إلاّ أَنهـا حفلت بكثير من الغرائب والعجائب التي يحار العقل في تفسيرها، ثم إنها لم تكتب بأسلوب علمي، أو كتـاب علمي، فقـد كتبت لعـامة القـراء أو للتسليـة في المحـافل والمنتديات.

فهـذه الكتب كانت تـروي مـا يشاهـده الكـاتب أو يسمعه ويعجـز عن تفسيره، وهذا لا يقلل من قدرها، لأنها اشتملت على حقائق ومعارف تفوق

55) الحرب والمـلاحة في المحيط الهندي في العصـور القديمة، وأوائل العصور الـوسطى» لجورج فضلو حوراني، ترجمة: د. السيد يعقوب بكر – 48 – كشف الظنون ج : 2 / ص : 1936.

ما فيها من عجـائب وغرائب، وقد أدرك مؤلفوها قدر مـا فيها من الغرائب، ولذلك اطلقوا عليها هذه التسمية...

* * *

والعرب، منـذ القديم، اهتموا بعلـوم البحر، وألفـوا فيه عدة تـآليف منها «عجائب البحر» لهشـام بن محمد السائب الكوفي الشيعي المعـروف بابن الكلبي (تـ 204هـ – 819م)، ولا يعرف ما محتوى الكتاب، بل ما حَلّ به.(56)

ولأحمـد بن الطيب السـرخسي (تـ : 286هـ) تلميذ الفيلسـوف الكندي وصـديقه رسـالـة: «في البحار، والميـاه، والجبـال» وذكر المسعـودي أن السرخسي إلى جانب هـذا، قد صنف كتاباً حسنـا في «المسالك والممالك، والبحار وأخبار البلدان وغيرها:(57) «وتحفة الفحـول، في علم البحر»،(58) مختصر علـى سبعة أبواب، مشتملـة على أحـوال مسالك البحـر الهندي... «وثلاثة أزهار، في معرفة البحار»، لشهاب الدين أحمد بن ماجد(59) تحقيق ونشر تيودور شوموفسكي، ترجمة وتعليق د. محمد منير موسى.

وكتب علي بن محمـد بـن الشـاه الظـاهـري (تـــ : 252هـ 963م) أحد الإخباريين وجمـاعي القصص والطرائف كتاب: «عجائب البحـر»، كما ذكره صاحب إرشاد الأريب»: 5 – 328،(60) وألف الماجن المعـروف أبو العنبس محمد بن إسحق الصميري (212هـ – 828م) كتابا بعنوان: «عجائب البحر»، وهو كتـاب ضاع فيما ضاع من كتبـه، وكتب علي بن عيسى الحراني (كان حيا قبل 279هـ كتاباً بعنوان: «عجائب البحر»،(61) وهناك كتاب ذكره محمد

---

56) «هدية العارفين» ج : 6، ص : 508.

57) كتاب الأدب الجغرافي عند العرب ص 131 / 1.

58) كشف الظنون ج : 1 / ص : 371.

59) «ابن ماجد الملاح»، للأستاذ أنور عبد العليم.

60) مجلة المورد ص : 236.

61) «كشف الظنون»، ج : 3 ص : 1126.

ابن يحيى الصولي (تـ : 335هـ – 964م) بعنوان: «عجائب البحر»، لا نعرف مؤلفه، ولا نعرف ما حل به،(62) وكتب أبو حامد الغرناطي، أيضا: «تحفة الألباب، ونخبة الاعجاب»، وهو سفر مقسم إلى أربعة أبواب منها: «صفة البحار، وعجائب حيواناتها، وما يخرج منها من العنبر والقار، وفي جزائرها من أنواع النفط والنار»،(63) ولخسرو الدهلوي أمير الكلام (تـ725هـ) كتاب : «جواهر البحر،(64) «وعجائب البحر» لعبد الرحمن بن صاجلي أمير الرومي الحنفي الشهير بعلمشاه، قاضي صفد (تـ987هـ،(65) ولأحمد بن ماجد آثار عديدة، ويبلغ عدد الموجود منها نحو الأربعين، ومعظمها قد تمت صياغته شعرا، وفقاً للمنهج التذكيري أو التعليمي القديم، غير أن واحداً من مصنفاته الكبرى الهامة، قد كتب بالنثر، ويحمل عنوان: «كتاب الفوائد، في أصول علم البحر والقواعد»، وفيه يفصل المؤلف الكلام على الجانبين النظري والعملي للمشاكل الملاحية معتمداً من جهة على من سبقوه في هذا المضمار، ومن جهة أخرى على تجاربه الشخصية بصورة خاصة، وميدان هذا الكتاب الرئيسي، هو «البحر الأحمر، والخليج الفارسي، والمحيط الهندي، وأرخبيل الهند الشرقية (الملايو).

كما أن والدهُ دَوّن تجاربه البحرية، في مصنف ضخم، هو : الأرجوزة الحجازية» التي كانت تضم أكثر من ألف بيت في وصف الملاحة على سواحل البحر الأحمر...(66) وقد أمكن للابن أن يستدرك بعض التصحيحات على أبيه اعتمادا على ملاحظاته الشخصية ويضيف إليه

62) راجع : معجم المؤلفين، 12 / 105 – 106.

63) مجلة العراق : «المورد» مج : 3، ع : 2، 1974.

64) «هدية العارفين» : ج / 6 / ص 146.

65) هدية العارفين ج : 5 ص : 547.

66) كراتشكوفسكي، الأدب الجغرافي العربي ص : 573 – 574 / 2.

بطريقة منتظمة...(67) وبقية مصنفات أحمد بن ماجد،(68) منظومة شعرا، وتحمل عادة «اسم الأَراجيز»، رغما من أنها لم تنتظم في كل الحالات ببحر الرجز، وتتراوح أحجامها بين عشرين وثلاثمائة بيت، إلى ألف وَنَيِّف، فهي أشبه ما تكون «بمر شدات بحرية» بالنسبة لعصرها... وإحدى هذه الأراجيز، قد تم تأليفها قبل كتاب «الفوائد»، وتلك هي الأرجوزة الكبرى الواقعة في ألف بيت بالتقريب، والتي تحمل عنوان: «حاوية الاختصار، في أصول علم البحار»...(69) كما قدمنا سالفاً...

* * *

وقد اشتهر سكان حضرموت،(70) منذ القدم بالمهارة في الملاحة، وكانت لهم صلات عن طريق البحر بسواحل افريقية الشرقية، وارخبيل الهند الشرقية على السواء، وأشهر ملاحيها سليمان المهري من بلاد العرب، ومن مدينة الشَّحْر على الساحل الجنوبي لحضرموت، وإحدى مصنفاته يرجع تأليفه إلى عام 917هـ، ومصنفاته محفوظة بأجمعها في إحدى مخطوطتي باريس المشار إليها (رقم: 2559) له: «العمدة المهرية، في ضبط العلوم البحرية،(71) والمصنف الثاني الكبير لسليمان المهري يحمل

---

67) كراتشكوفسكي، ص : 573 / 2.

68) كان أول من أثبت أن أحمد بن ماجد، هو المرشد الذي تتكلم عنه المصادر البرتغالية هو أحمد زكي باشا، وذلك في عام 1917. وفي ماليندي، وقرب مدينة ممباسا الحالية، أي في الساحل الشرقي الإفريقي، أقامت البرتغال نصبا تذكاريا، اعترافاً بنبوغ أحمد ابن ماجد، وتفوقه، وتخليداً للذكرى التي تقول: «إنه هو الذي قاد الملاح البرتغالي» فاسكودي غاما» إلى مَرْفَإِ «كاليكوت» على الساحل الغربي للهند عام 1498.

69) الأدب الجغرافي ج : 2 / ص : 575.

70) الأدب الجغرافي العربي : ج : 2 / ص : 575. انظر «ربابنة الخليج العربي، ومصنفاتهم الملاحية» لخالد سالم محمد، «وعمان وتاريخها البحري» لعصام الدين عبد الرؤوف الفقي. و«دور العمانيين في الملاحة والتجارة الإسلامية من القرن الرابع الهجري» لعبد الرحمن عبد الكريم العاني.

71) «كشف الظنون» ج : 1/1172 – كراتشكوفسكي ص : 578/2.

عنوان: «كتاب المنهاج الفاخر، في علم البحر الزاخر(72) ولعلي بن حرب العراقي «كتاب البحار»، نقل عنه الحافظ في الإصابة، ولبعض المعاصرين المصريين: «كتاب سفن الأسطول الإسلامي وتاريخها وأنواعها، وأوصافها»...(73)

وللمولى علمشاه عبد الرحمن بن هاجلي أمير (تـ987هـ) «**عجائب البحر**»،(74) «**وتاريخ الأسطول العربي**» لحمد ياسين الحموي – دمشق...(75) «**وعجائب البحر**» لابن عفيون محمد بن أبي بكر الغافقي الشاطبي(76) (584هـ – 1189م) «**وأسطول الأندلس**» للمستشرق لُوفي بروفنصال،(77) ولسيدي إبرايهم التادلي الرباطي «**زينة النحر، بعلوم البحر**» تحدث فيها عن سير سفن الشراع والبواخر...(78) **ولواقح الأسرار، في حديث البحر والأسفار، في توضيح الرسالة الفتحية...** لعبد الله ميكاني الرباطي الذي عاش في عهد السلطان المولى سليمان،(79) وذكر «تاريخ الضعيف» **البحرية والطبجية في الرباط**(80)

[وصدر حديثا : «قاموس المصطلحات البحرية» فرنسي – عربي، وعربي – فرنسي، إعداد الدكتور محمد بشير الكافي... وهو من بين

---

72) المصدر السابق. ج 2 / 579.

73) وهو مطبوع، التراتيب الإدارية ج : 1، ص : 373 – وانظر : «البحرية في مصر الإسلامية، وآثارها الباقية»، للدكتورة سعاد ماهر، وكذلك: التنظيم البحري الإسلامي في شرق المتوسط من القرن السابع حتى القرن العاشر الميلادي» لعلي محمود فهمي، ترجمة : د. قاسم عبده قاسم. بيروت 1981.

74) كشف الظنون ج : 2 / ص : 1126.

75) ص : 147 – مطبعة الترقي 1945.

76) المناهل ع : 32.

77) «إسبانيا المسلمة» ص : 135 – 248.

78) الخزانة العامة – الرباط : 1747.

79) مخطوط «في مكتبة المرحوم الأستاذ عبد الله الجراري».

80) تاريخ الضعيف 470.

القواميس العديدة التي تهتم بها المؤسسات العربية للدراسات والنشر في بيروت.

تعليمات دينية وأخلاقية :

ونعثر في كتاب «الفوائد، في أصول علم البحر والقواعد» لابن ماجد، وهو أول كتاب على تعليمات يجب على الربان اتباعُها لحظةَ ركوبه السفِينة حتى نهاية رحلتها، والسلوك الواجب اتباعه حيال المواقف المختلفة، وتجاه طاقم السفينة والركاب، فقد اهتم ابن ماجد بالجانب الديني والأخلاقي، فنصح راكب البحر، وخصوصا الربان قائلا: «وينبغي إذا ركبت البحر، أن تلزم الطهارة، فإنك في السفينة ضيف من أضياف الباري عز وجل: فلا تغفل عن ذكره، فإنه شديد العقاب، وإنه لغفور رحيم، لأنه يمهل ولا يهمل، فلا يغرنكم بالله الغَرُور»، ويذكر عدة آيات من القرآن الكريم، وبعض الأدعية تقرأ في حالة الكرب.

وهكذا... كان المعلم آخر من يصعد على السفينة، وقبل الخروج إلى عرض البحر، تقرأ سورة الفاتحة بصوت مسموع، ثم يتلوها دعاء بأن يسمعها الخضر حاكم أسفار البحر، وحامي المسافرين... ويقول ابن ماجد مخاطبا ربان السفينة: «اعتبر نفسك ضيفا من ضيوف الرحمن، والزم الطهارة...».

لقد كان من عادة الرَّبَابِين العرب حين يجتازون مضيق «باب المندب» ويبحرون في المحيط الهندي، تلاوة الفاتحة، تنفيذا لوصية ابن ماجد، الذين كانوا يلقبونه «بشهاب الدين والدنيا»، تشريفا له، واعترافا بصلاحه، وإخلاصه وتقواه التي تظهر واضحةً بوصيته التي كان يلقنها لأصحابه، ولكل بحار أو ربان، حفاظا، من الله، على سلامته، وكما هو واضح في قصيدته المكية التي يقول فيها :

ركبت على اسم اللـــه مُجْــرى سفينتي
وعجلتُ فيهـــا بـــالصـــلاة مبـــادرا

بل إنه كان يخاطب أقرانه من البحارة بقوله :

اسأل الـــرحمـــان يـــا مِعْــواني
إذا تلـــوت النظم، والمعـــاني
اقــرا لي الحمــدَ، مع الإخـــلاص
تنفعني في العــرض والخـــلاص

* * *

إن هناك مصطلحا مألوفاً لدى قـادة السفن، عندنا - في المغرب أيضا، ويتعلق الأمر بما يسمى «حزب البحر»، وقد كان أول من أنشأ حزباً للبحر، لتلامذته، هو الإمام الشيخ نـور الدين أبو الحسن علي بن عبد الله بن عبد الحميد المغربي الشاذلي اليمني (تـ : 656هـ) وهو دعاء مشهور سمي به، لأنه وضع في البحـر وللسلامـة فيه حين سافـر في بحر القلـزم، فتوقف عليهم الـريح أيامـا، فـرأى النبيﷺ في مبشرة، فلقنـه إيـاه، فقرأه فجـاء الريح... ويسمى أيضا بالحزب الصغير، وله شروح منها: شرح الشيخ أبي سليمـان داود بن عمـر الشاذلـي نزيل الاسكنـدريـة (تـ: 732هـ) أسماه: «الرسالة المرضية، في شرح دعـاء الشاذلية»، وشرح الشيخ شهاب الدين أحمـد بن أحمـد بـن محمـد بن عيسى البـرنـوسي الشهيـر بِـزَرُّوق (تـ899هـ)،(81) انظر فوائده. وأسراره في كشف الظنون.(82)

وأن أبرز ما يلفت النظر في الابتهالات التي تميز بها «حزب البحر» هو ما يتصل بالقرصنة التي عرفت بهـا البحار عبر التاريخ، فإن هناك مقاطع

81) كشف الظنون، ج : 2 / ص : 661.

82) للشاذلي أحزاب أخرى، فلذلك يعرف هذا بالكبير، والحزب عندهم طائفة من الكلام في موضوع الذكر والدعاء كأحزاب القرآن.

من «الحِزب البحري» تتوسل إلى الله في أن يحفظ المسافرين من قراصنة البحر، ومن المعتدين الأشرار الذين اعتادوا أن يضايقوا الأبرياء...

وأن مجرد الدعوة لملازمة «حـزب البحر» يدل على أن طريق البحار لم تكن مأمـونة من المعـاطب والمهالـك، وأنها عـلاوة على ما يحف بهـا من رواجف وروادف، وأهوال الطبيعة والمناخ، فإنها إلى جانب ذلك تزخر بقوم ظلوا محل شكوى من الجميع، وتذمّـر من الجميع، ألا وهم القراصنة الذين رأينا من موقف الأسطول الموحدي من عدوانهم.

ونستعـرض مثلا، التعليمـات الصـادرة لقادة الأسطـول المغـربي من السلطان المـولى عبد الرحمن بن هشـام الذي رأينا حفيده السلطـان، عبد العزيـز يقتفي أثر المتقدمين فيـدعو الـرؤساء البحريين إلى قـراءة «حزب البحر»...(83)

ولقد اعتـاد رجال البحرية، عنـدنا في بلاد المغرب، سـواء منهم رجال الأسطول، أو المهتمون بصيد الأسماك أن يقيموا في يوم 26 من شعبان من كل عام ليلة المعراج موسما للشيخ سيدي عبـد الله اليابوري، يقدمون فيه الطعام للفقراء والمستضعفين على نحو ما نقـرأه اليوم عن الاحتفال باليوم العالمي للبحـر يوم 22 شتنبـر من كل سنة بل إن رجـال البحـر يقومـون عندما يشتد صياح المحيط بإحياء ليالـي استثنائية توسلا بالشيخ سيدي عبد الله اليابوري لكي يهدأ البحر.(84)

قال أبو القاسم الزياني:(85) ومما شافهني الولي الصـالح أبو البركات سيدي امبـارك ابن الفقيه العلامة سيـدي الصائغي، به، بعد السـلام عليه،

---

83) «موقـف المغرب من القـرصنة في العصر الـوسيط» – ندوة أبـريل 1986 – الادعية المغـربية الـرباط. «الأسطـول المغربي عبـر التاريخ مجلـة: «البحث العلمي» ع: 34 – 1984 – التاريخ الدبلوماسي للمغرب للأستاذ عبد الهادي التازي ج: 2 ص: 206.

84) «المناهل عدد 25، س : 9 – دجنبر 1982.

85) الترجمانة الكبرى ص : 151.

والجلـوس معه، وسـؤاله: أن قـال لنـا: «إذا أردتم ركوب البحـر، فعندمـا تضعـون أرجلكم في زورق المركب، فـاذكـروا: «التعوذ بـالله، والبسملـة، والفاتحة، واذكروا الفـاتحة خصوصاً سبعا، فإنهـا أمانٌ من الغرق والحرق والأسر «هـ» من لفظـه.

أدب البحـر...

لعل «الأودِيسّة» لهوميروس HOMERE (عاش في القرن 9. ق.م) الذي يعد من أشهر شعراء اليونان الأقدمين، وتصوره التقاليد كَهْلاً أعمى يطوف من بلد إلى آخر ينشد الشعـر، وصاحِبُ «الإلياذه» (iliade) تلك الملحمة اليونانية التي تضم أربعة وعشرين نشيدا تـروي أخبار حرب طروادة بين الاغريق والطراوديين،.. كـانت أول رواية، وأعظم قصة عن البحـار وصلت إلينا من العصور القديمة، وهي ترسم لك صورة للطريقة التي كان يعيش بها رجال البحر المتوسط، ويحاربون في الماء...

وقـد عرّبهـا سليمـان البستانـي في دار الهلال بمصـر 1904 مصدرة بمقدمة في هوميروس وشعراء اليونان والعرب وآدابهم.

* * *

ولقد كان التجار العـرب الذين يركبون ثبج البحر، ويخـوضون عُبابه، لهم قصص بحرية ومغامرات في مجاهل المحيطات كانت السبب في ظهور أخبار السندبـاد التي لها عظيم الأثر في أعمال أدب البحـر، اكتمالا وتأثيراً في التراث الشعبي العـربي، وفي الأدب العالمي كله... وقد أبـرزت لنا تلك القصص البحرية في سلسلة متصلة الحلقات في فروع من فروعها أسفار السندباد التي طبقت شهرتها الآفاق، والتي وجدت كمجموعة مستقلة قائمة بـذاتهـا قبل أن تـدخل ضمن مجمـوعـة: «ألف ليلـة وليلـة» الضخمـة مع مجموعـة من القصص البحرية العـربية الأصل، وشكلت أَكْثَـرَ أعمال أدب

البحر العـربي عبقرية، فنيـا وعلميا، كمـا أفادت هذه القصـصـص البحـرية بدورهـا في تطور أدب البحر عنـد العرب فيمـا بعد على أيدي ابن مـاجد، وملاحي الخليج في أدب الرحلات البحرية.

وإن أسفار السندباد البحريـة انبعثت في نفس الوسط الذي نشأت فيه قصص التاجر سليمان الذي لا يعـرف عنه أكثر من أن قصصه ترجع إلى حوالي 237هـ، وهـو خيـر مثـال للتجـار العـرب والفـرس الـذاهبين إلى الصين.(86)

ومعـروف أن «ألف ليلة وليلـة» من أهم أعمال الأدب الشعبي العـربي، بالرغم من أصلها الهندي، وترجمتها الفـارسية، إلا أنها بصياغتها العربية، وإضافاتها الكثيرة، وأسمائها العربية للمدن والملوك ووقائعها العربية، تعد عملا من أعمال العبقرية العربية في الأدب الشعبي العربي.

ويشيـر الدكتـور رمضان بسطـاويسي محمـد، بأننا نجـد في حكايـة الرحلـة للسندباد البحـري، الجمع بين المغزى الفكـري، وبين أدب البحر، وبين دعوة السندباد البحري إلى الكفـاح والكد والمغامرة في الحياة، وبين التمرس بأسفار البحر وتجاربه وأنوائه ومغـامراته، ويذكر السندباد بعض أبيات الشعر لتأكيد هذا المعنى:

بقـــدر الكـــد، تكتسـب المعــــالي
ومن طلـب العــلا سهـــر الليـــالي
يغـــوص البحـــر من طلـب الــلآلي
ويحظى بـــالسيــــادة والنـــوالي

فحكاية السندباد هي حصيلة لأدب الـرحلات البحرية عند العرب، ومن أشهر روادها المسعـودي وابن ماجد وابن بطوطة، وهذا الأدب يمتـد ليؤثر في الأدب العربي المعاصر، فسنجد عند الـدكتور حسين فوزي في كتابه:

86) الأدب الجغرافي ص : 142 / ج : 2.

«سندباد عصري»، ونَجده عند الروائي فتحي غانم عن «البحر» وصالح مرسي، وحَنَّا مينا في سورية، ونجده في أدب الخليج العربي في كتابات الأدباء في السعودية والبحرين، والإمارات العربية المتحدة، وقطر، وسلطنة عمان...

* * *

ولا شك أن حكاية السندباد ورحلاته السبع، هي أعظم القصص في أدب البحر عند العرب، وأكثرها تعبيراً عن عالم البحر، أو كما يقول الدكتور حسين فوزي في كتابه [«حديث السندباد القديم» ص 356 ـ 357] إنها «القصة البحرية الكبرى في الأدب العربي، وهي فوق هذا كله، واحدة من أهم قصص البحار في آداب العالم..» وأنها «قصة جغرافية» تلخص المعارف البحرية عند العرب في القرون الوسطى»، لأن «البحر في قصة السندباد هو الغاية التي تنتهي إليها القصة، البحر هو ممثلها الأول، أو أنها حوار بين اثنين : البحر، والسندباد، حوار يتطور من الهدوء إلى العُنْف، ومن تبادُل الوُدّ إلى تداول اللَّكَمَات، والمناجزة والصراع...

* * *

وهناك أعمال أدبية كثيرة في الخليج العربي تجعل من البحر وكائناته هي موضوعها الأثير، فتبدو هذه الأعمال في البحر، وعالم البحارة، ويتحول البحر لديهم إلى كون خاص له مفرداته التي تعكس مفردات التاريخ الإنساني وصراعه من أجل الوجود.(87)

والقصص البحري بألف ليلة وليلة(88) هو خير وعاء احتفظ لنا بصورة حية حافلة توضح لنا حجم الاتصالات التي كانت بين الشعوب البحرية، حيث امتزجت فيها ثقافات المحيط الهندي وتجارته وبلدانه وجزره

87) مجلة «المنهل» ع : 505، مج : 54 يونيه 1993.

88) انظر الليلة 530 من قصص ألف ليلة وليلة.

ومياهــه، وما بها من حيـوانات بحريــة، وعواصف وأنواء وثـروات يمتلكها التجار، وهكذا، فقـد انفرد هذا القصص بالمحيط الهندي، وتفـرد هو به... ونجد أن مجموعة القصص البحرية في «ألف ليلة وليلة» خصوصا رحلات السندباد. وهي مجموعة من قصص البحار، لم يعرف مؤلفها، وكان مسرح حوادثها، هــو المحيط الهندي، واختلط فيها خيال كاتبها أو كتــابها بحقائق تاريخية، ومعارف بحـرية، ومعلومات جغرافية، كــانت شائعة في العصور الإسلامية، وقد أمدتنا هــذه المجموعة من القصص البحري وجزره وبعض المنتجاتِ الزراعية والمعدنية، وطريقة استخراجها...(89)

وفي الــواقع أن السنـدبـاد، أو كــاتب القصص استفـاد من المعــارف الجغرافيــة في كتب المسالك والمؤرخين، حيث يبدو بين أسفــاره أنه اطلع عليهــا، ووعاهــا جيـدا، حيث أحسن اختيــار مكان الحــدث حسب أحــداث القصة، كما أحكم حبكتها القصصية والفنيــة، كما أنه نمَّى خياله القصصي بكتب العجائب، ومزج بين هذين النوعين من الكتابة، الواقع والخيال، مزجا رائعا، بحيث يبقى القارىء أو المستمع مشدوداً إليه.(90)

وإذا كانت أسفــار السندباد، وعجائب الهنـد، هي نبض البحر، فإن ابن بطوطــة هو عيــن وعقل البحر والبــر، فهو راصد الحيــاة، وجامــع الأخبار والحكايات والكرامات في تلك المناطق.

هنــاك قصــائد وقصص عربيــة وغـربيــة في وصف البحر، وجمــالــه وجلاله... كتبهــا كتاب وأدباء عَرب وغيــر عرب، ولناخذ مثــلا من الشاعر «بابْلُــونِيرُودا» في قصيــدته: «زلــزال البحر» التي هي أولى قصــائد ديوان يحمل هذا العنوان نفسه، استــوحاها أثناء نزهاتــه، سيراً على الأقدام، قرب

89) «حــديث السندبــاد القديم» للــدكتور حسين مــؤنس ـ انظـر : «ألف ليلة، وليلــة» ص 24 ـ 26 للدكتورة سُهير القَلَمَاوِي.. و«ألف ليلة، وليلة، وفَنّ الحكاية الشعبية» لأحمد رشدي صالح..

90) «تجارة المحيط الهندي في عصر السيادة الإسلامية» د. شوقي عبد القوي عثمان.

منزله فـي «إيسْلاَ نيجرا» ISLA. Negre، وقضائه سـاعات طويلـة متأملا في أمواج المحيط الهادىء... وقد أعيد نشر الديوان في كُتَيبٍ صغير عام 1991.

* * *

لِكُلٍّ بَحْرُه :

البحر من منظـور الأدباء، يتخـذ بُعداً فلسفيا عميقـا، فهو لُغْـزٌ غامض ومنبع إلهام، وعلامـة استفهام شاقة، وَمَحَطة لتأمل الكـون في صَيْرُورَتِهِ وتحوُّلاته، يَلُوذُونَ بـه كلما تَوَتَّرَتْ علاقتُهم باليـابسة، يصغون إلى صمته وصَخَبِه، ويستوحُون من هَدِيرِهِ بلاغةً لاتجودُ بها أمهاتُ الكتب..

لِكُلٍّ بحرُهُ، هذا مـا توحِي به ذخيرةُ «أدَبُ البحـر»، فليس بَحْرُ الأمريكي «إرنست هَمَنغـواي» الملىء بـالأهـوال والمفـاجـآت، هـو بحـر اليـابـاني «يُوكْيُومِيشِيما» الحاملِ للكثير مـن الآمال والأحلام، وعلاقات الحب النبيلة، أو بحرُ «حَنَاً مِينـة» الذي يمتحن فيه صبَر الرجـال، والذي يقول : «لَحْمِي سمك البحـر، دمي ماؤه المـالح، صراعي مع القُـروش، كان صـراعَ حياة.. تعرف معنـى أن يكون المـرءُ بحاراً ؟ إنـه يَتَعَمَّد بمـاء اللُّجَّة، لا بمـاء نـهر الأردن على طريقه «يُوحَنَّا»..

ألا نعرف البحر ؟ ألا نكتب عنه، ألا نغامر، والمغامرة احتجاج ؟ أن يخلو أدبُنا العـربي جديدهُ والقـديم، من صُوَر هذا العـالم الذي هو العـالَم، وما عداه، اليابسة، جزءٌ منه..

* * *

ولعل أحسن من وصف البحـر من المعاصـرين أحمد شوقـي وحافظ إبراهيم، فشوقي قال قصيدة في وصف مَصْرع اللورد كتشنر KITCHENER الذي غرقت سفينته إثر اصطدامها بلغم عام 1916م(91) وأخرى لشوقي في وصف الغواصة: «لوزيتانيا» حيث نسفتها غواصة ألمانية،(92) وانظر، أيضا

91) «الشوقيات» ج : / 200.

92) الشوقيات ج 2 / ص : 133.

قصيدة لحافظ إبراهيم يهنىء فيها الشيخ محمد عبده بعودته من سياحته في بلاد تونس، إذ يصف فيها البحر وصفاً رائعاً،(93) وكذلك القصيدة الأخرى التي يصف فيها زلزال «مِسِّينا» حيث يقول في مطلعها:

نبئاني إن كنتما تعلمان

ما دهى الكون أيها الفرقدان(94)

كما وصف البحر حافظ إبراهيم أثناء رحلته إلى إيطاليا حيث نشر القصيدة عام 1923، حيث يستهلها بقوله:

عاصف يرتمي، وبحرٌ يُغير

أنا بالله منهما مستجير(95)

وللكاتب الكبير المرحوم مصطفى صادق الرافعي مقال طريف بعنوان: أيها البحر...(96)

---

93) انظر القصيدة في الديوان ج : 1 / ص : 24.

94) الديوان : ج : 2 / ص 216.

95) الديوان ج : 2 / 227.

96) «الرسالة» المصرية ع : 111/غشت 19/ 1935، وانظر، أيضا، «وحي القلم».

الباب الخامس :

وجعلنا من الماء كل شيء حي...

لقد انبثقت الحياة زاهية مباركة في الماء بقوله تعالى : ﴿**وجعلنا من الماء كل شيء حي**﴾، فهذه الآية الكريمة تعطينـا في هذه الجملة الموجزة، فكرتين واضحتين عن عـلاقة الماء بـالحياة، الفكـرة الأولى : هي علاقـة الماء بأصل الحياة على هذه الأرض، والفكرة الثانية، هي عـلاقة الماء بالفعاليَات الحيوية التي تجري في «البُرُوتُوبْلاَزم» مادة الحياة.

ولجلالة الماء وسمـوه : اقتضت الحكمة العلية، أن يكـون «العرش» على الماء، ﴿**وكان عرشه على الماء ليبلوكم أيكم أحسن عملا**﴾.

وحــول هذه الآيــة الكريمــة يـدور البحــث في هــذا الباب على أربعــة فصــول :

الفصل الأول : مفهوم فريد للماء.

الفصل الثاني : ألم نخلقكم من ماء مهين.

الفصل الثالث : الماء.. والحياة..

الفصل الرابع : لايأكلون .. ولا يشربون.

الفصل الأول :

مفهوم فريد للماء

إذا ذهبت إلى جزر «هاواي» HAWAI تجد لدى أهل «هاواي» أسطورة تعتبر من أروع وأبلغ ما عرف الإنسان، ولا يملك الإنسان أمامها ألا أن يقف مشدوها في ذهول...! من أين جاءتهم؟ كيف جاءتهم؟!

تقول الأسطورة التي عمرُها ألوف السنين، وربما كان عمرها ثلاثة آلاف سنة: «إن الماء كان أول كل شيء، ومن الماء خرجت كل الكائنات الحية... الأسماك... الطيور، الزواحف، والوحوش، والمرأة، والرجل... أما الأشجار، فقد اسقطتها السحب، وكانت السحب على شكل طيور، وفي منقار كل طائر بذرة...

* * *

ويقال : إنه ليس شيء إلا وفيه ماء... أوْ قَدْ أصابه ماء، أو خلق من ماء، والنطفة ماء، والماء يسمى نطفة...(1)

وأخذ المسيح عليه السلام في يده اليمنى ماءً، وفي يده اليسرى خبزاً، فقال: «هذا أبي، وهذا أمي»(2) فجعل الماء أباً، لأن الماء من الأرض يقوم مقام النطفة من المرأة.(3)

وقالوا : مد الشعبي يده، وهو على مائدة قتيبة بن مسلم يلتمس الشراب، فلم يدر صاحب الشراب اللبَن، أم العسل؟ أم بعض الأشربة؟ فقال

---

1) الحيوان 5/141.

2) النص في إنجيل «متى» (26 – 28) : «وفيما هم ياكلون أخذ يسوع الخبز، وبارك وكسر، وأعطى التلاميذ، وقال: «خذوا وكلوا هذا هو جسدي، وأخذ الكاس وشكر، وأعطاهم قائلا: اشربوا منها كلكم، لأن هذا هو دمي»...

3) الحيوان للجاحظ ج : 5/139.

له: «أيُّ الأشربة أحبّ إليك؟ قال: أعزها مفقودا، وأهونها موجودا... قال قتيبة: «اسقه ماء»...(4)

ونرى العرب حين يقارنون بين الحاجة إلى الماء، والحاجة إلى الطعام، يجعلون الماء عندهم مقدما على الطعام...

وقد قالوا : إن الحاجة إليه أشد، والصبر عنه أشق وأتعب، وكثيرا ما يموت الإنسان عطشاً، وقلما يموت جوعا...

وحين يفاضلون بين حالة الجائع وحالة العطشان، يجعلون حاجة الماء وأهميته تسبق حاجة الطعام، ويقولون: إن العطشان إذا حصل له الري بالماء، تراجعت إليه قواه وحركته ونشاطه، وصبر عن الطعام، وانتفع بالقدر اليسير منه... أما العطشان، فإنه لا ينتفع بالقدر الكثير من الطعام، ولا يحدث له الاغتذاء والقوة...(5)

وفي القرن الأول الهجري دعي الحسن البصري إلى مَأْدبة حافلة بما لذ وطاب، من أنواع الطعام والشراب، وقد رافقه إليها أحد الزهاد المعروفين في منطقة الخليج هو فرقد السِّنْجِي... وقد حضرت المائدة فكانت تتوفر على ألوان من الطعام، يتصدرها لون يعرف في إيران باسم «الفالوذج»،(6) وهو صحن فاخر، إنما يستطيع تقديمه أهل النعمة والثراء، إذ يعتمد على مواد غنية، فيها أحمر اللحم، ورفيع العسل، وطري اللوز، ونقي الدهن علاوة على البهارات والعطور المُكْلِمة...(7) وعندما وقع بصر فرقد على المائدة، قام واعتزل ناحية في البيت... فَسَأَلَ الحسن البصري أصحابه: هل

4) روى هذا في عيون الأخبار : 2/200، الحيوان : للجاحظ 5/137.

5) د. جميل سعيد، مجلة المجمع العراقي. مج: 13، 1966.

6) ضرب من الحلوى، يصنع من الدقيق والماء والعسل، فارسي معرب عن «بالودة» وفي اللسان (مادة فَلَذَ) الفالود والفالوذق، معرب عن «بالودة» وفي اللسان (مادة فَلَذَ) الفالوذ والفالوذق، معربان قال يعقوب، ولا يقال الفالوذج: وانظر: المعرب ص 247.

7) كتاب الطبيخ لابن الكريم الكاتب البغدادي – تصحيح وتعليق. د. داود الجلبي الموصل : 1353 – 1934، ص : 84.

إن فرقداً صائم؟ فقالوا: لا، ولكنه يكره هذه الألوان من الطعام، فأقبل الحسن على فرقد يسأله... فأجابه: إن لسانه إنما يستطيع أن يشكر الله على أكلة متواضعة، أما الفالوذج، فإنه غير قادر على أداء الشكر عليه.

وهنا سأله الحسن البصري : أفتشرب الماء يا فرقد ؟ أجابه : نعم، فقال الحسن: إن نعمة الله عليك في «الماء» أكبر من نعمته عليك في الفالوذج، ثم تلا قول الله تعالى في كتابه الكريم: ﴿**وجعلنا من الماء كل شيء حي**﴾.

وهكذا نجد الحسن البصري يعطي درسا على الطريقة القياسية المنطقية حول هذه «المادة» التي أودع الله فيها سر الحياة، واستمرار البقاء.(8) ولقد قال حمَّاد بن سَلَمَة لفرقد السِّنْجِي : دَعْ نصرانيتك.

* * *

السبب واحد، والمسبب كثير :

حين وصف القرآن الماء بأنه : آية، أظهر ذلك بالصور العملية، التي تؤثر في الحس، وتستجيش الفكر، وتسمو بالإنسان إلى المعنى الرفيع الذي يكمن وراء كل محسوس، ولهذه الآية: ﴿**وجعلنا من الماء كل شيء حي**﴾ التي تتسم بالظهور، وبالدلالة عما وراءَهُ من القدرة مظاهرُ، منها أن السبب واحد، والمسبّب كثير فالله يقول: ﴿**وهو الذي أنزل من السماء ماءً، فأخرجنا به نبات كل شيء... فأخرجنا منه خَضِراً نخرج منه حبا متراكبا، ومن النخل من طلعها قنوان دانية، وجنات من أعناب والزيتون، والرمان مشتبها وغير متشابه، انظروا إلى ثمره، إذا أثمر وينعه، إن في ذلكم لآيات لقوم يومنون**﴾.(9)

---

8) تفسير النسفي عند قوله تعالى : ﴿**يا أيها الذين آمنوا: لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم...**﴾ [سورة المائدة رقم الآية 81].

9) سورة الأنعام – 99.

في هـذه الآية نجـد أن الماء شيء واحـد، قـد تسبب في أشياء كثيـرة متباينـة، النبات الأخضـر المثقل بالحب، والنخـل الداني العـذوق، والجنات المكونة من الأعناب والزيتون والرمان، فهو لذلك آية...(10)

قـال الزمخشـري في تفسيـر هذه الآية : فـأخرجنا بـالماء نبـات كل شـيء، نبت كل صنف من أصنـاف النامي، يعنـي أن السبب واحد، وهـو المـاء، والمسببـات صنـوف مفتنـة، كمـا قـال : **﴿تسقى بمـاء واحد، ونفضـل بعضهـا على بعض في الأكـل، إن في ذلك لآيـات لقـوم يعقلون﴾**.(11)

فالماء في هذه الآية قـد تسبب في جنات مختلفة يفضل بعضـها بعضـا في الخصـائص والطعوم والألوان والروائح والأشكال...

* * *

والقرآن حين بين أن الماء سبب تتولد منه أنواع كثيرة متباينة من الزرع والأشجار والفاكهة، فإنه لم يجعله السبب النهائي في كل ذلك، بل رده إلى إرادة الله وقدرته، ذلك أن جميع الأسباب في القرآن تنتتهي إلى الله وحده، «ألاَ لَهُ الخَلْقُ والأمر»، ولهذا كانت الآيات القرآنية صريحة في ذلك حتى إن القرآن ليلتفت في عدد من المـواضـع، فيقول: «فأَخرجنا» بـاستعمال ضمير المتكلم الدال على التعظيم، بـدلا من ضمير الغـائب الذي بدىء بـه الكلام أولا، كما في قولـه تعالى: **﴿وأنزل من السماء ماء، فأخـرجنا به أزواجاً من نباتٍ شتى﴾**.(12)

فالالتفات في اصطلاح البلاغيين أن تعدل من الغيبة إلى الخطاب، ومن الخطاب إلى الغيبة، أو من الغيبة إلى التكلم، وهو ظـاهرة أسلوبية واضحة جد الوضوح في القرآن، فإذا أمعنا النظر وجدنا أنه يفعل ذلك إظهارا لعظمة

---

10) الكشاف ص : 519 / 1.
11) سورة الرعد رقم الآية 4.
12) سورة طه رقم الآية : 53.

الله في مخلوقاته، وتفخيما لقدرته على أن تستجيب لمشيئته، وتنصاع لسطوته، وتنزل على أمره، وتبياناً لخصوصية أفعال معينة بذاته كما في الآية السابقة، فقد التفت بقوله تعالى: «أخرجنا» منتقلا من الغيبة إلى التكلم مسندا الفعل إلى الضمير «نا» بعد أن كانت الأفعال قبله مسندة إلى ضمير الغائب...

وقد ربط الشيخ رشيد رضا بين الالتفات في القرآن وبين الدلالة على القصد والتدبير، فضلا عن التعظيم، فقال في تفسير الآية السابقة : «فحكمة الالتفات أن تلتفت الأذهان إلى ما يعقب ذلك من البيان، فتنتبه إلى أن هذا الإخراج البديع، والصنع الرفيع، من فعل الحكيم الخلاق، لا من فلتات المصادفة والاتفاق... ولما كان الماء واحدا، والنبات جمعا كثيراً، ناسب إفراد الفعل الأول، وجمع الفعل الآخر، ومعلوم أن الواحد إذا قال «فعلنا» أراد إفادة تعظيم نفسه، إذا كان مقامه أهلا لذلك...(13)

وقال البيضاوي في تفسير قوله تعالى : ﴿**أمن خلق السموات والأرض، وأنزل لكم من السماء ماء، فأنبتنا به حدائق ذات بهجة، ما كان لكم، أن تنبتوا شجرها...**﴾.(14)

عدل من الغيبة إلى التأكيد، لتأكيد اختصاص الفعل بذاته، والشبيه على أنه إنبات الحدائق البهيجة المختلفة الأنواع المتباعدة الطباع، من المواد المتشابهة، لا يقدر عليه غيره، كما أشار إليه بقوله: «ما كان لكم أن تنبتوا شجرها...».(15)

* * *

13) تفسير المنار 4/644، ط : 1.

14) سورة النمل آية : 60.

15) تفسير البيضاوي 2 / 272، ط عام 1285 هط.

مفهوم فريد للماء :

وهكذا نجد أن القرآن قد أعطى للماء مفهوما متميزا عما قبله، مفهوما يمكن أن نقول عنه إنه مفهوم فريد، فقد أظهر أن هذا الماء ليس إلاها، بل هو دلالة على الإلاه الأحد، المتمكن، كما أنه ليس سببا في فناء الإنسان بمجرد ملامسته له، أو سببا في خلوده، كما هو في الأساطير القديمة، بل هو نعمة من نعم الله جعله سببا في الحياة والوجود، وأعطاه من الخصائص ما يحقق نفع الإنسان من ناحية، ويشعره بالقدرة الإلاهية من ناحية أخرى... فمفهوم الماء في كتاب الله يجمع المعنيين، المادي والروحي... فالمعنى المادي يتجلى بكونه نعمة الإنسان ونفعاً له... فالمعنى الروحي يتجلى بكونه يتسامى بالفكر الإنساني إلى آفاق بعيدة أكثر من مجرد الانتفاع... آفاق تربط الإنسان بسبب هذا الوجود كله، وتستشعره المعاني السامية التي وراء هذا الكون، وتفتح أمامه سبلا للخير والتأمل المثمر البناء.(16)

* * *

إني إذا رأيتك، طابت نفسي :

منذ أكثر من ثلاثة عشر قرنا، كان القرآن الكريم يوجه أنظار الكفار إلى عجائب صنع الله في الكون، ويلفت أنظارهم إلى ما في هذه الحياة من بديع صنع الله، ويستنكر الايومنوا بها وهم يرونها في الوجود.

قال الإمام أحمد، حدثنا يزيد، حدثنا همام، عن قتادة عن أبي ميمونة عن أبي هريرة قال: «قلت يا رسول الله: إنِّي إذا رأيتك طابت نفسي، وقرت عيني، فأنبئني عن كل شيء؟ قال: «كل شيء خلق من ماء» إشارة إلى الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿**وجعلنا من الماء كل شيء حي**﴾ وهي، أيضا،

---

16) «الطبيعة في القرآن الكريم» ص : 90.

تقـرر حقيقة خطيـرة، يعـد العلماء كشفهـا وتقريـرهـا أمرا عظيمـا، حيث يمجدون «دارون» لاهتدائِه إليهـا، وتقريره أن الماء هـو مهد الحياة الأول، وهي، أيضـا، حقيقة تثير الانتباه حقـا، وإن كان ورودها في القرآن لا يثير العجب في نفـوسنا، ولا يـزيدنـا يقينـا بصدق هـذا القرآن، فنحن نستمِـد الاعتقاد بصدقـه المطلق، في كل ما يقرره من إيماننا بأنـه من عند الله، لا من موافقة النظريات أو الكشوف العلمية له، وأقصى ما يقال هنا، كذلك، أن نظـرية النشـوء والارتقاء «لـدارون» وجمـاعتهم لا تعارض مفهـوم النص القرآني في هذه النقطة بالذات، فـالماء أحد أركان العالم، بل ركنه الأصلي، فإن السماوات خلقـت من بخـاره، والأرض من زَبَدِه، وقد جعل الله منه كل شـيء حي.

* * *

تعطينا هذه الآية الكريمة في هـذه الجملة الموجـزة : «وجعلنا من الماء كل شـيء حي» فكرتـين واضحتين عن علاقة الماء بالحياة... الفكرة الأولى: هي علاقـــة المـاء بأصل الحيـاة على هذه الأرض... والفكـرة الثانيـة، هي علاقـة المـاء بالفعـاليات الحيويـة التي تجري في «البُـرُوتُوبْـلاَزم» «مادة الحياة»...

أمـــا ما يخـــص علاقـة الماء بأصل الحيـاة، فإن علمـاء البيولـوجي يجمعـون الآن من أن الحيـاة على الأرض بدأت في المـاء، فمنذ أن جمع «أوبـارن» المعلـومات المتـوفرة عن أصـل الحياة، ونشرهـا في كتـابه: «أصل الحياة على وجـه الأرض سنة 1936» فإن جميع من خاض في هذا الموضوع، يقول إن بدايـة الحيـاة، حسب «النظريـة الطبيعيـة» كانت في المـاء....

* * *

أكثر العناصر الأربعة فعالية :

فمن المعروف أن «الهيدروجين» و«النتروجين» و«الأوكسيجين» و«الكاربون» من العناصر الخفيفة، والتي بقيت بالطبقات العليا من جو الأرض، بعد أن انفصلت الأرض عن الشمس وبردت...

كما أن عنصر «الهيدروجين» هو أكثر العناصر الأربعة فعالية، وقد نتج عن ذلك أن اتحد هذا العنصر مع العناصر الباقية مكونا بخار الماء (H_2O) وغاز الأمونيا (NH_3) وغاز الميثان (CH_4)، وطالما كانت الأرض ساخنة، فإن بخار الماء بقي في أعالي الجو، ولكن بعد أن برد سطح الأرض، أخذ بخار الماء يتكثف ويتحول إلى ماء سائل، وقد ملأ هذا الماء السائل الوديان والمنخفضات مكونا البحار والمحيطات، وقد كانت هذه البحار والمحيطات المحل الأمثل لإذابة «الميثان» و«الأمونيا» والأملاح المعدنية، مما ساعد على تكوين المواد العضوية البسيطة مثل السكر، والحوامض الدهنية، والحوامض الأمينية...

فالماء كان هو الأصل في التفاعلات الكيميائية، وكان المحيط اللازم لحدوث التفاعلات المعقدة فيما بعد، حيث بدأت الحياة وتطورت...

* * *

وقد أشار سيد قطب في تفسيره «في ظلال القرآن» من أن الماء هو مهد الحياة الأول، وأن نظرية النشوء والارتقاء لدارون وجماعته، لا تعارض مفهوم النص القرآني في هذه النقطة بالذات...

لولا الماء لما كانت هذه الحياة...

لولا الماء لما كانت هناك مادة تسمى «البروتوبلازم» أو مادة الحياة... وأن التركيب الحي للخلية يضطرب، وتموت الخلية إذا ما فقدت كمية الماء التي فيها...

إن الصفـات والخواص الطبيعيـة والكيمائيـة للماء تعطيـه هذه الأهميـة الكبيرة في تـركيب «البروتوبـلازم» وتجعله يلعب دورا كبيرا في فعـاليات الخلية الحيـوية Metabolisme فـالمـاء هـو المحيط الأمثل الـذي تختلط فيـه المكونات «البروتوبلازمية» مثل الأملاح المعدنية، والبروتينات والسكريات، والدهون والحوامض النووية...

وبكلمة أخـرى، فإن الماء هـو السائل الـذي تذوب، أو تتعلق أو تختلط فيه كلُّ هذه المواد الأخرى الموجودة في الخلية.

ومن جهة أخرى - أيضا - فإن الماء يتميـز بأن له القدرة الفائقة على إذابة العديد من المواد أكثر من أي سائل آخر معلوم، ولولا هذه الخاصة ما كان من المستطاع بقاء أي نوع من أنواع الحياة فوق الأرض. ولا غرو، فإن الكائنات الحية، كبيـرها وصغيرها، تشبه في عملها المصـانع الكيمائية، إذ تتمثل الحيـاة فيها عن طـريق مجمـوعـة متنوعـة عجيبـة، من التفاعـلات الكيميائيـة، لا يتأتى حدوث الكثير منهـا إلا في حضور الماء، الـذي يذيب المواد الداخلة في التفاعل فيهيىء لجزيئاتها فرض الاتحاد ببعضـها البعض، وأكثر من ذلك، فإن الماء يـدخل في تركيب كثير من المركبـات الكيميائية الموجودة في الخلايا الحيـة، فيحتوي جسم الإنسان مثلا على سبعين في المائة من وزنـه ماء، كمـا تحتاج صور الحيـاة كلها إلى المـاء الذي يأتي أصلا من المحيطات كمصدر أساسي له، حتى بالنسبة للنباتات والحيوانات التي تعيش على اليابسة.

الماء مادة غذائية :

وقد قدر العلماء أن تسعـة أعشار الحياة برمتها توجـد في الماء، وهو أمْرٌ يبدو غير معقول... ولكنك إذا أمعنت النظـر قليلا لوجدت أن نحو 70٪ من سطح الأرض يغطيه الماء.

فَمِيَاهُ البحار مليئة بـالطاقة الغذائية التي تغطي حاجـات البشرية، مهما بلغ تعـدادُهـا، على شـريطـة أن لا يلـوث الإنسان ميـاه البحـار والأنهـار والوديان، ويفسـدها بالنفايـات والقاذورات، ويستنزفها كمـا هو الحال في العصور الأخيرة، وَمَا حلَّ بِها من الرَّوَاجِفِ والرَّوَادِف، والكوارث والفواجع...

وقد أشار خبراء الأحياء والإحصـاء أن في البحار عشرين ألف نوع من الأحياء، اصطاد الإنسان منها في عام 1972، بسبعين مليون طن، وفي عام 1990 مائة مليون طن...

وذكروا، أيضـاً أن في كل ليتر من ميـاه البحار ألف نوع من النبـاتات المِجهرية، وعشراتِ الأنواع من الأحياء الحيـوانية، المِجهرية، ومليون خلية نباتيـة، كل خلية تتتوالـد بمعدل مليار خليـة شهريـاً إلى غير ذلك من نعم وآلاء الله... وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها... صدق الله العظيم...

* * *

والأهم من ذلك أن سمك المنطقة التي تـوجد بها الحياة أكبـر كثيرا في الماء منها في اليابسـة...

ولا يخفى على أحد الأهمية الصحيـة والحيوية للماء، فهو مـادة غذائية أوليـة، ثم هو وسيلـة لتنظيف البيت والثيـاب والأجسام، ووسيلـة لتهيىء الطعام، فغياب هذا العنصر يتسبب في نقص صحي، وفي تفشي الأمراض المُعدية، وانتشـار الجراثيم المتنوعة الأشكال والألوان والأهـداف... خاصة مع تراكم النفايات والأزبال...

والماء، قبل كل شيء، هو حامل الحياة وبـاعثها، إذ أن «البروتوبلازم»، وهو محلـول لعدد من المواد معلقٌ في المـاء، هو الوسط الـذي نشأت فيه جميع أنواع الحياة، وارتكزت عليه، ولا يمكن أن يـوجد «بروتوبلازم» بغير ماء، ولا حيـاة «بغير بروتوبـلازم»، وليست الأجسام البشرية وحـدها هي التي تتكون أسـاسا من الماء، ولا يمكن أن تـوجد بغيره، بل يشـاركها في

ذلك، أيضا، جميع أشكال الحياة التي وجدت في أي وقت من الأوقات فوق هذا الكوكب، سواء أكانت حيوانات، أو نباتات، أو بكتريا Bactérie.

لذلك ينبغي علينا أن نضيف إلى مظاهر الماء وصوره كل ما يوجد من جمال وجلال في الكائنات الحية، والسنابل المتوجة، والأشجار المثمرة، والأزهار المتفتحة، والطيور المرفرفة، والأسماك القَافِزَة... فلولا الماء ما وجد أي من هذه...(17)

* * *

إن هناك، اتفاقاً عاما على أن الحياة بدأت في الماء، الواقع أن ما نعرفه عن الحياة قبل أن يبدأ الإنسان في تسجيل تراثه، يكاد يكون مستمدا كلية من الحفريات المحفوظة في الرواسب التي انفصلت من الماء في مختلف العصور الجيولوجية...

ويعتقد أغلب علماء الأحياء أن الحياة بدأت في المياه الملحة للمحيطات الأولى، ولكن قليلا منهم يعتنقون نظرية تقول: «إنها بدأت في الماء العذب»..

والحياة لم تترك الماء قط، ذلك أن جميع صور الحياة تستمر بفضل «البروتوبلازم»، وتمارس نشاطها داخله.

وقد عرَّف أحد المعاجم «البروتوبلازم» Protoplasme بأنه: «مادة زُلالية نصف سائلة تعد الأساس الأول للحياة الطبيعية التي تتطور منها جميع الكائنات الحية» كما عرفه معجم آخر بأنه: «المادة الأساسية لكل من جسم الخلية، ونواة الخلايا الحيوانية والنباتية... ويعد الآن، الشكل الوحيد للمادة الذي تظهر فيه أو عن طريقه ظواهر الحياة».

وتكون المواد الأخرى التي يتكون منها «البروتوبلازم» ذائبة في الماء، أو معلقة به، فالماء أساسي للبروتوبلازم والبروتوبلازم أساسي للحياة...

---

17) طومسون كينج ص : 11.

الماء ونسبته في جسم الإنسان...

الإنسان إذا فقد نحو 5 ٪ من وزنه ماء، فقد صواب حكمه على الأمور، وجف حلقه ولسانه، وتغضن جلده، واهتلس عقله وأصيب بانهيار تام...

أما إذا فقد نحو 10 ٪ من وزنه مـاء صمّت أذناه، وخلَّط وهـذى، وفقد إحساسه بـالألم، ويشرف على الموت والهلاك، ولن ينقذه منهـا إلا جرعة مـاء... أما إذا تجـاوز فقـده 12٪ من وزنـه مـاء، فَقَدَ قُـدْرَتَـه على البلع، فتستحيل عليه النجـاة، حتى إذا وجد الماء إلا بمســاعدة منقذيـه، وهو في هذه الحالة لن يكون بينه وبين الهـلاك المحتم سوى نحو ثلاثة أكواب من الماء...

والعجيب أن ازدياد كمية الماء في الجسم هي أيضا خطيرة بأنها تسبب الغثيـان والضعف، ثم تـؤدي بالتـدريج إلى اختـلاط العقل وفقـد حاســة الاتجاه الصحيح والاختلاجات والتشنجات والغيبوبة ثم الموت...

ويقال إن بعض القبـائل المتوحشــة تعاقب مذنبيهـا بالشــرب القسري للماء...

* * *

الفصل الثاني :

ألم نخلُقْكُم من ماء مهِين

نجد في قولـه تعالى : ﴿وجعلنا من المـاء كل شيء حي﴾(18) ثلاث تاويـلات، أحدها يقـول، وهو لقطرب: «وجعلنـا، من ماء الصلب كل شيء حي، كمـا قـال عليـه السـلام: «كل شيء خلق من المـاء» ولعل من ضمن إعجاز القرآن الكريم أن نجد هذه الآية تحمل أكثر من معنى، وتتضمن أكثر من حقيقة علمية، فـإن النصوص تفيد كذلك طريقـة الخلق ووسيلته، فإنها كذلك المـاء... فكل الكائنات الحية تخلـق من ماء، سواء بالتـزاوج بين ذكر وأنثى، أو من البيضة، لأنها في الأصل والأساس ماء...

اللفظ العلمي لمادة «الخلق» من الذكر والأنثى تسمى بـالماء... لغويا... وعلميا... فّهذا ماء الرجل... وذلك ماء الأنثى... وقد بلغت دقة القرآن الكريم في لفظه، مـا يجعله معجزا كذلك في بيـانه حينما يقرر طبيعـة درجة هذا الماء... فيقول النص الشـريف: «ألم نخلقكم من ماء مهين»(19) وهو تذكير للمكذبيـن، وتعجيب من غفلتهم وذهولهم عن أن مَن خلقهم من مـاء مَهِين بهـذه الطريقـة، لابـد أن يكـون قادراً على إعـادة خلقهم للبعث والحسـاب ومراده بـ: الماء: «المـويهة» التي يتكـون منها «الإنسـان»، و«مهين» على وزن فعيل، ومعناه حقير، أو ضعيف، أو قليل... وتـاكيدا على أن هذ الخلق من الماء المهين هو في خلق النسـل، أما أصل الخلق الأول، فهو من طين، وذلك في النص الكريم: «الـذي أحسن كل شيء خلقه، وبـدأ خلق الإنسـان من طين، ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين»...(20)

---

18) سورة الأنبياء. رقم الآية 30. ص : 284 – 285 / 11، القرطبي.

19) سورة المرسلات رقم الآية 20.

20) سورة السجدة رقم الآية : 7 – 8.

إذن، فأساس الخلق هو الماء، ووسيلته كذلك الماء، وهو ما سبق القرآن الكريم القول به، ومن إعجاز القرآن الكريم أن يقرر حقيقة هذا الماء، بأنه مهين، كماً ومكانا، فماء الرجل الذي يلقح الأنثى، إنما هو نصف خلية تافهة لا ترى إطلاقاً إلا تحت أقوى المجاهر... وكذلك ماء الأنثى، إنما هو نصف بويضة، لا ترى كذلك، فهذا الماء مهان في كميته، وقدره وحجمه ووزنه... أما مكانه، فإنه يخرج في الرجل من مجرى بوله، وفي المرأة من مسالك بولها وحيضها فهو مهان في مكان نزوله، وخط سيره، ومكان لقائه...

وصدق الله العظيم إذ يقول : **﴿ألم نخلقكم من ماء مهين، فجعلناه في قرار مكين، إلى قَدَرٍ معلوم، فَقَدَرنا، فنعم القادرون﴾**.

ومعنى كون الماء مكينا في الرحم أن يستقر فيه، بوضع محكم، ونظام ثابت، يحفظه من التغير والفساد، ويهيئه لقبول التطورات المختلفة، حتى يصبح جنينا، ثم يولد بَشَراً سَوِّيا...

فالماء الذي جعل في الرحم يستمر بعد أن يستقر فيه إلى قدر معين محدد... وقالوا في تلك المدة إنها من 273 يوم، وهي عبارة عن تسعة أشهر شمسية أَيْ 280، وهي عشرة أشهر من الشهور القمرية، أو أربعون أسبوعا... ثم إن هذا الترتيب في جعل الماء المهين في الرحم، وضرب أجل معين له حتى ينضج، ويختمر، وينشأ خلقا سويا، وإنسانا مفكرا أحوذيا،(21) دال على ما للخالق جل شأنه من صفات الحكمة والتدبير والتقدير التي يستحق عليها سبحانه وتعالى أكرم ثناء، وأعظم مدح... ومن ثم قال تعالى: «فقدرنا» بالتخفيف، وهو بمعنى، قدرنا بالتشديد أيضا... «فنعم القادرون» نحن، أي المقدرون، يقال: «قدر الشيء»، و«قدّره» بمعنى

---

21) أحوذياً : أي حاذقا، مشمراً للأمور، قاهراً لها : يسوقها أحسن مساق بحيث لا يشذ عليه شيء منها.

واحد، هو تهيئة الشيء وضم أجزائه، والتأليف بينها على مقاييس ومقادير ونِسَب وأوضاع محكمة مدبرة، تبلغ بذلك الشيء درجة كماله، وإيفائه الوظيفة التي أوجد لأجلها... وهكذا الشأن في أمر التوليد والولادة وتكون الجنين في الرحم، وتطوره في الأشكال المختلفة – كل ذلك بترتيب عجيب، وتدبير غريب، يشهد بسمو الحكم الإلهية، وجليل النعم الربانية، التي يستحق مكذبها، والمماري فيها الويل والخسران.(22)

* * *

وتبلغ دقة ألفاظ القرآن مداها في هذه النصوص في بيان حالة خروج هذا الماء، وذلك في النص الشريف: «فلينظر الإنسان مم خلق، خُلِقَ من ماء دافق».(23)

الله جل شأنه ينسم لنا أن كل نفس من الأنفس عليها رقيب، وليس في النفوس نفس أهلمت من رعاية ذلك الرقيب المدبر لشؤونها... فإذا ارتاب مرتاب في ذلك، «فلينظر الإنسان مِمَّ خُلِق» فقوله: فلينظر الإنسان، بمنزلة الدليل على الدعوى المقسم عليها زيادة في التأكيد...

ووجه ذلك أن الماء الدافق من المائع الذي لا تصوير فيه، ولا تقدير للآلات التي يظهر فيها عمل الحياة كالأعضاء ونحوها... ثم إن هذا السائل ينشأ خلقاً كاملا كالإنسان، مملوءً بِالحياة والعقل والإدراك، قادرا على القيام بخلافته في الأرض...

فهذا التصوير والتقدير، وإنشاء الأعضاء والآلات البدنية، وإيداع كل عضو من القوة ما به يتمكن من تأدية عمله في البدن، ثم منح قوة الإدراك والعقل، كل هذا لا يمكن أن يكون بدون حافظ يراقب ذلك ويدبره وهو الله جل شأنه.

---

22) جزء «تبارك» تفسير المرحوم الأستاذ الشيخ عبد القادر المغربي نائب رئيس المجمع العلمي العربي بدمشق، وعضو المجمع اللغوي بالقاهرة ص : 129.

23) سورة «الطارق» رقم الآية 5 – 6.

ويجوز أن يكـون قولـه : «فلينظر الإنسان مم خلق» مـن قبيل التفريع على ما ثبت في القضية الأولى، كأنـه يقول، فإذا عرفت أن كل نفس عليها رقيب، فمن الواجب على الإنسـان أن لا يهمل نفسه، وأن يتفكـر في خلقه، وكيف كان ابتـداء نشوئه، ليصل بـذلك إلى أن الذي أنشأه أول مـرة قادر على أن يعيده، فياخذ نفسه بصالح الأعمال والأخلاق، ويعدل بها عن سبل الشر، فإن عين الرقيب لا تغفل عنها في حال من الأحوال...

وكنى الحق سبحانـه في الآية : ﴿**ماء دافق، يخـرج من بين الصلب والترائب**﴾.

فالصلب : هو كل عظم من الظهر فيه فقار... ويعبر عنه في كلام العامة بسلسلـة الظهـر، وقـد يطلـق بمعنـى الظهـر نفسه إطلاقـاً لاسم الجزء على الكل...

والتـرائب : مـوضع القـلادة من الصـدر، وكنى بـالصلب عن الـرجل، وبـالترائب عن المـرأة... أي أن ذلك المـاء الـدافق إنما يكـون مـادة لخلق الإنسان إذا خرج من بين الرجل والمرأة، ووقع في المحل الذي جرت عادة اللـه أن يخلقه فيـه، وهو رحم المـرأة، فقـوله تعـالى: ﴿**يخـرج من بين الصُّلب والترائب**﴾ وصف لابد من ذكـره لبيان أن الإنسـان إنما خلق من الماء الدافق المستوفى شرائط صحة الخلق منه...(24)

وتدل المشاهدات... وتؤكد الـدراسات أن لفظ القرآن الكريم الذي ينص على تدفق هـذا الماء من الـذكر والأنثى هو اللفظ الـوحيد، ولا غيـره الذي يؤدي إلى هـذا المعنى الدقيق بهـذا القول الـدقيق... فإن الماء مـن الرجل والأنثى، لا ينهمر في مـدرار... ولا يسيل في انكسار، ولا ينـدفع عنيفا، ولا يتساقـط رهيفاً ضعيفا، ولكنـه يتدفق... كمـا قال الحـق سبحانه وتعـالى بلفظته.

---

24) جزء «عم» للإمام الشيخ محمد عبده ص : 49.

وصدق الله العظيم : فلقد كان المشركون يستهزئون ويتكبرون عليهم.... فقال لهم الحق سبحانه: ﴿**إنا خلقْنَاهُم مما يعلمون**﴾، من القَذَر، فلا يليق بهم التكبر، فإنما خلقت، يا ابن آدم من قذر، فاتق الله...

روى أن مُطَرِّف بن عبد الله بن الشِّخِّير، رأى المهلّبَ ابنَ أبي صُفْرة يتبختر في مِطْرفِ خَزٍّ، وَجُبَّة خَزٍّ، فقال له: يا عَدُوَّ الله، ما هذه المشية التي يُبغِضُها الله! فقال له: أتعرفُني؟ قال نعم، أوَّلُكَ نُطْفة مَذِرَة، وآخِرُك جِيفةٌ قَذِره، وأنت، فيما بين ذلك، حاملٌ لِلْعَذِرَة، فمضى المهلب، وترك مِشيتَه... نظم هذا الكلام محمود الورّاق فقال.

عجبتُ من مُعْجبٍ بِصُورتِهِ
وكان في الأصل نُطفَةً مَذِرَهْ

وَهْوَ غداً، بعد حُسْن صورتِه
يَصِيرُ في اللّحْدِ، جيفةً قَذِرَهْ

وهو على تِيهِهِ ونَخْوَتِهِ
مَا بَيْنَ ثَوْبَيهِ يحمل العَذِرَهْ

* * *

الكراسة الرمادية :

تلتبس بعض الفهوم من الآيات البينات من كتاب الله الحكيم على بعض الجهلة الذين لا يدركون أسرار القرآن، ولا يعرفون كنه المفردات اللغوية، فيلجأون إلى الأكاذيب والمفتريات ولا غير ذلك، ولا سيما في موضوع خلق جميع الحيوانات من الماء...

ومن هؤلاء المارقين جماعة من الملحدين الشيوعيين الذين هاجموا القرآن الكريم فيما أسموه: «بالكراسة الرمادية» التي أعدوها في الموصل بالعراق ليتم توزيعها في أحد مواسم الحج، وكما هو الشأن منهم، وفيهم،

فلقد حوت تلك الكراسة الأكاذيب والأراجيف والبهتان والمفتريات على كتاب الله تعالى.

وكان مما هاجموا به القرآن ما جاء بها، ونصه :

«كتب في القرآن أن الله خلق جميع الحيوانات من الماء... وفي سبعة أماكن مختلفة يذكر القرآن كيف خلق الإنسان، ويناقض القرآن نفسه في هذا الخصوص إذ يقول في المرة الأولى: «إن الله خلق الإنسان من التراب... وفي الثانية: من الطين، وفي الثالثة من خلاصة الطين، وفي الرابعة من الطين اليابس، وفي الخامسة من طين لزج ورطب، وفي السادسة من طين نتن من تراب الفخار... وفي السابعة من الماء... وتدل جميع هذه المتناقضات على أن القرآن لم يؤلف في وقت واحد من قبل شخص واحد....!!

سبحان ربك رب العزة عما يصفون، وتعالى الله عن ذلك علوا كبيرا، وكبرت كلمة تخرج من أفواههم، إن يقولون الا كذبا...

إن هذا الذي يهاجمون به القرآن الكريم هو ما أثبته العلم الحديث، من سبق القرآن له بإيراد هذه الحقائق التي لم يكن يعرف العالم ولا العلماء عنها شيئا حتى سنوات النصف الأخير من القرن الحالي عندما دخل الجسم الإنساني إلى معمل التحليل، والفحص والبحث، ووجد أن جسم الإنسان لا يتكون كما كان مشاعا من عظم، يحس، ولحم يرى، ودماء تلاحظ، وماء يخرج، وإنما يتكون من عناصر الكربون، والأوكسجين، والإيدروجين، والفسفور، والكبريت، والأزوت، والكالسيوم، والبوتاسيوم، والصوديوم، والكلور، والمغنسيوم، والحديد، والمنغنيز، والنحاس، واليود، والفولورين، والكوبالت، والزنك، والسلكون، والألمونيوم... وهذه هي نفسها العناصر المكونة للتراب تماما دون زيادة أو نقصان، وإن اختلفت نسبها في إنسان عن آخر، وفي الإنسان عن التراب، إلا أن أصنافها واحدة يقينا...

ألا يكـون الإنســان الأول بذلك قـد خلق تـراب حيث إن الجسم الإنســاني يتكون من عناصــره... وهذا الذي وصل إليه العلم بعد استخـدامه أساليب التحليل الكيمـاوي، والفحوص المعمليـة في أيامنـا المعاصـرة قد قـال به القرآن الكريم في ست آيات كريمـة تقرر حقيقة خلق الإنسان من تراب في مثل النص الشـريف: «ومن آيـاتـه أن خلقكم من تـراب، ثم إذا أنتم بشـر تنتشرون»،(25) ويشير النص إلى أن استمـرار الخلق، إنما يكـون كذلك من تراب... وليس أمر الخلق من تراب بقاصر على خلق آدم وحواء، ويؤكد ذلك النص الكريـم: «هو الذي خلقكم من تـراب، ثم من نطفة، ثم مـن علقة، ثم يخرجكم طفلا، ثم لتبلغـوا أشدكم، ثم لتكونوا شيـوخا، ومنكم من يتوفى، من قبل، ولتبلغـوا أجـلا مسمى، ولعلكم تعقلـون».(26) ولمـا كـان النص ينسحب على كل إنســان على وجـه الاطـلاق، واليقين، بـدليل الخلق من النطفة، يقرر النص أن قبل النطفة يخلق الإنســان من تراب، فقد أثبت العلم كذلك سبـق القرآن له في إعـلان هذه الحقيقـة العلمية، إذ أن النطفـة، إنما تنشأ من اتحاد الحيوان المنـوي الذي يفرزه الذكر بالبويضـة التي تفرزها الأنثى... وهذه الحيـوانات المنوية والبويضـات الأنثوية تتولـد جميعها من الدم، الذي يتكون من الماده اللبنية النـاتجة من الكيلوس... وهو عبارة عن نواتج هضم الغذاء، الذي هو نبات وحيوان وماء... وكلها مكونة من عناصر التراب... فـالإنسان الأول أول البشر خلق من تـراب بدليل تحليل عنـاصر جسم الإنسان، والتي تتكون من عناصر التراب... ثم توالى خلق ذريته من النطفـة التي هي خـلاصـة التـراب، ولا شك أن تشكيل التـراب ليتمـاسك ويصبح جسدا، لابد أن يعـالج بالماء، والتراب إذا أضيف إليـه الماء أصبح طيناً... وهـذا ما قـرره القرآن الكريم، إذ ورد خلق الإنســان من الطين في

---

25) سورة الروم رقم الآية : 20.

26) سورة «غافر» رقم الآية : 67.

ست آيات أيضا بمثل النص الشريف: «هو الذي خلقكم من طين، ثم قضى أجلاً، وأجل مسمًّى عنده، ثم أنتم تمترون»(27) وهذا الطين ظل في الماء، ولكنه مصبوب على شكل الإنسان بالنص الكريم: «ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حمأ مسنون».(28)

وقد تكرر الحمأ المسنون ثلاث مرات في القرآن الكريم جاءت كلها في سورة الحجر، ومن صفات هذا الطين عند التشكيل التماسك فلا يزيد الماء فيه، ولا يفسد طول فتوته فيه بهذه الخاصية، فهو بذلك يكون طيناً لازبا، أي متماسكا، وهذا ما نشاهده على الطبيعة، إذ أن الجسم رغم تكونه من عناصر التراب لا يذوب في الماء، ولا يتغير شكله، ولا تتبدل هيئة الإنسان به، وهذا ما تقرره الآية الشريفة: «إنا خلقناهم من طين لازب».(29)

والطين إذا جف، ولابد أن يجف، فإنه يصبح صلصلا، أي له صلصلة إذا نقر عليه كالفخار، وهذه حقيقة مشاهدة على كل تشكيل طيني يجف، ويقولها ويقررها القرآن الكريم كذلك بالنص الشريف:(30) **﴿خلق الإنسان من صلصال كالفخار﴾**.(31)

الإنسان من... تراب :

يقول أبو العلاء المعري بأن التراب يؤمِّن لِمَنْ فوقَه الرزق، ولمن ينطوي فيه العَوْن، فَهُوَ مَلْجَأُنَا الأمين، أحياءً وأمواتا، ففي اللزوميات:

والدُنا هذا الترابُ، ولم يزلْ
أبَرَّ يداً، من كلِّ مُنْتَسِبِيهِ

---

27) سورة «الأنعام» رقم الآية : 2.
28) سورة «الحجر» رقم الآية : 26.
29) سورة الصافات رقم الآية : 11.
30) انظر : «افتراآت على آيات خلق الإنسان»، للدكتور عبد الرزاق نوفل.
31) سورة الرحمن رقم الآية : 14.

يـؤدي إلى مَن فَــوْقَــه رزقَ ربِّــهِ
أميـنـاً، ويُعطي الصَّــونَ مُحْتَجِبِيــهِ

ومالنـا نذهب بعيـدا، وأمامنا آيـة صريحة في المـوضوع، وهي قـوله سبحانـه وتعالى: ﴿**والله أنبتكم من الأَرض نباتـا، ثم يعيـدكم فيهـا، ويخرجكم إخراجاً**﴾(32) ومعنى الآيـة أنكم وإن كنتم بشـرا في حقيقتكم، فأنتم نبات، بـاعتبار اتكـالكم في حياتكم الحيـوانية على عنـاصر الأرض، كاتكـال النبات في حياته النبـاتية عليها... فـالله سبحانه الـذي أنبتكم هذا الإنبات وييسر لكم من عناصر الأرض الأرزاق والأقوات، ثم خصكم تفضلا منه وكرماً بالحياة الحيوانية، ثم زادكـم كمالا بإفاضة الحياة الإنسانية، ثم آثركم بمواهب النفس والعقل وسائر الحواس الظاهرة والباطنة... الإلاه الذي هـذا مبلغ عنايتـه بكم، وذاك قـدر إنعـامه عليكم – يجـدر بكم أن تعبـدوه وحده، وترهبوا وعيده ووعده.(33)

و«نباتاً» مصدر «نبت» الثلاثي، لكنه أقيم مقام مصدر: «أنبت» الرباعي، وجـاء تأكيـدا له، فقيل: أنبتكم نبـاتـاً مكـان أنبتكم إنباتـاً... وقـال بعض المدققين: هو مصدر الثلاثي، وجعلـه من نوع الاحتباك البديعي، وقال: إن أصل الكلام هكذا: «والله أنبتكم من الأرض إنباتاً، فنبتم نباتا» فهما فعلان، لكل مصدره، لكنـه حذف المصـدر الأول لدلالـة فعله عليـه، وحذف الفعل الثاني لدلالة مصدره عليه، وبذلك جاء الكلام موجزا في مبناه، موفرا وافيا في معناه...(34)

أما وقـد ذكر سيـدُنا نـوح لقومـه عجيب صنع الله في إخـراجهم من الأرض إخـراج النبات... فقـد تمهد لـه السبيل إلى تـذكيرهم بأمـر البعث،

---

32) سورة «نوح» رقم الآية : 18.

33) «ووعده» منصوب بفعل محذوف على حد : «علفتها تبنا وماء بارداً، أي وتأملوا وعده...

34) جزء «تبارك للمرحوم الأستاذ عبد القادر المغربي – دار مطابع الشعب.

والحشـر والنشـر الذي كـان القـوم ينكـرونه، فقـال: «ثم يعيـدكم فيهـا، ويخرجكم إخراجاً».

فالإنسـان إذا كان يشتـرك مع النبات في بعض الخصـائص والأحوال، فإنه يفارقه بالمواهب السامية التي مَازَهُ الله بها... ومن تلك المواهب حريته في الانتقال والمشي علـى سطح الأرض من جهة إلى جهة، ومـن رجا إلى رجا، ولم يخلقه سادكا(35) بمكانه كالنبات لا يبرحه إلى أن يموت...

يخلص مما سبق أن جميع الحيـوانات مخلوقـة من ماء، فلقد قـال ربنا سبحانه: ﴿**والله خلق كل دابـة من ماء**﴾،(36) ويعمم القرآن الكـريم خلق كل حي من المـاء في النص الشريـف: «وخلقنا من المـاء كل شـيء حي»، وحتى يتأكد الإنسـان أن هذه الحقيقة تشمل خلق البشر كذلـك، فقد قالت آيات القـرآن الكريم بذلك، وأكدت عليـه بمثل النص الشريف: ﴿**وهو الذي خلق من الماء بشراً**﴾.(37)

* * *

وتقترن قدرة اللـه سبحانه وتعالى بتدبيره في مثـال واحد من الطبيعة، وهو مـا يتجلى في كون كل حيوان من مـاء، ووقوعه على أشكـال وأنواع مُتَبَايِنة، وتفاوته في المشـي والانتقال تفاوتا واضحـا...

﴿**والله خلق كل دابة من ماء**﴾... [سورة النور، آية : 45]

قال جمهور النَّظَرة : أراد أن خلقه كل حيوان فيها ماء، كما خلق آدم من الماء والطين... وعلى هذا يتخرج قول النبي عليه السلام للشيخ الذي سأله في غزاة بدر: «ممن أنتما؟ فقال رسول الله ﷺ: «نحن من ماء» وقال قوم: لا يُسْتَثْنَى الجن والمـلائكة، بل كل حيـوان خلق من الماء، وخلق النـار من

35) سَدِك به : كفرح. لزمه ولم يفارقه، ومنه قول الحريري: «فسدكت بمكاني، وجعلت شخصه قيد عياني».

36) سورة «النور» رقم الآية : 45.

37) سورة الفرقان رقم الآية : 54.

الماء، وخلق الريح من الماء، إذ أول ما خلق الله تعالى من العالم الماء... ثم خلق منه كل شيء.(38) عظيم...

وقد ناقش الألوسي المعنى المقصود من قوله تعالى : ﴿**كل شيء حي**﴾، حتى إنه اهتم باستبعاد الملائكة والجن على أساس منطقي، فَمَعَ أنهم أحياء، إلا أنهم، ليسوا مخلوقين من الماء ولا محتاجين إليه على الصحيح...

وَنَظَراً لالتباس معنى «الحياة» عند الأوائل، مال إلى قصرها على الحيوان، لأنه متصف بالحياة الحقيقية، ونقل عنه البيضاوي هذا الرأي فيما بعد، ولكنه ذكر رأي قتادة بأن المعنى هو خلقنا كل نامٍ من الماء، فيدخل النبات، ويراد بالحياة النمو أو نحوه.

خلق كل دابة من ماء : فمنه الزواحف على بطنه، ومنه الماشي على اثنين، ومنه الماشي على أربع، ومنه الماشي على أكثر من ذلك، وإن لم يشر القرآن إلى النوع الأخير، مع دلالته على القدرة دون شك... إنه لما كان الظاهر في الحيوان أن يعتمد على الأربع حذف من الكلام ما يمشي على أكثر،(39) أو أن كل حيوان، وإن تعددت قوائمه يعتمد في مشيه على أربع كما هو قول الفلاسفة...(40)

وعلى كل حال، فإن التفاوت بين هذه الأجناس المختلفة ينبىء بالقدرة الإلاهية التي أحدثته، ويدل على القصد والتدبير أيضاً... إذ لو كان الأمر مجرد صدفة، أو محض اتفاق، ولم يكن بفعل إلاه قادر مدبر لما اختلفت هذه الأجناس في أشكالها، هذا الاختلاف التي هي عليه، ولوقعت جميعها على صورة واحدة، وشكل واحد، أو كان التباين بينهما جزئيا خافيا، بحيث لا يلفت النظر، ولا يثير التأمل...

---

38) القرطبي ص : 291 / 12.
39) الطبرسي في مجمع البيان.
40) المصدر السابق...

وليس من شك في أن الاختلاف بين الأشياء، أظهر للقدرة، وأدل عليها، ولذلك بينه الله سبحانه وتعالى في الآية ودل عليه... فالقرآن يقول: ﴿**والله خلق كل دابــة من ماء، فمنهم من يمشي على بطنــه، ومنهم من يمشي على رجلين، ومنهم من يمشي على أربع، يخلق الله مــا يشاء، إن الله على كل شيء قدير**﴾.(41)

وهذه حقيقة ضخمه دالة على القدرة والقصد في الخلق... حقيقة أن كل شيء من ماء، قد تعني وحدة العنصر الأساسي في تركيب الأحياء جميعا، وهو الماء، وقد تعني مــا ذكره بعض المفسرين من أن كل حيوان خلق من نوع من الماء خاص، وهو النطفة...(42)

وقد تعني مــا ذكره بعضهم من أن كل مخلــوق أصله من المــاء، فطينة آدم من الماء، وكذلك الحيوان.(43)

وقد تعني ما يحاول العلم أن يثبته اليوم من أن الحياة نشأت في الماء، ثم تفرعت أجناسا وتنوعت...

وإظهاراً لهــذه القدرة، فقد رتب القرآن الكــريم هذه الأجناس المتفــاوتة ترتيبا، فقدم ما هو أظهر منهــا لقدرة الله، وهو الزاحف، لأن الماشي بغير آلة مشي، أمره أعجب من غيره، ثم ذكر ما يليه في ذلك، وهو الماشي على رجلين، ثم مــايليهما، وهو المــاشي على أربع، فكأنــه يعرض هــذا المنظر لتتملاه العين ببطء، ولتدرك ما فيه من آيات القدرة وبينات التدبير...

قــال الــزمخشري : فــإن قلت : لم جــاءت الأجناس الثــلاثــة على هــذا الترتيب؟ قلت: قدم مــا هو أعرف في القدرة، وهو المــاشي بغير آلة مشي من أرجل وقوائم، ثم الماشي على رجلين، ثم الماشي على أربع...(44)

---

41) سورة النور رقم الآية : 45.

42) الزمخشري – الكشاف ص : 392 / 2.

43) المصدر السابق، والطبرسي في مجمع البيان.

44) الزمخشري – الكشاف 2 / 392.

الأسباب تنتهي جميعا، إلى السبب الأول :

وإحياء الأرض الهامدة بنزول الماء عليها، ذلك أن الماء عنصر لا حياة فيه بذاته، وإنما هو سبب حياة، كما عبر عنه بقوله: ﴿**وجعلنا من الماء كل شيء حي**﴾. ثم مع أنه لا حياة فيه بذاته كان سبباً في إحياء الأرض التي لا حياة فيها أيضا، فإذا هي تهتز بالنبات الحي الناضر الجميل...

فالماء هو السبب في خروج النَّبات، وإن كان بالطبع ليس هو السبب النهائي، لأن الأسباب تنتهي جميعا إلى السبب الأول، وهو الله سبحانه...

ومن الغريب أن عدداً من المفسرين ذكروا أن الله سبحانه يمطر يوم القيامة مطرا تنبت به الأجسام، وصوروا ذلك الماء بصورة سَمْجَة يجفوها الذوق كالذي ذكره الزمخشري(45) من أنه قيل: يحيى الله الخلق، بما يرسله من تحت العرش كمني الرجال تنبت منه أجساد الخلق!!! ومما يثير الاستغراب أن رجلا محققا مثل ابن كثير يذكر ذلك أيضا(46) دون أن يعلق عليه بشيء، فكأنه من المسلمات عنده مع أنه تصدى بالرد والتفنيد لكثير من المسائل الدخيلة على التصور الإسلامي، وبخاصة الإسرائيليات...

ولقد رد الرازي في تفسيره الكبير(47) على هذا الرأي الذي قالوه، وبين أنه لا داعي له مع القول بقدرة الله تعالى على إيجاد الحياة، وهو أمر نتلقاه بالتقدير والإعجاب...

ولا يستبعد أن تكون هذه الرواية من جملة الإسرائيليات التي حشيت بها كتب التفسير للأسف الشديد... وحان الوقت لاستبعادها وتنقية تفسير كلام الله منها... أو أن هناك من أراد أن يطابق بين صورة البعث، وصورة إخراج النبات بالماء النازل من السماء... فابتدع خياله الماء النازل من تحت العرش الذي تحيا به الأجساد وتنبت كما هو زعمه...

---

45) الكشاف ص : 241 / 4.

46) تفسر ابن كثير ص : 57 / 8.

47) مفاتيح الغيب ص : 241 / 4.

تاليس يتفلسف :

كان تاليس(48) أول من تفلسف في ملطية، وكـان يقول: «من كمال ذات الأول الحق، أنَّـهُ أبـدع مثل هذا العنصـر، الـذي فيـه صـور المـوجـودات، والمعلومات كلها فما يتصوره العـامة في ذاته تعالى أن فيها الصور، يعني صور المعلومات، فهو في مبدعه، ويتعـالى الأول الحق بوحدانيته وهويته عن أن يـوصف بما يـوصف بـه مبدعـه... ومن العجب أنـه نُقِل **عنه أن المبدع الأول هو الماء...** قال: الماء قابل لكل صـورة، ومنه أبدع الجواهر كلها من السماء والأرض ومـا بينهما، وهو علة كل مبـدع، وعلة كل مركب من العنصـر الجسماني، فـذكـر أن من جمـود الماء تكـونت الأرض، ومن انحلاله تكون الهواء، ومن صفرة الهواء تكونت النار، ومن الأبخرة والدخان تكونت السماء، ومن الاشتعال الحاصل مـن الأثير تكونت الكواكب، فدارت حول المركز دوران المسبب على سببه، بالشوق الحاصل إليه، قال: والماء ذكر... والأرض أنثى، وهما يكونان سفلا... والنار ذكر، والهواء أنثى، وهما يكونان علوا...(49)

وقد عقب الأستاذ أحمد أمين(50) رحمه الله تعالى فقال: كان الماء عند طاليس هو المادة الأولى التي صدرت عنها الكائنات، وإليها تعود، وقد ملأ عليه شعاب فكره حتى خُيِّل إليـه أن الأرض قرص متجمد يسبح فوق لجج مائية ليس لأبعادها نهاية...

ويرجح أرسطو أن يكون طاليس قد خلص إلى هذه النتيجة لما رأى أن الحياة تـدور مع الماء، وجودا وعدمـا، فتكون الحياة حيث المـاء، وتنعدم حيث ينعدم...

---

48) 624 ق. م – 550 ق. م تقريبا... وتاليس "Thalès"، وُلِد في مِيلات (اليونان) فيلسوف وحساب يوناني من المدرسة الأيونية – اشتهر بالنظرية الهندسية المعروفة باسمه.

49) الملل والنِحَل، للشَهْرَسْتَانِي تحقيق محمد سيد كيلاني رحمه الله ص : 62 – 63 / 2.

50) قصة الفلسفة اليونانية ص : 20.

وإنما أراد طاليس – كما يظهر بهذه الإشـارات بقوله : الماء هو المبتدع الأول، أي هو مبدأ التـركيبات الجسمانية، لا المبـدأ الأول، في الموجودات العلويـة، لكنه لمـا اعتقد أن العنصـر الأول هو قابل كـل صورة، أي منبع الصور كلها، فأثبت في العالم الجسماني لـه مثالا يوازيه في قبول الصور كلها، ولم يجـد عنصرا على هـذا النهج مثل الماء، فجعلـه المبدع الأول في المركبات، وأنشأ منه الأجسام والإجرام السماوية والأرضية،(51) وقد خالفه في المبدأ الأول أنكساغُورَس(52) فقال: إن مبدأ الموجودات هو أول متشابه الأجزاء، وهي أجزاء لطيفة لا يدركها الحس، ولا ينالها العقل...(53)

ويمكن أن نقول بأن «تـاليس» الملطي قد تلقى مـذهبه هـذا من التوراة في السفر الأول منها: «إن مبدأ الخلق هو جوهـر خلقه الله تعالى، ثم نظر إليه نظـرة الهيبة، فذابت أجزاؤه، فصـارت ماءً، ثم ثار من المـاء بخارٌ مثل الدخان، فخلق منــه السماوات، وظهر على وجه الماء زَبَـدٌ مثل زَبَد البحر، فخلق منه الأرض، ثم أرساها بالجبال...(54)

لقد كـان أنكساغـورس ANAXAGORAS. تلميذاً لطـاليس، لأنه عـاصره، وعاش معــه، وقد خــالف أستاذه في كون المــاء أصل الوجـود، فمهما بلغ الماء من المرونة، وقابلية التشكـل، فهو ذو صفات معروفة معينة تستطيع أن تميـزه بهـا عن المـواد الأخرى... ومعنى ذلك أن ثمـة صفـات تنـاقض صفات الماء، لأنك، لا تدرك الصفة إلا إذا أدركت نقيضـها، فلا تفهم الحرارة إلا إذا اقترنــت في ذهنك بالبـرودة، فإذا انعدم هذا التقـابل انعدمت كـذلك

---

51) الملل والنحل. ص : 64 / 2.

52) انكساغوراس، ولد في كَلاَ زُمينة (ايونيا) من فلاسفة اليونان، قيل إنه أول من علم الفلسفة في أثينا بطـريقة جليـة، وقيل إن سقراط تأثر لقـراءة أحد مـؤلفاته، ارتكـزت تعاليمــه على وجود مبدأين، أحدهما: المجمـوع الأصلي، وهو اختلاط كل عناصر الكون، والآخـر العقل، وهو كائن جسمي يختلف عن الجموع اعتبره مصدرا لكل حركة (428. ق. م).

53) الملل والنحل ص : 65 / 2.

54) نفس المصدر ص : 64 / 2.

الخصائص والصفات، ومادام الأمر كذلك، فلا يعقل أن تكون المخلوقات جميعا على تناقض صفاتها مشتقة من أصل واحد ذى جهة معينة معروفة... وإنما أصل الكون مادة لا شكل لها، ولا نهاية... ولا حدود...(55)

* * *

العلوم يخدم بعضها بعضا :

لقد ورد في كتابنا المقدس، الذي لا ياتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، عن قضايا الكون والخلق والحياة ما يعتبر اليوم من الحقائق العلمية الثابتة المسلم بصحتها، ذلك لأن مثل هذه الحقائق إنما تنصاع للقوانين الطبيعية التي تتحكم في خواص المادة والطاقة، والنواميس المضبوطة البالغة الدقة والتعقيد...

لقد أضحى من الواضح الجلي في وقتنا المعاصر أن العلوم يخدم بعضها بعضا، وكلها في النهاية تؤدي إلى وحدة متماسكة مترابطة وهدف واحد... ولكي نصل إلى الحقيقة المجردة نجد ألا غنى لعلم من العلوم عن العلوم الأخرى... بل إن بعضها ليتداخل تداخلا غريبا في البعض الآخر، وليس أروع ولا أبدع من التدليل على هذا القول من الآية الكريمة التي نحن بصدد تحليلها وتفسيرها وهي قوله تعالى: ﴿**وجعلنا من الماء كل شيء حي**﴾.

فلقد جمعت هذه الآية الكريمة في مبناها ومعناها شتات العلوم كلها، وعلى هذا الأساس، فإن تفسيرها على ضوء المفاهيم العلمية الحديثة ليحتاج في الواقع إلى دراسات ومجلدات وأبحاث...

فقد ثبت بما لا يدع مجالا للشك أن ليس ثمة قيد أنملة من سطح الأرض أو من قشرتها أو من غلافها الجوي يخلو من الماء...

---

55) قصة الفلسفة ص : 23.

فالمـاء يوجد في تركيب بلـورات الصـخور، سواء الموجـودة منها على سطح الأرض أو في قشرتها حتى في الصخور النـارية منها... التي قد لا يتصور إنسان أن الماء يدخل في تركيبها.

ويمكن أن نذكـر العلوم الطبيعية التي لهـا علاقة واشجة بـالماء، والتي منها: علم الجليد، علوم البحار والمحيطـات، والغطاآت الثلجية، وعلوم المياه العذبـة والبحيرات، وعلـوم المياه الجـوفية، والأرصـاد الجويـة، أو طبقات الأرض، وعلـوم الهيـدرولـوجيـا أو علم هندسـة الميـاه والعلـوم الطبيـة، والبيولوجية، مما سنذكره في بابه أن شاء الله وبتفصيل...

والـواقع أن ليس ثمة علم من العلـوم الحديثـة لا يلعب فيه المـاء دورا هامـا، وحتى علوم الـرياضة خصصت فـروعاً منها لـدراسة سلـوك الماء والسوائل الأخـرى من النـاحية الريـاضية، وفضـلا عن ذلك فقـد سخرت الطاقـة الكامنة في المـاء لتوليد البخار، وفي تـوليد الكهربـاء من مساقط المياه والخـزانات، وفي أعمال التبريـد للآلات الحرارية ومـا إليها... بل إن هناك أسرارا كونية عميقـة ذات رابطة وثيقة بين الحياة والماء، وهي تكمن في قوله تعالى: **﴿وجعلنا من الماء كل شيء حي﴾**.

الفصل الثالث :

الماء... والحياة

يقول الدكتور أنور عبد العليم أستاذ البحار وعلومها والمحيطات وأسرارها بكلية العلوم بجامعة الاسكندرية: إن القول بأن «الماء» و«الحياة» صنوان لا يفترقان، لقول تؤيده البراهين والأدلة العلمية الحديثة تأييداً تاما... فالماء ضروري لإمكان قيام الحياة واستمرارها على سطح الأرض... وما من كائن حي نباتا كان أو حيوانا دقيقاً في تركيبه، كالميكروب الذي لا يرى إلا بالمجهر، أو فائق الحجم والجرم، كالفيل الذي يزن عشرات الأطنان، أو الحوت الذي يزن مئات الأطنان، إلا وكان الماء عاملا أساسيا في حياته، بل سببا في وجوده، وحيث لا يوجد ماء، لا توجد حياة...

إن وجود الماء في الخلية حيوي جدا، لأن مثل هذه العناصر تنتشر على صورة أيونات،(56) ويتم الاتحاد الكيميائي بينها على هذه الصورة عن طريق انتشارها خلال أغشية رقيقة يحدث التبادل من خلالها داخل الخلية الحية نفسها... والخلية الحية على هذا الأساس هي عالم صغير قائم بذاته تتم فيه التفاعلات الكيمائية وعمليات التحول الغذائي بمنتهى الكفاية، كما أن الماء عامل أساسي لاكتساب البروتوبلازم(57) Protoplasme، قوامه الهلامي

---

56) إيّون : ذرةٌ أو مجموعة ذرات، ذات شحنة كهربائية، فإذا نقص عدد الكهيربات في الذرة، أصبحت الذرة «إيوناً موجباً»، وإذا زاد، أصبحت «إيونا سالباً»، ويسمى شطرا...

57) لو تصفحنا الخلية الحية تحت المجهر لوجدناها تتركب من مادة هلامية القوام محببة نصف شفافة تسمى البروتوبلازم تحتوي بداخلها على نواة صغيرة هي المركز الواعي في الخلية. والبروتوبلازمة أو المادة الأولية للحياة تحتوي في حد ذاتها على أكثر من 75٪ من وزنها الماء، ويوجد في هذا الماء مواد عضوية وغير عضوية دائبة، كما يوجد فيها دقائق صغيرة من المواد تبقى معلقة، ومن المواد العضوية التي تحتوي عليها البروتوبلازم، تلك المواد التي تنتمي إلى المواد الزلالية أو البروتينية، والمواد السكرية، والمواد الدهنية... وتوجد المواد غير=

المعروف الذي يتغير من آن لآخر، وبسرعة كبيرة من حالة الصلابة إلى حالة السيولة، ويتم هذا التحول تحت تأثير العوامل الطبيعية المختلفة التي يتعرض لها «البُرُوتُوبْلاَزم» مثل تغير درجة الحرارة، أو امتصاص الماء من الخارج، وما إلى ذلك.

* * *

الأساسُ في الحياة :

لو أننا تدبرنا، بإمعان، نصوص الآيات الشريفة لوجودناها تشير إلى أساس الخلق، وأصل كل هذه الأحياء... ولقد وصل العلم أخيراً إلى هذه الحقيقة العلمية في خلق الكائنات الحية، وأساس حياتها... فتحت عنوان: «ما هو الأساس في الحياة؟» كتب «وليم فرجارا» في كتابه: «كنوز العلم» ما نصه :

إن أساس الحياة في «البروتوبلازم» مادة الحياة ذاتها، و«البروتوبلازم» بالتالي مرتب في وحدات صغيرة تسمى الخلايا، وهو الجزء الأساسي في كل خلية... والخلية هي التي تنظم جميع عمليات الحياة كامتصاص الماء والكيماويات، وصناعة الطعام، وعمليات التنفس، والنمو والتجديد، والهضم، وباختصار جميع الوظائف التي تكون الحياة، وهي الجزء الوحيد في المخلوق الحَي الذي تدب فيه الحياة... ولقد قام علماء البيولوجيا بدراسات كثيرة على الخواص الطبيعية والتركيب الكيميائي «للبُرُوتُوبْلاَزم»، وهم يعرفون أنه في العادة سائل لزج مطاط إلى حدما... ويشبه بياض البيض في خواصه المرئية، ويختلف اختلافاً كبيرا باختلاف

= العضوية على هيأة أيونات سالبة، وأيونات موجبة لعناصر مختلفة... وعلى هذا الأساس فالبروتوبلازم الحي يتركب من عدد كبير من العناصر المعروفة، أمكن الكشف عنها وإثبات وجودها في الخلية: الأوكسجين، والهيدروجين، والكربون، والنتروجين، والفوسفور، والبوتاسيوم، والصوديوم. والكبريت. والكلور. واليود. والمغنيسيوم...

الكائنات، كما أنه يختلف باختلاف الأجزاء في الكائن الواحد... وعندما يرى تحت ميكروسكوب قوي، يظهر كأنه سائل صاف عالق به جسيمات دقيقة مختلفة في الحجم والشكل والكمية... وتتضاءل هذه الجسيمات أمام حبيبات الرمل أو الرواسب الطينية، بل حتى البكتريا الصغيرة تبدو كبيرة إذا وضعت بجانب إحداها... والمعتقد أن هذا المزيج من السوائل والجسيمات يملأ الفراغ بين جزيئات البروتين السلسلية المتصلة في تشكيل شبكي، ويكون الماء معظم ما تصل نسبته إلى خمسة وتسعين في المائة من المجموع الكُلِّي...

إذن... فأصل الخلق، وأساس الحياة... هو الماء... وقد سبق القرآن الكريم علوم العصر بإيراد هذه الحقيقة بمدة تزيد على أربعة عشر قرنا من الزمان...

الماء وسط للتفاعلات الكيمائية :

إن الجسم البشري لا يستطيع أداء وظائفه المختلفة بغير الماء، فهو المذيب لجيمع المواد المهضومة، ووسط للتفاعلات الكيمائية التي تحدث في خلاياه، ويكون أكثر من نصف وزن الجسم، وينظم حرارته، إذ أن حرارته النوعية تمنع فقد حرارة الجسم بسرعة، كما أنه يعمل على ترطيب الأنسجة الداخلية... والماء من العوامل التي تربط أجزاء الجسم كالمفاصل والأنسجة بعضها ببعض، وهو مفتاح الهضم السليم، والامتصاص، كما أنه عامل مهم في عمليات التخلص من الفضلات الضارة، والنفايات السامة، إلى خارج الجسم على شكل عرق وبراز وبول.!!

والماء شديد الحساسية لأبسط التأثيرات، يتمتع بقدرة غريبة على التكييف بأكثر الظروف تغيرا مما لا يتوفر في أي سائل آخر... فالماء الذي بأجسامنا هو الذي ينقل إلينا التأثيرات القادمة من أبعد أرجاء الكون، يقول

عالم الظواهر البيولوجية الفرنسي «ميشيل جوكفاني»: يتسم الماء بخاصية مدهشة، فجزيئاته يتوثق بعضها بالبعض من خلال رابطة حساسة جدا تتعرض للاضطراب إزاء أي تأثير خارجي...

ويرتبط الماء ارتباطا وثيقاً بحاسة الإبصار، كما لا يمكن أن يصل أي صوت إلى السمع بدون وجود ماء... والماء يرتبط بالبروتينات والكربوهيدرات... ويستفيد الجسم من الماء المنفصل من هذين المركبين، ولتأكيد أهمية الماء القصوى للجسم يكفي أن تعلم أنه إذا امتنع الإنسان عن شرب الماء، فإنه يموت بعد ثمان وأربعين ساعة...

على أن الماء، في كل الأحوال، يلعب دوراً أساسيا ورئيسيا في حياة الإنسان، سواء شرب الماء أم لم يشربه، فهو يستنشق الماء بنفسه وجلده على صورة «بخار الماء» لأن الهواء الجاف جدا، منهك للجسم، ولابد من توفر حدٍّ أدنى من الرطوبة لكي يتمكن الإنسان من الحياة.

* * *

لا ياكلون... ولا يشربون

كان الطعام الدارج والشراب بين عامة الناس في المدينة هو الماء والخبز... وكانت لهما مكانة مرموقة بين سائر الأطعمة رغم بساطتهما... فلقد عرف المسلمون أن المسيح، قال في الماء: هذا أبي، وفي الخبز: هذا أمي... يريد أنهما يغذيان. الأبدان كما يغذيهما الأبوان.(58)

قال أحمد بن أبي سليمان : قلت لواصل العابد الخمي: بلغني أنك لم تشرب الماء دهرا... فقال: لم أشربه ثمانية أشهر، ثم غلبت، وذلك أني كنت أناله في البسيس والمرق.(59)

قال يزيد بن مرثد : أن رجلا جاع بمكان ليس فيه شيء، فقال: اللهم رزقك الذي وعدتني، فأتني به، فشبِع وروي من غير طعام ولا شراب...(60)

ومن كرامات عبد الرحيم بن عبد ربه الربعي المعروف بالزاهد ما حكاه المالكي أن سحنون بلغه أن عبد الرحيم أقام ستة أشهر لم يشرب ماءً، فأنكر ذلك سحنون، وركب مع جماعة من الشيوخ إليه، فبات عنده، وسأله عما بلغه، واستشنع عليه...!

فقال له : ومن لا ياكل ولا يشرب ؟ فلما انصرف عنه سحنون، رجعه، وقال له: «سألتني عن شيء، فكتمته، ثم حاسبت نفسي، والذي قيل لك

---

58) العقد الفريد 6 / ص 290.

59) المدارك، للقاضي عياض ج : 4 / ص : 201. يستطيع الإنسان أن يبقى عدة أسابيع بدون غذاء، وعدة أيام بدون الماء الذي يؤلف 73٪ من جسمه، فأغلب التفاعلات الكيميائية التي تجصل داخل الجسم وخارجه، تتطلب وجود الماء الذي يشكل المادة الرئيسية في كل مُختبر، سواء كان داخل الجسم أو خارجه...

60) القرطبي ص : 42 / 17.

صحيح، ولي ستة أشهر لم أشرب ماء، وذلك أني كنت أصلي، فأصابني عطش شديد، فقلت: أفرغ من حزبي وأشرب، فلما فرغت مددت يدي للقسط، فانقلب، وذهب ما فيه من ماء، وكانت ليلة كثيرة الريح والبرد، والماجل أسفل القصر، فكبر عليَّ النزول، وقلت: يارب، إن هذا شغلني عن حزبي، فاحمل عني المؤونة...

فأجابني من زاوية البيت، ولا أحد فيه، يقول : «أنا من مومني الجن، أصلى بصلاتك مدة، فمر هذه الليلة شيطان مارد، وهم علينا أمر مما هم عليكم، فحسدك، ورمى لك في القسط شيئاً، فلو شربته لعرض في جسمك ما لا طاقة لك به، فلما مددت يدك إلى القسط سبقتك إليه، فأهرقته.!

قال عبد الرحيم : فاخلصت لله الدعاء، فحمل عني المؤونة، وأن احتجت الماء بعد شربته...(61)

قال ابن القيم الجوزية(62) وشاهدت من يتغذى بماء زمزم الأيام ذوات العدد، قريبا من نصف الشهر أو أكثر، ولا يجد جوعاً، ويطوف مع الناس...

وقال ابن خلدون : «ولقد شاهدنا من يصبر على الجوع أربعين يوما وِصالاً وأكثر، وحضر أشياخنا بمجلس السلطان أبي الحسن المريني، وقد رفع إليه امرأتان من أهل الجزيرة الخضراء ورندة حبستا أنفسهما عن الأكل جملة منذ سنين، وشاع أمرهما، ووقع اختبارهما، فصح شأنهما، واتصل على ذلك حالهما إلى أن ماتتا...(63) ورأينا كثيراً من أصحابنا، أيضا، من يقتصر على حليب شاة من المعز يلتقم ثديها في بعض النهار، أو عند الإفطار، ويكون ذلك غذاؤه، واستدام على ذلك خمس عشرة سنة... وغيرهم كثير، ولا يستنكر ذلك...

61) المدارك – للقاضي عياض ج : 4 / 194.

62) كتاب الطب النبوي من كتابه : «زاد المعاد، في هدي خير العباد» ص 307.

63) المقدمة لابن خلدون ص : 499 / 1.

وقال ابن خلدون في موضع آخر : وكذا من عوّد نفسه الصبر على الجوع والاستغناء عن الطعام كما ينقل عن أهل الرياضات، فإنا نسمع عنهم في ذلك أخباراً غريبة يكاد ينكرها من لا يعرفها. والسبب في ذلك، العادة، فإن النفس إذا ألفت شيئاً صار من جبلتها وطبيعتها، لأنها كثيرة التلون، فإذا حصل لها اعتياد الجوع بالتدريج والرياضة، فقد حصل ذلك عادة طبيعية لها، ثم قال: وما يتوهمه الأطباء من أن الجوع مهلك، فليس على ما يتوهمونه، إلا إذا حملت النفس عليه دفعة، وقطع عنها الغذاء بالكلية، فإنه حينئذٍ ينحسم المِعَى، ويناله المرض الذي يخشى معه الهلاك، وأما إذا كان ذلك القدر تدريجا ورياضة بإقلال الغذاء شيئا فشيئاً، كما يفعله المتصوفة، فهو بمعزل عن الهلاك، وهذا التدريج ضروري حتى في الرجوع عن هذه الرياضة...

وذكرهما أيضا الشيخ أبو عبد الله محمد بن محمد بن أحمد المقري في كتابه المسمى: «المحاضرات» قال: «وردت على تلمسان في العشرة الخامسة من المائة الثامنة امرأة من رَندة لا تاكل ولا تشرب، ولا تبول ولا تتغوط، وتحيض، فلما اشتهر هذا من أمرها أنكره الفقيه أبو موسى ابن الإمام. وتلا: «كانا ياكلان الطعام» فأخذ الناس يبثون ثقات نسائهم ودهاتهن إليها، فكشفوا عنها بكل وجه يمكنهن، فلم يقفن على غير ما ذكر... وسئلت هل تشتهين الطعام؟، فقالت: «هل تشتهون التبن بين يدي الدواب»... وسئلت هل يأتيها شيء، فأخبرت «أنها صامت ذات يوم، فأدركها الجوع والعطش، فنامت، فأتاهاآت في النوم بطعام وشراب، فأكلت وشربت، فلما أفاقت وجدت نفسها قد استغنت، فهي على تلك الحال توتى في المنام بالطعام والشراب إلى الآن...» ولقد جعلها السلطان في موضع بقصره وحفظها بالعدول، ومن يكشف عما عسى تجيء أمها به إذا أتت إليها أربعين يوما، فلم يوقف لها على أمر، قال: «بيد أني أردت أن يزاد في

عدد العـدول، ويضـم إليهم الأطباء، ومن يخوض في المعقـولات من علماء الملل المسلمين وغيرهم، ويـوكل من نساء الفرق مـن يبالغ في كشف من يدخل إليهـا، ولا يترك أحد يخلو بهـا... وبالجملة، يبـالغ في ذلك ويستدام رعيهـا عليه سنـة لاحتمال أن يغلب عليهـا طبع، فتستغنى في فصل دون فصل، ثم يكتب هـذا في العقود، ويشاع أمـره في العالم، وذلك لأنـه يهدم حكم الطبيعة الذي هو أضر الأحكـام على الشريعة، ويبين كيفية غذاء أهل الجنة، وأن الحيض ليس من فضـلات الغذاء، ويبطل التأثير والتولد، ويوجب أن الاقترانات بـالعادات لا باللزوم، وعند الأسبـاب لا بها إلى غير ذلك، إلا أني لمـا أشرت بهـذا، انقسم من أشرت عليـه بتبليغه إلى من لم يفْهم مـا قلت، ومن لم يرفع به رأسا لإيثار الدنيا على الدين...

قال المقـري : وقد ذكـر أن امرأة أخرى كـانت معها على تلك الحـالة. وحدثني غير واحد من الثقات ممن أدرك عائشـة الجزرية أنها كانت كذلك، وأن عائشة بنت أبي بكر يعني زوجة السلطان أبي الحسن التي استشهدت في طـريف، اختبرتهـا أربعين يومـا، أيضـا، وكم من آية أضيعت، وحجـة نسيت مما لم يعـرف مثله قبل المائة الثامنـة، وكذلك الوباء العـام المريب فروطه، يوشك أن يطول أمره، فينسى ذكره، ويكذب المحدث به إذا انقضى عصره، وكم فيه من أدلة على أصول الملة» انتهى كلام الشيخ أبي عبد الله المقري...(64)

* * *

وقد شـاهد أحمد بن إبراهيم الشيخ عـز الدين الفاروقي بالعـراق رجلا مكث سنين لا يشرب ولا ياكل...

قال الذهبي : وذكر لي عدد أثق بهم أن امرأة بالأندلس مكثت نحوا من عشرين سنة لا تاكل شيئاً، وأمرها مشهور...

---

64) «الاستقصا» للناصري ص : 180 – 181 / 3.

ثم ذكر قصة المرأة التي ذكرها الحاكم في تاريخ نيسابور، وفيها طول... وحاصلها: أنها امرأة بعض الشهداء من بعض مدن خوارزم اسمها رحمة بنت إبراهيم، وأن أبا العباس عيسى بن محمد الطهماني المروزي لقيها، وسألها عن خبرها، فأخبرته بما حاصله: أن زوجها مات في بعض الغزوات، وكان نجارا فقيرا، معيشته من كديده يوما فيوما... ولها منه عدة أولاد، فلما مات، أدركها عليه من الحزن ما يدرك المرأة الشابة على زوج أبي الأولاد وجاء أولادها يطلبون الخبز، وليس عندها شيء فضاق صدرها، قالت: فسمعت أذان المغرب، ففزعت إلى الصلاة، فصليت، ثم سجدت، أدعو وأتضرع، وأسأل الله الصبر، فذهب بي النوم، فرأيت كأني في أرض حسناء، أطلب زوجي، فوجدته مع قوم من الشهداء ياكلون، فناولني خبزا، فأكلته، فقال: اذهبي، كفاك الله مؤونة الطعام والشراب ما حييت، فانتبهت من نومي شَبْعَى، ريا، لا أحتاج إلى طعام ولا شراب، ومكثت كذلك طول عمرها، وفي القصة طول اختصرناه...(65)

ولقد كان الكرجي (تـ 343هـ – 954م) من الزهاد المتعبدين، وأنه كان لا يفطر إلا في العيدين، وفي يوم مولد النبي عليه السلام....(66)

مُوريطاني عمرُه 65 عاماً لم يستخدم الماء في حياته :

يعتبر الموريتاني عبد الله الديلمي ظاهرة غريبة تستحق الدراسة بالفعل، فهو لا يستعمل الماء إطلاقاً إلا للشرب فقط وفي أوقات متباعدة جداً تصل إلى الأسبوعين في الصيف، والشهرين في فصل الشتاء. هذا الرجل (الديلمي) يسكن في منطقة صحراوية قريبة من العاصمة الموريتانية «نواكشوط» وعرف بين أهل قبيلته والمنطقة التي يعيش فيها بتلك السمة

65) «ماء الموائد» لأبي سالم العياشي ص : 59 / 2.
66) آدم ميتز ص : 298 / 2.

التي يتسم بها، وهي عدم استعماله للماء، فهو لا يغسل، بل لا يستحم، ولا يقرب المـاء، فهو قاطع عـلاقته بالماء إلا من كـوب ماء يشربـه في فترات متباعدة.

«الشرق الأوسط» التقت هـذا الرجل الغـريب، وسألته عن سبب كـرهه الشديـد وغير المبـرر للماء، فـرد يؤكـد أن الماء ضــار، ويصيب الإنسان بـالأمراض، خـاصة «أمـراض الجلد» ولأن عبـد الله مسلم، فكيف يتـوضـأ للصلاة؟ يجيب على هذه التساؤلات بقوله:

«أنا لا أستطيع استعمال الماء أبداً وينفر منه جسمي، وبالنسبة للصلاة فأنـا أحمل معي دائما كيســاً صغيراً من قماش فيـه تراب نــاعم، فإذا أقبل وقت الصلاة اتجهت للمسجـد، وقبل الدخول أفتح الكيس، وأتيمم بـالتراب الموجود فيه ثم أصلي.

وعن كيفيـة التخلص من الأوساخ التي تصيب جسمـه يقول عبـد الله: التـراب هو مـائي وبواسطتـه أتخلص من جميع الأوساخ. فأنـا مثلاً بعـد انتهائي من الطعـام أنظف يدي من الدهـون بالتراب، وعند إصــابة جسمي بأي وسخ أبعده بالتـراب. ويؤكد عبد الله أنـه لم يصب بأي مرض نتيجة تجنبـه للماء ويقـول: «باستطـاعتكم سؤال جميع من يعـرفني هل أصبت بمرض أم لا، فأنا أبلغ من العمر 65 سنة وأنا في كامل صحتي وقواي، ولم أصب منذ عدة سنين بأي مرض، والحمد لله، وهذا في رأيي. والكلام لعبد اللـه - سببـه تجنبي للمـاء، والـذي هو سبـب الأمراض خـاصــة أمـراض الجلد!!(67)

* * *

على أنّ بـالإمكـان لـلإنسان أن يستغني عـن الماء بصـورة كليـة، لأن الجسم يحصل على حـاجته مـن الماء عن طـريق الأطعمـة التي يتناولهـا،

67) «الشرق الأوسط» جريدة، 12 - 4 - 91، عدد 4518 انظر: «المعسول» ج: 8/ ص: 286.

فاللبن، مثلا، يحتوي على 88٪ من وزنه ماء، والفواكـه لا يقل محتواها من الماء عن 60٪. وحتى الخبز والأطعمة المختلفة الأخرى تحتوي على مقدار، قلَّ أم كثر، من الماء.

حيوانات لا تشرب الماء...

ليس في الأحياء كائن واحـد دق أو كبُر، يستطيع الحياة دون ماء... إن بعض الكـائنات الـدنيا تستطيع تحمل الجفـاف زمنا قـد يطول بـالأعوام، ولكنها لا تفعل ذلك إلا وهي كامنة لا نشـاط لها، ومستترة بأغطية تحميها من أن تجف حتى الموت...

قال أبو العلاء المعري في «لزوم ما لا يلزم» :

كـان الضب كـان لـه سجيـرا
فحـالفـه على فقـد الأُوام(68)

قال ابن خالويه في كتابه : «ليس في الدنيا حيوان لا يسمع ولا يشرب الماء أبـدا إلا النعام، ثم قال: والضب، أيضا، لا يشـرب ولكنه يسمع، وهي قوية الصبر على ترك الماء...(69)

فالضب حيوان بري، لا يرد الماء، ويلازم الصحراء، وأكثر ما يكون في الكُدى، كما قال خالد بن علقمة :

ترى الشـر، قد أفنـى دوائر وجهه
كضب الكُـدى أفنى براثينـه الحفر

وقد قالت العرب : «لا أفعله حتى يرد الضب...»

ولما كان بين الحوت والضب هذا التضاد أشار إليه حاتم الأَصَمّ رحمه الله بقوله :

---

68) السجير : الصديق. والأوام : العطش.

69) «حياة الحيوان»، للدميري ص : 257 / 2.

وكيف أخـاف الفقـر، واللـه رازقي

ورازق هذا الخلق في العسـر واليسر

تكفـل بـــــالأرزاق للخلق كلهـم

وللضب في البيدا، وللحوت في البحر

ومن كـلام العـرب : «لا أفعل ذلك حتى يـرد الضب» ومن الكـلام الموضوع على السنة العجماوات، قالت السمكة: رِديا ضبّ!! فقال :

أصبـح قلبـي صَـــــــــرِدا

لا يشتهـي أن يـــــــــردا

وفي المثل : «جمع بين الضب والنون» فالنـون حيوان بحري، لا يفارق الماء أبدا، فلا يجتمعان، قال الصابىء:

الضب والنـون، قـد يرجى اجتمـاعهمـا

وليس يـرجى اجتمـاع المـال والأدب

فالضب لا يشرب مطلقاً، وإذا «أريـد إجباره على الشرب، وذلك بوضـع ماء في حلقـه، فإنه يموت من ذلك على الفـور [حسن الوزان ص: 652] ثم قال «ليون الافريقي»، ولحمه لذيذ الطعم كلحم الضفدع، وله نفس المذاق...

قالوا : ولـلأسد من الصبر على الجوع، وقلة الحاجـة إلى الماء ما ليس لغيره من السباع.

* * *

ويستطيع الجمل أن يتحمل العطش أيامـا طوالا يتوقف عددهـا – طبقا على كثير من الظـروف والأحوال، مثل بنيانه الموروث، ومـدى إجهاده في الحمل والسير، ودرجة حرارة الجو، ونسبة الرطوبة فيه...

ولعل نوع الغذاء الـذي تقتاته الإبل، له أهميـة خاصة في ذلك، فهي إن كانت تطعم نبـاتا طريا غضـا بعد أمطار الشتاء، استطـاعت أن تصبر على

العطش شهرين متتاليين، بل ربما أعرضت عن الماء إعراضا حين يعرض عليها، وذلك لأن الماء الذي كان في طعامها الرطب فيه الغناء.

وأغرب القزويني في قوله : إن الببغاء لا تشرب الماء، وهو غلط البتة، وأكثر قوتها ببلادها الموز وقصب السكر، حيث قال: «من عجائبها أنها لا تشرب الماء أبدا، فإنها إن شربت هلكت...(70)

ومن الحيوانات التي لا تشرب الماء، الصقر، فهو أصبر على الشدة، وأحمل لغليظ الغذاء والأذى، ومزاجه أبرد من سائر ما تقدم، ولبرد مزاجه لا يشرب ماءً، ولو أقام دهراً، ولذلك يوصب بالبخر ونتن الفم...(71) ومن الصقور اليؤيؤ،(72) ويسميه أهل مصر والشام «الجلم» لخفة جناحيه وسرعتهما، لا يشرب الماء إلا ضرورة كما يشربه «الباشق»، إلا أنه أبخر منه. ومزاج الصقر بارد، لأنه لا يعيش إلا في البلاد الباردة، يوجد ببلاد الترك.(73)

* * *

الهدهد :

يحكى أن نافعا سأل ابن عباس رضي الله عنه، فقال له : سليمان عليه السلام، مع ما خوله الله تعالى من الملك، كيف عُنِيَ بالهدهد مع صغره؟ يعني حيث تفقد الطير، فسأل عن الهدهد وقال: «لأعَذِّبنَّهُ عذابا شديداً، أو لأذبحنه أو لياتيني بسلطان مبين...» فقال ابن عباس: إنه احتاج إلى الماء... والهدهد كانت له الأرض كالزجاج... فقال نافع: قف ياوقَّاف. كيف يبصر الماء من تحت الأرض، ولا يرى الفخ إذا غطي له بقدر أصبع من التراب؟

70) عجائب المخلوقات للقزويني ص : 255 / 2.
71) «حياة الحيوان» ص: 66 / 2.
72) نفس المصدر والصفحة...
73) «عجائب المخلوقات»، للقزويني ص : 272 / 2.

فقال ابن عباس: إذا نـزل القضاء عَمِيَ البصر!! وقال أبو عمـر الزاهد، في هذا المعنى :

إذا أراد اللـه أمـراً بـامـرىء
وكـان ذا عقل ورأي وبصـر
وحيلـة يفعلهـا في دفع مـا
يأتي بـه محتـوم أسبـاب القـدر
غطى عليـه سمعـه وعقلـه
وسلـه من ذهنـه سلّ الشعـر
حتى إذا نفّـذ فيـه حكمـه
رد عليـه عقلـه ليعتبـر

وهـو معنى ما في الحـديث : «إذا أراد الله إنفـاذ قضائه وقَـدَره سلب عقول الرجال.(74)

وكذلك، «اليـؤيؤ»، وهو نـوع من الصقور لا يشرب المـاء الا لضرورة، كما يشربه الباشق، إلا أنه أبخر منه... ويقال في المثل: «أخلف من صقر» وهو من خَلوف الفم، وهو تغيير رائحته، ومنه قوله عليه السلام: «لَخَلُوفُ فَمِ الصائم أطيب عند الله مِن ريح المسك».(75) وفي المثل أيضـا: «أبخر من صقر» قال الشاعر:

ولـه لحيـة تيـس
ولـه منقـار نسـر
ولـه نكهـة ليـثٍ
خـالطت نكهـة صقـر

وقال ابن خالويه : ليس في الدنيا حيوان لا يسمع ولا يشرب الماء أبدا، إلا «النعام» ومتى دميت رجل واحدة له لم ينتفع بالباقية... وكل ذي رجلين

74) «زهر الأكم»، لليوسي ص : 76 / 1.
75) «حياة الحيوان» ص: 68.

إذا انكسرت لـه إحداهما استعـان بالأخرى فـي نهوضه وحـركاته مـاخلا النعامة، فإنها تبقى في مكانها جاثمة حتى تهلك جوعا... قال الشاعر:

إذا انكسـرت رجـل النعـامـة، لـم تجـد
على أختهـا نهضاً، ولا بـاسْتِهَاحَبْـوا(76)

وقال الزجاجي : سئل ابن دريد عن معنى قول الشاعر :

هجـــــرتـك لا قِلى منـي... ولكن
رأيت بقـــاءَ وُدِّك، فـي الصـــدود
كهجر الحـائمات(77) الـورد لمـــا
رأَت أَن المنيـــــة فـي الـــورود..
تغيظ نفـــوسهـــا ظمأ، وتخشى
حمـــامـا، فهي تنظـــر من بعيـــد
تصـد بـوجـه ذي البغضـاء عنـه
وتــــرمقـــه بـألحـــاظ الـــودود

ومعنى الأبيات كمـا فسرها ابن دريـد أن الأًيايل(78) تاكل الأفاعي في الصيف، فتحمى وتلتهب لحـرارتهـا، فتطلـب المـاء، فإذا رأتـه امتنعت من شربـه، وحامت حـوله وعليه تتنسمـه، لأنها لو شـربته، في تلك الحـالة، فصادف المـاء السم الذي في أجوافهـا، هلكت، فلا تـزال تمتنع من شرب المــاء حتى يطـول بها الـزمـان، فيـذهب ثَـوَرَان السم، ثم تشربـه، فـلا يضرهـا... فيقول هذا الشاعر: أنـا في تركي وصـالك مع شدة حاجتي إليه بمثابـة الحائمـات التي تدع شرب المـاء مع شدة حـاجتها إليـه على إبقاء حياتهـا...

---

76) المصدر السابق ص : 357 / 2.

77) الحائم : الذي يدور حول الماء... ولا يصل إليه...

78) الايايل : ج : ايل. ذكر الأوعل، وهو مولع بالصيد، واكل الحيات يطلبها حيث وجدها...

وفي ميدان الطب أن المـريض إذا أجريت له عملية جراحيـة، فإنه يمنع عنه شـرب الماء، استجابة لنصـائح الطبيب، كما في المثال السـابق، وهذا معجزة لحديث شريف محفوظ عن الصادق المصدوق الذي يقول: «إن الله إذا أحب عبـدا، حماه من الـدنيـا، كما يحمى أحـدُكم مـريضَه عن الطعـام والشراب» وفي لفظ: «إن الله يحمي عبده المومن من الدنيا...».(79)

* * *

وقد جـاء خبر من «سِيدني»، بأنـه أفرج مسؤولـو الحجر الصـحى في «اديليد» بأستراليـا عن قط عاش 48 يومـا، بلا مـاء أو طعام أو رفيق في إحدى الحاويات التـي وجد فيها نفسه وحيداً تماما مـع سيارة «مرسيدس بنز».

وقـال مسـؤولـو الحجـر الصحي إن القـط الـذي أطلق عليـه اسم «مرسيدس»، إشـارة إلى رفيقة رحلته من لندن، قد أفرج عنـه قبل الموعد المحدد بثـلاثة أشهـر بعد أن قـدم أصحابـه ما يثبت خلـوه من الأمراض، خاصة مـرض الكلب، وكان القط المغامر قد وصل إلى استراليـا في يونيو 1993 بعد أن دخل الحاوية مستكشفا أثناء عملية تحميلها...

والنار المحرقة من الماء...

كان العـرب في الجاهلية يخشى قسمـاً من الأشجار، وكان يـرى فيها روح الشـر، مثل: «الحمـاطة» وهي شجـرة التين، وهـو أحب الشجـر إلى الحيـات، أو «العشـر» التـي كـانت العـرب تظنهـا مسكـن الشيـاطين قبل الإسـلام، فإن في مثل هذه تـدل نفسهـا على أن تلك الأشجار كـانت ذات حيوية عند العرب...(80)

79) «الطب النبوي» لابن القيم ص : 82.

80) «الأساطير العربية قبل الإسلام»، ص : 52.

وقـد استدل القـرآن على إمكـان البعث والنشـور بأحوال الشـجـر، ذلك النبات اللين الطري، الذي تشعر طراوتـه ونداوته بأنه لا يمكن أن تضطرم فيـه النيـران، ولكن القـدرة الإلاهيـة التي تحكم هـذا الكـون، وتتحكم في نواميسه، فتجعل من ذلك النبات الرطب الطري ناراً تتوقد، ولهيبا يتجدد.

فالذي أخرج من الشجر نارا، لم يكن تتوقع أن تخرج منه، قادر على أن يخرج الإنسان – الذي يظن المشركون أنه لن يخرج، من مرقده الذي ثوى فيه، بعد أن غيبه البلى بين ظهرانيه...

نعم صدق الله العظيم، فقد قال في كتابه المبين : «وجعلنا من الماء كل شيء حي» كل شيء من المـاء حتى النار الملتهبـة المحرقـة، «وهو الـذي أنـزل من السمـاء مـاء لكم منه شـراب، ومنـه شجـر»(81) وقال تعـالى: **﴿أفـرأيتم النـار التي تُـورُونَ، أأنتم أنشـأتم شجـرتهـا، أم نحن المنشئون؟﴾**(82) ويقول تعالى: **﴿وضرب لنا مثلا، ونسي خلقه، قال من يحيى العظام، وهي رميم، ؟!.. قل: يحييها الذي أنشأها أول مرة، وهو بكل خلق عليم، الذي جعـل لكم من الشجر**(83) **الأخضر ناراً، فإذا أنتم منه توقدون﴾**.(84)

والمراد بالشجـر الأخضر، زناد العرب، وهو شجـر المرخ والعفار،(85) فإنـه يقطع بكل منهمـا غصنٌ أخضر يقطـر منـه الماء، فيحك المـرخ على العفار، فتقـدح النار منهما، فأخرج اللـه منه النار، فهو القـادر على إخراج الضـد من الضد، وهـو على كل شيء قديـر، ويعني بالآيـة ما في المَـرْخ

81) سورة النحل رقم الآية : 10.

82) سورة الواقعة رقم الآية 72.

83) قـوله تعـالى : من الشجر الأخضـر : ولم يقل الخضـراء، وهو جمع، لأنـه رده إلى اللفظ ومن العرب من يقول : الشجر الخضراء [القرطبي ص : 60 / 8].

84) سورة «يس» رقم : الآية : 80.

85) العفار الزند، وهـو الأعلى، والمرخ : الزندة، وهي الأسفل، يوخذ منهمـا غصنان مثل المسواكين يقطران ماءً، فيحكم بعضُهما إلى بعض، بتخرج منهما النار.

والعَفَار، وهي زنادة العرب، ومنه قولهم: استمجدَ المرخُ والعفار».(86) قال الأعشى يمدح قيس بن معد يكرب الزبيدي في تضاعيف قصيدته:

زنـــادك، خيــر زنـــاد الملـــو
ك، صــادف منهن مرخٌ عَفَـارا(87)

ولـــوبِـت تقـــدح فـي ظلمـــة
صفـــاةً، بنبع، لأوريـت نـــارا

قـال الزمخشــري : «ثم ذكر من بـدائع خلقه انقـداح النار من الشجـر الأخضر مع مضادة النـار الماء، وانطفائها به، وهـي الرمـاد التي تدرى بها الأعراب، وأكثـرها من المـرخ والعفار، وفي أمثـالهم: «في كل شجـر نار» واستمجد المـرخ والعَفَار، يقطع الرجل منهم غصنين مثل الســواكين، وهما خضراوان يقطر منهمـا الماء، فيسحق المرخ، وهو ذكـر، على العَفار وهي أنثى، فتنقدح النار بإذن الله...(88)

وقد ذكر أبـو حنيفة الدينوري في «كتـاب النبات» صفة الزنـد والزندة وكيفيـة الفتل، فلا بأس بـإيراده هنـا. قال: أفضل مـا اتخذت منـه الزنـاد شجرتا المـرخ والعَفار بفتح العين المهملة بعدهـا فاء، فتكون الأنثى، وهي الزندة السفلى مرخا، ويكون الذكر، وهو الزند الأعلى عفاراً...

أخبـرني بعض علمـاء الأعـراب أن العفـار شجر يشبـه صغـار شجـر الغبيراء(89) منظره من بعيد كمنظـره... وأما المرخ فقد رأيتـه ينبت قضبانا سمحة طوالا لاورق لها، ولفضل هاتين الشجرتين في سرعة الوري، وكثرة النار، ســارقول العرب فيهما مثــلا، فقالوا: «في كل الشجر نـار، واستمجد المرخ والعفار» أي ذهبا بالمجد، فكان الفضل لهما.

---

86) استمجد المـرخ والعفار : أي استكثـرا وأخذا من النـار ما هـو حسبهما، وهو مثـل يضرب في تفضيل بعض الشيء على بعض.

87) تاج العروس 2 / 278، مرخ. الأعشى – الديوان : ص : 53.

88) الكشاف. ص : 95 / 2.

89) قال المجد : الغبراء نبات كالغبيراء، أو الغبراء ثمرته، والغبيراء شجرته أو العكس.

ومن فضيلة المـرخ في كثرة النـار، وسرعـة الوري مـا ذكر أبـو زياد الكلابي، فإنه قال: «ليس في الشجر كله أورى زنادا من المرخ، قال: وربما كان المرخ مجتمعا ملتفاً وهبت الـريح فحك بعضه بعضا، فأورى فاحترق الوادي كله... ولم نر ذلك في شيء من الشجر.

وأما وصف الاقتداح بها، فإن المقتـدح إذا أراد أن يقتدح بالزناد، وضع الزندة ذات الفراض بالأرض، ووضع رجليـه على طرفيها، ثم وضع طرف الزنـد الأعلى في فرضة من فـراض الزنـدة، وقد تقدم، فهيأ في الفـرضة مجرى للنار إلى جهة الأرض بحز، وقد حـزه بالسكين في جانب الفرضة، ثم فتل الزند بكفه كما يفتل المثقب، وقد ألقى في الفرضة شيئا من التراب يسيراً يبتغي بـذلك الخشنة ليكـون الزنـد أعمل في الزندة، وقـد جعل إلى جانب الفـرضة عند مفضى الحـزرية تأخـذ فيها النار، فإذا فتل الـزند، لم يلبث الدخان أن يظهر، ثم يتبعه النار، فتنحـدر في الحز، وتأخذ في الرية، وتلك النار هي السقط.(90)

* * *

وكان العرب يضربون المثل بنار الغضا في الحرارة، لأن الغضا من بين سائر العيـدان لا يصلح الا للوقود، فكـأنه خلق للنار، إن جمـره يبقى أكثر من يوم.

«ونار الحلفى» يضـرب بها المثل في سـرعة الإيقاد والانطفـاء.. «ونار العـرفج»، وتسمى: «نار الـزحف» وذلك لأن العـرفج إذا التهبت فيه النـار أسرعت وعظمت، فمن كان يقربها يزحف عنها... ثم لا يلبث أن تنطفىء من ساعتها، فيحتاج الذي زحف عنها إلى أن يـرجع إليها من ساعته، فلا يزال المصطلى بها كـذلك، ويضرب بهـا المثل، فيمن لا يستقر على حـال: ومن

---

90) انتهى كلام أبو زياد الكـلابي من كتابه : «لب اللباب» نقلا من كتـاب : «بلوغ الأرب، في معرفة أحـوال العـرب» لمحمـود شكـري الألوسي ص: 168 / 2 تحقيـق محمـد بهجـت الأثري رحمه الله. ط: 3.

الاستعارات في النار «نار الشرف» و«نار الحرب» وقد أولع الشعراء بوصفها في أشعارهم قديما وحديثا...(91)

فالمرخ والعَفَار ورد ذكرهما كثيرا في شعر العرب، وفي مجال الكتابة على نحو ما نجد عند علباء بن أرقم في اعتذاره للنعمان إذ يقول:

وزَنْدَيْ عَفَارٍ في السلاح وقادح
إذا شِئتُ أورَى قبل أن يبلغ السأم(92)

والمراد بالآية الكريمة، أي الذي بدأ خلق هذا الشجر من ماء، حتى صار خضراً نضِراً، ذا ثمر وفاكهة... ثم أعاده إلى أن صار حطبا يابسا توقد به النار، كذلك هو، سبحانه وتعالى فَعَّالٌ لما يريد ويشاء، لا يمنعه مانع، ولا يصده رادع...

لقد أتى سبحانه بهذا التمثيل لمنكري البعث والنشور،... قال قبل هذه الآية: ﴿**أو لم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة، فإذا هو خصيم مبين، وضرب لنا مثلا ونسي خلقه، قال: مَن يحيي العظام. وهي رميم!؟ قل: يحييها الذي أنشأها أول مرة، وهو بكل خلق عليم، الذي جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً، فإذا أنتم منه توقدون**﴾ قال قتادة في قوله: ﴿**الذي جعل لكم من الشجر الأخضر نارا...**﴾ يقول الذي أخرج هذه النار من هذا الشجر، قادر على أن يبعثه... وقيل المراد بذلك شجر المرخ والعفار ينبت في أرض الحجاز، فيأتي من أراد قدح نار، وليس معه زناد، فيأخذ منه عودين أخضرين، ويقدح أحدهما بالآخر، فتتولد النار من بينهما، كالزناد سواء، وروى هذا عن ابن عباس رضي الله عنهما... وقال الحكماء: «في كل شجر نار الا العناب، وللعرب شجرتان أحدهما، المرخ، والأخرى العَفار، إذا أخذ منهما غصنان أخضران، فحك أحدهما بالآخر تناثر من

91) «نهاية الأرب» للألوسي ص : 167.
92) الأصمعي : الأصمعيات ص : 179.

بينهما شرر النار... وفي المثل: «استمجد المرخ والعفار» أي كثر في هذين النوعين من الشجر، لأنهما رخوان كالكلخ عندنا يحك بعضه ببعض، فتخرج بينهما النار بقدرة الله تعالى، وفيهما الرطوبة التي هي ضرب من الماء... كذا فسره الإمام المهدوي...

* * *

وقد أخطا إبليس، لعنه الله، بقياسه الفاسد، قال الله حكاية عنه: «قال أناخير منه خلقتني من نار، وخلقته من طين» يعني آدم عليه السلام، وغاب عن إبليس اللعين، أن آدم إن كان نقل من الطين مرة، فقد نقل الملعون مرتين، لأن النار من الشجر، والشجر من الطين.

وفي هذا يقول «المفتي» الشاعر بشار :

إبليس خير من أبيكم آدم
فتبينوا يا معشر الأشرار
إبليسٌ من نار، وآدم طينةٌ
والطين لا يسمو سمو النار

وقد عارض هذين البيتين المرحوم الأستاذ الشاعر عمر بهاء الدين الأميري وهو يزورُني في مكتبي، فقال :

إبليس من نار، وآدم طينةٌ
والنار لا تسمو سمو الطين
النار تفني ذاتها ومحيطها
والطين للإنبات والتكوين

فبشار يقول : إن جوهر إبليس أفضل واسمى من جوهر آدم، لأن الله خلقه من نار... وخلق آدم من صلصال، وهو الذي أراد للصلصال ألا يسمو سمو النار...

ولم يكن بشار «مفتيا» في هذا المجال حتى تقول : والطين لا يسمو سمو النار» فالطين مادة أولية، تشكلت، ونفخ فيها من روح الله، وقيمة المادة في القدرة على تشكيلها، فإذا شكلت في أحسن تقويم، وكرمت، فلا وجه لتفضيل النار عليها، ثم إن إبليس اللعين يدعى هذه الدعوى، وليس من يقره عليها إلا أمثاله من الأبالسة...

قال الشيخ أبو الفرج رحمه الله :(93)

«وينبغي أن تعلم أن إبليس الذي شغله التلبيس أول ما التبس عليه الأمر، فأعرض عن النص الصريح على السجود، فأخذ يفاضل بين الأصول، فقال: «خلقتني من نار، وخلقته من طين...» ثم أردف ذلك بالاعتراض على الملك الحكيم، فقال: «أرأيتك هذا الذي كرَّمت علي» والمعنى، أخبرني لِمَ كرَّمته علي، عزز ذلك الاعتراض أن الذي فعلته ليس بحكمة... ثم اتبع ذلك بالكبر، فقال: «أنا خير منه...» ثم امتنع عن السجود، فأهان نفسه التي أراد تعظيمها باللعنة والعقاب.

***

وعود على بدء، فقد استدل الحق سبحانه بهذه الآية: ﴿**الذي جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً**﴾ على البعث في الدار الآخرة... ففي النار هدى لمعرفة الحكمة، والقدرة الإلاهية، وتبيان أن هذه الأجسام التي نسكنها الآن ستنهدم، وتكون الروح أشبه بالنار، والأجسام أشبه بالأشجار، والنار ترتفع إلى العلى... «وأَنَّ إلى ربك المنتهى...

***

إن الذي قدمته في هذه الدراسة العلمية من موافقة العلم للقرآن في كشوف العلم، وإن الدين سبق تلك الاختراعات والكشوف العلمية الحديثة منذ خمسة عشر قرنا، هو ضرب من الادعاء الذي يقدمه العلماء على

93) في باب : «التحذير من فتن إبليس ومكايده»، ص : 24.

أسبقية علومنا على علوم الآخرين، وهو ضرب من الوثنيات، وأن لكل عصر وثنيات، ووثنية هذا العصر المبالغة في تقدير العلم، إنهم يقولون كما قال الأولون: «إنما أوتيته على علم عندي»...

وما العلم؟ أليس العلم معرفة قوانين الله في الوجود؟ وما الذي بلغه علم العلماء؟ كشفوا قانون الجاذبية؟ ولكن هل عرفوا ما هي الجاذبية؟

وإني أقول كما قال السيد علي الطنطاوي في ذكرياته:(94) لأعجب من بعض الدعاة حين يقولون: إن من مزايا القرآن أنه سبق العلم، إنهم كمن يأتي إلى رجل بَنَى بيته على هيئة الكعبة، فيقول له: إن الكعبة قد سبقت بيتك، وجاءت على هذا الشكل من قبله...

إن مثل القرآن والعلم كمثل سائق سيارة يمشي بها في السهل الواسع، يرى القمر أمامه مطلا عليه من فوق الجبل، فيسرع ليدرك القمر، والقمر في مكانه...

إن القرآن لا تبلى جدته، ولا ينفذ معينه، فكلما ازددنا علما، وجدنا تفسيرا للقرآن جديدا لم يعرفه الأولون، لأن الذي أنزل القرآن، هو الذي خلق الأكوان كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون، ويعلم ما يجد فيها ومايؤول إليه حالها...

---

94) ذكريات الشيخ علي الطنطاوي- الحلقة 229 / الخميس 16 / 10 / 1986. «الشرق الأوسط» الجريدة.

الباب السادس :

تقديس الماء عند الشعوب والأمم...

منذ القـديم، والإنســان يرى أنــه محاط بعنـاصر الطبيعـة، وظواهــرها المختلفة، فكان يقف أمامها حائراً، ساهما واجما، لايدرك كنهها، ولا حقيقة العلاقـة التي بينه وبينها، فاشتـط به الخيال، وتصور أن فيهـا، أوْ وَرَاءَهَا قُوَى حَيَّـة، يمكن أن تصيبَه بِشَرٍّ مُسْتطيـر، أو خيرٍ نافع، ثم راح يغلـو به الخيال، حتى جعل لكل مظهـر من مظاهرها، إلاهـاً، في زعمهم في الغالب، ونتيجة لهـذا المفهوم الميثولـوجي صار يعبُـدها، ويتقرب إليهـا طَمَعاً في خيرها ودفعا لشرها...

وذلك ما سنـراه في هذه الفصول من اقتـران الماء بالتصـور الإنساني القديم بالصفـات الميثولوجية التي أضفاها عليـه الإنسان الأول نتيجة لما يراه من نفعِه، أو خَيْره، أو اتِّسَاعِه وَشُمُوله..

ويدور محور هذا الباب حول الفصول التالية :

الفصل الأول : الماء عند القدماء.

الفصل الثاني : العناصر الأربعة في القرآن.

الفصل الثالث : التصور الميثولوجي للماء عند العرب.

الفصل الرابع : الحوريات حيوانات خرافية.

الفصل الخامس : القرآن، وثق الصلة بين الإنسان ونعمة الماء.

الفصل السادس : تقاليد الفرس يوم النيروز.

الفصل السابع : حفلة زفاف النيل...

الفصل الأول :

الماء عند القدماء

[كان النبي عليه السلام : إذا بايع النساء، دعا بِقَدَحٍ من ماء، فغمس يده فيه، ثم أمر النساء، فغمسن أيديهن فيه...].

[القرطبي ج : 18 / ص 71]

اعتُبر الماءُ، خلال عصور طويلة وإلى اليوم، ينبوعَ الحياة، وسر الوجود، ومعجزةَ الطبيعة، كما ارتبط منذ عصور ما قبل التاريخ حتى الآن بالشعائر الدينية، وأساطير الآلهة والأبطال، وتلفّت الفلاسفة حواليهم، على الطبيعة تنضح بأسرارها، وتُفصح عن مخبآتها ومكنوناتها، لتُعلِن عن أصل المادة، وتفسِّر ظواهرَها وردها إلى جذورها وأصولها...

واهتم الفكر الإنساني منذ أكثر من ألفي عام بالبحث عن المكونات الأساسية للكائنات، فظهرت نظريات ومفاهيم كثيرة، في حضارات متعددة، استقرت في النهاية إلى نظرية العناصر أو الأركان أو الجذور الأربعة، وهي: الماء، التراب، النار، الهواء... كما ذهب بعض حكماء الشرق إلى أن الكائنات ترجع إلى عنصر واحد، إما الماء، أو الأرض، أو الهواء، أو النار، كما نحا البعض الآخر إلى تكونها من عنصرين، أو من أربعة عناصر، أو من عدد غير محدود من العناصر، وكان مردُّ هذا كله إلى المشاهدة والنظر إلى العالم المحيط بنا...

* * *

فطاليس (Thalès) الفيلسوف اليوناني الحكيم وعالم الرياضيات (624 – 547، ق.م) الذي عاش في آخر القرن السابع ق.م، والذي يعتبر أحد الحكماء السبعة لليونان، يَرَى في الماء العنصر الأول في هذا الكون وينظر إليه على أساس أنه أهم مولد للكون حيث إن له نظرية تتلخص في الأسس الآتية:

1) الأرض محمولة بالكلية على الماء.

2) الماء هو العنصر الأساسي لكل الكائنات، أي أن الماء هو السبب الأول للكون.

3) يحوي الماء قوة غريزية، وروحاً حية، كتلك المتواجدة في حجر المغناطيس بدليل أنه يجذب الحديد. كذا الكهرمان وجذبه للقش.

4) كل الكائنات تكمن فيها الآلهة حسب زعمه.

5) المادة متصلة لاَ فَرَاغَ فيها، وهي قابلة للقسمة دون حد.

6) الحرارة منشؤها الرطوبة، والموت سببه الجفاف...!

أما أرسطو، فقد كان يرى فيه هو والهواء، والتراب والنار العناصر الأساسية في تكوين هذا العالم المادي، وقد سادت هذه النظرية لمدة عشرين قرنا...

* * *

ولقد كانت المكوِّنات الأساسية في فكر الحضارة الصينية القديمة، ولا سيما ما وجد في كتاب «شوشينج»،(1) أن كل كائن لابد وأن يكون مركبا من : الماء، الأرض، المعدن، الخشب...

كما تعتمد العناصر في الحضارة الهندية ما أخذت به الحضارة الصينية القديمة، وقد أشار. «ج. هُولْمِيَارد»(2) في كتابه: «مؤسس علم الكيمياء»،

---

1) شوكينغ : Chou - King، أو كتاب الحوليات، وهو كتاب قديم صيني كتب قبل مولد السيد المسيح بعدة قرون، وهو مجموع الوثائق الصينية القديمة لصاحبه كونفوشيوس.

2) E.J Holmyard : "Makers of Chemistry", Oxford 1964.

إلى أن فكرة أصل المادة، وتفسير ظواهرها تعود إلى العالم الهندي الكبير «كَانَادَا» الذي قال بأن أصل الكون يمكن ردُّه إلى عناصر أربعة: الماء. الهواء. النور. التراب...(3)

هذا، ويذكر أبو الريحان البيروني،(4) في كتابه «**في تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة، في العقل أو مرذولة**»...(5) «ومن البيِّن أن كلّ مركَّب، فله بسائط منها يبدو التركيب، وإليها يعود التحليل». والموجودات الكُلِّية في العالم هي العناصر الخمسة، وَهِيَ على رأيهم: السماء. والريح. والنار. والماء. والأرض... وتسمى «مهابوت»، أي كبار الطبائع...

ولا يذهبون في النار إلى ما يُذهب إليه من الجسم الحار اليابس عند تقعير الأثير، وإنما يعنون بها هذه الموجودة على وجه الأرض من اضطرام الدخان...

وفي «باج سبران» أن في القديم، كان الأرض والماء، والريح والسماء، وأن «براهم» رأى شرارةً تحت الأرض، فأخرجها وجعلها أثلاثاً.

ويشير أبو الريحان البيروني في كتابه إلى بعض أقوال حكماء الهند في قضية العناصر فيقول:(6) وقال «بلسن» في «سد هاندة»: إن كلية العالم هي جملة الأرض والماء والنار. والريح، والسماء، خُلقت فيما وراء الظلمة».

---

3) ليس بصحيح ما يدعيه علماء الاغريق بأنهم أول من وضع هذه النظرية، بل إن حقيقة الأمر أن هذا المفهوم انتقل من الهنود إلى الإغريق.

4) أبو الريحان محمد بن أحمد البيروني (362 – 440هـ – 973 – 1051م) نسبة إلى «بيرون» في السند... ولد بضاحية خُوارزم، مؤلف عربي من أصل فارسي درس الفلك والرياضيات والطب والتقاويم والتاريخ والعلوم اليونانية والهندية، وكانت بينه وبين ابن سينا مراسلة، من مؤلفاته: «الآثار الباقية، من القرون الخالية»، طبع قديما في «لايبزك» 1838، وقد عني المستشرق الألماني «سخاو»، بترجمة كتاب تاريخ الهند إلى الانجليزية وطبع في الأصل في لندن عام 1887 والترجمة فيها 1888.

5) مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدَّكَن بالهند عام 1377هـ 1958م السلسلة الجديدة رقم 11، أعادت بالتصوير دار: «عالم الكتب» بيروت ص: 31، وقد طبع، أيضا في «لَيْبْزَكْ»

6) نفس المرجع السابق ص 182.

ويمضي البيروني في موضع آخر فيقول:(7) و«آرجَبْهَد» يبحث عن العالم، ويقول: «إنه الأرض والماء والنار والريح، وهي كلها مدوَّرة، وكذلك يقول: «بَسِشْتُ» و«لات»: إن العناصر الخمسة التي هي الأرض والماء والنار والريح والسماء مستديرة، و«براهْمِهُر» يقول: إن الأشياء الظاهرة المحسوسة تشهد لها بالكُرِيَّة، وتنفي عنها سائر الأشكال.

* * *

أما العناصر في الحضارة الاغريقية : فذهب القوم في كنه الكائنات ومكوناتها مذاهب شتى، فهذا الفيلسوف أنكسيمندر(8) Anximandre الذي يعتبر أول من توهم وجود أربعة أزواج متضادة للعناصر، أو الأركان الأربعة، وذهب أنِكْسِيمَنُس(9) الفيلسوف الإغريقي إلى أن مبدأ الأشياء لا نهاية له، وأنه جوهرٌ أبدي، وأن الكائنات تعود في أصلها إلى الهواء... فإن خف الهواء صار، في رأيه ناراً، وإن تكاثف تحوّل إلى ريح، ثم سحاب، ثم ماء. ثم أرض، ثم حجر...

- العناصر والمكونات في الفكر الإسلامي :

انتقلت هذه العناصر الأربعة إلى الفكر الإسلامي من مدرسة الأسكندرية ومن بلاد الروم وعبر الحضارات القديمة.

ويمكن أن نشير إلى ما جاء في أرجوزة الشيخ الرئيس ابن سينا في العناصر الأربعة، حيث يقول:

---

7) نفس المرجع السابق ص 223.

8) أنكسمندر 610 – 547 ق.م. فيلسوف يوناني علم أن مبدأ الأشياء لا نهاية له وأنه جوهر أبدي، وقالوا إنه أول من رسم الخرائط الجغرافية.

9) أنكسيمنس : 585 – 528 ق. م فيلسوف يوناني قال إن الهواء هو أصل الأشياء كلها، وأنه مادة غير متناهية، وأنه من جنس النفس البشرية. أما السبب في تكوين العالم، فهو تخلخل الهواء وتكاثفه.

تقــوم مــن مِــزاجهـــا الأبــدانُ

أمـــا الطبيعيـــات فـــالأركـــانُ :

مـــاءٌ. ونـــار. وثَـــرًى. وريح.

وقَـــول بُقـــراط بهـــا صحيحُ

ومن عجبٍ أن الحَضـارة الإسلاميـة، كمـا يقول د. جـلال شوقي. قـد ورثت هذه النظـرية دون جدل أو منـاقشة أو تحرٍّ أو تقَصٍّ، وإنمـا أخذت بها، وكأنهـا من المسلمات التي لا تقبل الفحص أو التحقـق، وهذه ولا شك سِمة غريبة على الحضارة الإسلامية التي كان طابعها المميز، إعمال الفكر، وتحـري الحق، والسعي الجـاد في تحصيل المعـرفـة بمنهج علمي سليم، ولعل ما يتوصل إليه في هذه الدراسـة يُقَدِّمُ تفسيراً مقبولا لصمود نظرية العناصــر الأربعة طيلـة فترة تـزيد على ألفين من السنين، وقـد أَفَلَت هذه النظرية، تمـاما، في القرن الحادي عشر الهجري، الســابع عشر الميلادي، وذلك مع نشوء علم الكيمياء، دحَضَـها العالم «روبرت بُويل»(10) الذي عاش في الفتـرة من عـام 1627م حتى عـام 1691م، وأثبت أن الأركـان الأربعـة: الأرض. والماء. والهواء. والنار، ليست عناصر لا تنقسم، وإنما هي مركبات، وكان ذلك إيـذاناً بأفول مـدرسة العناصــر الأربعة التي كان رائدُهـا «أمبِذُكلِس»(11) Empédocle، ويعتبر «روبـرت بُويل» أول عالم كيميائي بـالمفهوم العصري، حيث إنه انتقـد النظريات القديمة لصنعة الكيميـاء... ويعد كتابه المـوسـوم «الكميائي المـدقق»، حـداً فـاصلا بين صنعـة الكيميـاء، وعلم

---

10) روبـرت بـويل BOYLE ROBERT (1627 – 1691 م)، فيـزيائي، كميـائي، اكتشف وظيفـة الأوكسجين في الاحتراق، وُلِد بإرلاندة وتوفى في لندن، أدخل مبدأ التحليل في الكيمياء.

11) أمبيذكلس : ولد 483 ق.م، من فلاسفة اليـونان قبل سقراط، اصطبغت تعاليمـه بصبغة دينية، وكان عالما بالطب والفيزياء، فاتهمه معاصروه بالسحر... زاد على العناصر الأربعة (الماء الهواء، النار، التراب) التي قـال بها الفـلاسفة الإيـونيون عنصــرين جديـدين، هما المحبـة، والبغض، اعتبرهما مصدراً لكل حركة... عرفه فلاسفة العرب، ونسبوا إليه تعاليم صوفية ممزوجة بالآراء الفلسفية.

الكيميـاء... وقد أثبت «بُـويل» بطـريق التجـريب، أن المـاء والتراب والنـار والهواء ليست عنـاصر، بل مركبات، وهـو أول من أدخل مفهوم «التحليل» في مجال الكيمياء، وقـد فرّق بين الأخلاط والمركّباتِ، كمـا أنَّه توسع في دراسة الغازات، ولا سيمـا الهواء... وهكذا حازت مدرسة العنـاصر الأربعة قصب السبق، وقـدِّرت لهـا الغلبة، وهي المـدرسـة التي أخـذ عنها علمـاء العَرَب والمسلمين واتبعوها، وأحاطوها بالتبجيل والتسليم والانقياد، وخلعوا عليها ثوب التصديق والتأمين...

وقالوا في صحة الجسم بتوافق عناصـره، ومرضُـها بتنافرها، إذ صحة الأبدان، بتوافق الأركان، أشار إلى هذا المعنى أبو العلاء المعري :

وَأرَى الأرْبَـع الغـــــرائزَ فينـــــــا،
وهْي فـي جُثَّـــةِ الفَتَى خُصَمَــــاءُ
إن تَـــوَافَقْنَ صَحَّ، أوْ لاَ فَمَـــا يَنْفَـــ
ـــكُّ عنـــه الإمـــراضُ والإغمـــاءُ

* * *

الفصل الثاني :

العناصر الأربعة في القرآن الكريم

لقد ذكرت العناصر الأربعة في غير ما آية من آيات الخلق. ونشوء الكون في القرآن الكريم، حيث ترد الكلمات الآتية: ماء. تراب. هواء. نار، مما يفسر تسليم علماء المسلمين والعرب بصحة نظرية العناصر الأربعة، وذلك استناداً إلى ورود هذه العناصر مرتبطة بأمور وكيفيات الخلق والتصريف في بعض آي الذكر الحكيم، مما كان له الأثر الحاسم في إحجام المسلمين - بغير حق - عن التصديق لهذه النظرية ومناقشتها... ولهذا فإننا سناخذ بعض الآيات التي لها ارتباط بهذه العناصر :

عنصر الماء :

يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿وأنزل من السماء ماء، فأخرج به من الثمرات رزقا لكم﴾،(12) **﴿وما أنزل الله من السماء من ماء، فأحيا به الأرض بعد موتها﴾**،(13) **﴿وهو الذي أنزل من السماء ماء، فأخرجنا به نبات كل شيء﴾**،(14) **﴿وكان عرشه على الماء، ليبلوكم أيكم أحسن عملا﴾**،(15) **﴿وأنزل من السماء ماء، فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم﴾**،(16) **﴿والله أنزل من السماء ماءً فأحيا به الأرض بعد موتها﴾**(17) **﴿وجعلنا من الماء كلَّ شيء حي﴾**،(18) **﴿وترى الأرض هامدة، فإذا أنزلنا عليها الماء. اهتزت**

12) سورة البقرة، رقم الآية : 22.
13) سورة البقرة، رقم الآية : 164.
14) سورة الأنعام، رقم الآية : 99.
15) سورة هود، رقم الآية 7.
16) سورة إبراهيم رقم الآية : 32.
17) سورة النحل رقم الآية : 65.
18) سورة الأنبياء، رقم الآية : 30.

وربت﴾،(19) **﴿والله خلق كلَّ دابة من ماء﴾**،(20) **﴿ولئن سألتهم مَن نزّل مِنَ السماء ماءً، فأحيا به الأرض من بعد موتها ليقولن الله﴾**،(21) **﴿وينزل من السماء ماءً، فيُحي به الأرض بعد موتها﴾**.(22)

عنصر التراب والطين والصلصال :

يومن أبو العلاء المعري بأن الجسم مكَوَّنٌ من التراب.. فَعَلاَمَ نرجو عودة الأمْس، ونحن مُذْ خُلِقْنَا من التراب، إلى أن عُدْنا إليه في شقاء دائم؟!

ومازال هذا الجسم مُذْ فَارَقَ الثَّرَى

على تَعَبٍ، حتى أُعِيدَ إلى الرَّمْسِ..

فمن الآيات التي تشير إلى عُنصرِ التراب، قولهُ تعالى :

﴿إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب﴾،(23) **﴿أكفرتَ بالذي خلقك من تراب﴾**،(24) **﴿يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث. فإنا خلقناكم من تراب﴾**،(25) **﴿ومن آياته أن خلقكم من تراب، ثم إذا أنتم بَشَرٌ، تنتشرون﴾**،(26) **﴿والله خلقكم من تراب، ثم من نطفة، ثم جعلكم أزواجاً﴾**،(27) **﴿هو الذي خلقكم من تراب، ثم من نطفة ثم من علقة﴾**،(28) **﴿هو الذي خلَقكم من طين، ثم قضى أجلا﴾**،(29) **﴿قال أنا خير منه خلقتني من نار، وخلقته من طين﴾**،(30)

---

19) سورة الحج، رقم الآية : 5.
20) سورة النور رقم الآية : 45.
21) سورة العنكبوت : رقم الآية 63.
22) سورة الروم، رقم الآية 24.
23) سورة آل عمران، رقم الآية : 59.
24) سورة الكهف، رقم الآية : 37.
25) سورة الحج، رقم الآية : 5.
26) سورة الروم، رقم الآية 20.
27) سورة فاطر، رقم الآية : 11.
28) سورة غافر، رقم الآية 67.
29) سورة الأنعام، رقم الآية 2.
30) سورة الاعراف، رقم الآية : 12. وسورة : ص : 76.

﴿ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين﴾،(31) ﴿الذي أَحْسَنَ كلَّ شيء خلقه، وبدأ خلق الإنسان من طين﴾،(32) ﴿إنا خلقناهم من طين لاَزِب﴾،(33) ﴿إذ قال ربك للملائكة إني خالقٌ بشرا من طينٍ﴾،(34) ﴿فسجدوا، الاّ إبليس قال: آسجد لمن خلقت طينا﴾،(35) ﴿ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حمإ مسنون﴾،(36) ﴿إني خالق بشراً من صلصال من حمإ مسنون﴾،(37) ﴿قال: لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال من حمإ مسنون﴾،(38) ﴿خلق الإنسان من صلصال كالفخار﴾،(39) ﴿سبحان الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض﴾،(40) ﴿هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها، فاستغفروه»،(41) ﴿هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض، وإذ أنتم أجنة﴾،(42) ﴿هو الذي ذرأكم في الأرض، وإليه تحشرون﴾،(43) ﴿والله أنبتكم من الأرض نباتاً﴾،(44) ﴿الذي جعل لكم الأرض مهاداً، وسلك لكم فيها سُبُلاً، وأنزل من السماء ماءً، فأخرجنا به أزواجاً من نبات شَتَّى، كلوا وارْعَوْا أنعامكم، إن في ذلك لآيات لأولي النهي، منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى﴾.(45)

31) سورة المومنون، رقم الآية : 12.
32) سورة السجدة، رقم الآية 7.
33) سورة الصافات، رقم الآية : 11.
34) سورة ص، رقم الآية : 71.
35) سورة الإسراء، رقم الآية 61.
36) سورة الحجر، رقم الآية : 26.
37) سورة الحجر، رقم الآية : 28.
38) سورة الحجر، رقم الآية : 33.
39) سورة الرحمن، رقم الآية : 14.
40) سورة يس، رقم الآية : 36.
41) سورة هود، رقم الآية : 61.
42) سورة النجم، رقم الآية 32.
43) سورة الملك، رقم الآية 24.
44) سورة نوح، رقم الآية : 17.
45) سورة طه، رقم الآية : 53 – 54 – 55.

عنصر النار :

﴿قال أنا خير منه، خلقتني من نار، وخلقته من طين﴾،(46) **﴿والجان خلقناه من قبلُ من نار السموم﴾،**(47) **﴿وخلق الجان من مارج من نار﴾...**(48)

دخان : **﴿ثم استوى إلى السماء وهي دخان﴾.**(49)

الهواء، والريح، والرياح...

﴿ولسليمان الريح عاصفة تجري بأمره﴾،(50) **﴿ولسليمن الريح غُدُوُّهَا شهر، ورواحها شهر﴾،**(51) **﴿فسخرنا له الريح تجري بأمره رُخاء حيث أصاب﴾،**(52) **﴿وتصريف الرياح المسخّر بين السماء والأرض لآيت لقوم يعقلون﴾،**(53) **﴿وأرسلنا الرياح لواقح، فأنزلنا من السماء ماءً فأسْقَيْنَاكُمُوهُ﴾.**(54) **﴿الله الذي يرسل الرياح فتثير سحاباً فيبسطه في السماء﴾،**(55) **﴿والله الذي أرسل الرياح، فتثير سحاباً فسقناه إلى بلدٍ ميت، فأحيينا به الأرض بعد موتها، كذلك النشور﴾،**(56) **﴿فأحيا به الأرض بعد موتها، وتصريف الرياح آيات لقوم يعقلون﴾.**(57)

---

46) سورة الاعراف، رقم الآية : 12.

47) سورة الحجر، رقم الآية 27.

48) سورة الرحمن، رقم الآية : 15.

49) سورة فصلت رقم الآية : 11.

50) سورة الأنبياء، رقم الآية : 81.

51) سورة سبأ، رقم الآية 12.

52) سورة ص، رقم الآية : 36.

53) سورة البقرة، رقم الآية : 164.

54) سورة الحجر، رقم الآية : 22.

55) سورة الروم، رقم الآية : 48.

56) سورة فاطر، رقم الآية : 9.

57) سورة الجاثية، رقم الآية : 5.

فلسفة الأرقام :

وتحديد العناصر بأربع، يرجع إلى ما كان لهذا الرقم من مكانة عند الفيثاغوريين، فقد كانت له مكانة خاصة عند الفلاسفة الطبيعيين، فكانوا لا يتكلمون عن شيء من العلويات أو السفليات، أو يكتبون عنه، إلا بكلام ذي جمل أربع، وبرسائل ذى أرقام أربع...(58)

كان فيثاغورس PYTHAGORE(59) يرى الكمال في الأعداد الأربعة الأولى، وكان اتباعه يسمون الرباعية، وكان يرى أن الأربعة أصل الأشياء، فأشياء ما بعد الطبيعة أولها الله، ودونه العقل، ثم النفس، ثم الهيولي، والمكونات أربعة: هي الحيوان، والنبات، والمعدن والإنسان.(60)

وقد أدت فلسفة الأرقام بابقراط – في رأي غاليونجي(61) GALLIANUS إلى أن يحدد أياما حاسمة بالنسبة للأمراض لمقابلتها بعض الأرقام التي لها خواص معينة...(62)

وهناك قول في الأصول الطبية عند اليونان، وهي أصول ثلاثة:

1) نظرية الأخلاط.

2) القوى الطبيعية السامية.

3) الأيام البحرانية (البُحران)، فنظرية الأخلاط تبنى على الاعتقاد بأن الأشياء تتكون من أربعة عناصر رئيسية، هي الماء، والهواء، والتراب، والنار...

---

58) ديبور – تاريخ الفلسفة في الإسلام ص : 110 – انظر خواص العدد : «رسائل إخوان الصفا ص: 56/1.

59) أحد حكماء اليونان، تفرغ من صغره إلى درس الحكمة، فجال يطلبها في مصر والشام وبابل، إليه يعزى تقدم الحساب المعروف بجدول فيثاغورس في الضرب. قال بتناسخ الأرواح توفي في جزيرة ساموس (نحو 600 ق، م).

60) سانتلانا : تاريخ المذاهب الفلسفية ج : 1/143.

61) ولد : 235، امبراطور روماني : تزين بالعلم والأدب – غاليونجي (بول) ابن النفيس ص : 17.

62) عالم الفكر : ج : 9، ع : 1/1978.

والجسم الإنساني مزيج متناسب من هذه العناصر، إن امتزجت امتزاجا محكما في الكيفية والكمية كانت هذه حالة الكرازيس CRASIS، أي الامتزاج، ولكن إذا زاد أحد العناصر، أو نقص، أو امتنع عن الامتزاج بالعناصر الأخرى حدثت الأمراض...!

وقد أخذ ابقراط فكرة تكون الجسم الإنساني من أربعة عناصر من الفيلسوف اليوناني «امباد وقليدس»(63) EMPEDOCLE، بل إن فكرة توقف الصحة على توازن العناصر الأربعة تعود هي الأخرى إلى «امبادوقليس»...(64)

* * *

وعن الأمزجة الأربعة يقول الشيخ الرئيس ابن سينا في أرجوزته الألفية في الطب:

احكامه يعين في العلاج
وبعدُ، ذاك العلم بالمزاج
يُفردها الحكيم، أو يجمع
أما المزاج، فقواه أربع
ولِينٍ ينال حس اللامس
من سخن وباردٍ ويابس

* * *

63) ولد : 483 ؟ ق. م. من فلاسفة اليونان قبل سقراط، اصطبغت تعاليمه بصبغة دينية. وكان عالما بالطب والفيزياء، فاتهمه معاصروه بالسحر. زاد على العناصر الأربعة: «الماء، الهواء، النار، التراب) التي قال بها الفلاسفة الإيونيون عنصرين جديدين هما المحبة، والبغض اعتبرهما مصدرا لكل حركة... عرفه فلاسفة العرب، ونسبوا إليه تعاليم صوفية ممزوجة بالآراء الفلسفية؛ كما تقدم في التعليق رقم : 11.

64) الطب والأطباء / جلال محمد موسى – «عالم الفكر» مجلد : 9/ العدد الأول ص: 553/1978.

ونسوق، بالمناسبة لغزا في البسائط الأربعة، وهو قول الشاطبي ملغزا في دولب السانية:

يـــا أيهـــا الحبـــر الـــذي،
علم العَـــروض بـــه امتـــزج،
بيّـــن لنـــــــــــــا دائرةً
فيهـــــا بسيط، وهـــــــزج.

ووجه اللغز أن البسيط، في علـم العروض، من دائرة المختلف، والهزج من دائرة المشتبه، فكيف يجتمعان في دائرة؟

وقد أجاب شيخ الجماعة بالحضرة الرباطية العلامة أبو حامد البطاوري الشرشالي، عن هذا اللغز بقوله :

يـــــا ملغـــــزا في دولـب
نلـتَ المـــــرادَ. ولا حَـــــرَج
فـــالمـــــاء منــــه، والبسيـــــ
ـــط، وصـــوتـه : هـــو الهَـــزَج

والمـراد بالبسيط في اللغـز المـاء، لأنـه من البسائط الأربعـة، التي لا تركيب فيها عنـد الحكماء، وهي العناصر المرمـوز لها بـ: «نَهِمْتُ»: النار، والهواء، والماء، والتـراب، ومنها تتركب المركبات الثلاثـة: المعدن، والنبات، والحيوان... والهزج لغةً: الصوت...

وقد وقف المحبي(65) لعلي بن أحمـد بن محمـد الـدمشقي الشـافعي المعروف بـابن بجع على مجموع بخطـه فيه كل ذخيـرة من نفائس الأدب ومحاسنه، ورأى فيه من آثاره هذا الجواب عن اللغز وهو:

يـــا أيهـــا المـــولى الـــذي،
علم العـــــروض بـــه امتـــزج.

---

65) خلاصة الأثر ص : 147/ 3.

بيـن لنــــــــا دائــــــــــــرة،

فيهـــــــــا : بسيط وهـــــــــزج

قـال سـألني عنه بعض الإخـوان، فأجبتـه بديهـا، بأن المـراد بالـدائرة الدولاب، وأراد بالبسيط فيهـا الماء، وأراد بالهزج: صـوت الدولاب، فيكون المعنى: بين لنـا دائرة جمعت بين البسيط والهـزج، لا المذكـورين في علم العروض، وإن سـاعده قـوله : «علم العروض بـه امتزج»، لمـا بينهما من البعد، إذ البسيط ثماني الأجـزاء، والهزج سداسيها، وهمـا لا يجتمعان، قال المحبي: والمعروف أن بعض العلمـاء سُئل عن هذين البيتين، ففكر سـاعة، ثم أجـاب فقال لـه السـائل: أجبت الجواب الحق، ولكن درتَ في الـدُّولاب كثيرا...

* * *

عاش الإنسـان منذ القـديم، وهو محـاط بعناصر الطبيعـة، وظواهـرها المختلفة: نجوم تترجرج في أديم السماء، وسحاب متراكم، وغيث ينزل من السمـاء مدرارا، وشمس وهـاجة تتكبـد في السمـاء، ورعد قـاصف يصك الآذان، وريح صـرصر عـاصف عـاتيـة يقتلع جذوع الشجـر... كل هـذه الظواهر كان يقف الإنسان أمامها حائرا، لا يدرك كنهها، ولا حقيقة العلاقة التي بينه وبينها، فاشتط به الخيال، وتصور أن فيها، أو وراءها قوى حية، يمكن أن تصيبه بشر مستطير، أو خير نافع، ثم راح يغلو به الخيال، حتى جعل لكل مظهر من مظاهرها إلاهـا، في زعمهم، في الغالب... ونتيجة لهذا المفهوم الميثولوجـي صار يعبدها، ويتقرب إليها طمعاً فـي خيرها، ودفعا لشرها...

* * *

فالإنسان الأول كان يـرى عناصر الطبيعة وظواهرها حيـة مثله تماما، ولذلك راح يترقب إليهـا، ويطلب ودها، ويمكننا أن نجد هـذا المفهوم مثلا،

في قصيدة لأحد البابليين، وهو يخاطب: نهر الفرات في تعويذته طالبا منه البرء من مرضه، وراجيا منه الرحمة في ما أصابه، مما يدل على تصور هذا الشاعر لوجود حياة أو قوة في النهر، يمكن أن تنفعه في إزالة ما به من الأسقام، فهو يطلب إليه أن يفرج غمته، ويتقبله برأفة، وأن يَرْمِيَ ما في جسمه من الأوجاع، بين شطآنه، وأن يغرق في أعماقه ما به من تلك الآلام... فهو يقول:

تعويذة – يا أيها النهر، يا خالق كل شيء...
حينما حفرك الآلهة العظام.
أقاموا لك أشياء طيبة على شطآنك...
وفي طيات عُمرك، بنى «أَيَا»(66) ملك العمر مقامه...
وأنعموا عليك بفيض من المياه لا نظير له...
والنار والغضب، والجلال والرهبة.
قد وهبها لك «أيا» و«مردوخ»(67).
وأنت الذي تقضي في قضايا الناس.
فيا أيها النهر العظيم... أيها النهر المجيد... يا نهر المعابد المقدسة...
مياهك تفرج الغُمة، فتقبلني برأفة...
وخذ ما في بدني، وارم به على شطآنك...
وغرّقه عند ضفافك، وغطّسه في أعماقك(68)

* * *

66) «أيا» : رب المياه في زعمهم.
67) مردوخ : إلاه المريخ في زعمهم.
68) مجلة : «سومر» م : 5. ج : 2/ 1949 ص : 201، للأستاذ طه باقر، وبشير فرنسيس.

إن إزالة الخطايا بواسطة الماء من مظاهر المذهب الحيوي، فقد كان هذا المفهوم معروفا لدَى كثير من الأمم القديمة، إذ كان الرومانيون يعمدون(69) أولادهم بالماء، ويرون إن العمادة واسطة لازالة الخطايا.(70)

وكان المكسيكيون يعمِّدون أولادهم بدهن أفواههم، وصدورهم بماء، ويتوسلون بآلهتهم كي تسمح لنقط الماء أن تزيل الخطيئة التي لحقت بالطفل، قبل تكوين العالم، لكي يَلِدَ الولادة الثانية.(71)

* * *

وإننا لنرى في الأساطير البابلية التي تصف إلاه الشمس، في زعمهم، بأنه «قدير» وأنه نوّر «جلجامش» وأتمه، ذلك الكوكب الذي كان سيد القوى الطبيعة(72) في الأساطير المصرية سببا في انبثاق النيل الذي يُحْيي الأرض، ويسقى الزرع، حتى إن «امنحتب» الرابع ينشد مخاطبا إياه :

يا شمس النهار، يا من تخشاه البلاد القاصية...
أنت موجه حياتهم...
أنت الذي خلقت في السماء نيلا...
لك تنزل عليهم ولهم...
يتساقط الفيضان على الجبال كالبحر الزاخر
فيسقى مزارعهم وسط ديارهم
ما أبدع تدابيرك يا إلاه الأبدية(73)

* * *

---

69) عمَد الولد : غسله بماء المعمودية، وهي أول أسرار الدين المسيحي، وباب النصرانية، وهي غسل الصبي وغيره بالماء باسم الأب والابن والروح القدس، واللفظة سريانية الأصل، أو مولدة مأخوذة من العَمَد أي البلل.

70) «العقائد الوثنية في الديانة النصرانية» ص : 127، محمد طاهر التنير...

71) المصدر السابق ص : 128.

72) محمد الحوت : «في طريق الميثالوجيا عند العرب» ص : 93.

73) الشعور الديني عند الطفل...

ونجد الماء قديما في الفكر البابلي، هو إلاه ومادة في الوقت نفسه... ويتبين ذلك لنا من بعض أساطيرهم، وهي قصة «الخليقة» فهذه الأسطورة تقول: بأنه في البدء كان الماء، ولا شيء قبله، فهو العماد المظلم الذي فُصل بعد ذلك إلى سماء وأرض...

وهذا الإلاه المزعوم : الماء مؤلف من عنصرين هما : «الماء العذب» وهو العنصر المذكر، و«الماء الأجاج» وهو العنصر المؤنث...

وقد جسم البابليون هذين العنصرين وجعلوهما إلاها، وإلاهة، هما: «أبسو»(74) «تيامة» وعدوهما أصل جميع عناصر الطبيعة...(75)

ولقد عبر الشاعر البابلي في قصة الخليقة عن هذا المفهوم بقوله :

حينما في العلا، لم يكن للسماء اسم

وفي الدنى لم تكن الأرض شيئاً مذكورا...

ولما لم يكن في البدء غير «أبسو» أبوهم...

والأم «تيامة» التي ولدتهم جميعا...

ولم تكن اليابسة، ولا ضحضاح يرى

ولم يكن أي من الآلهة قد ولد بعد.

بل، ولا ذكرت أسماؤهم، ولا كتبت مقاديرهم

ثم خلقت الآلهة في وسطها...(76)

ويشبه هذا المفهوم ما رآه المصريون القدماء، فالعالم عندهم، عيلم واسع من الماء طفت عليه بيضة خرج منها رب الشمس،(77) ومثله أيضا مفهوم الهنود القدماء في أصل العالم وتكوين الخليقة.(78)

---

74) أبسو : وتيامة : إلاهان في زعمهم، ويمثلان المياه الأولى، وتغلب «مردوخ» عليهما في الحرب بين الجيلين من الآلهة، وتيامة يعني البحر في اللغة البابلية... انظر رقم : 100 من هذا البحث.

75) مجلة : سومر : م 5/ج : 1/ ص : 8/ طه الباقر.

76) قصة الخليقة البابلية - ترجمة طه الباقر، وبشير فرنسيس م : 5/ ج : 1/ ص : 11، 12 - الرقم الأول الأبيات من : 1 - 9.

77) عباس محمود العقاد : كتابه : الله - ص : 52.

78) العقاد : «الله». ص 63، الملل والنحل 122/2 للشهر ستاني.

ويتبين من الأســاطير القـديمة أن الماء غيـر مخلوق في معبـدهم دول الحضارات الأولى...(79)

* * *

ومفهوم المــاء ارتبط بالإحيــاء، كما ارتبط بـالإماتــة في الفكر القــديم، وليس الإحيــاء هنا هــو الإحياء الـذي نفهمــه نحن الآن من إطلاق اللفظـة، وكذلك الإمــاتة، فإنها لا يقصــد بها في ذلك المفهوم الإغراق مثــلا، بل يراد بالإحياء، الإحياء الأبدي، أو الخلود الذي يسببه الماء للإنسان...

ويقصد بالإمــاتة، انقطاع حياة الإنسان بمجرد مــلامسته للماء، ويفهم، مثلا، من إحدى الأســاطير البابلية، أن استعادة الحياة حصل بـواسطة ماء عجيب، أطلق عليه في الأسطورة: «ماء الحياة».

ونفهم من الأسطـورة أنــه تسبب في إحيــاء إحــدى الآلهــات المسمــاة «إينانـــــا»، إذ بعثهــا من المـــوت بمجـــرد أن لامس جســدها بعــد بثـره عليها...

وتــروي الأسطـورة أن إلاهين من الآلهــة؛ في زعمهم، قــد قامــا بهـذه العملية العجيبة، فالأسطورة تقول في عدد من أبياتها:

نثرا ستين مرة طعام الحياة....

وستين مرة ماء الحياة...

لقد قامت «إينانا».

وصعدت : إينانا «من العالم السفلي».(80)

والعالم السفلــي الذي تتحدث عنــه الأسطورة هــو عالم الأمــوات، الذي تصوره الأساطير البابلية بأنه تحت الأرض في مكان سحيق، «وإينانا» هذه هي «عشتار» كانت قد نزلت إلى العــالم السفلي، أو عالم الأموات، فأسرتها

79) «الطبيعة في القرآن الكريم». د. كاصد ياسر الزيدي ص : 29.

80) مجلة سومر : م : 10/ ج : 1/ ص : 18.

أختها، ثم جعلتها جثــة هامدة بعد ذلك، ولم تستطع النجـاة من هذا الموت الا بماء الحياة، وطعام الحياة.

أمـا الخلـود بسبب المـاء، فيفهم من إحـدى الأسـاطيـر العـربيـة قبل الإسلام... إذ تـروي تلك الأسطورة أن الملك ذا القـرنين كان يفكـر في أن يملك الأرض ومن عليها، وأنــه وَصَلَ إلى «عين الحياة» ليشرب المـاء الذي يهبه الخلود، غير أنه منع من ذلك، فلم يخلد.(81)

فالمياه الأولى، والصراع والاحتـراب بين الإلاه : «مردوخ» وبين «تيامة» و«أبسـو»، وهما الإلاهـان اللـذان يمثلان الميـاه الأولى... وتغلب مـردوخ عليهما في الحرب بين الجيلين من الآلهة...(82) كما يزعمون.

لقـد كانت عـدة قـوى متصارعـة ومتحاربـة فيمـا بينها، ولـذلك، فإن بوسعنـا أن نستشف من وراء الإطار الأسطـوري لروايـة الخليقة البـابلية أحوال العـراق القديم، ولا سيمـا الأحوال الجغرافيـة في بدايـة تكوين أولى الحضارات البشرية...

فقيامة ربــة الأغوار هي «البحر» ذلك أن اسم: «تيامــة» يعني البحر في اللغة البابلية،(83) وهـي قـريبة من «التُّهَمــة» التي تعني: الأرض المتصوبـة إلى البحر في العربية.(84)

* * *

وقد اقترن الماء بالتصور الإنساني القـديم بالصفات الميثولوجية التي أضفاهـا عليه الإنسان الأول، نتيجة لمـا يراه من نفعه أو خيره أو اتســاعه وشموله...

---

81) «الأساطير العربية قبل الإسلام» ص : 34، محمد عبد المعيد خان، وانظر : الجامع لأحكام القرآن للقرطبي في قوله تعالى: في عين حمئة... ووجد عندها قوما» ص : 49 - 50/ ج: 11.

82) «مقدمة في تاريخ الحضارات الأولى» طه باقر، ص : 457 - 458/1.

83) المصدر السابق ص : 458/1.

84) القاموس المحيط - ولسان العرب - مادة تهم.

فتصوره شيئاً قائما بذاته في الوجود غير مسبوق بقوة يمكن أن تكون سببا في وجوده، ولـذلك حسبه ازليا... فالماء في تصـور الإنسان القديم يمكـن أن يكون سببـاً في إحياء الميـت، وإعادة الحـياة إلـيه من جـديد، ويمكـن أن يـكـون سببـا في مـواصـلـة الحـيـاة وتـجـددهـا وذلـك هـو الخلـود...

التصور الميثولوجي للماء عند العرب

لم تكن طائفة من عرب الجاهلية بمنأى عن التصور الميثولوجي للماء، فقد قدسوا مواطن المياه القديمة، وتصوروا أن فيها سراغامضا، فكأنها كانت في تصورهم مواطن الآلهة أو الأرواح، وكانوا إذا غُمَّ عليهم أمر الغائب جاؤا إلى بئر قديمة بعيدة الغور، ونادوا ثلاثاً... يا فلان!!.. فإذا كان ميتاً، لم يسمعوا في اعتقادهم صوتا، قال شاعرهم معبرا عن هذا المفهوم :

دعوتُ أبا المغوار في الحَفْر دعوةً

فما آضَ صوتي بالذي كنتُ داعيا

أظن أبا المغوار في قعر مظلم،

تجر عليه الذارياتُ السوافيا

وقال آخر :(85)

وكم ناديته في قعر ساجٍ

بعادِيٍّ البِئار فما أجابا

وقال ثالث :

الم تعلمي أني دعوت مجاشعا

من الحفر والظلماء باد كسورُها(86)

فجاوبني حتى ظننتُ بأنه

سيطلع من جَوْفاء صعب حدورُها

* * *

85) «بلوغ الأرب، في معرفة أحوال العرب» محمود شكري الألوسي ص : 3/3.

86) البلاذري. فتوح البلدان / 48. – والكسور : الأرض ذات صعود وهبوط والجوفاء: شجرة ذات جوف، وأراد بها البئر التي صاح ونادى فيها.

كان العرب في فجـر تاريخهم البعيد ينظرون إلى الميـاه نظرة تقديس، لأنها مورد الخصب والنماء، وواهبة البركة والخير، فكانوا ينشدون الأراجيز في أثناء حفر الآبار، ويتبين من الأراجيز التي وصلت إلينا، أن نار المنافسة اشتعلت بين بطون قريش المختلفة، كي يحفر كل بطن منها بئرا خاصة به، ويسقى منها حجـاج مكة، فقد حفر قصـي بن كلاب أبو القبيلة كلهـا بئرا سماها العجول، وفيها يقول بعض رجاز الحاج:

نـــروى العَجـــول، ثـم ننطلق

قبل صـــدور الحـاج مـن كل أُفُق

إن قصيـا قـد وَفَـى وقـد صـدق

بـــالشبع للنـــاس، وريّ مُغْتَبق

بل نظم كل فريق منهـم الأراجيز التي تثني على بئره، وتمـدح وتقدس ماءه، وقد تعيب ماء غيره من الآبار... حتى إننا نجد بينها ما يشبه النقائض المعروفة، فـاكتفى بنوسهم، وبنو عدي، بوصف آبارهم بغـزارة الماء، قال شاعرهم:(87)

نحن حفـــرنـــا بئـرنـــا الحفيـــرا

بحـــرا يجيـشُ مـــاؤه غـــزيـــرا

* * *

ولعل الحرمان، وندرة المياه، وجـدْب الأرض، هو الذي جعلهم يبالغون في تقديس الماء، وتقدير الخصب، ويرون لـه رونقاً خاصا في هذه البيئة الجرداء، ومن هنا وجدنا القصص الطـويلة التي دارت حول الآبار والمياه، وما ورد حول حفرها من روايات دليل على ما ذكرنا.(88)

بل إ نهم قدســوا مواطن المـاء القديمة، واعتقـدوا فيها أسرارا غـامضة، وأضفوا عليها من القوى الخفية ما لم يضفوه على غيرها من الأماكن، حتى

87) البلاذري، معجم البلدان / 49، وسيأتي هذا الموضوع في الباب السابع عشر من هذا الكتاب.

88) ابن هشام – السيرة – ص : 154/ 1.

إذا غُمَّ عليهم أمر الغائب، جاؤوا إلى بئر قديمة، بعيدة الغور، ونادوا يا فلان أو أبا فلان كما قدمنا آنفا.(89)

وافتخرت بها بنو مناف على قريش كلها، وعلى سائر العرب، فقال مسافر بن أبي عمرو بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف، وهو يفحز على قريش بما وَلّوا عليهم من السقاية والرفادة:(90)

ورثنا المجد من آبا — ئنا، فنمى بنا صعدا

أَلم نسق الحجيج وننحـ — ـر الدِّلافة الرفّدا

وزمزم في أَرومتنا — ونفقأ عين من حسدا

* * *

نُدْرَة الماء كانت سَبَباً في خلق الخرافات والأساطير :

وندرة المياه وقلتها كانت سببا من أسباب خلق الخرافات والأساطير وكثرتها حول هذه الندرة وأسبابها، ولهذا وجدنا حكاية التضرع والدعاء للمطر، والروايات والأخبار التي تتحدث عن سنوات الجدب التي حلّت بأرض الحجاز وعروضها منشورة في مصادرنا القديمة...(91) وكذلك وجدنا حكاية نار الاستمطار، وهي النار التي كانوا يستمطرون بها في الجاهلية، وما حيك حولها من أساطير، فقد كان العرب يزعمون أنه إذا أمسكت السماء قطرها، ومنعت دَرَّها، وتتابعت عليهم الأزمات، وركد عليهم البلاء، واشتد الجدب، واحتاجوا إلى الاستمطار، اجتمعوا، وجمعوا ما قَدَرُوْا

89) «الطبيعة في الشعر الجاهلي». للدكتور نوري حمودي القيسي ص : 47.

90) ابن هشام، السيرة. ص : 164/1.

91) انظر صفة جزيرة العرب للهمذاني / 214 (ليدن 1884).

عليه من البقر، ثم عقدوا في أذنـابها، وبين عراقيبها السلع والعشر،(92) ثم صعدوا بها في جبل، واشتعلوا فيها النيران،(93) وضجوا بالدعاء والتضرع، فكانوا يرون أن ذلك من أسباب السقيا، ولذلك قال أمية بن أبي الصلت،(94) إن صح أنها له:

سنـــة أزمـــة تخيل بـــالنـــا
س، تـرىٰ للعضـاه فيها صـريـرا
إذ يسِقُّـون بـالــدقيق وكـانــوا
قبل، لا يـــاكلـــون شيئـاً فطيــرا
ويسوقون باقراً(95) يطـرد السهل
مهـــازيـل خشيـــة أن يبـــورا
عاقدين النيـران في شكر(96) الأَذْنَا
ب، عمـــدا كيمـــا تهيج البحـــورا
فـــاشتـوت كلهـــا، فهـــاج عليهم
ثم هـاجت إلى صبير صبيـرا(97)
فـــرآهـــا الإلاه تـرشم بـــالقطـــر
وأمسى خيــــامهم ممطــــورا
فسقاها نِشَاصَه(98) واكف الغيـث
منــــه، إذ رادعــــوه الكبيــــرا

92) السَّلَع، والعُشَر : ضربان من الشجر، كان العرب ياخذون حطبهما للغرض الذي ذكرنا.
93) حياة الحيوان الكبرى للدميري ص : 150/1.
94) الجاحظ – الحيوان ص : 466/4.
95) الباقر : البقر.
96) الشكر جمع شكير، وهو الشعر القصير بين الشعر الطويل.
97) الصبير : السحاب يثبت يوما وليلة ولا يبرح.
98) النشاص : السحاب المرتفع.

سلع مـــا، ومثلـــه عشـــــرمـــا،
عـائل مـــا، وعـالـت البيقـورا(99)

* * *

الواقع أن الإنسان لم يتفطن طَوَال حياتــه إلى أهمية المياه الكبرى، فقد كان يعتبره هبــة من الهبات الطبيعية التي لا تنضب ولا تغــور أبداً، وأخيرا بدأ يعي أهمية هذا المصدر الحيوي الخطيــر، فاعتبره أحد العناصر الأربعة الكميائية، وواحدا من عناصر الحياة المهمة...

وفي تأليه الماء وعبادته، أشار المرحوم أمير الشعراء أحمد شوقي إلى هذا المعنى بقوله:

ديــن الأوائل فيك ديــن مـــــــــروءة
لِمَ لا يُـــؤَلّــهُ مــن يقُــوتُ ويـــرزق ؟
لـــو جن مخلـــوقـا يُـــؤَلّــه لم تكن
لســـواك مـــرتبــة الأُلـــوهـــة تُخلق
جعلــوا الهــوى لك، والـــوقــار عبــادة
إن العبــــــادة خشيــــــة وتعلــق

* * *

ومن عجائب العقــول، وتناقضـها، فإن طـائفة تعبد المــاءَ من دون الله، وتسمى: «الحلبـانية» وتــزعم أن المــاء لما كــان أصل كل شـيء، وبــه كل ولادة، ونموٍّ ونشــوء وطهارةٍ وعمارة... ومــا من عمل في الدنيـا إلا يحتاج إلى الماء...

ومن شــريعتهم في عبــادته، أن الــرجل منهم، إذا أراد عبــادته، تجــرد، وستر عورتــه، ثم دخل فيه، حتى يصير إلى وسطه، فيقيـم هناك ساعتين

---

99) البيقور : بمعنى البقــر... عال الشـيء فلانا ثقل عليــه، يقول : اثقلت البقر بمــا حملته من السلع والعُشر. [حياة الحيوان للدميري ص 150/1، الطبيعة في الشعــر الجاهلي» ص: 66. – وانظر بحثا مهما جدا في موضوع السلع والعشر في: «خلاصة الأثر» للمحبي ص: 382 – 383/2].

أو أكثر، بقدر ما أمكنه، ويكون معه مـا يمكنه أخذه من الرياحين، فيقطعها صغارا، فيلقيها فيه شيئاً فشيئاً، وهو يسبِّحه ويمجده، فإذا أراد الانصراف، حـرك الماء بيـده، ثم أخـذ منه، فيضعـه على رأسـه وجسده، ثم يسجـد وينصرف(*) قال ابن قتيبة في كتاب المعارف :

وكانت المجوسية في تميم، منهم زرارة بن عدس التميمي، وابنه حاجب بن زرارة، وكـان تـزوج ابنتـه، ثم نـدِم، ومنهم الأقـرع بن حـابس، كـان مجوسياً، وأبو الأسود جد وكيع بن حسان كان مجوسيا...

* * *

وفي روع الشعوب الساميـة القديمة أن الأرباب(100) لها بيوت تستقر فيها، هي الواحات، ومواضـع المياه في الغالب في نظر أهل الوبر...(101)

وقد اعتقد اليونانيون أن «زيوس» ZEUS(102) كبير آلهتهم هو إلاه الرعد والبرق، وأخاه «يوزيدون» إلاه العواصف والبحـار، أما الرياح الغربية فكان إلاهـها «زفيروس»، ويخبرنا «تيرتوليان»(103) TERTULLIEN وهو واحد من آبـاء المسيحيـة القـدامى أن اتبـاع: «إيزيـس» و«متراس» كـانـوا يبـدأون الانضمام إلى عقيدتهم بالتعميد من ينبـوع، وأن الناس في عبادات «أبولو» «واليوزيس» الخـاصة كانـوا يعمدون، وهم يفكرون في الخـلاص والتحرر من وزر الحنت في إيمـانهم ويقـول أيضـا: كـان أيُّ شخص من القـدامى يلطخ يديه بـالقتل يذهب للبحث عن الماء الذي يمكـن أن يطهره من ذنبه...

---

*) بلوغ الأرب – محمد شكري الألوسي ج : 2/235.

100) لم تختلف الآلهة، في نظر الاغريق عن البشر كثيرا، فهي ذات أبدان مثلهم، وإن كانت أجسامها أكبر، وأبدع صنعا... وهي مخلوقة مثلهم، وتخوض الحروب بدافع الجشع أو الحسد، ولأسباب أخرى لا تختلف كثيرا عـن الأسباب التي تؤدي إلى إشعال نيران الحـروب بين بني الإنسان... وآلهة اليونان لا تتدخل في شؤون البشر الا بقدر محدود.

101) «تاريخ العرب قبل الإسلام» د. جواد علي. ص : 5/214.

102) اعتقد اليونانيون أن زيوس كبير آلهتهم، هو إلاه الرعد والبرق.

103) «تيرتوليان» كان داعيا للمسيحية، وأول كاتب مسيحي باللغة اللاتينية، ولد (155م.ت 222م) إلا أن تعصبه آل به إلى الألحاد، كان له دور مهم في تكوين اللغة اللاهوتية اللاتينية.

وبلغ من تمسك اليونانيين بتلك المعتقدات، وتصديقهم إياها، أنهم كثيرا ما أمضوا الساعات الطويلة، وهم يصلون لتلك الآلهة لعلها تغرق أعداءهم بمياه الأمطار، أو تفزعهم، وتفرق شملهم بالبرق والرعد، وما إلى ذلك... جاء أرسطو، فَسَفّه أحلامهم، كما هو معلوم...

* * *

تقديس الأفارقة للماء :

يحدثنا التاريخ أن الأفارقة القدماء، قدسوا البحار والأنهار، والسلافيين اعتقدوا بوجود الأرواح في الينابيع والعيون، والهنود الحمر، والمتوحشون في مناطق: «كلومبيا» «ومايـاس» «وأكناس» وقبيلة «سيو»، فقد كانوا يقدمون عدة قرابين لآلهة المطر والبحيرات ومازال الهنود يتطهرون بمياه «الكانج»، مما يدل دلالة قطعية على رسوخ عبادة المياه في نفوسهم... فهذا النهر هو أقدس الأنهار بالنسبة إلى الهنود، وفي كل عام يذهب آلاف الحجاج منهم إلى «الله آباد» «وبيناريس»، لإزالة خطاياهم بالاستحمام في مياهِهِ المقدسة...

وقد أشاروا أنه في الهند تبدأ أولى خطوات الزواج بتقديم برج ميلاد العريس لأسرة العروس لحساب نجم، ورؤية طالعه، فإذا ثبتت حسابات النجوم صلاحية العريس، تعقد الخطبة، وتغسل قدما العريس بالماء المقدس، وتناوله العروس ثمرة جوز الهند تفاؤلا بحياة زوجية سعيدة... وفي ليلة الزفاف يذهب العريس إلى قاعة الاحتفال في موكب من مواكب الخيول، ثم يتناول العروسان عقود الورد، ويقوم أحد الشباب من الأسرة بربط ملابس العروسين ربطا جيدا، يؤدي إثره العروسان رقصة دائرية، وحينما يذهبان في نهاية الحفل إلى بيت الزوجية، تقوم العروس بقلب إناء الأرز الموضوع على باب الشقة تفاؤلا بحياة سعيدة...

وقد أشـــار ابن بطوطـــة، في رحلته، إلى تقـديس الهنود لنهـر «الكنج»، وهو الذي إليه يحجون، وهم يقولون إنه من الجنة، وإذا أتى أحدهم ليغرق نفسه، يقـول لمن حضره، لا تظنوا أني أغـرق نفسي لأجل شيء من أُمُورِ الدنيا، أو لقلة مال، وإنما قصـدت التقرب إلى «كساي»، اسم الله عز وجل بلسانهم، ثم يغرق نفســه، فإذا مات أخرجوه، وأحرقوه، ورمـوا برماده في النهر المذكور...

وفي يوم الثـلاثاء 18 – 2 – 92 لقي مـائة شخص مصرعهم خـلال احتفال ديني تقيمـه طائفـة الهندوس، مرة كل اثنى عشـر عامـاً، وقد وقع الحـادث أثناء قيـام حـوالي خمسة مـلايين من الهنـدوس بالتسـابق على الاستحمام في مياه بحيرة «كومبركونام» المقدسة لديهم، والتبرك بمياهها، كأحد الطقوس الهامة في هذا المهرجان الديني الكبير.

* * *

تسربت هذه العادة إلى العرب، فقد كانـت القابلة عندهم تغرِّق المولود في «مـاء السَّلَى» عـام القحط، ذكراً كـان أو أنثى، حتى يمـوت، وإلى ذلك أشار الشاعر الجاهلي الأعشى قيس بن مسعود الشيباني:

أطَـوْرَين في عـــام غـزاة ورحلـة
ألا ليت قَيْســاً غـرَّقتــه القـــوابل

والتغريق هو القتل،(104) ومنه قول ذي الرُّمة :

إذا غَـــرَّقـت أربـــاضُـهـــا ثِنْـي بَكْــرَةٍ
بتيهـاءَ، لم تُصْبِح رَؤُومـاً سَلُوبُهـا(105)

* * *

104) «الجامع لأحكام القرآن» للقرطبي ج : 1/ 388 – 389.

105) الأرباض : الحبال – البَكرة : الناقة الفتية. – ثنيهـا : بطنها الثاني، وإنما لم تعطف على ولدها لما لحقها من التعب.

العَرّافة في دلتا النيجر :

في أواخـر عام 1984 عقدت في : «مـدرسة لنـدن للدراسات الشـرقية» حلقة دراسيـة عن «**العرافـة في دلتـا النيجر**»، وكان المتحـدث في هذه الحلقة أحد الدارسين الأفارقـة من قبيلة «الايجو» التي تسكن في المنطقة، وقد عـرض الباحث الموضـوع ضمن إطـار من الثقافة والنظم الاجتمـاعية التي تسود هنـاك، وأعطى بعض المعلومات الإنسانيـة عن تلك القبيلة التي يصل تعدادُها إلـى حوالي نصف مليون نسمة، يكـاد نشاطهم الاقتصادي ينحصر في صيـد السمك من الجداول والأنهار حول «دلتـا النيجر»... وقد أوضح الكاتـب، كيف ينظر الناس هنـالك إلى مجاري الميـاه في شيء من الرهبة التي تصل إلى حد التقديس، ليس فقط للدور الاقتصادي الذي تلعبه في حيـاتهم، ولكن أيضـا، لأنها هي مأوى أرواح المـاء التي تسيطـر على حياتهم، والتحكم في حظوظهم وأقدارهـم، وتقضـي بما يصادفهم من خير أو شر، ولذا... يحرص «الايجو» على التقـرب إلى أرواح الماء بالأضحيات والقرابين في منـاسبات معينة حتى تشملهم بـرعايتها، وتبعـد عنهم الشر والأذى، ويشـرف على هذه المـراسيم والطقـوس فئة مـن العرافين الـذين يتمتعون بمكـانة دينية واجتمـاعية عاليـة باعتبارهم الـوسطاء بين مجتمع البشر، ومجتمع الأرواح...(106)

* * *

عين بَادْحَانِي :

كانت هذه الموضـوعات تحظى دائما بإقبال الباحثين ليس فقط لطرافتها وغرابتها بالنسبة للقارئ الغربي، وإنما، أيضـا، وهذا هو الأهم، لأنها تعطي صـورة واضحـة عن طريقـة تفكير الإنسان الإفـريقي، ونظرتـه إلى الحياة

106) «عالم الفكر» مج : 18 – ع : 4 – يناير – فبراير – مارس 1988.

والكون، وأسلـوب تعامله مع الظواهـر الطبيعيـة، والكائنـات المختلفة التي تعمر الكون.

وفي الصين يـزور مـوكب من النـاس أحد الينـابيع في عيـد منتصف الخـريف، ويــركعـون حـولــه، في دائرة شـاكـرين المـاء على إحيـائه لمحصولهم...

يقول صاحـب : «تحفة الغرائب»(107) حسبما نقله زكـريا القزويني في كتابـه : «عجائب المخلوقات» : إن هنـاك عيناً تسمى بعين : «بادحاني» إذا أراد أهل الضيعة هبـوب الريح عند الـدياس لتنقيـة الحبوب، أخذوا خـرقة الحيض، ورمـوها في تلك العين، فيتحـرك الهواء، ومن شـرب من مائهـا، ينتفخ بطنـه، ومن حمل معـه شيئاً من ذلك المـاء إذا فـارق منبعه يصيـر حجـرا...(108)

ونجد في تـاريخ العبرانيين القـديم أسماء آبار عـديدة نظر إليهـا نظرة تقـديس، كما كـانـوا يعمدون المنضمين إلـى دينهم قبل ظهور المسيحيـة بوقت طويل، كما اتبعت كثير من الديانات الأخرى طقوسا مشابهة...

* * *

وقد كـان القدماء يـرون في أعماق الآبار والينـابيع قوى خفية مـؤثرة تمنــح ميـاه تلك المـواضـع قدسيـة خـاصة... وقـد أدت قدرة المـاء على تنظيف الأجسام البشريـة، والأشياء المادية، منذ أقـدم العصور، إلى جعله رمزا عـاما، ووسيلة شـائعة للتطهير، وللطقوس الـدينية الخاصـة بغسـل الذنـوب...

---

107) «تحفة الغرائب» فارسي للمولى علمشاه عبد الرحمن ابن صاجلي أمير، (ت 987هـ) وهو كتاب في خـواص الأشيـاء، وأنـواع الحيل، مشتمل على خمسـة وثلاثين بـابـا [كشف الظنـون ص 371/1].

108) عجائب المخلوقات للقزويني ص : 295.

والواقع أننـا مازلنـا نرى هـذا التقديس بـاقيا حتى الآن عنـد كثير من الشعـوب حتى الأنهـار... منهـا أنهار مقـدسـة يحج إليهـا ليغتسل فيهـا، وليتطهر أصحابها، ويدفعوا عنهم النجـاسات، وليس هذا التقديس للمياه... ولكن للقوى الخفيـة التي كان القـوم يتصورون وجـودها في هـذه المياه، والتي تظهر في بعث الحيـاة للأرض الميتة، ولـلإنسان نفسه، فلـولا الماء لمات بالطبع كل مخلوق حي...(109)

* * *

آبار وينابيع مقدسة في البلاد العربية :

إننا لنـرى كثيرا من الأماكن المقدسـة قد أقيمت في جزيرة العـرب عند الينابيع والآبار حيث تـروى الأرض بالماء، فتنمو بـه المزروعات، ويستقي منه الناس، وقد صور هذا الخصبُ لسكان تلك المناطق وجود قوى خارقة كامنة في تلك الأرضين، كانت السبب في نظرهم في بعث الحياة للإنسان، ولهذه الأرض...(110)

وفي الأخبار المـروية عن الجـاهليين وغيرهم من تقـديس بعض الآبار والعيـون والجداول والتبـرك بشرب المـاء، دليل على نظرة التقـديس التي نظرتها الشعوب السامية وغيرها إلى الماء...

وقد أثـارت الوديـان العميقة في نفـوس العرب الهـواجس والتصورات لتفردهم في السير فيها، وإذا استـوحش الإنسان، تمثل له الشيء الصغير في صـورة الكبيـروارتـاب، وتفـرق ذهنـه، وداخلتـه الظنـون، ومثلت لـه الأشخاص فكـانت حكايـات الجن، وماحيـك حول عـزيفها من أسـاطير... فكانوا يتصـورون أشكال الجن، ويسمعون أصواتهـا، ويحسون بها، وهي

109) «تاريخ العرب قبل الإسلام» د. جواد علي ص : 167/ 5.

110) المصدر السابق ص : 406/ 6.

تتشكل بأشكال الحيوانات، وقد حفل الشعر بأمثال هذه الحكايات، وخاصة إذا توسطوا الصحراء والوديان والمهامه المقفرة...(111) قال زهير:(112)

وبلــــدةٍ، لا تُــــرامُ، خـــائفـــةٍ
زوراءَ مُغبَّـــــرةٍ جــــوانبُهـــــا
تسمع للجـنّ عـــــازفيـن بهـــــا
تضبح مـن رهبـــة ثعـــالبُهـــا
يصعـد مـن خـوفهـا الفـؤاد ولا
يـرقُـد بعض الــرقـاد صـاحبُهـا

وقال بشر بن أبي حازم :(113)

وخـــوق تعـــزف الجنـــان فيــه
فيـــافيـــه، يطيـر بهـــا السّهـــام

وقال الأعشى الأكبر :(114)

ويهمـــاءَ تعـــزف جِنَّـــانُهـــا
منـــاهلُهـــا، آجنـــاتٌ سُـــدُم(115)

وقال لبيد بن ربيعة :(116)

غُلْبٌ تَشَـذَّرُ بـــالـذخـــول، كأنهـا
جِنّ البَـدِيِّ، رواسيـاً أَقدامُهـا(117)

111) «الطبيعة في الشعر الجاهلي» د. نوري حمودي القيسي ص : 33.
112) الديوان 265.
113) بشر : الديوان / 203.
114) «الروائع» منتخبات شعرية / فؤاد افرام البستاني ص : 42/ الديوان : 37.
115) اليهماء : الفـلاة لا يهتدى فيهـا. – الجِنّان : الجن. – آجنـات : الآجن والأجن : الراكـد المتغير طعمه ولونه ورائحته. – مياه سُدُم: متغيرة من طول المكث.
116) «الروائع» رقم : 24 ص : 13 – الديوان / 317.
117) غُلب : خبر لمبتدأ محذوف راجع إلى : «غربـاؤها» أي هم غلبٌ. والأغلب : الغليط الرقبة، وهي من صفات الأسـد، تشذر : تتوعد وتتهـود... الذخول: ج: الدخل: الحقـد. البديّ: اسم واد لبني عامـر، يزعمون أنه فيـه تتخاصـم الجن – يقول: هؤلاء رجـال غلظ الرقاب كالأسـود يتهددون بعضهم بعضا بسبب العداوات كأنهم جن وادي بديّ في حال ثبوت أقدامهم في الخصام.

ولابد أن تكـون هذه النظـرة التقديسية هـي التي حملـت الجاهليين على تقديس، بئر زمزم ولا يقدر أهمية البئر حق قدرها إلا قُطَّانُ هذا البلد الكائن في واد غير ذى زرع وماء...

فقد حفـر بنو عبد شمس خُماً ورُمــاً والطّوى... وحفر بنو أســد شُفَيَّة، وحفر بنو عبـد الدار أم أحراد... وحفر بنو جمع السنبلـة، وحفر بنو سـهم الغَمر، وحَفَرَ بنو عدي الحفير...(118)

ومــا تلك النظرة التي نظـرها أهـل مكة إلى «السقــاية» إلا صفحــة من صفحات ذلك التقديس الجاهلي للماء، فقد كانت للسقاية منزلة محترمة في مجتمع مكة...

وما «ماء بئـر زمزم» إلا دليل من هذه الأدلة، فقد انصــرف إليها الناس لفضلها على ســواها من الميــاه، لجلال قدرهــا، وكان يتمثل بشـرفها على سائر المياه... فكانوا يتفاخرون في المقام عليها، والشرب منها، والاغتسال بها لمكانها من المسجد الحرام، ولأنها بئر إسماعيل عليه السلام،(119) وقد بلغت منـزلة من يشــرب منها درجــة الشــرف والفخر، حتى قــال الأعشى يهجو رجـلا ويؤنبه ويخبره أنــه مع شرفه لم يبلغ مبلغ قـريش الذين هم مكان حرم الله، ولهم حظ الشرب من زمزم...(120)

* * *

وليس الاعتقــاد في مثل «مــاء زمزم» خــاصــا بالمسلميــن، فإن للهنـد اعتقادا عظيما في نهر «الكانــج»، وبحيرة «مادن»، والنصارى يعتقدون في ماء الأردن الذي يبعد بنحو 20 كيل إلى شرق بيت المقدس، ويسمونه «نهر

---

118) انظر ابن هشام ص : 159 – 1/62، والبلاذري فتوح البلدان ص: 49. وقد ألف ابن الأعرابي كتابا في «البئـر» مخطوط في مكتبة الدراســات الإسلامية ببغداد، ولم يشر إليــه بن النديم في الفهرست، ومنه نسخة مصورة في مكتبة المجمع العلمي العـراقي.. كما ألف أبو عبد الله أحمد بن إبراهيم، نديم المتوكل كتابا في أسماء الجبال والمياه والأودية..

119) انظر الثعالبي : ثمار القلوب ص 444 – وانظر ياقوت : زمزم.

120) ديوان الأعشى ص : 123.

الشريعة»، لذلك ترى حجاجهم يذهبون إليه، ويتبركون بالاستتحمام به في المكان الـذي تعمد فيـه المسيح، ويأخـذون من مائه في آنيـة من الصفيح يتهادون بهـا عند عـودتهم إلى بلادهم، وأَكثـر النصارى اعتقـادا في ذلك الروسيـون والاقباط، أمـا الافرنج، فـاعتقادهم في مـاء لوردة Lourdes في جنوب فرنسا لا يقل عن اعتقادهم في ماء الأردن...

فنهر الأردن ينساب من بحـر «الجليل» حتى بحر الميت مسافـة طولها سبعون ميلا، ولكن مجـراه المتعرج يزيد هذه المسافـة إلى حوالي المائتي ميل، وهو نهر صغير جدا... ولكنه النهر الوحيد في فلسطين الذي يستحق هـذا الإسم، وقد نظـر المسيحيون المخلصـون إلى ماء هـذا النهر، طـوال قرون عديدة، على أنه يتميز بقـدرة خاصة على التطهر والشفاء، وذلك لأنه كـان في الأراضـي المقدسـة، ولأنه ذكـر كثيـرا في الإنجيل، وخاصـة لأن السيد المسيح عمد فيه، وقد ظل الحجاج، كمـا ذكرنا سابقاً، يحملون مياه الأردن في الزجاجات والقوارير إلى جميع أرجاء العالم.

* * *

فالماء يعـد مقدسا، لا سيما إن كـانت ينابيعه من أرض مقدسـة، لذلك يتبرك به، ويستشفى بالشرب منه.

وكانت في المعـابد سقايـا، يستقى منها للشرب والتطهـر، كانت تغسل الأوجه والأيـدي والأرجل بالماء ليسمح للـزائر بدخول المعبـد، أو لتحل له إقامة الشعائر الدينية...

وكـــان على كل يزيـدي، اشتـرى ثوبـا جديـدا، أن يعمـده بماء زمـزم المبـــارك المـوجـود بحضـرة الشيخ عـادي... وإذا لم يفعـل ذلك، فقـد كفر...(121)

---

121) اليزيدية، أو عبدة الشيطان : ذيل : «الملل والنحل» للشهـر ستاني تأليف : محمد سيد كيلاني ص: 38/2.

وقد عثـر المنقبون على آثار آبار وأحـواض مطمورة في حرم المعـابد، كان المتعبـدون يستفيدون من مياهها عنـد زيارتهم بيوت أربـابهم، وعند أداء الشعائر الدينية، «وبئر زمزم» هي البئر الوحيدة الباقية من آبار بيوت الله التي كانت في الجاهلية...(122)

ان الملك «سابور» من المومنين الحجاج للبيت الحرام، المتبركين «بماء زمزم» المقدسة...

ويـذكر ابن جبيـر احتفـال النـاس في مكة بليلـة النصف من شعبـان فيقول: إن مراكبهم تزدحم في كل مكان في المسجد، والجهلة يعتقدون أن «زمـزم» تفيـض في هـذه الليلـة حتـى تطفح، فيـزدحمـون علـى التبـرك بمائها...(123)

وقد قضي على هذا التخـريف الذي ظل ساريا في مكة يعتقـده عوامها طوال الأجيـال، ولم ينفع فيه إنكار جلالـة الملك عبد العزيـز آل سعود في العهد الأخير.(124)

وكان جبل : «أبـو قبيس» من المواضـع المقـدسة التي كـانت جزءاً من شعائر الحج، وكان مقصـودا عند نزول الشدة والبلاء، وأهل مكـة يجدونه محلهم المفضل للدعاء عند انحباس المطر لنزول الغيث.(125)

* * *

ونجد عند العرب أساطير تشبـه من بعض الوجوه الأساطير التي كانت معروفة عنـد اليونان القدماء، فكثيـرا ما آمنوا بأن بطلا من الأبطـال ولدته الآلهة التي تحيط بجزيـرتهم، وترفرف فوق مياهها، وقـد أعار هوميروس HOMERE في قصتـه الأوديسـة ODYSSEE إلى ساحـرات يسمين «سيريـن»

122) «تاريخ العرب قبل الإسلام» ص : 418 – 6/419.

123) ص : 115.

124) «تاريخ مكة» للعلامة أحمد السباعي رحمه الله، ج : 1/247.

125) مجلة المشرق، س : 39/ص : 255/ عام : 1941.

Sirènes، يقمن بأعلى الصخور في بعض الجزائر، ويغنين غناء رائعاً ساحرا، ويسمعن البحارة، فيذهلون عن سفنهم، ويتركونها تجري مع الرياح إلى أن ترتطم ببعض الصخور، وتتحطم تحطيما، حينئذٍ يؤبون إلى رشدهم، ويعلمون أنهم وقعوا في حبال مكر هؤلاء الساحرات وكيدهن!!...

* * *

لقد كان الإغريق القدماء الذين نسبوا كل شيء طبيعي لإلاه، أو «حورية» على الأقل مسرفين بصفة خاصة في آلهتهم المائية، وسار الرومان على منوالهم، فقد نصبوا على كل كتلة مائية ملاكها الحارس، ابتداء من المحيطات والبحار، الخاضعة «لبوزيدون»(126) POSEIDON الاغريقي أو نبتون،(127) NEPTUNE الروماني، أو الأمطار التي يسقطها: «زيوس» ZEUS، أوجوبتير(128) بلوفيوس JUPITER، أي جوبتير الممطر حتى أصغر ينبوع أو مجرى...

وفي اسكنديناوة، كان المبشرون الرهبان يشملون برعايتهم بعض الينابيع الخرافية، التي كان يغسل فيها الضحايا قبل التضحية بهم علىَ مَذْبَح أحد الآلهة الوثني... كما كانت هذه الينابيع توضع في حماية مختلف القديسين...

وهكذا بورك بئر : «ثور» THOR وأصبح في رعاية القديسة «هلينا»(129) Sainte HELENE... واستحوذ القديس: «بريدجيت» على ينبوع كان ينتمي إلى

126) البوزيدون : إلاه البحر.

127) نبتون : إلاه البحر والملاحة عند الرومان الأقدمين، صوروه وبيده حربة مثلثة الأسنة دليلا على أن من تسلط على البحر تسلط على العالم «ميتولوجيا».

128) جوبتير : معبود الرومان الأقدمين، وهو عندهم أب الآلهة وسيدها، ورب السماوات الرامي بالصاعقة، ويسميه اليونان: زفز ZEUS (ميثولوجيا) وجوبيتار أيضا: أحد الكواكب السيارة سماه العرب المشتري.

129) هيلانة : والدة قسطنطين القديسة. زارت أورشليم نحو : 324، قيل أنها اكتشفت فيها صليب المسيح، بذلت مالها ونفوذها في سبيل الإيمان.

إلاه صغير في عقيـدة «درويد»... وقد وجد بعـض العلماء كانوا يحـرمون عبادة هذه المناهل واليـنـابيع، بل لقد وجد الأسقف أنسليم ANSELME.(130) حتى بعد الغـزو النورمـاندي لانجلترا... إن من الضـروري إصدار قـانون يمنع عبادة الينابيع...

* * *

وهكذا تشترك الأمم القديمة في أساطير مائية، فهي، مثلا، تجعل البحار غاصة بأحياء، صورتُهم بين الإنس والحيـوانات المائية... وقد ألّهت بعض الشعوب تلك الصور الخيالية... ولما تحـول الإنسان من حياته الوثنية إلى حياته الدينيـة السماوية رافقته أساطيرُه القديمة... وتمتـزج هذه الأساطير عند العرب بأخبارهم في مجاهل البحـار، وما يقصُّونه عن هذه المجاهل... وأننا لنجـد نتفا من هذه الأخبـار منشورة في كتب الجغرافيـا، مثل: كتاب «البلدان» الذي ألفه ابن الفقيه الهمذاني بعد موت المعتضد 279هـ ووصف فيـه البحـار والأرض، وفيـه هذا الخبـر عن الاسكنـدريـة يقـول: «كـانت الاسكنـدرية بيضـاء تضـيء بالليل والنهـار، وكـانوا إذا غـربت الشمس لم يخرج منهم واحد من بيته، ومن خـرج اختطف، وكان لهم راع يرعى الغنم على شاطئ البحر، وكان يخرج من البحـر شيء، فياخذ من غنمه، فيمكن له الـراعي في بعض المواضع، حتى خـرج، فإذا جارية، فتشبت بشعـرها، ومنعته، فذهب بها إلى منزلـه، فأنست بهم ورأتهم لا يخرجون بعد غروب الشمس، فسألتهم عـن ذلك، فـأَخبـروهـا أن من خـرج في ذلـك الـوقت، اختطف، فعملت الطلسمات، وكانت أول من وضع الطلسمات.

* * *

130) انسلم : القديس، اسقف كالتربري KANTERBURY ولد في 1033، توفي 1109، ولد في «استا» بإيطاليا، اشتهـر بعلمه اللاهوتي، وهو من مؤسسـي الفلسفـة المردسية scolastique ينسب إليه البرهان الوجودي للوصول إلى معرفة الله.

وقد جعلت الـديانـة المسيحية، منـذ البدايـة، الماء واحـدا من الطقوس الأساسية في أسـرارها المقدسة، ومع انتشـار المسيحية في أروبا اختفت الآلهة، وأنصاف الآلهـة الوثنية، أو تحولت من آلهـة إلى أساطير... على أن كثيرا من الأرواح المائية الأقل شأنا، والعـادات المرتبطة بها، استمرت فترة طويلـة... كما أن بعض الحوريـات، وجنيات الماء، قـد تحولت إلى الديـانة المسيحية، واستمرت تـؤدي عملها بوصفها راعية للينابيع والآبـار الخاصة بها... ولكن مع تحويل أَسمائها إلى أسماء قديسين...

* * *

الفصل الرابع :

الحوريات حيوانات خرافية

«الحوريات» Sirènes حيوانات خـرافية تتناقلها الأساطيـر الشعبية، وهذه الحيـوانات الشبيهـة بالبشـر تقطن، كما جـاء في هذه الأسـاطير، البحـار والأنهار، كما تستطيع الحياة، أيضا، فوق اليـابسة حيث تدخل في علاقات اجتماعية مع البشر العاديين، تكـون نتيجتها وخيمة على هؤلاء... وعروس البحر في هذه الأساطير لها وجه وجسم امرأة على جانب كبير من الجمال حتى الخصْر أما النصف الأسفل فيتخذ جسم سمكة بـزعانفها وحراشيفها وذيلها...

عيشة قنديشة :

وهناك جانب أسطوري يتعلق بعادات وتقـديس المياه، وهو ما يتحدث به بعض النـاس عن شخصية يقـال لها «عيشة قنـديشة» وقـد كتب عنها مواطن مغـربي في الجيش الإسباني، يسمى «عليلو المستـاري» في مجلة دورية محلية كانت تصدرها جماعـة من الجنود في ثكنة عسكرية إسبانية في المنطقة الخليفية سابقاً...

وتتلخـص الأسطـورة في أن أميرة برتغـالية كـانت مدللة لـدى أبيهـا، واسم هذه الأميـرة «لْوِيسَـا كُونتيسا» وقـد بنى لها أبـوها قصـرا «بوادي الحلـو» قـرب مدينـة أصيـلا، وكانـت هـذه الأميرة تعشـق الشبـاب والفتيـان، وتلتقـط الرعاة ذوى السواعد المفتولة، والأعصاب المجدولة من كل مكـان... وبعد أن تقضى منهم وطـرهـا تخنقهم، وترميهم في الـوادي المذكور.

وقد أصبح الناس يخشون هذا المخلوق الغريب الذي يسكن بجوار البحر، ويفتك بالسابلة والمارة والمبتردين... حتى إن بعض الفلاحين كانوا يتحدثون عنها مدعين بأنهم رأوها قرب الشواطىء، فيفرون منها، لأنها كانت تدعوهم... ثم تخنقهم.!!

بل إن كثيرا من المغاربة يتصورون «عيشة قنديشة» بأنها جنية تستقر بجوار البحر أو الأنهار...!

وللحقيقة والتاريخ، فإن هذا الاسم: «عيشة قنديشة» له كيان في التاريخ، ووجود واقعي في عالم الناس، ودنيا المغاربة، فقد كانت هذه السيدة «عيشة قنديشة» تعيش أيام المولى سيدي محمد بن عبد الرحمن العلوي في خلافته الصغرى، وكانت ولية صالحة شهيرة، وكان السلطان، المذكور، يأتيها للتبرك بها، لأنها كانت من الصالحات وقد توفيت، ودفنت بمقبرة «باب آغمات» بمدينة مراكش...

كانت هذه السيدة تغزل «الشتب» وتعمله حبالا تخاط به البرادع، وتقتات من ذلك، وما فضل ترميه في محلها، فلما ماتت وجد «الشتب» الذي كانت تغزله كله حرير...

وقد سئلت السيدة المذكورة عن «القطب»؟ فأجابت: «بأنه سيدي الزوين المجذوب الذي كان يلقط المخ، ويطبخه وياكله، وكانت تقول: «الصماري والغماري، وحْكَامَةْ الدراري، واللبن في الحفاري، مغطي بالشواري» «وتدخل الثيران، وتخرج الفيران» تشير إلى الغلاء الذي حدث بعد انحباس الماء والمطر، «وموت كبراء الولاة، وتولية الأحداث»، وذهاب الأخيار، وظهور الأشرار». (131)

* * *

131) «الاعلام، بِمَنْ حل بمراكش وأغمات من الأعلام» للمراكشي ص : 416/ 9.

ولعل أكثر الناس رواية لهذه القصص هم البحارة، وهو يتغنون في وصف هذه الحيوانات المائية أو البرمائية، ويذكر الكاتب المصري أنيس منصور في كتابه: «التاريخ أنياب وأظافر» أنه عندما ذهب إلى البصرة بالعراق، مهد ألف ليلة وليلة، أعلن كثير من الأدباء أنهم شاهدوا: «عروس البحر»، شاهدوها واقفة وجالسة، وأنهم يقسمون على ذلك...

وكان بحارة القرن السادس عشر قد أقسموا على ذلك أيضاً...

وقد ظلت «عرائس البحر» لقرون طويلة مرتعا خصبا لخيال الكتاب والشعراء، ومصدرا رحبا للأساطير والخيالات الاغريقية والهندية والعربية أيضا... على السواء...

وقد وضع العلم حداً لأساطير عرائس البحر» في السنوات الماضية. وأكد أنها ليست حوريات يحلم البحارة بلقائها، والزواج منها، وليست امرأة حسناء، على شكل سمكة، كما تخيلها العالم القديم، وإنما هي مجرد حيوان عادي يرجع في أصله إلى الفيل، ويتجمع قبائل على شطآن عدد من دول العالم ليعيش حياة خاملة يقضيها بالأكل والاسترخاء...

وقد تحدث، عنها الرحالة البرتغالي «مريولافين» في كتابه : «الرحلة الزرقاء» قائلا :

«...وعندما اقتربت سفينتنا من هذه الجزيرة ذات التراب الزمردي، فوجئنا بمنظر لا يمكن إلا أن يكون قطعة من الخيال: عشر مخلوقات نصفها الأعلى على شكل امرأة باهرة الجمال، والنصف الأسفل على شكل سمكة فضية اللون أو ذهبية».

«...وخلنا بادىء الأمر أن هذه المخلوقات لا تعدو كونها فصيلا من بنات الجن، خاصة حين بدأت بإطلاق الزغاريد بشكل يشابه جنيات «أوليس»، إلا أن هذا الاعتقاد سرعان ما تبدد لأن تلك المخلوقات كانت تتحدث إلينا بلغة غريبة جدا هي أقرب ما تكون إلى اللغات الافريقية

القديمة، ولو كانت من الجن فعلا لاستطاعت التوجه إلينا باللغة البرتغالية حسبما نعرف عن بني الجن الذين يتقنون كل لغات بني الإنس»...

و«ماريو لافين» ليس الوحيد الذي تحدث بهذه «الواقعية» عن «عرائس البحر» إذ أن هناك بحارا ألمانيا يدعى «هانز راخت» زعم، في بداية هذا القرن، أنه عندما نجا من السفينة «شتارت» التي غرقت في ذات يوم من شهر نوفمبر 1907 مضى القارب الذي كان يمتطيه إلى جزيرة ذات نباتات وصخور غريبة، وحين نزل إلى اليابسة فوجيء بعشرات من حوريات البحر يحدقن به... وهو يقول في مقال طويل نشره في مجلة «كونستلايشن» إن الحورية تملك قلب امرأة حقيقية، وقد تبادل هو وإحدى الحوريات حبا عنيفا... والطريف أن الحوريات لسن غيورات، إذ أنهن أحطن «صهرهن» بالعناية الفائقة وكن يمضين به إلى عرض البحر حيث يلتقين بصديقات لهن من جزيرة أخرى...

ويقول «راخت» إن الحوريات اطلعنه على عالم آخر مختلف عن عالمنا، حيث لا مكان البتة للحزن، فالفرح هو اللغة السائدة، والحياة هي أقرب ما تكون إلى الخيال... لكن البحار الألماني ما لبث، بعد قضاء أقل من سنة في ذلك «العالم الآخر»، أن استبد به السأم وراح يبني زورقا عاد به من «الخيال».

حيوانات مائية بحتة...

إن العلم، كما يبدو، ارغم الخيال على أن يخلع ثيابه المزركشة ويتحول إلى معادلات يابسة... وفظة أحيانا.

فـ «حورية البحر» لم تعد كتلة من خيال، والدكتور «خلف حنون»، مدير متحف التاريخ الطبيعي في جامعة البصرة، يقتلع هذه المخلوقات من جزر الزمرد ويقدمها لنا على أنها حيوانات مائية بحتة لا تخرج مختارة

إلى اليابسة، وإذا خرجت فإنها لا تتحرك بسهولة لضعف أطرافها الأمامية... ومع أنها تحذق السباحة والغوص إلا أنها تتجنب الأغوار... وقد يعود السبب في ذلك إلى أنها قد لا تملك القدرة على الصعود والهبوط بسهولة في مسابحها، ولأن الاناث لابد وأن ترضع صغارها فوق سطح الماء، فتطفو من حين لاخر وفي فترات متقاربة (من دقيقة إلى عشر دقائق)...

و«عرائس البحر»، كما يقول الدكتور حنون، تعيش في المياه الضحلة ذات النباتات البحرية، وقرب الشواطىء، وفي الخلجان الدافئة ومصبات الأنهار، بل وفي الأنهار ذاتها أحيانا... وهي ذات ميول «اجتماعية»، إذ تحتشد في «قرى» مائية وتتبادل فيما بينها السراء والضراء.

أكولة... وفقيرة المواهب...

و«عروس البحر» هي حيوان أكول يبدو عليه الخمول والحياء وفقر المواهب، إذ لا يتعدى نشاطها دائرة الأكل والراحة للهضم... والسمع واللمس هما أرهف الحواس عندها، أما النظر فضعيف.

ويلاحظ الدكتور «حنون» أن بين الأنثى والذكر تعلقا وودا كبيرين، إذ يلازم أحدهما الآخر في مواسم التزاوج والحمل والرضاعة ورعاية الصغار، ويتعاونان بشكل مثالي على مجابهة متطلبات العيش.

والأنثى، التي تختلف عن الذكر في كونها لا تملك القواطع التي تستعمل في حفر القيعان، تحيط صغارها بكمية مثيرة من الحنان، فهي ترفع صغيرها إلى صدرها في أثناء الرضاعة فوق سطح الماء وتستعمل إحدى زعانفها لتضم صغيرها كما تفعل النساء المرضعات... ولعل هذا. السلوك الإنساني «هو الذي ادخل» عروس البحر عالم الأساطير...

وهي إذ تخرج ليلا للـرعي، منتصبة كالمرأة، لا تتـرك مجالا للشك في أنها امرأة حقيقية.

دموع «عروس البحر»...

وهناك شائعـة واسعة الانتشار عن بكاء «عرائس البحـر» وعن الدموع التي تذرفهـا حزنا على مـوت أطفالها أو فـراق أزواجها... ويقول الـدكتور حنون إن مـوضوع الـدموع ظاهـرة أكدها لـه الصيادون في إحـدى جزر الخليج العربي التابعة للإمارات العربية المتحدة لدى قيامه بمسح بيولوجي للمنطقة، وأكـد هؤلاء الصيادون أن دمـوع «عروس البحر» تبـدو واضحة لدى اصطيادها...

والـذي حفـز العلمـاء على دراسـة «عـروس البحـر» من النـاحيتين البيولوجية والتشريحية هـو اكتشاف أنواع بائدة من العصرين (الايوسيني) و(الاليجوسيني) في سلسلة متصلـة تنتهي إلى الحيوان البائد «المـورتيرم» والذي يعد السلف المباشر للفيلة.

وهذا الاكتشـاف أكد أن «عـروس البحر» كانت حيـوانا أرضيـا رباعي الأطراف وأنها أقرب الحيوانات إلى رتبة الفيلة بعد أن نسبت خطأ إلى رتبة الحيتان، وأطلق عليها سابقا اسم «الحيتان آكلة النباتات».

تشابه مع الحيتان...

وفي الحقيقة، فإن بينها وبين الحيتـان شبها مورفولوجيا ظـاهريا من حيث شكلها الدلفيني وغياب الأطراف الخلفية وتحور الأطراف الأمامية في ما يشبـه الزعانف الصدريـة، ثم الوضع الأفقي لزعنفة الـذيل التي تماثل زعنفة ذيل الحيتان والـدلفينات... تضاف إلى ذلك ندرة الشعـر على الجلد وما تحته من طبقـة شحمية، وغير ذلك من وجوه التشـابه الخارجي والتي

لا تعدو، في الواقع، أن تكون متطلبات تشريحية لملاءمة الحياة المائية وما تقتضيه أساليب العيش في بيئة واحدة...

ويضيف الدكتور «حنون» قائلا في دراسته، أنه بالرغم من كل هذا فإن المقارنة والاختلاف بين الحيتان و«عرائس البحر» لا يزالان قائمين حتى في المظهر الخارجي، فالعرائس تختلف عن الحيتان بغياب زعنفة الظهر عادة (ولو أن بعض الدلفينات لا تملك زعائف ظهرية أيضا)، كما أنها تختلف في الزعنفة الأمامية التي تستطيع العين أن تتبين في قطاعها العرضي جزءا مستديرا من الذراع ومفصل المرفق المتحرك... ويصل الاختلاف أيضا إلى شكل الرأس وتكوين الأسنان التي تشابه أسنان الحافريات.

وقرابة مع الفيلة...

وتشترك العرائس مع الفيلة، من الناحية التشريحية، بوجود حلمتين ثدييتين في منطقة الصدر، كما تشترك وإياها في الغذاء النباتي وكيفية تبدل الأسنان... لكن الفيلة، خلافا للعرائس، لا تبدل أضراسها إلا بعد طور البلوغ.

وتقسم فصيلة «عرائس البحر» إلى عائلتين أساسيتين هما عائلة «خروف البحر» وتستوطن البحار والأنهار الدافئة في المحيط الأطلسي، ويتراوح طول الواحدة منها بين 3 و6 أمتار، وهي تختلف عن «عرائس» الخليج العربي في أن ذيلها دائري وغير مقعر أما وزنها ففي حدود الأربعمائة كيلوغرام...

والعائلة الثانية هي عائلة «بقر البحر»، ويبلغ طول الواحدة منها 5.2 مترا إلى 5.3 مترا... أما وزنها فهو في حدود الـ 275 كيلوغراما... وينتشر أفراد هذه العائلة على سواحل المحيط الهندي وشمال استراليا والبحر الأحمر وجنوب الخليج العربي...

بعد كل هـذا نعتذر منكم لأننـا اقتطعنا من خيالكـم ذلك الجزء الجميل الذي يحيط بـ «عروس البحر»..

إنها ليست جنية، ولا امرأة خارقة، بل مخلوق ذو صفات حيوانية بحتة، وإن حاول أن يقترب مـن الإنسان عبر الدموع... ويـالها من قرابـة بائسة وحزينة.

الدمـيري يتحـدث عن إنسـان المـاء :

تحدث الدميري(132) في كتـابه عـن «إنسان المـاء»، فقـال بأنه يشبـه الإنسان، إلا أن له ذنبـا... قال القزويني: وقد جاء شـخص بـواحد منها في زمامنا مقدر كما ذكـرنا... وقيل إن في بحر الشام، في بعض الأوقات مَنْ شكله شكل إنسان، وله لحية بيضاء، يسمونه: شيخ البحر، فإذا رآه الناس استبشـروا بالخصب... وحكي أن بعض الملـوك حمل إليـه «إنسان مـاء»، فأراد الملك أن يعرف حاله، فزوجه امرأة، فأتاه منها ولد يفهم كلام أبويه، فقال للولد: ما يقول أبوك؟ قال: «يقول: أذْنَاب الحيوان كلها في أسفلها، فما بال هؤلاء، أذنَابُهُم في وجوههم.!!

* * *

وقد ارتبط مفهوم الماء، في الفكر القديم الوثني والفلسفي بجانب الشر ارتباطـه بجانـب الخيـر، وهذا مـا تظهـره عدد من الأسـاطير القديمـة، «فتيامـه» في أسطـورة الخلـق البابليـين التي تعنى البحر، كانـت رمز العمـاء والفـوضى... وحيثما ذكر البحر في الأسـاطير البابلية ذكـرت معه الخلائق الأسطوريـة المهلكة، وبخاصة «التنين»، ذلـك الحيوان الأسطوري المخيف في التصـور الأول الـذي كـان رَمـز الشـر والإيـذاء في مفهـوم القدماء...

---

132) «حياة الحيوان» ص : 1/43، انظر : ص : 1/157.

بل إننا لا نعدم أثر هذا المفهوم في الفلسفة، أيضا، ويتبين ذلك من قول أحد الفلاسفة، مثلا، حين رأى امرأة يحملها الماء، ويذهب بها بعيداً لتغرق... «دع الشر يغسله الشر»،(133) فالماء شر عند هذا الفيلسوف، وَهُوَ حَرِيٌّ أن يغسل الشر الآخر الذي حمله، وهو المرأة في عرف ذلك الفيلسوف.(134)

وجميع الأسفار التي ضمها العهد القديم، نجد فيها أن الوشيجة التي تربط الإنسان بالطبيعة فيه، وشيجة الرهبة والخوف من عناصرها المختلفة،... فالبحر يرتبط بالشر، ويقرن بالمخلوقات الأسطورية المخيفة، ويظهر ذلك في هذا الكلام الذي جعله كاتب العهد القديم على لسان النبي أيوب، وهو يخاطب الإلاه قائلا: أبحر أنا أم تنين Dragon حتى جعلت علي حارساً...(135)

ويتكرر هذا المعنى على لسان أشعياء أيضا حين يقول: «في ذلك اليوم يعاقب الرب بسيفه القاسي العظيم الشديد «لوياثان» الحية الهاربة، «لوياثان» الحية المتحوية، ويقتل التنين الذي في البحر.(136)

ولا يزال العهد القديم يذكر البحر بصفاته المخيفة المؤذية، ولذلك تكرر فيه وصف الإلاه بأنه هو الذي يسكنه ويخمد اضطرابه وغضبه، فمن مثل ذلك ما ورد في المزامير: «يارب إلاه الجنود من مثلك قوي، وحقك من حولك، أنت متسلط على كبرياء البحر عند ارتفاع لجحه، أنت تسكنها... أنت سحقت رَهَبَ القتيل».(137)

* * *

---

133) الشهرستاني، الملل والنحل» ص : 2/39.

134) «الطبيعة في القرآن»، للأستاذ كاصد الزيدي ص : 36.

135) أيوب : 7 – 12.

136) أشعياء : 1/27.

137) المزموز الثامن والثمانون : 8/9. الطبيعة في القرآن ص : 115.

الفصل الخامس :

القرآن .. وثق الصلة بين الإنسان، ونعمة الماء

وثق القرآن الصلة بين الإنسان، ونعمة الماء، فراح يقربها إلى نفسه بالأوصاف الدالة على المنفعة والخير....

فالبحر الذي كان يخشاه الأول، ويحسبه مصدراً للرهبة والشر والغموض، وحكمنا للحيوانات الأسطورية المخيفة صار في القرآن محببا إلى النفس مقربا إليها، فعبر عنه «باليم» في عدة مواضع إشعارا بالمنفعة التي فيه، ذلك أن اليم مشتق منه التيمم، وهو القصد، لأن المستنفعين به يقصدونه.(138)

كما عبر عن ماء السماء «بالغيث» لأن فيه إغاثة الناس في الجدب والقحط، ثم راح القرآن يعرض للحس مظاهر تلك المنفعة في البحر... فالفلك التي تجري فيه بما ينفع الناس «مسخرة» بأمر الله، والأنهار التي لا تنقطع صلتها بالبحر، لم تكن كما كانت في التصور القديم قوى وآلهة مستعلية على الإنسان، بل هي في القرآن مسخرة كذلك... ونجد ذلك في قوله تعالى: «وسخر لكم الفلك لتجري في البحر بأمره، وسخر لكم الأنهار»...(139)

وقد جعل القرآن هذا التسخير منوطا بقدرة الله وحده، ولذلك قدم لفظ الجلالة في هذه الآية إشعارا بذلك، فقال: ﴿**الله الذي سخر لكم البحر لتجري الفلك فيه بأمره**﴾.(140)

* * *

---

138) الكشاف : الزمخشري ص 571/1.

139) سورة إبراهيم : 32.

140) سورة الجاثية : 12.

سيدي عبد الله اليابوري :

ولتقريب الناس إلى الماء نجد بجوار ضريح أبي عبد الله محمد اليابوري بئراً يغتسل بمائها تيمنا واستشفاء، من أضرار كالفزع، حسبما يقال للرجال حصتهم، وللنساء كذلك...(141)

ويعتقد الزائرون أن ذلك الماء يولد العاقرات، ويزوج البائرات(142) وقد اشتهر أبو عبد الله اليابوري دفين مدينة الرباط الولي الصالح عند العامة أنه ولي يتبرك به للنجاة من هيجان البحر، فهو أذن سيد المحيط...(143) ولقد اعتاد رجال البحرية سواء منهم رجال الأسطول أو المهتمون بصيد الأسماك أن يقيموا في 26 من شعبان من كل سنة ليلة المعراج موسما للشيخ اليابوري، يقدمون فيه الطعام للفقراء والمستضعفين على نحو ما نقرأه اليوم عن الاحتفال باليوم العالمي للبحر يوم 22 شتنبر من كل سنة...(144) بل إن رجال البحر يقومون عند ما يشتد صياح المحيط بإحياء ليالي استثنائية توسلا بالشيخ سيدي عبد الله اليابوري لكي يهدأ البحر...(145)

* * *

وكان من العادة المتبعة بمدينة فاس أن فقهاء الكتاتيب يبعثون التلاميذ عندما يتعسر الوضع على الحامل، فيطلقون رداء يمسكون بأطرافه ويسيرون به منشورا في طريق المدينة، وهم يرددون بصوت مرتفع:

---

141) «ورقات في أولياء الرباط ومساجده وزواياه» ص : 25. للأستاذ عبد الله الجراري. يَابُرَة Evora، مدينة من كورة باجة، أي هي من البرتغال، تقع على بعد 117 كلم بالسكة الحديدية من «لشبونة».

142) «المناهل» عدد : 25. د. عبد الهادي التازي، س : 9/ دجنبر : 1982.

143) المناهل نفس العدد.

144) المناهل ص : 145، س : 9 – عام 1982.

145) نفس المصدر ص : 145، انظر : «المعتقدات الشعبية المرتبطة بالبحر لدى أهل الرباط» للأستاذ محمد منصور.

«آ النفيسة طال بها النفاس، يا رب اعطها الخلاص، حرمة طه ويس، والقرآن الحكيم» وأصحاب الدكاكين والمارة يلقون التين والدراهم والتمر والبيض في وسط الرداء... ويزور الصبيان أشهر أضرحة الصالحين بالمدينة، ويغطسون الرداء بما فيه في سقاياتها وخصاتها، ولا يزالون يفعلون ذلك إلى أن تتكسر بيضة واحدة، أو عدد من البيض الموجود في الرداء، فيعتقدون حينئذ أن الحامل وضعت حملها، أو ألقت سلاها، إن كان الأمر يتعلق بالسلا (الخلاص) وحينئذٍ يعودون إلى المسيد، ويحوز الفقيه ما تجمع في الرداء.(146)

وأما نهر «سبو» فإنه ينبعث من عنصر في مغارة مهولة في شعراء غامضة من بلاد فازاز، إلى أن يمر على بني «وَرَاين»، وهذه العين التي ينبعث منها لا يدرك لها قعر... وللبربر المجاورين لها فيها تجاريب، فمنها ما حكى صاحب «الاستبصار» أن المريض إذا أرادوا أن يعلموا هل يموت من مرضه، أو يحيا حملوه إلى العين، وغطسوه في مائها حتى يقرب إلى أن يطفو، ثم يخرجونه، فإن خرج على فمه دم، فيستبشرون بحياته، وإلا أيقنوا بهلاكه، وهذا عندهم متعارف لا ينكر، وهذا لا يفعله إلا جاهل، فإن فعله أحد بأحد ومات، يقتص منه.(147)

* * *

ومن ملح محمد بن محمد بن إبراهيم بن الحاج البلفيقي من أهل المرية، ودخل فاس (ت: 771هـ) قال: بت بحمام الخندق من داخل المرية يوم الجمعة الثامن من شهر محرم عام اثنين وثلاثين وسبعمائة منفرداً، فطفىء القنديل، وبقيت مفكرا، وخطر ببالي ما يقول الناس من تخييل الجن في الأرحا والحمامات، وعدم إقدام كافة الناس إلا من شذ على دخولها

146) 59/1 تعليق ع. ص. على كلام أحمد ابن القاضي في جذوة الاقتباس.

147) ص : 47/1 جذوة الاقتباس.

منفردين بالليل، لاسيما بالظلام، واستشعرت قوة نفس عند ذلك، فقلت مرتجلا رافعا بذلك صوتي :

زعم الذين لهم عقول قدرها
أن عرضت للبيع غير ثمين
إن الرحى معمورة والحـ
ـمام عندهمُ كذا بيقين
إن كان ما قالوه حقاً فاحضروا
للحرب، هذا اليوم من صفين
فلئن حضرتم فاعلموا بحقيقة
إني مصارع قيسنا المجنون(148)

* * *

ذكر الإمام أبو الفرج بن الجوزي رحمه الله تعالى في الأذكياء، عن بشر بن الفضل، قال: خرجنا حجاجا، فمررنا بماء من مياه العرب، فوصف لنا فيه ثلاث جوار أخوات، بارعات في الجمال، وأنهن يتطببن، ويعالجن، فأحببنا أن نراهن، فعدنا إلى صاحب لنا، فحككنا ساقه بعود، حتى أدميناه، ثم حملناه، وأتينا به إليهن، فقلنا: هذا سليم!! فهل من راق؟ فخرجت إلينا الأخت الصغرى، فإذا جارية كالشمس الطالعة، فجاءت حتى وقفت عليه ونظرته، فقالت: ليس بسليم... قلنا: وكيف ذلك؟ قالت: إنه خدشه عودٌ بالت عليه حية ذكر... والدليل على ذلك، أنه إذا طلعت عليه الشمس مات! قال: فلما طلعت الشمس، مات، فعجبنا من ذلك وانصرفنا...(149)

* * *

148) ج : اقتباس ص : 1/295.

149) حياة الحيوان الكبرى للدميري ص : 1/278.

وهناك نســاء يغتسلن بماء معين يـوجد في بعض الأضــرحة من أجل الإنجاب، وهذه الأمــاكن موجودة في بعض المدن المغربيــة... ففي الرباط، مثلا، هناك سيدي العربي بن السائح، وسيـدي عبد الله اليابوري، وسيدي عبد الله الحَوِيشِـي، وهذا الأخير يشرب من خابيته فقط.(150)

* * *

وقد اعتاد الإلغيـون أن يعمدوا بعضـهم في عشية التاسـوعاء إلى الغثاء الذي تتركه السيـول، ضفاف مسيلات الماء، فياخذون منــه، وهو يضم ما يضم من أبعــار وأعــواد صغار، فيبخــرون بــه الـديار، في صبيحــة عيـد عاشوراء دفعا لتأثير الجِنّ... وقـد رأيت عجوزا تفعل هذا أول ما نفيتُ إلى «إلغ»، فكان ذلك هو السبب حتى صرت أبحث عن مثل هذه العادات...

* * *

وكذلك يعمـد في سحر عــاشوراء إلى استقــاء الماء من الآبــار، ظنا من الساقين أن الآبار تستمد من «مــاء زمزم» في ذلك الوقت، ومن ذلك اليوم، فيرش بذلك الماء جميع زوايا الديار تبركا، خصوصا أهراء الزرع، وحظائر المواشـي.(151)

وكان الشيخ الـوالد سنَّ لقريــة آل سليمان أهله الأخصــاء في أعراسـهم عرسا يخلو من كثير من هذه العوائد، حتى إن العروس تجلى تحت الظلام، وفي صبيحة الجلوة، يذهب بالعــروس إلى أقرب بئر لتستقي الماء، فيجعل الماء في إنــاء نحاس يكون من جملة مــا تأتي به من عند أهلهــا، فيتجاذب الإنــاء المملوء بــالمــاء بين أهل الـزوج، وأهل الـزوجة، فمــن غلبوا سقــوا صاحبهم وصاحبتهم، ويرون أن من سقى أولا من الزوج أو الزوجة لازال يغلب صاحبه.(152)

* * *

---

150) 102/ التراث الشعبي : العراقية. ع : 9 – 10، س : 12/1981.

151) «المعسول» للعلامة سيدي محمد المختار السوسي ص : 30/1.

152) المصدر السابق ص : 33/1.

وكان يعقوب المنصور الموحدي يتمتع بسمعة في المشرق والمغرب، حتى إنه كان يتطلع إلى فتح القسطنطينية العظمى، فقد انطلقت الروايات الشعبية تتحدث عن آثاره وعظمته... وكان مما ذكرته أنه أرصد عفريتين اثنين يُوقدان النار تحت حمة مولاي يعقوب التي تمتاز بشدة الحرارة باستمراره... وأن الله سبحانه وتعالى يكتب الشفاء للمرضى والزَّمْنَى ببركة يعقوب المنصور...

وتحدث محمد بن عبد السلام الناصري،(153) عن «عين ماضي» بأنها: «...تسقي الجنان كلها من عين واحدة خارجة من سفح جبل بقربهم، عذبة باردة، يزعمون أنه يورث الشقوق في الأيدي والأرجل في زمن الشتاء... ثم قال: «ونساء عين ماضي» لا يغتسلن من جنابة ولا من حيض أو نفاس، يزعمن أن الاغتسال بمائهم يُعَقِّمهن، فتركن ذلك لذلك.

فقلت لمن حدثني بذلك : ما هي إلا عقوبة من الله لهن على ترك الواجبات...

وأعظم من ذلك اعتيادهم للطهارة الترابية من غير عذر حتى من وسم بالفقه منهم، تراه يضرب عند كل صلاة، اتكلوا في ذلك على زعمهم أن ماءهم يضر بالبصر... ولقد توضينا منه مرارا، وما رأينا منه ضرراً، فإن كان ذلك يحدث بكثرة الاستعمال، أو في فصل دون آخر، وتحقق الضرر، وتعذر الوضوء بغير من مياه الآبار... فلا شك أن ذلك يبيح الانتقال إلى التيمم.(154)

وعلى مسافة ثلاث رميات حجر من مدينة قسنطينة تقريبا، بالجزائر، يوجد حمام، مؤلف من نبع ساخن، يتدفق بين جلاميد كبيرة، يسمى حاليا «حمام سيدي مسيد» وتوجد كمية كبيرة من السلاحف التي يعتبرها

---

153) في رحلته الحجازية الكبرى [مخطوط بالمكتبة الحسنية بالرباط رقم : 5658، بخط المؤلف].

154) الاعلام، بمن حل بمراكش وأغمات من الأعلام ص : 199/ 5.

النِّسوة أرواحا شريرة، وعندما تصاب على سبيل الصدفة إحدى تلك النساء بالحمى، أو بأي مرض آخر، فإنها تعتبرها خطيئة السلاحف، وتعالج مرضها بأن تذبح حالا دجاجة بيضاء تضعها في وعاء مع كل ريشها، ثم تحملها إلى العين، وتتركها بعد أن تربط حول الوعاء بضع شمعات مصنوعة من شمع العسل...

ويقوم بعض الفطنين بمتابعة المرأة عندما يرونها تتجه نحو عين الماء مع الوعاء والدجاجة، كي ياخذوها بمجرد أن تقفل راجعة، ثم يطبخوا الدجاجة وياكلوها...(155)

* * *

وهكذا استمر عند الشعب البربري الاعتقاد الأصلي في الجن والأرواح، وخاصة الشريرة منها التي يعتقدون أنها تعيش تحت الأرض، وفي الغيران، أو الأماكن المرتفعة، والتي ينبغي اتقاء شرها بطقوس سحرية، فأصبح الاعتقاد في «الجنيوس» Genius اللاتيني، وأصبح الاعتقاد في الجن عند المسلمين منهم، وتولدت عنه عبادة الحيوان، وبالأخص عبادة المياه والكهوف... والطقوس الفلاحية القديمة الرامية إلى تسيير الازدواج الروحي بين الأرض، وهي العنصر المؤنث، وبين الماء المتمثل في المطر، وهو العنصر المذكر، قد بقيت في الاحتفالات الرمزية ذات الصبغة العتيقة التي يحتفل فيها اليوم بزفاف الأرض المتمثلة بعروس تزليت إلى المطر، وهو زوجها: «آستي» Asti. فتراهم اليوم في المغرب الأقصى يحملون مغرفة كبيرة ألبسوها ثياب عروس ويجوبون بها الشوارع، كما تتجسم عادة في قتل إلاه النبات في المهرجانات المثالية، فلا تراهم يذبحون إلاها مذكرا كما في الشرق، ولكن يذبحون آلهة مؤنثة تمثل الأرض.(156)

---

155) الحسن بن محمد الوزان / وصف إفريقيا، ص : 430 – 431.

156) إفريقيا الشمالية تسير Charle Andrè Julien L'Afrique du Nord en Marche ص : 22.

وهناك خـرافة مـن أكثر الخـرافات المتعلقـة بالمـاء انتشارا، وأكثـرها تاصلا، مازالت باقية في صـورة «بئر الأمـاني» ففي أيام الوثنية عندما كان البئر مملوكة لحـورية أو لجنية، كانت الهدايا تقـذف في داخله، أو توضـع بالقرب منه... وكـان مقدم الهدية يصلي لجنية الماء من أجـل قضـاء خدمة أو مساعدة في مقابل هويته، ومع تنـاقص الإيمان بالآلهة القديمة أصبحت الهدية منحة رمزية، مليما، أو دبوسا، وتحولت الصلات إلى أمنية...(157)

* * *

وتوجد بالقاهرة بئر يقال لها «بئر العظمة» عند الركن المخلق، يقال إنها من آثار موسى عليه السلام... وحكى أبو القاسم الزياني حكاية مفادها أن طاسة لفقير وقعت في بئر زمزم، وعليها منقوش اسم الفقير، فرجع الفقير مع الركـب المصري إلى القاهـرة، فجاء إلى البئـر المعظمة ليتـوضـأ منها للتبرك، فطلعت الطاسة بعينها في المستقى، وشهـد له جماعة من الحجاج أنهم شـاهدوا وقـوعهـا في بئر زمـزم... قال الـزيـاني: وهذا من عجـائب الآبار...!(158)

* * *

الجن تصد البقر عن الماء :

للعرب في البقر خيال آخر، وفي الأساطير الجاهلية أن البقر إذا أوردت، فلم ترد، ضربوا الثور ليقتحم الماء، فتقتحم البقر بعده، ويقولون: إن الجن تصد البقر عن الماء، وأن الشيطان يركب قرني الثور... وقال قائلهم:

إني وقتلي سُلَيكـــاً، حين أعقلَـــه

كـالثور يُضـــربُ لمـا عافت البَقَـرُ

---

157) الماء معجزة الطبيعة «طومسون كينك» ص 223.

158) الترجمانة الكبرى ص : 327.

غضبت للمـــــرء إذ . . . حليلتـــــه

وإِذْ يشد على وجعـائها التفر(159)

وقال آخر :

كـــــالثــــور يضـــــرب للــــورو

د، إذا تمنعـت البقَـــــــــــــــرْ

وقال الأعشى :

فــــإني، ومـــــا كلفتمـــــونـي وربكم

لأعلمُ مَـن أمسى أعـقَّ وأحْــــدَبــــــا

لكالثور و«الجنيّ»(160) يضــرب وجهــه

ومــا ذنبـــه أن عـافت المـاء مَشْـــربـا

ومــــا ذنبـــه أن عـافـت المـاء بـــاقــر

ومــــا أن تَعَـــافُ المـاءَ الا ليضــــربــا

وقال نـهشل بن جرى :

كـــذلك الثـــور يضـــرب بــــالهــــراوى

إذا مـــا عـــــافتِ البقـــــر الظمـــاء(161)

* * *

لقد كان تقديس الماء منتشراً في الشرق والغرب، وعند جميع الشعوب، ولا سيما الشعب المصري والعراقي والمغربي حيث تذكر الأساطير القديمة

159) هما لرجل اسمه أنس، يقول أهل الأخبار إنه قالهما عند قتله السليك ابن السلكة، وكان السليك مر بـامرأة في بيت وحدهـا، فاغتصبها، فلما علم بـذلك هذا، تبعه فقتلـه، وأبى أن يعطي ديته. فقـال: إني وقتلي سليكا... وقـولـه ثم: أعقله بـالنصب على تقـدير أن المصـدرية عطفـا على: وقتلي... ولما عافت البقـر: أي لما كرهت شرب الماء... يقـول: إن قتل سليك كان بحق، فالعقل يكون ظلما كضرب الثور عند امتناع البقر [بلوغ الأرب، للألوسـي ص: 303/2].

160) أرَادَ بالجني : اسم راع.

161) الهـراوَى بفتح الهاء، جمع هـراوة بكسرهـا. وهي العصـا. [بلـوغ الأرب ص: 303/2. حماسة البحتري 352].

أن أسلحة الإلاه «أشـور»-كانت تبارك بغطسها في الماء، وتذكر كذلك أن دجلة كان نهرا مقدسا عند الناس.

وقد ثبت أن المغاربة قديما كانوا يؤدون طقوسهم، ويقدمون القرابين قريبا من ينابيع الماء... ليس فقط لأن الماء رمز الحياة، وإنما كذلك للاعتقاد في أن هذه الينابيع كانت مركز قوى ومأوى الآلهة والأرواح...

وهكذا لو تتبعنا كثيرا من العادات لألفيناها أثراً من آثار المعتقدات والمقدسات التي عرفها المغاربة في العهود القديمة، والتي انحدرت إليه من الشرق في الغالب، والتي وجدت في البيئة المغربية مجالا خصبا لرعايتها وتثبيتها في النفوس، وهي بطبيعتها بيئة تساعد على تغذية تخيل الإنسان لما وراء الكون...

* * *

تقاليد الفرس يوم النيروز

كان للفرس في عيد النيروز عادات غريبة، منها أن يرش الناس بعضهم بعضا بالماء.

قال بعض الحشوية :(162) أن سليمان بن داود عليهم السلام، لما افتقد خاتمه، وذهب عند ملكه، ثم رد إليه بعد أربعين يوما، عاد إليه بهاؤه، وأتته الملوك، وعكفت عليه الطيور، فقالت الفرس: «نَوْرُوز آمَذ»، أي جاء اليوم الجديد، فسمي النوروز... وأمر سليمان الريح فحملته، واستقبله خطاف فقال: أيها الملك، إن لي عشا فيه بيضات، فاعدل لا تحطمها، فعدل، ولما نزل حمل الخطاف في منقاره ماء، فرشته بين يديه، وأهدى له رجل جرادة، فذلك سبب رش الماء، والهدايا في النيروز...

وهذه أسباب ضاربة، كما ترى في الاختلاق والانتحال...

ويذكر النويري :(163) إنه كان من عادة عوامّ الفرس رفع النار في ليلته، ورش الماء في صبيحته، وفي ذلك يقول المعرج:

كيف ابتهاجُك بالنيروز ياسكني
وكل ما فيه يحكيني وأحكيه
فناره، كلهيب النار في كبدي،
وماؤه كتوالي عبرتي فيه...

ونجد في كتاب التاج للجاحظ(164) بعضا من تقاليد الفرس وصنيعهم في يوم النيروز قال: «... منها استقبال السنة، وافتتاح الخراج، وتولية

162) الأثار الباقية ص : 215.
163) نهاية الأرب : ص 186 – 2/187، خطط المقريزي ص : 2/391، صبح الأعشى ص : 4/419، التاج : للجاحظ : ص : 146.
164) كتاب التاج : ص : 146.

العمال، والاستبدالَ، وتذكية النيران، وصب الماء، وتقريب القربان، وإشادة البنيان.

وفي مصر، كان الخلفاء المصريون، ولا سيما الفواطم يحتفلون بعيد النيروز(165) احتفالا كبيرا...

قال المقريزي : عند الكلام على أعياد الفاطميين : «كان النوروز في أيامهم من جملة المواسم، فتتعطل الأسواق، ويقل فيه سعي الناس في الطرقات...(166)

قال ابن زولاق : «وفي هذه السنة، يعني ثلاث وستين وثلاثمائة - منع المعز لدين الله من وقود النار ليلة النوروز في السكك، ومن صب الماء يوم النوروز.

وقال في سنة 364 : وفي يوم النيروز زاد اللعب بالماء ووقود النيران، وطاف أهل الأسواق وعملوا فيه، وخرجوا إلى القاهرة بلعبهم، ولعبوا ثلاثة أيام، وأظهروا السماحات والحلي في الأسواق، ثم أمر المعز بالله بالكف... والا توقد نار، ولا يصب ماء، وأخذ قوم، فطيف بهم على الجمال...

قال القاضي الفاضل في تعليق المتجددات لسنة 584 : في يوم الثلاثاء رابع عشر رجب يوم النيروز القبطي، وقد كان بمصر في الأيام الماضية، والدولة الخالية - يعني دولة الفاطميين من مراسم بطالاتهم ومواقيت ضلالتهم، فكانت المنكرات ظاهرة فيه، والفواحش صريحة في يومه، ويتجمع المؤنثون والفاسقات تحت قصر اللؤلؤة بحيث يشاهدهم الخليفة، وبأيديهم الملاهي، وترتفع الأصوات، وتشرب الخمور، ويتراش الناس بالماء، وبالخمر، وبالماء ممزوجاً بالأقذار، فإن غلط مستور، وخرج

165) النيروز عند الفرس : أول يوم من أيام السنة الشمسية، يوم الفرح عموما فارسية.
166) الخطط : 389 - 2/390.

من داره لقيه من يرشه، ويفسد ثيابه، ويستخف بحرمته فأما فدى نفسه، وأما فضح...

ولم يجر الحال في هذا النوروز على هذا، ولكن قد رش في الحارات، وأحيا المنكر في الدور، وأرباب الخسارات.

وفي عام 592 : وجرى الأمر في النوروز على عادة من رش الماء واستجد فيه هذا العام التراجُم بالبيض، والتصافع بالانطاع، وانقطع الناس عن التصرف، ومن ظفر به في الطريق رش بمياه نجسة وخرق به...

تلك صورة لما كان عليه الحال في عيد النيروز بمصر أيام الفاطميين يرسمها لنا المقريزي وغيره من المؤرخين...

وهي تدلنا على مبلغ ما كان عليه التآخي والمشاركة، وطيب المجاملة بين المسلمين وإخوانهم المسيحيين.

العنصرة – الماء – والعادات

العنصرة : هو عيد تذكار حلول الروح القدس على التلاميذ يقع بعد عيد الفصح بخمسين يوما...

وعند اليهود هو عيد تذكار نزول الشريعة في طور سيناء، واللفظة عبرانية، معناها اجتماع أو محفل.

والعنصرة أو العصرة كلمة عربية،(167) وهي عند الأندلسيين عيد المهرجان، وكانوا يحتفلون به في يوم 24 يونيه.(168)

والعنصرة، أو عيد المهرجان، لا يحتفل به في شهر شتنبر كما هو الحال في المشرق، ولكل في 24 يونيو...

نقل ابن خلكان عن بعض الأندلسيين ما يلي :

---

167) دوزي ص : 181/2.

168) تقويم قرطبة : ص 65، والبيان المغرب ص : 84/3.

«يـوم العنصرة يـوم مشـهـور ببلاد الأنـدلس، وهـو موسم للنصـارى كالميلاد ونحوه، وهو اليوم الرابع والعشرون من حزيران فيه ولد يحيى بن زكريا عليهما السلام». (169)

وإلى تاريخ العنصرة يرمز صاحب «المقنع» في أرجوزته :

في «كَـدٍّ» يـونيـه تكـون العنصـرة...

وقد اشتهـر يوم العنصرة بشعلة النـار التي كانوا يقيمونهـا، ويقفزون فوقها...

وقد سجل الأدب الأنـدلسي الفصيح هذه العـادة التي ماتزال مـوجودة إلى اليـوم في إسبانيـا، فمن ذلك قـول أَبي بكـر بن أَبي العلاء الشـاطبي يصف عندما يقفز نارا من هذه النيران التي تكون في مناسبة العنصرة:

مـــريلقـي النـــار فـي ضــرم
كفـــــؤاد الصّـبِّ محتـــــرق
ومضى يجتـــاب جـــاحمهـــا
كـانصـــلات النجم في الأفق(170)

وقال الوزير حسّان بن مالك بن أبي عبَيْدة في المهرجان :(171)

أرى المهـــرجـانَ قـــد استبشـــرا
غـــداةَ بكى المـــزنُ واستعبـــرا
وســـــربلت الأرضُ أمـــواهَهـــا
وجللت السنـــــدسَ الأخضـــــرا
وهـــزَّ الـــرياحُ صنـــابيـــرهـــا
فضـــــوعت المســك والعنبـــرا

169) وفيات الأعيان ص : 7/227، تحقيق احسان عباس - الأمثال : ص 1/239.

170) المغرب، لابن سعيد ص : 2/383.

171) المطمح : 26 - 27.

تهـــادى بـــه النـــاسُ الطـــافَـــه
وَسَـــامَى المقِلُّ بـه المكتـــرا(172)

* * *

عيد الغطاس في مصر :

وفي مصْر كـان يحتفل بعيد الغطـاس احتفالا كبيرا، وهـو يسمى عيد الغطاس، لأن كثيرا من النصارى كـان يغطس فيه في النيل، وفي هذا اليوم نفسه، لا تـزال الكنيسة الـرومية في عصرنـا تحتفل بعيد المـاء المقدس، وكان من الرسوم القـديمة بمصر أن يركبَ متوَلّي الشرطـة السفلانية ليلة الغطّاس في مـوكب كبير، وتوقـد بين يديـه الشموع الموكبيـة والمشاعل فيطوف الشـوارع، وينادي في الناس الا يختلط المسلمون بـالنصارى في تلك الليلة، والا ينكدوا عليهم عيدهم، وذلك أن النصـارى كانوا في سَحَر تلك الليلة يخرجون إلى شاطىء النيل، ويغطسون فيه.(173)

ويقول المسعودي في ليلة الغطّاس : «وليلة الغطاس بمصر شأن عظيم عنـد أهلهـا، لا ينـام الناس فيهـا، وهي ليلـة عشـر تمضي من «كـانـون» الثاني...

ولقد حضرتُ سنة ثلاثين وثلاثمـائة ليلة الغطاس في مصر، والأخشيد محمد بن طغج في داره المعـروفة بالمختـارة، في الجزيرة الـراكبية للنيل، والنيل مطيف بها، وقـد أمَرَ فأسرج من جـانب الجزيرة وجـانب الفسطاط ألفُ مشعل، غيـر ما أسـرج أهل مصر من المشـاعل والشمع، وقد حضـر النيل في تلك الليلـة ألوف من النـاس من المسلمين والنصـارى، منهم في الزوارق، ومنهم في الدور الدانية للنيل، ومنهم على الشطوط، لا يتناكرون

172) نفح الطيب ص : 547/3 تحقيق إحسان عباس.
173) آدم ميتز ص : 289/2.

الحضور، ويظهرون كل ما يمكنهم إظهاره من المآكل والمشارب، والملابس وآلات الطرب والذهب والفضة والجواهر والملاهي والعزف والقصف، وهي أحسن ليلة تكون بمصر، وأشملها سرورا، ولا تغلق بها الدروب، ويغطس أكثرهم في النيل، ويزعمون أنه أمان من المرض، ونشرة من الداء.(174)

وفي عام 415 هـ 1025 م نزل أمير المومنين الظاهر لنظر الغُطاس ومعه الحُرَم، وضرب بدر الدولة متولي الشرطتين، خيمةً للخليفة وحرمه، وأمر الخليفة بأن توقد النار والمشاعل في الليل، وكان وقُودا كثيرا...(175)

ومما كان يعمل بمصر عيد الشهيد في الثامن من ماي، وكان النصارى يلقون في النيل في هذا العيد تابوتا من خشب فيه أصبع من أصابع أسلافهم الموتى، ويزعمون أن النيل لا يزيد في كل سنة إلا بهذا...

وكان اجتماع الناس لهذا العيد بناحية شبرا، وكان يرحل إليه عالَم عظيم للفجور واللهو والفسق، وفيه يصرفون أموالا لا تحصى، ولا يبقى مغنّ ولا مغنية، ولا صاحب لهو، ولا بغي، ولا مخنث ولا ماجن ولا خليع ولا نحو ذلك إلا خرج لهذا العيد، وكان يباع فيه من الخمر خاصة بما يزيد على مائة ألف درهم فضة، وأبطله السلطان الناصر محمد بن قلاوون في القرن الثامن.(176)

وكانت العادة في رأس السنة الفارسية والقبطية أن يرش الناس بعضهم بعضا بالماء، وقد منع ذلك في المشرق عام (282هـ 895م)(177) على أن البيروني يتكلم عن الرش ووجوده عام 400هـ.(178)

---

174) «مروج الذهب»، للمسعودي ص : 364 – 2/365.

175) الخطط للمقريزي.

176) المقريزي ص : 68 – 1/69.

177) تاريخ الطبري. ص 3/2144 – وقد بقي من آثار الاحتفال برأس السنة الفارسية الماء حتى عام 400هـ [الآثار الباقية : للبيروني 260].

178) الآثار الباقية ص : 215 – 218.

ويحكي لنا الرحالة الصيني (وانج ين تي) الذي طاف بالمشرق بين عامي 981 - 983م عن أهل مدينة طرفان (كانت شانج) أنهم يعملون أنابيب من الفضة والنحاس، ويملؤنها بالماء، ويرش بعضهم بعضا، وقد يمزجون أحياناً، فيرشون الماء بأيديهم، وهم يزعمون أنهم بذلك يضعفون حرارة المزاج، ويدفعون الأمراض.(179)

وكان العامة بمصر في النيروز ينتخبون رجلا يسمونه أمير النيروز، فيطلي وجهه بالدقيق أو الجير، ويركب في الشوارع على حمار، وعليه ثوب أحمر، أو أصفر، ويسير معه جمع كبير، فيتسلط على الناس في طلب رسم رتبه، وفي يده دفتر مثل دفتر المحتسب، فمن لم يدفع الرسم يرش بالماء ممزوجا بالأقذار.!!

وكان الناس يضرب بعضهم بالجلود والانطاع، الفقراء في الشوارع والأغنياء في دورهم، ورجال الشرطة لا يعترضون على ذلك، وأن غلط مستور، وخرج من بيته لقيه من يرشه، ويفسد ثيابه، ويستخف بحرمته، فإما أن يفتدي نفسه، وأما أن يفضح، وكان يرش الناس الماء في الحارات، ويحي المنكر في الدور أهلُ الحارات.

وكان التلاميذ في مكتبهم يهجمون على معلمهم، وكثيرا ما يرمونهم في البئر حتى يفدي نفسه بالمال...

وفي 335 هـ - 945م منع السلطان من رش الماء،... وفي عام 363هـ - 974م أبطل الخليفة هذا العيد، ولكنه عمل في العام التالي على أكبر صورة، وقد استمر يؤدب الناس ثلاثة أيام، فلم ينفع التأديب.(180)

والنيروز بمصر في غشت حيث يوقد الناس النار ويرشون الماء.(181)

* * *

179) آدم ميتز ص : 2/294.

180) الولاة للكندي ص : 294، والمقريزي في الخطط ص : 1/267.

181) انظر تاريخ قرطبة لسنة 961، ط : دوزي ص : 58.

الشيخ أحمد حسن الباقوري... وعمامتُه...!

لما سافر الشيخ أحمد حسن الباقوري وزير الأوقاف المصري، ورئيس «جمعية الشبان المسلمون» رحمه الله إلى الشرق الأقصى وجنوب شرق آسيا مع وفد هام من أقطاب مصر تحدث عن منظر مثير للضحك حيث قال: «ولما انتهت الزيارة للهند، اتخذنا طريقنا إلى أندونيسيا، وكان وفد الهند المؤلف من «البائديت جواهر لال نهرو» وابنته السيدة «أنديرا غاندي» وآخرين معنا على الطائرة نفسها... وقد رغب هؤلاء السادة أن ننزل في «بورما» ليوم أو يومين رغبة منهم في مشاركة أهل بورما عيدهم الذي يجيء مع فيضان الأنهار، ولم نكن نعلم أن من تقاليهم المقدسة رش الماء على الضيوف تحية لهم، وما كان أشد دهشتنا حين رأينا رئيس وزراء «بورما» «إينُونو» يستقبل الوفود، وفي يده إناء مليء بالماء، فيرشه على أعضاء الوفود، وكان في مقدمة هؤلاء عبد الناصر، ونهرو، وبعد انتهاء هذا الاستقبال، نقلتنا السيارات إلى المكان المعد لنزول الوفود، وكان الجو شديد الحرارة، وكان أهل «رانجون» في أيديهم خراطيم من الماء يصوِّبونها إلى المارة مهما تكن منزلتهم...

قال السيد الباقوري : وهنا كنا بين أحد أمرين، كلاهما شر، فإما أن نغلق نوافذ السيارات، فنختنق من شدة الحرارة، وإما أن نفتحها، فنغرق بالماء من الخراطيم..!!

وقد كان موقف السيد الباقوري في ذلك اليوم يسر العدو، ويسوء الصديق، ذلك أن سائر الوفود كانت مكشوفة الرأس، فلا يؤذيها الماء، أما السيد الباقوري فقد كان يرتدي العمامة، فإذا أصابها الماء، كان المنظر مثيرا للضحك، أو باعثا على السخرية...(182)

---

[182] جريدة «المسلمون» عدد : 24. السبت 4 ذو القعدة عام 1405 / يوليوز 20 / 1985.

ولهذا آثر أن يغلق نوافذ السيارة اتقاء للماء ومهما كان الحر شديدا خانقاً... ومازال في هذا الجو الخانق حتى بلغ الضيوف الدار التي أعدت للضيافة، وقد كانت مدرسة للتلاميذ غير مستعدة لنزول مريح، والمشكل هو إذا تركت النوافد مغلقة فالحر خانق، وإذا فتحت الشبابيك، فهناك متربصون بالجميع يوجهون خراطيمهم إلى سائر الضيوف، وهم داخل المدرسة.

ولم يكن نوسع أحد من ذوي النفوذ في البلاد أن يمنع السكان من رش الماء، لأن اليوم عيد، والحرية في الأعياد مكفولة لا يجوز الاعتداء عليها مهما تكن الأسباب...

ولا ريب أن منظر القوم في ثيابهم المبتلة بالماء كان مثيرا للضحك، وداعيا إلى المرح الذي هو أخص خصائص الأعياد...

* * *

قال الشيخ أحمد حسن الباقوري وهو يتذكر ارتساماته اللطاف: «اذكر أننا حين جلسنا في هذه المدرسة إلى حديث السمر نستعين به على قضاء الوقت الذي كان يمر في بطء شديد، وكان من الأحاديث التي ذكرتها للسيد محمود فوزي وزير الخارجية، والسيد عبد الخالق حسونة أمين الجامعة العربية حديث يتصل بمصر القديمة في بعض أعيادها إبان فيضان نهر النيل، وكأن الأعياد تشترك في معنى لابد منه للبهجة والمرح، بغير ضوابط، وفي غير حدود، وذلك أن العلامة القلقشندي قد ذكر أن من أعياد الأقباط المشهورة بالديار المصرية عيد النيروز، وهو أول يوم في سنتهم، مع أن لفظة النيروز فارسية معربة، وقد كانوا في هذا العيد يظهرون من المرح والسرور، ما تضيق به الصدور، وينافي معنى العيد، ذلك أنهم كانوا يصبون الماء غزيرا على كل من يمشي في طريق، وربما لجأوا إلى التصافع بالأكف، وبقطع من

الجلود، وهم في ذلك العمل يتـركون الاحتشام حتى يستوي في تقـديرهم سواد الشعب، والـرجل المطاع في قـومه، ولـولا أن ولاة الأمر يـردعونهم لمنعوا الطريـق، فلا يمر بها أحد، وهم في ذلك لا يتركون من ظَفِروا به إلا إذا أَرضاهـم بما يشـاءون...

* * *

نعم، أعياد الطبيعة تـدعو إلى المساواة بين الناس في مشـاعرهم مهما اختلفت بهم الديار، ومع أن هذا اليوم في «رانجـون» كان يوم فرح تنشرح له الصدور لكنه بالنسبة إلى الضيوف كان يوما شاقاً يستلزم المبادرة الى الرحيل...

ومن اللطائف التي حدثت في هذه الرحلة أن الوزير الباقوري رغب إلى أخيه وزميله المرحوم الدكتور محمود فوزي وزير الخارجية أن يركب علي اليمين تكـريما لـه، ولكنـه أجـابه إلى رغبتـه مشتـرطـا أن يتنازل السّيـد الباقوري لمحمود فوزي عن عمامته... وقد كان هذا الشرط غريبا في نظر السيد الباقوري، ولكن فوزي قال له في أدب جم، وإصرار حاسم، أن هذه الألوف التي تكاد تقبل الأرض التي تسير عليها، - احتراما للأزهر، وهتافاً لـه - سـوف تتسـارع إلى الفتك بي إذا رأتني جـالسـا في السيـارة على اليمين، ورأسي مكشوف، وأنت بعمامتك الأزهرية تجلس على اليسار ولهذا يقـول فوزي، رغبت إليك أن تعطينـي عمامتك لكي تكـون التحيـة للأزهـر الشريف ماثلة في العمامة...

والحق، يقول الباقوري، إن هذه الآلاف التي كـانت تستقبل الوفود إنما كانـوا يتجهون بتحاياهم وهتـافاتهم إلى الأزهر الشريف في العمـامة التي تعلو رأسي...

* * *

أنهـار الجنـة :

لقـد بلغ من تقديس الميـاه عند بعض الشعـوب حدا لا يـوصف، حتى إنهم وصفوهـا تنبع من الجنة... ولعلها حينما يكتمل فيهـا وصف الجودة والبرودة والعذوبة، ولا نجد هذه الأوصـاف بكاملها إلا في الأنهار الأربعة: الفرات، النيل، وسيحان، وجيحان في آسيا الوسطى ويعرف سيحان باسم نهر الشاش، أي مدينة طشقند عاصمة جمهورية أوزبكستان...

وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول اللهﷺ: «سيحان، وجيحان والنيل والفرات كلها من أنهار الجنة».

ولقد استلذ ماء دجلة واستعذبـه واستطابه كل من شرب منه، واستعلن ذلك في إشعار الشعراء، وكان أكثرهم إفصاحاً عن ذلك وشهادة بأنه «خير ماء»، الشـاعر الفيلسوف أبو العـلاء أحمد بن سليمان المعـري حيث يقول في القصيدة الثالثة والستين من ديوانه «سقط الزند»:

كلفنـا بـالعـراق، ونحن شَـرْخٌ
فلـم نُلِـمْ بـه إلا كهـولا
وردنـا مـاء دجلـة «خيـر مـاء»
وزرنـا أشـرف الشجـر النخيـلا !
وزلنـا بـالغليل، ومـا اشتفينـا
وغـايـة كـل شيء أن يـزول...

وقوله، أيضا، في القصيدة الثانية والستين يودع بغداد :

أودعكم، يـا أهل بغـداد، والحشـا
على زفـراتٍ، مـا ينين من اللـذْع
وداع ضـنٍّ، لـم يستقـل، وإنمـا
تحامل – من بعـد العِثَارِ – على ظَـلْـعِ

إذا أطَّ نِسعٌ، قلت والنوم كاربي
أجِدّكُم، لم تفهموا طرب النِّسع

فبئس البديل الشامُ، منكم وأهلُه
على أنهم قومي، وبينهم رَبْعِي

ألا زودوني شربةً، ولو انني
قدرت إذن، أفنيت دجلة بالجَرْع

وأنَّى لنا من ماء دجلة نَغْبَةً
على الخِمس من بعد المفاوز والربع(183)

وللفرات فضائل كثيرة : روي أن أربعة أنهار من الجنة: النيل، والفرات وسيحان، وجيحان ...

وعن على ابن أبي طالب كرم الله وجهه أنه قال : «يا أهل الكوفة، إن نهركم هذا ينصب إليه ميزابان(184) من الجنة».

وعن السدي(185) رضي الله عنه : أن الفرات مَدّ في زمن عمر رضي الله عنه، فألقى رُمّانةً عظيمة، فيها كُرٌّ من الحب، فأمر عمر المسلمين أن يقتسموه بينهم، وكانوا يرونها من الجنة».(186)

---

183) «المورد العذب الزلال، فيما ورد في الماء من الأقوال» محمود شكري الألوسي ص : 35 تحقيق الأستاذ الشاعر : محمد بهجت الأثري.

184) الميزاب، والميزاب : ج ميازيب ومآزيب... المثعب، وهو قناة أو أنبوبة يصرف بها الماء من سطح بناء، أو موضع عالٍ، ومنه مئزاب الكعبة الشرقية.

185) السدي نسبة إلى السدة وهي الباب عرف به جماعة منهم... السدي الصغير محمد بن مروان بن عبد الرحمن... روى عن الكلبي، وداود بن أبي هند، وهشام بن عروة... وقال علماء الجرح والتعديل: كان ضعيفاً منكر الحديث وهذا هو صاحب الخبر المذكور كما جاء في آخبار بغداد» للمؤلف نفسه نقلا عن ياقوت.

186) الكُرّ : مكيال : خصه بعضهم بأهل العراق، غير أنه ورد في حديث بن سِيرِين: إذا بلغ الماء كُرا... لم يحمل نَجَساً» [انظر محمد بهجت الأثري ص : 59].

الفصل السابع :

حفلة زفاف النيل

كان ماء النيل، ومازال، أعظم قنية تحرص عليها مصر، ومنذ فجر التاريخ، تشعر مصر، بحق، أن حياتها تتوقف على مياه هذا النهر الخالد، وبأن كل ماحبتها به الطبيعة من الخصب والنعماء إنما هو من فَيْضِه وجريانه، وَكَمْ نُكبَتْ مصر، وعانت أهوال القحط والوباء، وفقدت من أبنائها الملايين، لأن النيل لم يسعفها بوافر فيضه... ومصر تعمل منذ أقدم العصور للفوز بأكبر قسط من هذا الغيث المبارك، وتسعى بكل ما وسعت لضبطه واستثماره، وكثيرا ما سيّر الفراعنة الحملات إلى أعالي النيل للوقوف على أسرار هذا النهر العظيم، واستقصاء منابعه، والسَّهَر على سلامة مجراه...

ويقال إن المصريين القدماء كانوا يعتقدون أن العالم خلق من الضحك، لأن الضحك من الماء، فحين أراد الإلاه الأكبر أن يخلق العالم أطلق ضحكة قوية، فكانت أرجاء العالم السبعة... ثم أطلق ضحكة أخرى، فكان النور، وأطلق ضحكة ثالثة، فكان الماء... وهكذا حتى تم خلق الروح من الضحكة السابعة... من أجل ذلك كان الضحك عنصرا أساسياً في الحياة، وصفة هامة من صفات البشر، وعاملا قويا في الربط بين الناس.(187)

وقد عبد المصريون النيل الذي يَهَبُ مصر الحياة، وكان يمثل عندهم في شكل ذكر وأنثى في آن واحد، فله من الأنثى ثدياها، ومن الذكر لحية طويلة، تكتنف وجهه، ولباسه لباس بحار مصري.(188)

---

187) عالم الفكر، ع : 3، مج : 13 – 10 – 11 – 12، 1983.

188) ديانة قدماء المصريين : ترجمة الدكتور سليم حسن، ط : المعارف عام 1922.

والمصريون اعتقدوا أن الإلاه المحلي يظهر لعباده في شكل واضح جلي، فكما أن روح الإنسان تأوي جسده الظاهر، كذلك يتخذ الإلاه له مأوى خاصا يكون له مظهراً له...

وقد جرت العادة أن يتخذ الإلاه سكنا له الأحجار والعمد والحيوانات، وكان الأثر شيوعا أن يتصوروا الإلاه في هيئة حيوان...

فكان «سُبْك» إلاه الماء بجهة الفيوم يظهر في شكل تمساح، و«خُنُم» معبود الشلال في شكل «تيس».(189)

قال احمد بن يوسف التيفاشي :(190) وقد ذكرت العرب النيل في إشعارها، وضربت به الأمثال:

قال قيس بن معد يكرب، فيما أورده الجاحظ في كتاب الأمصار :

ما النيل أصبح زاخرا بحدوده

وجرت له ريح الصبا، فجرى بها

ابن نُباتَه المصري :

زادت أصابع نيلنا

وطعنت وطافت في البلاد

وأتت بكل مسرةٍ

ماذي أصابع ذي أيادي

ناصر الدين حسن بن النقيب :

كأن النيل ذو فهم ولب

لما يبدو لعين الناس منه

فيأتي عند حاجتهم إليه

ويمضى حين يستغنون عنه(191)

189) ذيل : «الملل والنحل» للشهرستاني، تاليف محمد سيد كيلاني.

190) «سجع الهديل، في أخبار النيل» «لاحمد بن يوسف التيفاشي (تـ 651هـ كشف الظنون ص : 979).

191) «حسن المحاضرة» «لجلال الدين السيوطي.

وللنيل فيضـان مهـول يـاتي، فيهلك الحرث والنسـل، وهناك طـريقـة لمعالجـة فيضان نهـر النيل، وهي في غاية البسـاطة، وتتلخص في تـركه يفيض، وقـد اتبعت هذه الطـريقـة في مصر منـذ أقـدم العصور، إذ كـان الأهالـي يتراجعون إلى منـاطق عاليـة، كلما فـاض النيل على أراضيهم كل عام...

وكان الغرين(192) المترسب يـرفع مستوى المناطق المغمـورة بأكملها فضـلا عن قاع النهـر نفسه، بحيث كـان النهـر لا يعلو عن الأراضـي وقـد أفـادت طريقـة المصريين هـذه إلى حد كبيـر في حالـة أراضيهم الجافـة المرتفعة الحـرارة التي يمكن التنبؤ فيها بارتفـاع النيل المنتظم، على أنه لا يمكن اتباع طريقتهم السلبية هذه في أغلب وديان الأنهار...(193)

مكـانة النيل، وقـداسته في نفـوس المصريين معـروفة، بل إن مصـر الفرعونية كـانت تؤلهه، وتسميه «حابى»، ومازالت بـاقية حتى اليوم بعض آثار الطقوس والاحتفالات التي تقام له، وأهمها حفل عروس النيل.

وملخص هذه الأسطـورة التي نشأت على الأرجح في عصـر متأخر أن قدامى المصريين كان من عادتهم أن يحتفلوا، كل سنة، بزفاف فتاة صَبية إلى النهـر، إقرارا بفضله، وتعبيـرا عن شكرهم لـه فيضانَـه على أراضيهم وإخصابَها... بيد أن جل الباحثين علـى أن هذه العروس المهداة إلى النهر الجبار، إن صحت حفلة الزفاف، لم تكن مـن البشر، وإنما كانت تمثالا من الطين على شكل صبية يلقى في وسط أليم، فيـذوب على مهل، ورمزا إلى الاتحاد بين الماء واليابسة في سبيل إنعاش مصر...

وقـد روى هذه القصـة كثيـر من المؤرخيـن القدامى والمحـدثين(194) وسنكتفي بايراد ماساقه ابن عبد الحكم، ننشره لشهرته، لا لِصِحَّته:

---

192) الغرين : الطين.

193) الماء معجزة الطبيعة / طومسون كنج ص : 199.

194) المقريـزي، في خططه، ص : 58/1 والنجوم الـزاهرة ص : 35/1، «تاريـخ الخلفاء». ص: 49. كتاب : «التشوف، إلى رجال التصوف» ص : 64لابن الزيات، تحقيق : د. أحمد التوفيق.

قال عبد الرحيم بن عبد الرحمن ابن عبد الحكم : «لما فتح عمرو بن العاص مصر، أتى أهلها إليه، حين دخل إليه بُؤنة (من أشهر العجم) فقالوا له: «أيها الأمير، أن لنيلنا(195) سُنة لا يجري إلا بها، فقال لهم: «وماذاك؟» فقالوا: «إنه إذا كان لثنتى عشرة ليلة تخلو من هذا الشهر، عَمَدنا إلى جارية بكر من عند أبويها، فأرضينا أبويها، وأخذناها، وجعلنا عليها من الحلي والثياب أفضل ما يكون، ثم ألقيناها في النيل، فيجري... فقال لهم عمرو: «إن هذا لا يكون في الإسلام، وأن الإسلام يهدم ما كان قبله... فأقاموا، بؤنه. وأبيس، ومسري، وهو لا يجري قليلا ولا كثيرا حتى هموا بالجلاء، فلما رأى عمرو ذلك... كتب إلى عمر ابن الخطاب بذلك، فكتب إليه عمر، أما بعد، فقد أصبت، إن الإسلام يهدم ما كان قبله، وقد بعثت إليك ببطاقة... فَالْقِها في داخل النيل، إذا أتاك كتابي... فلما قدم الكتاب إلى عمرو، فتح البطاقة، فإذا فيها: «من عبد الله أمير المومنين إلى نيل مصر، أما بعد، فإن كنت تجري من قِبَلك، فلا تجري. وإن كان الله الواحد القهار هو الذي يجريك، فنسأل الله الواحد القهار أن يجريك... فعرّفهم عمرو بكتاب أمير المومنين والبطاقة، ثم ألقى عمرو البطاقة في النيل، قبل يوم الصليب بيوم، وقد تهيأ أهل مصر للجلاء والخروج منها، لأنه لا يقوم بمصلحتهم فيها إلا النيل، فأصبحوا يوم الصليب، وقد أجراه الله تعالى ستة عشر ذراعا في ليلة واحدة، وقطع تلك السنة السوء عن أهل مصر...(196)

كـــان النيلَ ذو عقلٍ وفهمٍ
لمـا يبـدو، لِكُلّ النـاس مِنْـهُ

195) لهذا النهر حظ عظيم من جهد الجغرافيين الأولين والآخرين من عند اليونانيين الذي كان جغرافيوهم أسبق المتحدثين عن منابعه إلى اليوم... وأهم ما ألفه جغرافيو مصر إلى اليوم كتاب: «نهر النيل» للأستاذ محمد عوض محمد.

196) «عجائب المخلوقات» للقزويني... ص : 291 – 1/292.

فيــاتيهم إذا احتــــاجــوا إليـــه،

ويــذهب حين يستغنـــون عنــه...!

* * *

وقد عدوا قصة جـريان النيل من كرامات سيدنا عمـر رضـي الله عنه... وفي الطبقات لابن السبكي بعد ذكر هذه القصــة ما نصه: «فانظر إلى عمر كيف يخاطب الماء ويكاتبه، ويكلم الأرض ويؤدبها... وإذا قال لك المغرور، أين أصل ذلك في السنة؟ قل: «أيهــا المتعثر في أذيال الجهــالات... أيطالب الفاروق بأصل، وأن شئت أصلا، فهاك أصــولا، لا أصلا واحدا... أليس قد حَنَّ الجِـدع إلى المصطفى عليه الســلام حتى ضَمّه إليــه؟ أليس شكا إليــه البعيـرُ ما بـه؟ أليس في قصة الظبيــة حجة؟ والأصــول في هذا النــوع لا تنحصـر...».

ويرحم الله الشيخ المختار الشنقيطي في قوله :

كـــرامــــة الـــولي حــق، وظهــر

منهـــا كثيـر، كـــرســـالــة عمـــر

لنيلِ مصـــرَ، وَسَمَـــاعُ سَـارِيَـــهْ

منــه الكـلام في البـــلاد النـائيــة

* * *

وإلى قصـــة حفلة زفاف النيـل، يشير أمير الشعــراء أحمد شــوقي إلى تفاصيلها بأسلوب رائع، وصياغة فنية بـديعة، وشاعرية أخاذة ولنقرأ هذه الصورة... ونـرى أي حد تعاون الحـدث الدرامي مع الموسيقى الصــوتية. والتشكيل البنائي في خلق مشهد مُفْعَم بالحياة يجسد المشاعر المتضاربة والأحاسيس العــارمة، وطبيعة الموقف الحــافل بالرهبة. والخطـر. والفرح. والتضحية. والقداسة. والصراع، اسمعه يقول:

وَنَجيبـةٍ بيـن الطفـولـــة والصبـا
عـذراءَ، تشـرَبُهـــا القلـوبُ وتعْلَق
كـان الـزفافُ إليـك غايـةَ حَظِّهـا،
والحظُّ إن بلغ النهـايـةَ مُـوبق...(197)
لا قيتَ أعـراسـا، ولا قت مأثمـاً !!
كـالشيخِ ينعمُ بـــالفتـاة، وتـزهقُ
في كـل عـــام درةٌ، تلقى، بـــلا
ثمنٍ إليـك، وحـــرة لا تُصْــــدق
حـولٌ، تُســـائل فيـه كـلُّ نجيبـةٍ
سبقت إليك، متى يحــول؟ فتلحق
والمجـد عنـــد الغـانيـــات رغيبـةٌ
يبغَى، كمـا يبغى الجمـال وَيُعشق
إن زوَّجــوك بهِنّ، فهـي عقيـــدةٌ،
ومن العقـائد مـا يَلُبُّ ويحمَقُ(198)
مـــا أجمل الإيمـــان، لـولا ضلـــةٌ
في كل ديـن، بـالهـــدايـــة تلصَقُ
زفّت إلـــى ملك الملـــوك، يَحُثُّهـــا
دِينٌ... ويـدفعهـــا هـوى وتشـوق
ولـــربمـا حَســـدتْ عليكَ مكـانَهـا
تِرْبٌ تَمَسَّـحُ بالعـروس وتُحذِق...
مجلوةً في الفلك(199) يحدو فُلكَها
بـالشـاطئين، مـــزغـردٌ، ومصفِّق

---

197) موبق : مهلك.

198) يلب : من لب إذا صار لبيبا.

199) يحدو : يغني.

في مهـرجـان هــزت الـدنيـا بـه

أعطافَهـا ! واختال فيـه المشرق...

فـــرعـونُ تحت لـــوائه، وبنـاتُــه

يجـري بهن على السَّفِينِ الـزَّوْرَقُ

حتى إذا بلغت مـــواكبُهـا المَــدَى

وجـرى لغـايتـــه القضــاءُ الأسبقُ

وكســا سمـاء المهرجـان جـلالـةً

سيفُ المنية، وهــو صَلت(200) يبرُق

وتلفتت فــي اليم كـلّ سفينـــــة

وانثال(201) بـالوادي الجمـوعُ، وحدّقـوا

ألقت إليـك بنفسهـــا ونفيسهـــا

وأتتك شَيِّقــةً، حـــواهـــا شيِّقُ...

خلعت عليك حيـاءَهـــا وحيـاتَهـا،

أَأَ عـز، من هـــذين شـيءٌ يُنفَق..؟!!

وإذا تناهـى الحــب، واتفق الفِدَى...

فـالـرُّوح في بـاب الضحيـةِ أليقُ

مـــا العــــالم السفليّ إلا طينـــة

أزلية،(202) فيــــه تضــيء، وتغسِق(203)

هي فيـه للخصــب العميم خميـرةٌ

ينــدى بما حملت إليـه، ويبثق(204)

---

200) الصلت : الصقيل الماضي.

201) انثال : انصب.

202) أزلية : قديمة.

203) تغسق : تُظلم.

204) يبثق : يحرق ويشق.

ما كان فيها للزيادة موضِع
وإلى حماها النقص لا يتطرق...

* * *

وهكذا كان الماء رمزاً شعريا إنسانيا وظفه الكثير من الشعراء في مختلف الآداب العالمية، قديما وحديثا، وما يزال يملك من الغنى والثراء الرمزي والأسطوري ما يجعله قابلا لتوظيفات إبداعية، لا نهائية... إنه عالم رمزي متعدد الأبعاد، وهو يُكوّن، كما قدمنا، إلى جانب النار والتراب والهواء أحد العناصر الأولى التي اعتبرها بعض الفلاسفة القدماء أصلَ كُلِّ الأشياء في العالم... وله حضور قوي ومتجدد في اللاشعور الفردي والجماعي للإنسان... ولذلك لا تخلو أية تجربة شعرية من رمزية الماء...

إلا أن نسبة حضور هذا الرمز تختلف باختلاف تجارب الشعراء، وظروفهم الخاصة وبيئاتهم واتجاهاتهم الفكرية والفنية.

* * *

نعم: لقد تحولت أشعار أحمد شوقي أمير الشعراء، وحافظ إبراهيم شاعر النيل إلى صور ولوحات تشكيلية، وقام الفنانون في مصر برسم هذه القصائد وتجسيمها في عدة أعمال ليتم التلاحم بين الفنون التشكيلية والتعبيرية...

ففي إطار الاحتفال بشاعري العربية الكبيرين : شوقي وحافظ، والذي بدأ بمهرجان كبير ضم المبدعين العرب، قامت وزارة الثقافة المصرية بإقامة مسابقة جعلت موضوعها استلهام أشعارهما في أعمال تشكيلية تضم النحت والتصوير والحفر، وشارك التشكيليون في هذه المسابقة، وتم عرض الأعمال الفائزة في قاعة اخناتون...

وقد فاز بالجائزة الأولى في النحت الفنان عبد المجيد الفقي من تمثال استوحاه من قصيدة حافظ: «مصر تتحدث عن نفسها»... وفاز في التصوير الفنان صبري منصور عن لوحته: «عَرُوس النيل».

أيها النيل :

يقول الدكتور صبري منصور عن لوحته الفائزة :

اللوحة الفائزة عبارة عن تصور زيتي على الخشب، وهي مقاس 125 × 140سم... وقد اخترت قصيدة أحمد شوقي التي كتبها عن النيل باسم: «أيها النيل»، وهي قصيدة مطولة اخترت من بين أجزائها الجزء الذي يصوّر فيه مهرجان «عروس النيل» التي كانت تقدم قربانا للنهر كل عام عند قدماء المصريين، محاولا ترجمة الإيقاع الشعري عند شوقي إلى إيقاع تشكيلي فيه التزام بتصوير روح النصر، دون التقيد بتفاصيله...

والأبيات المختارة هي :

ونجيبةٍ بين الطفولة والصبا
عذراءَ، تشرَبُها القلوب وتعلق
كان الزفافُ إليك غاية حَظها
والحظ إن بلغ النهاية مُوبِق
لاقيتَ أعراسا، ولاقت مأتما !!
كالشيخ ينعم بالفتاة، وتزهق !!
في كل عام «درة» تلقى بلا
ثمن إليك، وحرة لا تُصْدق(205)
حولٌ، تُسائل فيه كلُّ نجيبة
سيقت إليك متى يحول؟ فتلحق

205) تُصدق : من أصدق الرجل المرأة، أي سمى لها صداقاً.

والمجـد عنـــد الغـانيـــات رغيبـة
يبغى، كمــا يبغى الجمــال ويعشق

* * *

يصــور شــوقي في هــذه الأبيــات الفتــاة المقبلــة على الموت، وكــأنها تــزف إلى حبيبهــا، يحثهــا الشــوق والرغبــة... فهو مجـد بـالنسبة لهـا، تحسدهــا عليه قرينــاتها... والروح المقـدمة هنـا، هي أثمن ما تستطيع أن تقدم الضحيــة لحبيبها... ورغم أن شــوقي قد عبّر عن حـالة الـرضا التي تقدم بها الفتاة نفسها قرباناً إلى النيل، فإن جَوَّ الموت وهَوْله يخيمان على الأبيــات...

فهو يشير، مثلا، إلى المأتم الذي تلاقيه الضحية في مقابل البهجة التي يلاقيها النيل، وينكر القضاء المسبق وسيف المنية الذي يبرق...

وهكـذا التناقض بين الفـرح والموت، وبين العـرس والمأتم ومن حالـة الرضــا عند الفتاة التي تقدم نفسهــا قربانا، وبين الفجيعـة المسيطرة على المشــاهدين المحـدقين... هذا التنــاقض هو الـذي حاولتُ أن أصــوره في اللــوحة التــي بنيت بشكل هندسي متتــابع، كي تشيـر إلى هــذا الطقس... ووضعت الشـخصيـة الرئيسية: «الفتــاة» في منتصف الصـورة، وقـد غطت نفسها بطرحة الزفاف عاقدة يـديها على صدرها في حالة استسلام وتقبل ورضا بالمصيـر، وقد أحيطت بشكل الهلال الذي يظهر هنــا كانعكاس في المياه ليضفي علــى اللوحة حنــاناً ورقــة... فهو هنــا رمز للصبــا والبكارة والـرقة والحب، وفي شكلــه المقـوس، احتواء، كمــا أنــه يكمل الدائرة غيـر المتطورة مع السيدة في المنتصف السفلي من اللوحة...

أما الشخصيات الموضوعــة في صفين متماثلين تقريبا فقد روعي في إيماآت حركاتهم التعبير عن فجيعة الموت، والترحيب به في الوقت نفسه... واستعملت الظلال والأضواء بطريقة مبسطة...

ولـون اللوحـة العام يميل إلى الـرَّمـاديات التي تشيع جـوا مشحونا بـالتوتـر، فيمـا عدا المستطيل الأرجـواني الـذي يمثل النيل والذي يـوحي بالغموض...

* * *

يقول ابن عانم المقدسي، وقد كتب عند ورود البشائر بوفاء النيل بيتين وهما:

قَسَمـاً ليـس نَيلُ كفِّك كـالنـ
ـيل، إذا رايـةُ المكـارم تُنشَـر
أنت عنـد الـوفـاء طلق المحيـا
وأرى النيل في الـوفا يتكـدر(206)

* * *

واننا في الأخير، لنسترجع كلمات كتبهـا «نيكوس كازانتزكيس» الكاتب اليوناني الشهير صـاحب: «زوربا اليوناني» عندما عمـل في مصر مراسلا لإحدى الصحف اليونانية عام 1927...

«ومن الأنهار الثلاثة القديمـة الكبيرة، وهي النيل والفرات والكانغ، يبقى نهر النيل أكثرها عطاء، فـالنيل هو الذي نقل التربة، وأغنى الأرض، والنيل هو الذي غمـر الأرض في ما بعد بالمـاء، وجعلها مثقلة بالثمـار، هو الذي أنجب النباتـات والحيوانات والفلاحين، وهـو في النهاية الذي أجبـر الناس على العمل معا من أجل تنظيم واكتشاف العلوم الأولى».

كـان أجدادنـا أكثر إدراكـاً منـا لأهمية النيل، واستمـرار الحياة، ولهـذا السبب كان الكهان يثنون على النيل قائلين:

مرحبا أيها النيل المتجسد في الأرض...
القادم بسلام...

---

206) «خلاصة الأثر» للمحبي ج : 3/183.

كي يحي مصر...
إنك تخفي عبورك في ثوب الظلام...
وتمد أمواجك إلى الحدائق...
وتعطي الحياة لكل شيء ظامىء...
إذا توقفت أصابعك عن العمل
فإن آلاف المخلوقات سوف تهلك...!
وتصاب الجموع بالجنون...!
لكن حين تكشف لهم عن نفسك...
فإن الأرض تطلق صيحات البهجة
ويحسن كل بطن بالمتعة
وتدغدغ الضحكات كل نفس...
حيث تجد كل سن ما تلوكه وتمضغه...

* * *

وأخيرا، فإن كتاب الاستراتيجية في العالم، يؤكدون أن المياه سوف تكون مصدراً من أهم مصادر الصراع في المستقبل... فإننا نعود إلى النيل نؤدي واجب الوفاء والاحترام، وننذكر شعر أحمد شوقي عنه:

والماء تسكبه، فَيُسَبِكَ عَسْجَداً
والأرض تغرقها، فيحيا المُغْرَق

الباب السابع :

الناس شركاء في ثلاث

المياه الطبيعية تعد شرطا حيويا للحياة على الأرض، لذلك اعتبرها الإسلام من المشتركات العامة التي لا يجوز لفردٍ بعينه، أو فئة بعينها الاختصاص بها، إنما يسمحُ لأفراد المجتمع المسلم من الاستفادة بها، وعلى ذلك فكل ما يحوزه الفردُ منْها بجَهده وعمله يعتبر مِلْكاً خالصا له... أما أصل المصدر والرَّقَبَة، فتحتفظ بصفة الاشتراك والعموم، فهي من قبيل الملكية العامة.

وحول هذه الأفكار والمعاني يتمحور هذا الباب حول الفصول التالية:

الفصل الأول : ما الشيء الذي لا يجوز منعه ؟

الفصل الثاني : الوقف مرغُوبٌ فيه للحاجات الاجتماعية.

الفصل الثالث : الماء والكلأ ـ والنار ـ والملح.

الفصل الأول :

ما الشيء الذي لا يجوز منعه ؟

يقول زكـرياء بن محمـد القزويني في كتابـه : «عجائب المخلـوقات» : «ومن عجيب لطف الله تعالى أن كل مأكـول ومشروب يحتاج إلى تحصيل أو معالجة حتى يصلح للأكل، إلا الماء، فإن الله تعالى أكثر منه، ولا حاجة إلى معالجته لعموم الحاجة إليه، فإن الله تعالى، كفى الخلق معالجة إصلاح الماء بتأثيـر الشمس في مياه البحر، وارتفـاع البخار منها... ثم إن الـرياح تسوق ذلك البخار إلى الموضع التي شاء، وينزلها مطراً، ثم يخزن ذلك في الأوشال والكهوف في جـوف الجبال تحت الأرض، وتخرج منها شيئـاً بعد شيء، وتجـري الأنهار والأوديـة، وتظهر من القِني والآبـار بقدر مـا يكفي العباد لعامهم، فإذا جاء العام المقبل أتـاهم مطر، وهكذا مثل الدولاب يدور حتى يبلغ الكتاب أجله...[1]

اِسْقِ أخاك النَّمَرِي :

من أجل هذا قال عليه السلام : «أفضل الصدقة سقي الماء»...[2] وقصة كعب بن مامة الإيادي[3] التي آثر فيها رفيقه بالماء على نفسه فمات عطشاً، مما يـدور في كتبهم، ويضرب بهـا المثل عندهم، وإليهـا يشير حبيب في قوله:[4]

---

1) «عجائب المخلوقات» ص : 183 – 1/184 على هامش : «حياة الحيوان» للدميري.

2) رواه الإمام أحمد وأبو داود والنسائي، وغيرهم عن سعد بن عبادة، ورواه أبو يعلى عن ابن عباس [كشف الخفا، ص : 1/178].

3) «بلوغ الأرب، في معرفة أحوال العرب» ص : 1/81.

4) الديوان ص : 1/293.

يجـــود بــالنفس إذْ ضَــنَّ الجــواد بهـــا

والجــود بــالنفس أقصـى غــايـة الجــود

وإلى خَبَرِ كعب بنِ مَامَة هذا، أشار أبو تمام في قوله :

كعب، وحـــاتم، اللـــذان تقـــاسمـــا

خِطَطَ العـــلا مــن طـــارف وتليـــد،

هــذا الــذي خَلَف السحـــابَ، ومــات ذا

في الجـــود مِيتَــةَ خضـــرم(5) صِنْديـد

أن لا يكن فيهـــا الشهيـــد، فقـــومُـــه

لا يسمحـــــون بـــه بــألف شهيـــــد

وقصة كعب بن مَامَــةَ هي التي أيضا، أشار إليها حــازم في مقصورته، فقال:

فَقَـــدْ تصَـــدَّى لِلـــرَّدَى بجُـــودِهِ

كَعْبٌ، إلى أن مَــات، مِن فَــرْطِ الصَّـــدَا

وَلَمْ يُغِـثْ مُهجتَـــه بـــالـــرَّيِّ، بَلْ

أرَوَى أخَـــــاهُ النَّمَــــرِيَّ، وَسَقَى...

وكعب هذا أيضا، هو الذي عناه جريرُ بقوله :

فمـــا كعبُ بنُ مــامـــةَ، وابنُ سُعْــدَى

بأجـــودَ منك، يـــا عمـــرُ الجـــوادا

وقد وصف النجـاشي أنه اصطحب ذئبـاً في فلاة مُضِلة، لا مـاء فيها، وزعم أن الذئب ردّ عليه، فقال: لست بآت، مادعوتني إليه من الصحبة، ولا أستطيعه، لأنني وحشي، وأنت إنسي، ولكن اسقني، إن كان مـاؤك فاضلا عن رَيّك... يقول النجاشي:

---

5) الخضرم : الكثير من كل شيء والواسع والجواد المعطاء، والسيد الحمول.

فلست بـــــآتيـــــه، ولا أستطيعــــــه
وَلاَكِ، اِسقني، إن كان مــاؤك ذا فضل(6)

وكما يقول حاتم :

إِنَّ الجوادَ يَرَى في مالِه سُبُلاَ...

* * *

ما الشـيء الذي لا يحل منعُه ؟ :

ذكر أئمة التصــوف في أصول مذهبهم السديـد أن أول الأصول لديهم اكتساب الحــلال واستعمالــه، وقالــوا: أصل الحــلال، ماء الغـدران، ونبات الأرض، والفيء إذا قسم بعدل، والصيد في البـر والبحر، ونحو ذلك مما لم يجر عليه ملك لاحد.(7)

وقد استـأذن عُمَيـر الفزاري النبي عليه الســلام، كما روته ابنتُـه بهية، فـدخل بينه وبين قميصـــه، فجعل يقبل ويلتــزم، ثم قال: «يــارسول اللــه: حدثني: ما الشـيء الـذي لا يحل منعه؟ قال: الماء، قــال: ما الشـيء الذي لا يحل منعه؟ قــال: الملح... قال: ثم مــاذا؟ قال: النار... قــال: يانبي اللــه: ما الشـيء الذي لا يحل منعه؟ قال: أن تفعل الخير خير لك».(8)

وهذه نــاحية رائعة من نواحي العــلاقة الإنسانيـة التي تجلت في حياة وسلوك رسول الله عليـه السلام، وهي تبين مدى المحبة التي انطبعت في قلوب أصحــابه رضــوان الله عليهم... فعُمَيـر الفزاري يجيء إلى الـرسول ليستفيد منه علماً، ولكنه مع هذه النية البريئة يريد أن يتلمس جسم رسول الله قصد إشباع عاطفته الروحية الدافقة لرسول الله...

---

6) عن شرح الشــواهد للشنتمري، «الجامع لأحكــام القرآن» ص : 265/3. – وفيه أنه يجـوز حذف النون من: «لكن» في غير القرآن.

7) «الفريد، في تقييد الشريد» ص : 55، للفجيجي بن عبد الجبار، تقديم ع: التازي.

8) رواه أبو داود.

إنه أعرابي على سلامة الفطرة، وسَجَاحَةِ الطبع، وصدق العاطفة ورهافة الحس التي تجعله يشعر بالبركة والري العاطفي في لمسه جسد رسول الله، فيستأذنه أن يدخل يده بين قميصه وجسده، أو أن يدخل هو فيما بينها، ويقينا أن عورة رسول الله كانت مستورة، وان سلامة فطرة الرجل الأعرابي تجعله ينفر من الاقتراب منها، ولكنه يتلمس جسد رسول الله ويبحث عن موضع خاتم النبوة ليقع عليه تقبيلا واحتضاناً للرسول... إنها صلة قامت بين رسول الله وأصحابه... صلة المودة والمحبة والاعزاز والتكريم، إنها نعمة الله وفضله وبركته على رسوله والمومنين من حوله...

بعد هذا يستفيد عُمَير من فقه رسول الله وتوجيهه، فيسأل عن الشيء الذي لا يصح له أن يمنعه عن الناس، فبين رسول الله عليه السلام شيئاً، ثم استزاد فزاده شيئا آخر، ثم استزاد فزاده ثالثاً، وأخيرا عمم له فعل الخير، وأن فعل الخير كفيل بأن يعود عليه بالخير في الدنيا والآخرة...

والأمور الثلاثة المذكورة في الحديث جاءت زيادة عليها في روايات أخرى هي الكلأ، مجموعها أربعة: الماء – والكلأ، والنار، والملح، وهي أمور ضرورية يحتاج إليها الناس كلهم.

وفي معنى قوله تعالى : ﴿**ويمنعون الماعون**﴾، أنه الماء والكلأ؛ أو الماء وحده، وقد قال الشعراء : سمعت بعض العرب يقول: الماعون: الماء، وأنشدني فيه: يَمُجُّ صَبِيرُه المَاعونَ صَبّا.

الصبير : السحاب...

* * *

إذا كنت على الماء، فلا تبخل بالماء :

وقد رووا أثرا عن النبي عليه السلام يقول: «إذا كنت على الماء، فلا تبخل بالماء» قال في التمييز، قال شيخنا: لم أقف عليه، لكن ما في صحيح

البخاري من حديث: «ورجل كان على فضل ماء فمنعه، فيقول الله: اليوم امنعك فضلي، كما منعت فضل ما لم تعمل يداك، يشهَد له...

لكن في المعجم الأوسط للطبراني عن عائشة مرفوعا: «من سقى مسلماً شربة من ماء حيث يوجد الماء، فكأنما أعتق رقبة، أو في موضع لا يوجد فيه الماء، فكأنما أحياه...».

ونحوه للدارقطني في الافراد عن أنس مرفوعاً بلفظ: «مَن سقى الماء من موضع لا يُقْدَر فيه على الماء، فكأنما أعتق رقبة».

وأخرجه الخطيب عن أنس بلفظ : «إذا كثرت ذنُوبك، فاسق الماء على الماء تتناثر ذنوبك، كما يتناثر الورق من الشجر في الريح العاصف...(9)

* * *

من أجل ذلك حرص الإسلام على أن يكون كل ما هو ضروري لحياة الناس ملكية عامة، فقال رسول الله ﷺ:

«المسلمون شركاء في ثلاث : الماء، والكلأ، والنار...

ولاشك أن هذا النص لم يكن للحصر، بل قاعدة شرعية تقضي بأن كل ما كان مثل هذه المواد ضروريا للمجتمع لا يصح أن يترك لفرد أو أفراد تملكه، لا سيما إذا نشأ عن احتكارهم استغلال لحاجة الجمهور... وهذا ما فهمه الصحابة والتابعون وأئمة المسلمين، فقد ورد بكتاب الخراج لأبي يوسف: أن غُلاَماً لعبد الله بن عمر كتب إليه: «أما بعد، فقد أعطيت بفضل مائي ثلاثين ألفاً درهماً» بعدما أرويت زرعي ونخلي وأرضي، فإن رأيت أن أبيعه، وأشتري به رقيقاً استعين بهم في عملك، فعلت... فكتب إليه عبد الله بن عمر: «جاءني كتابك، وفهمت ما كتب به إليّ، وإني سمعت رسول

9) «كشف الخفا» ص : 104/1.

الله عليه السلام يقول: «ومن منع فضل ماء ليمنع به، منعه الله فضله يوم القيامة، فإذا جاءك كتابي هذا، فاسق نخلك وزرعك وأرضك، وما فَضَل، فاسق جيرانك الأقرب فالأقرب، والسلام...

كما ذكر أبو يوسف عن جرير بن عثمان الحمصي عن زيد بن حبان الشرعي قال: كان منا رجل بأرض الروم نازلاً، وكان قوم يزرعون حول خبائه، فطردهم، فنهاهم رجل من المهاجرين عن ذلك، وزجره فامتنع، فقال الرجل: «لقد غزوت مع رسول الله ﷺ ثلاث غزوات، اسمعه فيها يقول: «المسلمون شركاء في ثلاث: الماء، والكلأ، والنار... فلما سمع الرجل ذكر النبي عليه السلام رق، فأتى الرجل، فاعتقه واعتذر إليه...(10)

ومن رائع الإيجاز قوله تعالى في صفة الأرض : «أخرج منها ماءها، ومرعاها»(11) فقد أغنت لفظتا، الماء والمرعى عن أشياء كثيرة في الطبيعة...

قال السيوطي : «دل بهاتين الكلمتين على جميع ما أخرجه من الأرض قوتاً ومتاعاً للانام من العشب والشجر والحب والعصف والحطب، والنار، والملح، لأن النار من العيدان، والملح من الماء...(12)

* * *

وقد أخرج الإسلام في نطاق الملكية الفردية الأشياء التي لا يتوقف وجودها، ولا الانتفاع بها على مجهود خاص، وتكون ضرورية لجميع الناس، فأوجب أن تكون ملكيتها ملكية جماعية، حتى لا يستبد بها فرد، أو أفراد، أو هيئة، أو جماعة، فيضار المجتمع من جراء ذلك.

---

10) «كتاب الخراج» ص : 144 – 115.

11) سورة «النازعات» آية : 31. انظر «الأحكام السلطانية» لأبي يعلى محمد بن الحسين الفراء الحنبلي (ت458هـ) ص: 219 – 221 – وانظر: أيضا، الأحكام السلطانية، والولايات الدينية للماوردي (ت450هـ) ص 184.

12) «الاتقان في علوم القرآن» للسيوطي ص : 55/2.

فـالميـاه الطبيعيـة، سـواء كانت ميـاه الأنهـار أو الآبـار أو البحـار أو البحيرات تعد شرطا حيويا للحياة على الأرض، ولذلك اعتبرها الإسلام من المشتركات العامة التي لا يجوز لفرد بعينه، أو فئة بعينها الاختصاص بها، إنمـا يسمح لأفراد المجتمع المسلم من الاستفـادة بها، وعلى ذلك فكل مـا يحوزه الفرد منها بجهده وعمله يعتبر ملكـا خالصا له... أما أصل المصدر والرقبة فتحتفظ بصفة الاشتراك والعموم، فهي من قبيل الملكية العامة...

فقول الرســول عليه السلام : «الناس شركاء في ثـلاث : الماء، والكلأ، والنار» يفيد أن كل إنسان له حق الاستفادة من هذه المواد الطبيعية لحاجة الناس جميعـا إليها، وقد قـرر الفقهاء أنـه لا يجوز أن يستأثر بهـا إنسان دون بقية الناس، إلا بعد إحرازهـا في الآنية، وما أشبهها، فإذا أدت الملكية الشخصيـة لهذه الأشيـاء إلى أن تحبس عن النـاس، أو يتحكم مالكهـا في ثمنها أو تـوزيعها بحيث يتضـررون من ذلك، وهم في حـاجة إليهـا، كان للدولـة أن تحول دون هذا الاحتكـار، وجاز لهـا أن تتخذ الوسـائل الكفيلة لاشتراك النـاس جميعا في الاستفادة منهـا تحقيقا لمعنى الشركـة الواردة في الحديث، وذلك يعني التأميم، أو تـدخل الدولة في تحديـد الأسعار، ولا شك في أن النص على تلك المواد الثلاث ليس للحصر، بل يلحق بها كل ما كان مثلهـا في حاجة النـاس جميعا إليها... بـدليل إضافـة الملح إليها في بعض الروايـات، وهذا يعني أن كل مـا كان ضـروريا للنـاس من طعام أو غيره يأخذ ذلك الحكم، وهو جواز التاميم من الناحية التشريعية.

الفصل الثاني :

الوقف مرغوبٌ فيه للحاجات الاجتماعية

من المعلوم أن الوقف جائز في الإسلام، بل هو مرغوب فيه للحاجات الاجتماعية في قوانين التكافل الاجتماعي، والوقف كما عرفه الفقهاء هو «إخراج العين الموقوفة من ملك صاحبها إلى ملك الله أي أن تكون غير مملوكة لأحد، بل تكون منفعتها مخصصة للموقوف عليهم...» وهذا هو التاميم...(13)

ويعلق الشوكاني(14) على حديث : «المسلمون شركاء في ثلاثة: الماء، والكلأ، والنار...

الماء : فيه دليل على أن الناس شركة في جميع أنواع الماء من غير فرق بين المحرز وغيره...

ومعلوم أن الماء في الجرار ونحوها ملك إجماعاً، ومن لازم الملك الاختصاص، وعدم الاشتراك بين غير محصورين، كما يقضي به الحديث، فإن صح هذا الإجماع كان مخصصا لأحاديث الباب...

والنار : قيل المراد بها الشجر الذي يحطبه الناس، وقيل المراد منها الاستصباح منها، والاستضاءة بضوئها، وقيل المراد بها الحجارة التي توري النار، إذا كانت في موات الأرض، وإذا كان مراد بها الضوء، فلا خلاف أنه لا يختص به صاحبه، وكذلك إذا كان المراد بها الحجارة المذكورة، وإذا كان المراد بها الشجر، فالخلاف فيه كالخلاف في الحطب... وسيأتي...

---

13) «اشتراكية الإسلام» مصطفى السباعي ص : 99.

14) «نيل الأوطار» ص : 258 وما بعدها ج : 5.

الكـلأ : هــو أعم من الحشيش لأنـه مختـص بـالـرَطْبِ مـن اليـابس، والحشيش مختص باليابس، والكلأ يعمها... قيل المـراد بالكلأ هنا هو الذي يكون في المواضـع المبـاحة كالأودية والجبـال والأراضـي التي لا مالك لها، وأما ما كان قـد أحرز بعد قطعه، فلا شركة فيه بـالإجماع كما قيل... وأما النابـت في الأرض المملوكـة والمتحجرة، ففيـه خلاف، وقيل مبـاح مطلقا، وإليه ذهبت الهـادوية، وقيـل تابـع للأرض فيكـون حكـمه حكمها، وإلـيه ذهـب المؤيـد بالله...».

قال القـاضي أبو يـوسف يعقوب بن إبـراهيم الأنصاري صـاحب أبي حنيفة في تأليفه القيم الذي يبحث في النظم المالية للدولة الإسلامية:

«كل من كانت لـه عين، أو بئر، أو قنـاة، فليس له أن يمنع ابن السبيل من أن يشرب منهـا، ويسقي دابته وبعيره وغنمه منهـا، وليس له أن يبيع من ذلك شيئـا للشفـة، والشفـة عندنـا الشـرب لبني آدم والبهـائم والنعم والدواب، وله أن يمنع السقي للأرض والزرع والنخل والشجر، وليس لأحد أن يسقي شيئا من ذلك إلا بإذنه، فإن أَذِنَ له فلا بأس بذلك، وان باعه ذلك لم يجـز البيع، ولم يحل للبائع والمشتـري، لأنه مجهـول، غرر لا يعـرف. وكذلك لو كان في مصنعة يجتمع فيها الماء من السيول، فلا خير في بيعه أيضـا. ولو سمـى له كيلا معلوما أو عـدد أيام معلومة لم يجـز ذلك أيضـا، للحديث الذي جاء في ذلك والسنة.

قال : ولا بأس ببيع المـاء إذا كان في الأوعيـة، لأن هذا ماء قـد أحرز، فإذا أحرزه في وعـائه فلا بأس ببيعـه، وأن هيأ له مصنعة فـاستقى فيها بأوعيتـه حتى جمع فيها مـاء كثيرا ثـم باع من ذلك فـلا بأس إذا وقع في الأوعية، فقد أحـرزه وقد طاب بيعه. فإذا كان إنمـا يجتمع من السيول فلا خير في بيعه، وإن كان في بئر أو عين، يزداد ويكثر أو لا يزداد ولا يكثر، فلا خير في بيعـه، ولو باعه لم يجز البيع، ومن استقى منه شيئـا فهو له

ولو كان يجوز بيعه ما طاب للذي يستقيه حتى يستطيب نفس صاحبه. إلا ترى أنــه لا يطيب لرجل أن يأخــذ ماء من سقــاء صاحبه إلا بــإذنه وطيب نفسه؟! إلا أن يكون حال ضرورة يخاف فيها على نفسه.

قال : وليس لصــاحب العين والقناة والبئـر والنهر أن يمنع ابن السبيل، لمــا جاء فــي ذلك من الحديــث والآثار. ولــه أن يمنع سقي الــزرع والنخل والشجر والكرم، من قبل أن هذا لم يجيء فيه حــديث، وهو يضر بصاحبه، فأما الحيوان والمواشـي والإبل والــدواب فليس له أن يمنع من ذلك. ألا ترى لو أن رجــلا صرف نهر رجل إلى أرضــه فاختصما لقضت به لــرب النهر ومنعت الذي قهره من صرف مائه إلى أرضه، من نهر كان أو قناة أو عين أو بئر أو مصنعــة؟ إلا ترى أن هــذا يهلك حرث صــاحب الماء، وليــس ما ذكرنا من سقــي الحيوان يجحف بصاحب الماء؟ ألا تــرى أن صرف الماء في نهر الغاصب يقطعه عن حرث أرضه، وعن سقي زرعه ونخله وشجره، وأن شرب الشفة لا يقطع عن ذلك ولا يضر وفصل ما بين هذين، الأحاديث التي جاءت في ذلك والسنة».

* * *

يخلص ممــا سبق أن «التــاميم» وقع في الإســلام «تشريعــا» كمــا في الوقف، ووقع في تاريخ الإسلام «عملا» كما في «الحِمى» وأن نزع الملكية رغمــا عن صاحبهــا، وقع من الرســول «قضاء» كمــا في قصة سمــرة بن جندب،(15) فإذا كــانت المصلحــة العــامــة تحتم التــاميم، وفيــه دفع الظلم والضــرر عن الناس، أو عن فئــة كبيــرة منهم، كان التــاميم واجبــا في تلك الحالات...

* * *

15) كان لسمــرة بن جندب نخل في حائط رجلٍ من الأنصــار، فكان يدخل عليــه هو وأهله فيــؤذيه، فشكا ذلك الأنصاري إلى رســول اللهﷺ ما يلقاه من سمرة، فقال الرســول لسمرة: بِعه، فأبى، قال: فاقلعْــهُ، فأبى، قال: هبْه، ولك مثلها في الجنــة، فابَى وكان يظن أن الرســول يقول له ذلك على سبيل النصح لا على سبيل القضــاء والالــزام، فقــال لــه رسول اللــه: أنت مضــار، وقــال للأنصاري: «اذهب فاقلع نخله».

لقد كانت جزيرة العرب تعد بقاعها من الأرضين الجافة، فالأمطار قليلة شحيحة بصورة عامة، ولا سيما أقسامها البعيدة عن البحر، والأنهار الكبيرة معدومة فيها، والعيون قليلة أيضا، ولم تعتمد الزراعة فيها على الأمطار، كما تعتمد البلاد الأروبية، وإنما تعتمد على النُّهيرات والآبار والعيون، وهذه الأحوال أثرت أثرا كبيرا في حياة أهلها الاجتماعية، فحول قسما منهم إلى بدو رُحَّل، يتنقلون من مكان إلى مكان طلبا للماء، وانتجاعا للكلأ والمرعى... هدفهم في هذه الحياة الحصول على الماء والكلأ والمرعى والحطب والنَّار.

فالماء والكلأ هما العِزُّ والجاه والثراء، وأغلى شيء في هذه الدنيا، فقاتل بعضهم بعضاً من أجل الحصول عليها، وقطعوا مسافات شاسعة بحثا عنهما، ولم يتمكن الروم والرومان من منعهما من دخول بلاد الشام بحثا عن الكلأ والماء والحطب، ولم يتمكن الساسانيون من منعهم من الوصول إلى هذه الثروة العظيمة... كذلك هذه الثروة التي سبّبت اقتتال القبائل فيما بينها من أجل الحصول عليها...

لذلك كان الماء يُعَدّ أعظم ثروة ينالها الإنسان... ثم على الدنيا العَفَاء... ففي الدوحة... أنه لما امتحن السلطان أبو عبد الله الشيخ زوايا المغرب، قيل لأبي علي الحسن بن عيسى المصباحي دفين الدعادع التي على وادي مضى، من عمل القصر: «ألا تخشى من هذا السلطان؟» فقال: «إنما الخشية من الله، ومع هذا، فالماء والقبلة لا يقدر أحد على نزعهما، والباقي متروك لمن طلبه...»(16) ومعنى هذا أن الماء لا يمتلك إذا كان عاما، مثل منابع الماء التي لا يحوزها مالك، بل هي تكون مشاعة لكل وارد، وبين الجميع، لا يملكها أحد من أهل القرية أو الحي، وليس لرقبتها مالك... فماؤها للجميع، وقد ورد، كما قدمنا، أن الناس شركاء في الماء، ماء

16) الاستقصا : ص : 26/5.

الأرض، وماء السماء، إذا كانا في أرض عامة، أي مشاعة ينتفع منها كل إنسان...(17)

ولما لجج السلطان أبو الحسن المريني وجيشه الراكب البحر معه، احتاجوا إلى الماء، فدخلوا مرسى بجاية لخمس ليال من إقلاعهم عن تونس، فمنعهم صاحب بجاية الحفصي من الورود، وأوعز إلى سائر سواحله بمنعهم، فزحفوا إلى الساحل، وقاتلوا من صدهم عن الماء إلى أن غلبوهم، واستقوا، وأقلعُوا...(18)

وفي عام 1060هـ قطع القائد أبو بكر التاملي من فاس الجديد المرينية الماء عن فاس الإدريسية...(19)

وفي عام 1061 هـ من الثالث والعشرين من صفر قطع أهل فاس الجديد الماء، ووقع قتال عظيم مات فيه عبد الكريم الليريني الأندلسي.(20)

كما رفع أبو الحسن المريني عن تلمسان من المغارم ما كان شائعاً خسيساً ويجتمع فيه أموال كالمغرم على الحطب... وسائر المرافق التي يفتقر إليها القوي والضعيف، واجحاف الضعيف بها أشد، وغير ذلك من المغارم، ومما رفع أبو الحسن المريني رضي الله عنه، وظيفة مغرم الماء، وكان سقى الجنات يضطر فيه إلى مغرم للبرادة، ولصاحب الحوز والحراس، ويجري فيه من المصائب والخسارات والغبن ما لا يدخل تحت حصر...(21)

* * *

---

17) تاج العروس ص : 99/10 مادة حمى.

18) الاستقصاء ص : 171/3.

19) نشر المثاني ص : 51/2.

20) النشر : ص : 53/2.

21) المسند الصحيح، لابن مرزوق، ص : 285.

الفقهاء أدخلوا جميع المرافق العامة :

لقد خصت الأحاديث الماء، والكلاء، والنار، والحطب والملح، بالتحديد والتعيين، لأنها كانت من ضروريات الحياة الاجتماعية في البيئة العربية... والضرورات في حياة الجماعة تختلف باختلاف البيئات والعصور، والقياس، وهو أحد أصول التشريع الإسلامي ينفسح لسواها عند التطبيق مما تتوافر فيه صفاتها...(22)

ولذلك ادخل الفقهاء في هذا الباب جميع المرافق العامة كالطرق والجسور والخزانات والآثار القديمة... وما إلى ذلك...

وهكذا يمكن استخدام القوى الطبيعية كالرياح والشلالات في توليد الطاقة، وهذه أيضا يعتبر من المباحات العامة التي لا يجوز استحواذ عليها من قبل فرد، أو فئة، بل هي ملك عام لجماعة المسلمين، ويعود للدولة أمر تنظيم استغلالها والإفادة منها...

فالمصادر الطبيعية للطاقة تعتبر أساسا لكل انطلاق اقتصادي ومن شأن الاختصاص بها والسماح بتملكها ملكية خاصة تعزيز للمركز الاقتصادي والاجتماعي للفئات التي تستأثر بها، ودعم لسيطرتها الاقتصادية مما يؤدي في النهاية إلى الاخلال بتوزيع الثروة... وبالتالي الأضرار بمصالح المجتمع...

لقد أخرج الإسلام في نطاق الملكية الفردية الأشياء التي لا يتوقف وجودها ولا الانتفاع بها على مجهود خاص، وتكون ضرورية لجميع الناس، فأوجب أن تكون ملكيتها ملكية جماعية، حتى لا يستبد بها فرد أو أفراد، فيضار المجتمع من جراء ذلك...

---

22) «المساواة في الإسلام». د. علي عبد الواحد وافي من ص : 80 – 82.

الفصل الثالث :

الماء - الكلأ - النار - الملح

يمكن أن نتحدث، بعد هذه المقدمة عن أهم هذه العناصر التي تعد من المباحات، والمعادن وموارد ما تحت التربة... في الفصل الآتي:

الماء :

الماء خلقه الله في الأصل مشتركا بين العباد والبهائم، وجعله سقيا لهم، فلا يكون أحد أخص به من أحد، ولو أقام عليه، وبنى عليه، قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «ابن السبيل أحق بالماء من الباني عليه». ذكره أبو عبيد عنه، وقال أبو هريرة: «ابن السبيل أول شارب».

وقد ورد المنع من بيع الماء الذي يشترك فيه الناس، فقد ثبت في صحيح مسلم من حديث جابر رضي الله عنه قال: «نهى رسول الله ﷺ عن بيع فضل الماء» كما نَهَى سيدنا محمد عليه السلام عن بيع ضراب الفحل، وعن بيع الماء والأرض لتحرث...

وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا يمنع فضل الماء، لتمنعوا به الكلأ» وعن النبي عليه السلام قال: «من منع من فضل مَائِهِ أو فضل كَلإِهِ منعه الله فضله يوم القيامة» وفي صحيح البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة لا ينظر الله عز وجل إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم، ولهم عذاب أَلِيم»: **رجل كان له فضل ماء بالطريق، فمنعه ابن السبيل،** ورجل بايع إمامه لا يبايعه إلا للدنيا، فإن أعطاه منها رضي، وإن لم يعطه منها سخط، ورجل أقام سلعة بعد العصر، فقال: والذي لا إلاه غيره، لقد أعطيت

بها كذا وكذا، فصدقه رجل، ثم قرأ هذه الآية: **﴿إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنا قليلا أولئك لا خَلاَقَ لهم في الآخرة ولا يكلمهم الله، ولا ينظر إليهم يوم القيامة، ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم﴾.**

وخرج الخطيب أبو بكر في ترجمة القاضي صالح بن بيان أحد أصحاب سفيان الثوري قال: «حدثنا سفيان عن علي بن أبي عبيد عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: من سقى الناس في موضع لا يقدر على الماء فيه، فله بكل شربة يشربها البر والفاجر عشر حسنات، تكتب له، وعشر درجات ترفع له، وعشر سيئات تحط عنه... ومن سقى الماء في موضع لا يقدر على الماء فيه، فكأنما أحيا الناس جميعا، فقال: إذا أحييت نفسك، فثوابك الجنة، وكذا من أحيا الناس جميعا. فثوابه الجنة...

وعن سعد بن عبادة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : «أفضل الصدقة سقي الماء».

ومن حديث لأبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ: ليس من صدقة أعظمُ أجراً من ماء...

وقديما عير العرب من كان يمنع فضلة ماء على العطشى والمحتاجين إليه، بل شددوا النكير على من كان يبيعه للناس، ويتاجر فيه، فقد وَفَدَ عُلَيْمُ بن خالد الهُجَيْمي على هشام، وعنده الأبرش الكلبي، فقال له الأبرش الكلبي: يا أخا بَنِي الهُجَيم، من القائل...

لو يسمعون بأكلة أو شربة
بِعُمَان، أصبح جمعُهم بِعُمَان

ألكم يقوله ؟ قال : نعم لنا يقوله، ولكنكم يا معشر كلب تُعِيرُونَ النساء، وتجزون الشاء، وتكدرون العَطاء، وتؤخرون العَشاء، وتبيعون الماء...(24)

24) «الإمتاع والمؤانسة» لأبي حيان التوحيدي ص : 173/3.

وذكـر أبو عبيـدة معمر بن المثنى : أن صــاحب عين ماء أتى عمـر بن الخطاب، وعنده كعب بن سور بن بكر الأزدي، فقال: «يا أمير المومنين: إن لي عينا، فاجعل لي خراج ما تسقى..! فقال: «ولم؟ قال: لأنه لا يفيض ماؤه عن أرضــه فيسقي الناس، ولـو حبس مــاءه في أرضه لغـرقت، فلم ينتفع بمائه، ولا بأرضه، فَمُرْه، فليحبِس ماءه عن أرض الناس إن كان صادقاً.

فقال له عمر : أتستطيع أن تحبس مــاءك؟ قال: لا، قال عمر: هذه لكعب مع الأولى...

وذلك لأن مـوقف كعب تطبيق لقـاعـدة إســلامية مكيـة هي: «الخـراج بـالضمان»، ومعنى الخـراج ما يخـرج من القلـة والنتاج والمنفعـة، ومعنى الضمان: ما يصرف من النفقات أو يتحمل من الأضرار...

* * *

إن أحــاديث اشتراك النــاس في الماء دليل ظـاهر على المنع من بيعــه، وهذه المسألة التي سئل عنها أحمد رحمــه الله، وهي التي ابتلى الناس بها في أرض الشام وبساتينه وغيرها، فإن الأرض والبستان يكون له حق من الشرب من نهـر فيفضُل عنه أو يبنيه دورا أو حـوانيت، ويُوجر مــاءه، فقد توقف أحمد، ثم أجاب بأن النبي ﷺ نهى عن بيع الماء... فلما قيل له: «إن هذه إجارة» قــال: «هذه التسمية حيلة، وهي تحسين اللفـظ، وحقيقة العقد البيع، وقواعـد الشريعة تقتضي المنع من بيع هذا المــاء فإنه إنما كــان له حق التقديم في سقي أرضــه من هذا الماء المشترك بينـه وبين غيره، فإذا استغنى عنه لم يجـز له المعاوضة عنــه وكان المحتاج إليه أولى بـه بعده، وهذا كمن أقام على معـدن فأخذ منه حاجته لم يجز لـه أن يبيع باقيه بعد نَزْعِـهِ عنه، وكذلك من سبق إلى الجلـوس في رحبة أو طريق واسعـة فهو أحق بها مــادام جالســا، فإذا استغنى عنها، وأجّـر مقعده لم يجـز، وكذلك الأرض المباحــة إذا كان فيها كـلأ أو عشب، فسبق بدوابه إليــه، فهو أحق

برعيه مادامت دوابه فيه، فإذا طلب الخروج منها وبيع ما فضل عنه لم يكن له ذلك، وهكذا هذا الماء سواء، فإنه إذا فارق أرضه لم يبق له فيه حق، وصار بمنزلة الكلأ الذي لا اختصاص له به ولا هو في أرضه...

قال ابن تيمية:(25) ما نصه : «وأما قوله: الناس شركاء في ثلاث: الماء والكلأ، والنار، فهو حديث معروف، رواه أهل السنن، وقد اتفق المسلمون، على أن الكلأ النابت في الأرض المباحة مشترك بين الناس، فمن سبق إليه، فهو أحق به...

وأما النابت في الأرض المملوكة، فإنه إن كان صاحب الأرض محتاجا فهو أحق به، وإن كان مستغنيا عنه ففيه قولان مشهوران لأهل العلم، وأكثرهم يجوزون أخذه بغير عوض، لهذا الحديث، ويجوزون رعيه بغير عوض...

وكذلك الماء، إن كان نابعا في أرض مباحة، فهو مشترك بين الناس، وإن كان نابعا في ملك رجل، فعليه بذل فضله لمن يحتاج إليه، للشرب للآدميين والدواب بلا عوض، لهذا الحديث، ولقوله عليه السلام في الحديث الصحيح، ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم... رجل على فضل ماء يمنعه ابن السبيل، يقول له: اليوم أمنعك فضلي كما منعت فضل ما لم تعمل يداك، ورجل بايع إماما لا يبايعه إلا للدنيا، فإن أعطاه منها رضي، وإن منعه سخط، ورجل أقام سلعته بعد العصر، فقال والله الذي لا إلاه إلا هو لقد أعطيت بها كذا وكذا... كما تقدم...

* * *

كَرِهَ الإسلام أن يكون المال دُولَةً بين الأغنياء :

إن الإسلام لا يكلف الناس فوق طاقتهم، ولا يحملهم مالا يطيقون مهما تسامى بهم عن الضرورات الأرضية، فهو يشيد بالقيم المعنوية، ولا يغفل

25) «الفتاوي» ص : 219 – 220/29.

أثر القيم الاقتصادية، لذلك كره أن يكون المال دُولَةً بين الأغنياء فحسب، وجعل هذا أصلا من أصول نظريته في سياسة المال، وأوجب رد بعض هذا المال للفقراء ليكون مورد رزق مملوك لهم، يضمن لهم الكرامة والذاتية، ويجعلهم قادرين على القيام بأمانة هذا الدين في التغيير عن المنكر من الحكام والمحكومين على السواء... لذلك كان هناك نوع من الأموال التي لا يجوز احتجازها للأفراد عدّد الرسول منها ثلاثة، وفي رواية أربعة بوصفها موردا من موارد الرزق، ومرفقاً عاماً ضروريا لحياة الجماعة في البيئة الإسلامية... فالانتفاع بها للجماعة كلها على وجه الشيوع، والمشاركة العامة... والضروريات لحياة الجماعة تختلف من بيئة إلى بيئة، وفي عصر عن عصر... والقياس، وهو أحد الأصول الأولى في التشريع الإسلامي، ينفسح لسواها عند التطبيق مما هو في حكمها، على أن لا يؤثر ذلك في القواعد الإسلامية للنظام الإسلامي...

الكلأ :

إذا أمطرت السماء مطرا كافيا، كان ذلك خيراً للقبيلة، وفرحة عظيمة، إذ تغيث الأرض، وتكسوها حلة سندسية جميلة، وتزول الغبرة من وجهها، وتظهر الأرض فرِحة مستبشرة بعد كآبة وعبوس، وإحباط ويأس، فتهيج الأرض، ويخضر نبتها، ويقال للخضرة التي تكسو وجه الأرض: «الكلأ» وهو العشب رطبه ويابسه، وأرض كليئة ومكلأة، كثيرة الكلأ.(26)

فالمراد «بالكلأ» ما يظهر وحده في أرض غير مملوكة لأحد، والمباح الذي لا يخص به إنسان، وهو العشب وما تنبته الأرض مما تأكله المواشي من غير أن يزرع في الأرض، فإن كان في الصحاري والفيافي التي لا ملك لأحدٍ عليها، فالناس فيه سواء لا يمنع أحدٌ منهم الآخر منه،

---

26) تاج العروس، مادة : كلأ : ص : 111/1.

وإن كان بأرض مملوكة لمعين، فإنما لمالكها أن ينتفع به ويحميه لرعيه خاصة...

فالمراعي العامة هي ذات الكلأ، وهي بالتالي لا تدخل في ملك أحد، وإنما يرعى فيها كل أبناء الحي، وجميع أبناء القبيلة، لأن أرض القبيلة ملك للقبيلة مادامت عزيزة فيها، مالكة لرقبتها، يرعى فيها كل أبنائها، فإذا ذلّت واستخذت طمعت فيها القبائل المجاورة القوية، فشاركتها في أرضها، وربما أجلتها عنها.

واختلف هل يجوز بيع الكلأ ؟ ومنع الناس منه؟ أم لا؟ قالوا: لا يجوز للفرد بيع الكلأ أصلا، لأنه كالماء الذي أجراه الله على وجه الأرض، إلا إذا حجزه وحضره، فحينئذٍ يجوز له بيعه، والا فلا يجوز له بيعه، وهذا هو قول أشهب من الفقهاء المالكية...

وقال الإمام مالك رضي الله عنه، وابن القاسم في العتبية بالتفصيل، يجوز بيعه عندهما إذا كان في مروجه، وهي الأراضي التي تكون فيها دوابه أو كان في حماه الذي يوره من أرضه لأجل الرعي فيه، فله منع غيره من رعي كلأ هذين الموضعين، وله بيعه، وإذا كان في غيرهما من خصب فَدَادِينه، فيجبر على إباحته للناس أن استغنى عنه، إلا أن يكون في وصوله المواشي إليه ضرر عليه، مثل فَدّان فيه خصب للرعي وحوله زرع له، فيتضرر بمرور المواشي إليه في زرعه، فيكون حينئذٍ المنع، وإن لم يحتج إليه...

يخلص مما سبق أن الكلأ إذا كان في أرض عامة، فإنه يكون، أيضا ملكاً للجميع، فهم فيه شركاء، أي مشاعاً بينهم، فلا يجوز لأي أَحد منع آخر في الاستفادة منه لأنه مشترك بين الجميع، فلا يكون أحد أخص به من أحد، ولو أقام عليه، وبنى عليه، وباستثناء الأحماء، فإن الكلأ النابت في موطن قبيلة هو لكل أبناء القبيلة ليس لأحد صد ومنع أحد عنه إلا إذا كان

غريبا عن القبيلــة، دخل أرضـها بغير إذن من أبنائها، وهـو ليس في حماية أحد منها، فالكلأ في البادية لا يعود لمالك فرد، وإنما هو ملك القبيلة، أبناء القبيلة فيه شركاء، يرعون فيه سواء...(27)

النار :

لا تبتنى المـدن إلا علـى المـاء والكـلأ والمحتطب، فـدخلـت النــار في المحتطب، إذ كان كل عودٍ يُورِي...

والمراد بالنار مواد الوقود التي لا يتوقف وجودها ولا الانتفاع بها على مجهود خـاص كالحطب في الغابات، وبين الأشجـار البرية غير المملـوكة لأحد، والذي تبقيه الريح في فلاة ونحوهـا... وقد افتخر العربي بأنه يقدم النار للضيوف الذين تضطرهم الحاجة إلى الغير ولذلك قال شاعرهم:

وإنك إذ مــا تَـاتِنـا تستجْــربنـا،

تَجِـدْ حطَبـاً جَـزْلاً، ونــاراً تأجّجَـا

ويقول الحطيئة من قصيدة يمدح فيها بغيض بن عامر :

متى تَأتِـه تعشـو(28) إلى ضـــوء نــاره

تجد خيــر نار، عندهــا خير مَـوْقِدِ

ويقول الآخــر :

لنعم الفتي يعشــو إلى ضوء نــاره

إذا الــريح هبّت، والمكـــان جـديب

وهذا امـرؤ القيس بن حجر الكندي يمـدح طريف بن مــالك، بأنه رجل كريم، وأنه يـوقد النيران ليلا ليراها السائرون، فيقصــدوا نحوها... ويفعل ذلك إذا نزل القحط بالناس، واشتد البرد، وهو الوقت الذي يضن فيه الناس

27) تاج العروس ص : 99/10، مادة : حمى.

28) قال الخليل : العشو : النظر ببصر ضعيف – عشي بالنار، كرضي ودعا : ساء بصره، ومصدَرُه العيشا، أي تجيئـه على غير هـداية. وهـذا البيت من شـواهد الألفية، فـي باب «عوامـل الجَزْم» والشاهد فيه : «متى تأته ... تجِدْ».

ويبخلون، وهو إن فعل ذلك في هذا الـوقت، فهو في غيره أولى بأن يفعله، اسمعه يقول:

لَنِعْمَ الفَتَى تعشــو إلى ضوء نــاره
طـريفُ بنُ مَالٍ، ليلـةَ الجوع والخَصَـرْ(29)

أي طريف بن مالك، كما أشار إليه ابن مالك في باب الترخيم حيث قال:

ولاضطــرار رخَّمُـــوا، دون نِـــدَا
مــا لِلنِّــدَا يَصْلُحُ نحــو أَحْمَــدَا

* * *

وقد ذكر الله سبحانــه وتعالى النار، وامتن بها على أهل الأرض، فقال: ﴿**الذي جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً، فإذا أنتم منه توقدون**﴾.(30) فجعلها من أعظم الماعون معونة، وأخفها مؤونة...

والماعون الأكبر : الماء، والنار، ثم الكلأ والملح...

قال الشاعر في الماعون بيتا جامعاً، أحسن فيه التأدية حيث قال:

لا تَعْـدِلَنَّ أتــاوِيِّينَ، قَـدْ نَــزَلُـوا
وَسْط الفــلاة بأصحاب المُحِـلاَّتِ(31)

والمُحِلاَّت هي الأشياء التي إذا كانت مع المســافرين حَلُّوا حيث شاءُوا، وهي القَدَّاحــة، والقِربــة، والمسحاة،(32) فقــال: إيـــاك أن يعـدل، إذا أردت النزول، مَن معــه أَصنافُ المــاعون بأتــاوِيِّين، يعني واحداً أتى مِن هــاهنا،

29) تعشو : ترى ناره من بعد فتقصدها، الخصر : شدة البرد.
وطريف بـن مَالٍ: أي مالك. حيـثُ رَخَّم من غير أن يكـون مُنَادَى مع اختصاص التـرخيم في اصطلاح النحاة بالمنادى، وارتكب هذا للاضطرار إليه، والذي سهّل هذا صلاحية الاسم للنداء.

30) سورة «يس» آية : 80.

31) «الأتاوي» بفتح الهمزة : الغريب في غير وطنه.

32) المسحاة : في المخصــص : «إنها القدر، الـرحى، والشفرة، والفأس» وفي البيـان، أنها: «الـدلو، والمقدحــة، والقربــة، والفاس» وفي اللسـان: «القـدر والرحى والدلـو والقربـة، والجفنة والسكين والفأس والزند.

وآخر أتى من هاهنا... كأنهم جماعةٌ التقَوْا من غير تعريف بنسب ولا بلد... وَإذا تجمعوا أفذاذا لم يكمل كل واحدٍ منهم خصال المَحِلّات.(33)

فالنار من أكبر الماعون،(34) وأعظم المرافق، ولو لم يكن فيها إلا أن الله، عز وجل، قد جعلها الزاجرة عن المعاصي لكان ذلك مما يزيد في قدرها، وفي نباهة ذكرها...(35) قال تعالى: ﴿**أفرأيتم النار التي تورون، أأنتم أنشأتم شجرتها، أم نحن المنشئون**﴾(36) ثم قال: ﴿**نحن جعلناها تذكرة ومتاعاً للمُقْوِين**﴾(37) فقف عند قوله: ﴿**نحن جعلناها تذكرة ومتاعاً**﴾ فإن كنت بهذا القول مؤمنا، فتذكر ما فيها من النعمة أولا، ثم آخراً، ثم توهم مقادير النعم وتصاريفها.

فالنار فاكهة الشتاء، فمن يرد
أكل الفواكه شاتياً، فليصطل

ومما زاد في تعظيم شأن النار في صدور الناس قول الله عز وجل: ﴿**وهل أتاك حديث موسى... إذ رأى ناراً، فقال لأهله: امكثوا، إني آنست ناراً لعلي آتيكم منها بقبسٍ، أو أجد على النار هدىً، فلما أتاها، نودي: يا موسى: إني أنار بك، فاخلع نعليك، إنك بالوادي المقدس طوى**﴾(38)

---

33) الحيوان : للجاحظ ص 97 – 98/ 5.

34) الماعون : ما ينتفع به.

35) «الحيوان» للجاحظ : ص : 463/ 4.

36) سورة «الواقعة» : آية : 71 – 72.

37) سورة الواقعة : آية 73. ومتاعا للمُقْوِين، أي منفعة للمسافرين، سموا بذلك لنزولهم القَوَى، وهو القفر، ومنزلٌ قَوَاء: لا أنيس به، يقال: أقوت الدار، وقويت أيضا: أي خلت من سكانها، قال النابغة:

يا دَارَ مَيَّةَ بالعلياء. فالسَّنَدِ
أَقْوَتْ، وطال عليها سالفُ الأمَدِ

ويقول عنترة :

حُيِّيتَ من طَلَلٍ تقادم عهدُه
أقوى، وأقفر بعد أمِّ الهيثمِ

38) سورة طه : آية : 9 – 10.

وقال عز وجل: ﴿**إذ قال موسى لأهله: إني آنست ناراً سآتيكم منها بخبر، أو آتيكم بشهاب قبسٍ لعلكم تصطلون، فلما جاءها نودي أن بورك مَن في النار، ومن حولها، وسبحان الله رب العالمين**﴾(39) كان ذلك مما زاد في قدر النار في صدور الناس.

وفي معنى قوله تعالى : ﴿**ويمنعون الماعون**﴾، قيل الماعون: «ما لا يحل منعه كالماء والملح والنار»، لأن عائشه (ض) قالت: قلت يارسول الله ما الشيء الذي لا يحِلُّ منعُه؟ قال: «الماءُ والنار والملح»، قلت: «يا رسول الله، هذا الماء، فما بال النار والملح؟ فقال: يا عائشة، مَن أعطى ناراً فكأنما تصدق بجميع ما طُبِخَ بتلك النار، ومَن أعطى مِلحاً، فكأنما تصدق بجميع ما طِيبَ به ذلك المِلح، ومن سَقَى شربة من الماء، حيث يوجد الماء، فكأنما أعتق ستين نسمة، ومن سقى شربةً من الماء حيث لا يوجد، فكأنما أحيا نفْساً، ومَن أحياها، فكأنما أحيا الناسَ جميعا، كما ذكره الثعلبي في تفسيره.

* * *

الملح :(40)

ويراد به ذلك النوع الذي يظهر وحده في القفار والجبال والصحاري ونحوها، ويمكن الحصول عليه بغير عنت ولا مشقة أو نصب ولا علاج خاص... يؤيد ذلك ما ورد في كتب السنة أن أبيض بن حمال وفد من اليمن على رسول الله ﷺ. وطلب إليه أن يقطعه الملح الذي ببعض الجهات في بلاده، فأقطعه له رسول الله ﷺ، فلما خرج بصفقته، قال رجل:

39) سورة النمل : آية : 7 – 8.

40) الاسم الكيماوي لملح الطعام هو : «كلورور الصوديوم»، وهو ذائع الاستعمال في جميع أنحاء الدنيا، حتى إن الأطفال في بعض القبائل الافريقية يمصون قضبان الملح كما يمص أطفالنا أعواد قصب السكر.

«يارسول الله، إن هذا الملح بأرض ليس فيها ماء» بمعنى أنه يستخرج بدون عنت أو نصب، وليس كالملح الذي يستخرج من الملاحات بعلاج خاص، ومن ورده من الناس أخذه، وهو مثل الماء العِد «بكسر العين» أي مثل الماء الجاري الذي تنقطع مادته، فقال عليه الصلاة والسلام لما سمع ذلك: «فلا إذن» وانتزع الملح من أبيض ابن حمال.

وقد وضح العلامة السُّدِّي في شرحه لهذا الخبر «بسنن ابن ماجه» الأصل الذي بنى عليه عمل رسول الله عليه السلام فقال: «أعطاه ذلك ظنا منه بأنه معدن يحصل منه الملح بكد وتعب، فلما ظهر خلافه رجع، ثم قال: «وفيه دليل على أن المعادن إذا كانت ظاهرة يحصل المقصود منها من غير تعب وكد، ولا يجوز إقطاعها، بل الناس فيها سواء كالمياه والكلأ، وقال ابن قدامة في كتابه «المغني» وهو من أهم المراجع في مذهب الإمام أحمد بن حنبل، معلقا على هذا الخبر: «لأن هذا الملح تتعلق به مصالح المسلمين العامة، فلم يجز إقطاعه...».

وكان العرب يتحالفون ويتعاقدون على الملح... والملح شيئان: أحدهما المَرَقَة، والأخرى اللّبَن... وأنشدوا لِشُتَيم بن خويلد الفزاري.(41)

لا يُبْعِدُ اللهُ، ربُّ العباد

والملحُ، مَا وَلَدَتْ خالدة(42)

وأنشدوا فيه، أي في الملح، قَول أبي الطمحان:(43)

وإني لأرجو مِلحَها في بطونكم

وما بسطت مِن جِلْدِ أشعث أغْبَرَا(44)

---

41) شتيم : بالتصغير شاعر جاهلي، منسوبا إلى نهيكة بن الحارث المازين من مازن فزارة.

42) خالدة : بنت أرقم، أم كردم وكريدم ابني شعبة الفزاريين...

43) أبو الطَّمَحَان : هو حنظلة بن الشرقي، كان نديما للزبير بن عبد المطلب في الجاهلية، ثم أدرك الإسلام، وهو أحد المعمَّرين.

44) البيت يقوله لقوم نزلوا عليه، فشربوا من البانها، ثم أغاروا عليها فأخذوها.

وذلك أنه كـان جاورهم، فكان يسقيهم اللبن، فقال: «أرجـوا أن تشكروا لي رَدَّ إبلي، على ما شربتم من ألبانهـا، وما بسطت من جِلدِ أشعتَ أغبر... كأنه يقـول: كنتم مهازيل، والمهـزول يتقشف جلده، وينقبض، فَبَسَط ذلك من جلودكم...(45)

* * *

إن الكـاتب الألماني «كـارل شتيدي» شـاء أن يستعمل تعريفـا جديـداً للذهــب الأبيض، أطلقــه على : «ملح الطعـام»، وذلك في معـرض وصفـه لرحلـــة مثيـرة، اشتــرك فيهـا في قلب القارة الإفـريقيـة لنقل الملح على ظهـور الجمـــال سيـراً على الأقـدام، وفــي فصـل الصيـف الحـارق عبر مسالـك طـولها 500 كيل، في درجـة حـرارة تجـاوزت نهـاراً حـوالي 70° مائويـــة...

والحقيقة أن الملح يستحق هذه التسمية، إذ أن ضــرورتَه للحياة تعادل ضــرورة الماء العـذب... وأن دور الملح في حياتنـا أثمن وأغلى من جميع أنواع الذهب المعروفة...

ولوفرة هذه المادة الغذائيـة والصناعية، وعلى الرغم من أهميتها، فإننا ننظر إليهـا على أنها عنصـر يتمتع بهذا القدر من الأهميـة، أننا كنـا نرى، دائمـا، كمياتــه الوفيـرة محيطة بنـا، كما أننـا لا نشعر بأيـة صعوبـة في الحصول عليها، وبالكميات التي نحتاجها...

ففي الصحــراء مثـلا، لا يقـوم الملح بحفظ الأغـذيـة أو تحسين نكهـة الطعام فحسب، وهي الاستعمالات المألوفـة لملح الطعام في المدن، بل إن ضرورته للحياة تعادل ضرورة الماء العذب كما قلنا سابقاً...

فالإنسان يتفصـد عرقاً، يوميا أثنـاء عمله، حوالي 10 + 15 كراما من الملح، ولابـد من تعـويض هـذه الكميـات، ولا فـرق في ذلك بين الإنســان

---

45) «الحيوان» ص : 472/ 4.

والحيوان، وهذا يعني أن كل ساكن في الصحراء يحتاج سنوياً إلى كمية من الملح تقدر بـ5.3 – 5 – 5 كيلوكرامات كي يحافظ على حياته...

وقد اجتمع الاختصاصيون على أن الملح ضروري لاستمرار الحياة، كما أن انعدام الملح في الطعام يؤدي إلى الصداع وقلة الشهية للطعام، وضعف العضلات وتشنجها، وإذا نقصت كمياته عن حد معين، فقد يؤدي ذلك إلى الوفاة...(46)

والملح يقوم بالاحتفاظ بالماء في أنسجة الجسم علماً أن كل 10 غرامات إضافية من الملح قادرة على حجز لتر كامل من الماء، وبالعكس، فإن نقص تزويد الجسم بالملح يؤدي إلى طروح كميات من الماء التي يحتاجها الجسم البشري.(47)

والأبحاث أثبتت أن الجسم بحاجة إلى مقدار معين من الملح لتأمين وتنظيم دورة السوائل فيه، ويمكن تأمين هذه الكمية الضئيلة عن طريق الأطعمة العادية، كاللحم الذي يحتوي على الملح بصورة طبيعية أو الخضار التي تستعمل الأسمدة الكيماوية في تسميدها...

* * *

ضريبة الملح :

لقد ظلت للملح قيمته الكبيرة، لدرجة أن فرنسا فرضت ضريبة على الملح، الذي جعلها الإسلام مشاعا بين أفراد المجتمع الإسلامي... ففرضت سلطاتها احتكارها له، وقد تسبب ذلك في حدوث نقمه شعبية عامة،

---

46) يعتقد كثير من العلماء والأطباء أن الإكثار من تناول الملح، يسبب انهيارا عاما للجسم، وانحطاطا شاملا في القوى الجنسية، وقد دلت الدراسات الأولية فعلا، على أن الإفراط في استعمال الملح قد يضعف البنيان الجسدي العام، ويجعل الجسم مستعدا للاصابة بالأمراض، سواء منها السرطان أو سوء التكلس.

47) مجلة «الفيصل» ع : 66/س : 6 / عام 1982.

واضطرابات دامية، حتى جاء عهد لـويس السادس عشر... وبينما كان هذا يدرس موضـوع إلغاء ضريبة الملح، عـاجلته ثورة 1789، فألغت الملكية، وألغت معها ضريبة الملح، ولكن الحكومـات المتعاقبة أعادت ضريبة الملح مرة أخرى، ثم ألغتهـا، ثم أعادتها، وأخيراً ألغيت هذه الضـريبة، وكان ذلك فيما يبدو لا يزيد عن مائة عام خلت...

* * *

إن موضوع هذه الدراسة، في هذا الفصل، تهتم بإباحة واشتراك الخلق في أشياء حددها رسول الله ﷺ، وكلها تعود إلى الماء أصلاً فمن الماء ما يكـون منـه الملح والبَـرَد، والثلج، فيجتمـع الحسن في العين، والكـرم في البياض والصفاء، وحسن الموقع في النفس...(48)

فحرارة الشمس، والـذي يخرج إلى البحر من الأرض من أجـزاء النيران المخالطـة يرفعان لطـائف الماء بارتفاعهـا وتبخيرها، فإذا رَفَعَـا اللطائف، فصار منها مطر، وما يشبه المطـر، وكان ذلك دأبهما، عاد ذلك الماء ملحاً، لأن الأرض إذا كانت تعطيه الملوحة، والنيران تخـرج منه العذوبة واللطافة كان واجبا أن يعود إلى الملوحة، ولذلك يكون ماء البحر أبداً على كيل واحدٍ ووزن واحد...(49)

* * *

يستفاد ممـا تقدم أن ملكيـة المرافق الأسـاسية كـالمياه أو الكهـرباء، وضروريات الحيـاة كالملح، تكون ملكية عـامة استناداً إلى قـول الرسول السابق، وفـي حديث آخر: «الملح ومـا يقاس عليـه» وهو حـديث مشهور، أخرجه أبـو داود، واستندت إليه مختلف كتب الفقه، وأخصهـا الخراج لابن يوسف كما قـدمنا، والأموال لأبي عبيد، وقد ورد في روايـة أخرى: الماء لا

48) «الحيوان» ص : 147/5.

49) «الحيوان» ص : 39/5.

يحل منعه، والملح لا يحل منعــه، وأيضـا: «لا تمنعوا كلأ ولا مــاءً، ولا ناراً» فهذه النصوص تعني في نظر الباحثين المحــدثين أن كل ما كان ضروريا لحياة الناس مجتمعه، لا يصح أن يكون مَحَلاً لملكية خاصة، بل تستقل به الدولة أو الجماعة...(50)

وقد الحق الشافعي رضي الله عنه بـذلك ما يوجد في الأرض مما ترى منفعته بــادية، وفي متنــاول من يطلبها دون جهد منــه أو عمل... ومن كل معدن ظاهر كالذهب والتبر وغيرهما... والنبات والماء مما لا يملكه شخص معين، ولا يحتاج في إظهاره وإدراكه إلى مؤونة، فإن الناس جميعا يكونون في ذلك سواء لا يختص به واحد من الناس بإحياء أو إقطاع من ولي الأمر، بل يكون شأنه شأن الكــلأ والماء والنار، والقاصد إليه شريـك فيه كشركة في الماء والكلأ الذي ليس في ملك أحــد، قال الشافعي: ومثل هذا كل عين ظاهرة كنفط أو قَــارٍ أو كبريت أو حجارة ظاهــرة في غير ملك لأحد، فليس لأحد أن يحتجزها دون غيره ولا لسلطــان أن يمنحها لنفســه ولا لخاص من الناس.(51)

* * *

والفقهاء القدامى مجمعون بأن الماء في بئر حفرت، أو في مجرى عين تفجــرت، يثبت حق الشفعة فيهــا لكل النــاس بشرط عــدم إلحاق الضــرر بصاحبهـــا، فليس لصاحبهــا أن يمنع عنهــا النــاس، فإن منع أجبر بغيــر ســلاح، فإن لــم يفد، فبالســلاح، بل إن الماء المحجــوز في آنية، ولــو أنه

---

50) انظر فضيلة المرحــوم الشيخ علي الخفيف : «الملكية الفردية وتحديدهــا في الإسلام» - كتاب المؤتمــر الأول لمجمع البحــوث الإسلاميــة مارس 1964 ص: 112، وانظر أيضـــا: «اشتراكيــة الإسلام» مصطفى السباعي ط: الدار القومية للطباعة والنشر - القاهرة (1965) ص: 147، وكذا للدكتور علي عبد الواحد وافي «التكامل الاقتصادي في الإسلام» ص: 141/ مارس 1971، كتاب المؤتمر 6 لمجمع البحوث الإسلامية.

51) «الام» للشافعي ص : 265/3 وما بعدها...

مملوك لحائزه، لا يجوز منعه عن الناس عند الضرورة الشديدة للمحتاج إليه...(52)

ويلاحظ أخيرا، بأن هذه الأشياء الماء والنار والكلأ والملح تعتبر سواء ضرورية لحياة الجماعة، وخاصة سكان الصحراء في عهد الرسول عليه السلام وقبله، وليس النص على هذه الأشياء للحصر، كما تقدم بيانه، بل قواعد الشريعة تقتضي بأن كل ما كان مثل هذه المواد ضروريا للمجتمع، لا يصح أن يترك لفرد أو أفراد تملكه، إذا كان ينشأ عن احتكارهم له استغلال حاجة الجمهور إليه، بل يجب أن تشرف الدولة على استثماره، وتوزيعه على كافة الناس...

وتوحي مضامين هذه الشركة في أبعادها القريبة والبعيدة صحة التأميم، والسياسة التي ينبغي نهجها في الموضوع، إذ بالإضافة إلى ما في الحديث من التنصيص على أن هذه الأمور يجب أن تكون في متناول الجميع لأنها مشتركة بينهم جميعا...

ومن المعلوم من التشريعات الإسلامية أن كل سياسة أو عمل يضمنان المحافظة على هذه الشركة ذات النفع العمومي، وذات الضرورة القصوى للجميع يكون إنتاجها وتطبيقها واجبا.

* * *

ولما كان مبدأ التأميم كنظرية اقتصادية محل نقاش بين علماء الاقتصاد، وخاصة غير الاشتراكيين منهم، فيجب أن لا تلجأ الدولة إلى تأميم صناعة أو مرفق من المرافق العامة إلا بعد أخذ رأي الخبراء الاقتصاديين والاجتماعيين...

---

52) انظر بحث أستاذنا الدكتور جميل الشرقاوي الأستاذ سابقا بكلية الحقوق بجامعة محمد الخامس «قيود الملكية للمصلحة العامة في الشريعة الإسلامية». والمقدم لأسبوع الفقه الإسلامي المنعقد بالرياض في المدة من 5 – إلى 10 نوفمبر 1977 بإشراف المجلس الأعلى للفنون والآداب والعلوم الاجتماعية بالقاهرة.

بيـد أن «تأميم الكهربـاء والمـاء» وبعض المواد الغـذائيـة مما يحتمـه الحديث: النـاس شركاء في ثـلاث: الماء والكلأ والنار والملح... والمـاء هو مصلحة المياه اليـوم، والنار: هي مؤسسة الكهـرباء في عصرنـا الحاضر، والكلأ والملح أمثلة للمواد الضرورية التي لا يستغني عنها إنسان ما....

ومن القواعـد الأصوليـة، أيضـا، في الفقـه الإسـلامي، أن مـا لا يتم الواجـب إلا به، فهـو واجب، ومن هذه الـرؤية، يـلاحظ أن الحديث دعـوة ضمنيـة لتأميـم هذه المـرافق الثلاث، ذات الخطـورة القصوى فـي حياة النـاس والكـائنات، كـونهـا مشتـركـة بين الجميع يقتضى أن يعمل على ضمانهـا لهـذا الجميـع، كل علـى قـدر حاجتـه وضروريـاته، ثم يـدخل ضمن تلك المحـافظة عليهـا أمـر تـوزيعها ورعـايتهـا، ووسائل التـوزيع والرعايـة.

وإذا كانت بعض المذاهب الاقتصاديية ترى تأميم وسائل الإنتاج جميعا كالمناجم والأرض والمصانع لتصبح ملكا للدولة، فإن الإسلام قد نظم هذا التوزيع للملكية بين الـدولة والأفراد، أو بين القطاع العـام والقطاع الخاص تنظيما دقيقـاً، فجدد مـا يجب أن يكون ملكـا عامـا للشعب كله، ومـا يباح للأفراد امتلاكه...

ويمكن بلغة العصر فيما يتعلق بالمعـادن وسبب تأميمها أن الثمرة غير متكافئة مع العمل الـذي تم لاستخراجها، فلو تركت لـلأفراد لأصيبت الأمة بضرر شديـد، وربح الآحاد أرباحاً فاحشة تـؤدي إلى الاحتكار أو التمييز الطبقي الذي يأباه الإسلام.(53)

يقول الإمام أبو بكر بن مسعود الكاشاني (تـ 587هـ) في كتابه : «بدائع الصنائع في تـرتيب الشرائع» وهو من أهم المراجع في مـذهب الإمام أبي حنيفة: «وأرض الملح والقار والنفط والبترول ونحوها مما لا يستغنى عنها

53) «نظرية الإسلام الاقتصادية» ص : 69، عبد السميع المصري...

المسلمون، لا يجوز للإمام أن يعطيها لأحد، لأنها حق لعامة المسلمين، وفي الاقطاع إبطال لحقهم، وهذا لا يجوز». ماشاء الله...!!

وقال ابن قدامة في كتابه «المغني» : «وجملة ذلك أن المعادن التي ينتابها الناس، وينتفعون بها من غير مؤونة كالملح والماء والكبريت والقار، والموميا، والنفط والياقوت، وأشباه ذلك لا يجوز احتجازها دون المسلمين، لأن فيه ضرراً بهم، وتضييقا عليهم».(54)

ويعتبر المالكية المعادن بأنواعها عامة لمصالح المسلمين جميعا سواء في ذلك ما إذا كانت المعادن في أرض مملوكة لمالك، أو مملوكة لأحد... وعللوا ذلك بأن المعادن، وإن كانت من الأرض، وجزءً منها، إلا أنها لا تملك بامتلاكها، لأن القصد من تملك الأرض استعمالها للزرع أو للبناء... أما ما خفي في باطنها من معادن، فهي لم تكن معلومة ولا مقصورة للتملك، وقت التملك، ومادامت المعادن لم تدخل في ملك أحد، وبقيت على ملك المسلمين حتى رغم ملكية الأفراد للأرض، فإن ولي الأمر يتولاها، ويديرها لصالح المسلمين عامة، بأي طريق يراه بشرط أن تبقى على ملك الدولة، فليس لولي الأمر كما يرى المالكية أن يقطع هذه المعادن بأعيانها لأحد.(55)

ويرى المالكية، أيضا، في أشهر أقوالهم : «أن ليس شيء من المعادن في محالها» مناجمها، ما لا مباحا حتى يتملكها من يستولي عليها، وإن كان استيلاؤه عليها لم يحدث إلا بعمل قام به، أو بنفقة أنفقها في سبيله، وإنما هي ملك للمسلمين جميعا، نتيجة قيامهم على ما وجد فيها من الأرض قيام ولاية وحماية، ولا تعد تابعة لأرضها، مملوكة لأصحابها، نتيجة لتملك أرضها، إذ ليس لمثل هذا طلب الأرض، أو ملكت، وعلى ذلك

---

54) «المساواة في الإسلام» على عبد الواحد وافي ص : 24 – 25.

55) «كتاب الفقه الإسلامي» لمحمد سلام مذكور ص : 123.

يكـون أمـرهـا إلى الإمـام يستغلهـا بعمـالـه لمصلحـة المسلمين، إن رأى المصلحة في ذلك، أو يقطعهـا من شاء إقطاع انتفاع موقـت بمدة أو بحياة من أقطعها نظيـر مال يصرف في مصـالح المسلمين، فإذا انتهت المدة رد الأمر فيها إلى الإمام، لا فرق في ذلك بين مـا يوجد في أرض مملوكة، وما يوجد في أرض غير مملوكة ولا بين نوع ونوع...(56)

وجـاء في «منح الجليل» للشيخ عليش «أن أسـاس هـذا الحكم هـو المصلحة العامة، إذ أنها تقتضـي ذلك...».

أمـا ما يحتـاج إلى عمل ومؤونـة في إظهاره واستخـراجه فإن منفعتـه تكون لمن كان ذلك منه بما استحدثه من مال...(57)

* * *

وإذا كانت النظم الجماعية في شكلها الحالي تملك مصادر المواد الأولية للجماعة، فإن هذا السلوك لا يتفق فـي كثير أو قليل، مع النظرة الإسلامية، فالتشـابه بين النظـريتين ظاهـري محض، لأن الملكية بأسرهـا في النظم الجمـاعية تعتبـر مرحلـة انتقـالية لابـد أن تنتهي وتسقط ببلـوغ مرحلـة الشيوعية، وعلى ذلك فملكيـة الدولة لهذه المصادر وضـع موقت ناتج عن مـرحلة تـاريخية ومـرتبط بهـا... ولابد أن يتـلاشى بدخـول المجتمع في مرحلة جديدة من مراحل تطوره...

وغنى عن البيان أن الإسـلام لا يومن بالمـادية التاريخية ولا بـالتطور التاريخي على الصورة التي قال بها اليهودي «ماركس» ومن بعده، فارتباط الملكية بشكل الإنتاج وتبعيتها له يرفضـها الإسلام، وتنفيها التجربة...

* * *

---

56) «الملكية الفردية، وتحديدها في الإسلام» للشيخ علي الخفيف أستاذ الشريعة بحقوق - القاهرة سابقا...

57) «الام» ص : 3/265.

وأخيرا... نقرأ في «أمثال للعوام في الأندلس» لأبي يحيى الزجالي:(58) أربعة أشياء جعلها الله رخيصة مع جلالة قدرها وعظم خطرها: الماء، والملح، والزجاج، والشِّعْرُ أهونُها..!!

أما هَوَانُ الشعر، فطالما شكا منه شعراء الأندلس وغيرهم، ومن ذلك على سبيل المثال قول أبي الحسن الفخري:

صناعة هان عند الناس صاحبها
وكان في حالِ مرجوٍّ ومُرْتَقَب(59)

وانظر ما ورد في ذم الشعر وهوانه عند الأندلسيين «زاد المسافر»،(60) وقد لقب أحد شعرائهم بالكساد لقوله:

«وبيع الشعر في سوق الكساد»(61)

ولمَّا أنشدَ ابن جاخ(62) قصيدته أمام المعتضد ابن عبَّاد، وهُوَ لا يعرفُهُ، وبعدما ضحِكَ منه الشعراء وازْدَرَوْهُ، وتنادَرُوا عليه. في قصةٍ طويلَةٍ، وصَلَ إلى هَذَا البيت :

إنَّ القَريضَ لكاسدٌ في أرْضِنا
وَلَهُ، هُنا، سُوقٌ بِغيرِ كَسَادِ.

قال له الملك : «أنتَ ابن جاخ»، فقَالَ : «نعم»، فقال : اجلس، فقد وليتك رِئاسَةَ الشعَراء»، وأحْسَنَ إليه.

---

58) ص : 2/120، تحقيق د. محمد بنشريفة...

59) جذوة الاقتباس ص : 190.

60) ص : 10/4.

61) أصْلُ البيت لأبي الطيب المتنبي الذي يقول : إلى كَمْ أشغلُ نفسي عن طلب المعالي بنظم الشعرِ في مدح مَن لا قيمة عنده للشعر، فقال:

وَشُغْلُ النفسِ عن طَلَبِ المعالي
بِبَيْعِ الشعرِ في سوق الكساد

[الديوان ج : 2/ص : 77]

62) النفح : ج : 4 / ص : 244.

فهرس المحتويات

تقديم 3
مقدمة المؤلف 7

الباب الأول .... 17 ـ 61
الماء .. صنو الحياة 17

الفصل الأول :
الماء عنصر الحياة وسر الوجود 19
الحياة ظاهرة مائية 29
الماء جوهر الكائنات جميعا 31
المحيطات المائية مخزن هائل للطعام 33
المحيطات المائية هي صانعة الطقس 34

الفصل الثاني :
الماء .. والأرض 37

الفصل الثالث :
العيون والأنهار ترتبط بالنعيم 41
غياب عنصر الماء : معناه الذبول والفناء 55
الحياة بالماء.. والتعذيب بالماء 57

الباب الثاني .... 63 ـ 120
الفصل الأول :
اللغة العربية، أغنى لغات العالم 63
مادة «ماء» اللغوية 65
حقيقة الماء 71
تفصيل أسماء المطر 76
أسماء الآبار وأوصافها 77

أجناس الأقداح 79
أوعية الماء 81
الصوت الذي يُحدِثُهُ الماء 83
مناقع المياه 84
الفرق بين الغيث والمطر والريح والرياح 84
الغيث الربيعي... والغيث الشتوي 86
فَجَّرَ.. وانبجس 91
الحوض الذي يحوي المياه 93
ألفاظ لها صلة بالبحر 96
من أسماء السحاب 99

الفصل الثاني :
التراكيب والاستعمالات المجازية للماء 104

الباب الثالث .... 121 ـ 157
الماء في القرآن ظاهرة فريدة في كتاب الله 121

الفصل الأول :
التركيز على نواميس الوجود وأسراره 123
الأمير شكيب أرسلان في مصر 136

الفصل الثاني :
القرآن، ومظاهر الكون البيولوجي 150

الباب الرابع .... 159 ـ 234
الكوكب المائي 159

الفصل الأول :
علوم البحار 161
المطر.. أو البحر ؟ 165
عمر المحيطات 176

ظلمات في بحر لجي 177
هذا عذب فُرات سائغ شرابه.. وهذا مِلح أُجَاج 180
المياه المالحة 182
خصائص مياه البحر 184
من أين يجيء الملح الموجود في البحار ؟ 186

الفصل الثاني :
الصلة بين الإنسان.. ونعمة الماء 187
البحر في حياة الرسول والعهد الإسلامي 188

الفصل الثالث :
حديث البحر في الأدب العربي :
تقدم العرب في علوم البحار 197
دراسة المصطلحات البحرية العربية 219
علم السِّماكة 219
مؤلفات في عجائب البحر وغرائبه 221
تعليمات دينية وأخلاقية 226
أدبُ البحر 229
لكلٍّ بحره 233

الباب الخامس :
وجعلنا من الماء كل شيء حي .... 235 ـ 288

الفصل الأول :
مفهوم فريد للماء 237
السبب واحد، والمسبّب كثير 239
إني إذا رأيتك طابت نفسي 242
أكثر العناصر الأربعة فعالية 244
الماء مادة غذائية 245

الفصل الثاني :
ألم نخلقكم من ماء مهين 249
الكراسة الرمادية 253

الإنسان من تراب 256
الأسباب تنتهي جميعا إلى السبب الأول 261
تاليس يتفلسف 262
العلوم .. يخدم بعضها بعضا 264

الفصل الثالث :
الماء والحياة.. 266
الأساس في الحياة.. 267
الماء وسط للتفاعلات الكيمائية 268

الفصل الرابع :
لايأكلون.. ولا يشربون 270
موريطاني عمره 65 عام لم يستخدم الماءفي حياته 274
حيوانات لاتشرب الماء 276
الهدهد 278
والنار المخرقة.. من الماء 281

الباب السادس .... 289 ـ 371
تقديس الماء عند الشعوب والأمم 289

الفصل الأول :
الماء عند القدماء 291
العناصر في الحضارة الإغريقية 294
العناصر والمكونات في الفكر الإسلامي 294

الفصل الثاني :
العناصر الأربعة في القرآن الكريم 297
عنصر الماء.. 297
عنصر التراب والطين والصلصال.. 298
عنصر النار 300
الهواء. والريح. والرياح.. 300
فلسفة الأرقام.. 301

الفصل الثالث :

التصور الميثولوجي للماء عند العرب 311
نُدْرَةُ الماء كانت سبباً في خَلْقِ الخرافات والأساطير 313
تقديس الأفارقة للماء 317
العُرَّافة في دلتا النيجر 319
عين بادحاني 319
آبار وينابيع مقدسة في البلاد العربية 321

الفصل الرابع :

الحوريات حيوانات خرافية 329
عيشة قنديشة 329
حيوانات مائية بحتة 332
أكولة... وفقيرة المواهب 333
دموع «عروس البحر» 334
تشابه مع الحيتان 334
قرابة مع الفيلة 335
الديري يتحدث عن إنسان الماء 336

الفصل الخامس :

القرآن.. وثق الصلة بين الإنسان ونعمة الماء 338
سيدي عبد الله اليابوري 339
الجن تصد البقر عن الماء 345

الفصل السادس :

تقاليد الفرس يوم النيروز 348
العنصرة ـ الماء – والعادات 350
عيد الغطاس في مصر 352
الشيخ أحمد حسن الباقوري.. وعمامته 355
أنهار الجنة 358

الفصل السابع :

حفلة زفاف النيل 360

الباب السابع .... 373 ـ 407
الناس شركاء في ثلاث 373

الفصل الأول :
ما الشيء الذي لايجوز منعه ؟ 375
اِسْقِ أخاك النَّمَرِي 375
إذا كنت على الماء، فلا تبخل بالماء 378

الفصل الثاني :
الوقف مرغوبٌ فيه للحاجات الاجتماعية 382
الفقهاء أدخلوا جميع المرافق العامة 387

الفصل الثالث :
الماء ـ الكلأ ـ النار ـ الملح 388
كَرِهَ الإسلام أن يكون المال دُولَةً بين الأغنياء 391
الكلأ 392
النار 394
الملح 397
ضريبة الملح 400
فهرس المحتويات 409